

تأريخ الإسلام في الجزء الثاني

الجزء الثاني

لجنة التأليف
المنظمة العالمية للتخزينات والمدارس الإسلامية
- قم -

تَارِيخُ
الْإِسْلَامِ

بَحْمِيَّةُ الْحَقِّ وَهُوَ مَحْفُوظَةٌ
الطَّبْعَةُ الْأُولَى

١٤٣٢ هـ / ٢٠١١ م



للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

هاتف: ٠٣/٩٤٦١١١ - ٠٣/١١٥٤٢٥ - تليفاكس: ٠١/٢٧٦٩٨٨

<http://www.Dar-Alamira.com>
e-mail: zakariachahbour@hotmail.com

تَارِيخُ الْإِسْلَامِ الْأَحْمَرِ

لجنة التأليف
المنظمة العالمية للخزائن والمدارس الإسلامية
- ق م -

المجلد الثاني

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ

لِلطَّائِفَةِ وَالشَّيْخِ وَالْمُؤَلِّفِ



كلمة المنظمة

لقد أرسى الإسلام العظيم أُسس ثورته الثقافية العملاقة على قواعد علمية تضمّنها القرآن الكريم و طبّقها الرسول العظيم و أهل بيته الميامين، و ذلك من خلال تربية علماء صلحاء يفقهون الشريعة و يعملون بها و لا يألون جهداً في تبليغها و تعليمها من يروونه مستعدّاً لحمل هذا العبء الرسالي العظيم.

و بالرغم من كلّ الضغوط و أنواع الاضطهاد الذي مارسه الحكّام الطغاة و المستعمرون في حقّ الحوزات العلميّة لقلعها أو تحجيمها أو حرقها عن مسيرتها الربانيّة الحقّة، استطاعت أن تصمد أمام كلّ هذه الأعاصير الصفراء متّجهة نحو الرقيّ والكمال مستجيبة لحاجات العصور على مدى الأجيال، و مجيبة على الأسئلة والشبهات المثارة من قبل الأعداء أو الأصدقاء. كلّ ذلك لما كانت تمتلكه من مرونة و انفتاح و قدرة فائقة على النموّ و الإبداع.

و الخصائص التي تمتاز بها الحوزات العلميّة المتطوّرة تتجلّى اليوم في ما يلي:

١. اهتمام الحوزات العلميّة بجميع روافد المعرفة و الثقافة الإسلاميّة، و التحقيق

المستمرّ و العمل العلمي الدؤوب في مختلف فروع المعرفة الإسلاميّة.

٢. الإبداع و التجديد المستمرّ في أساليب التدريس و تدوين الكتب الدراسيّة التي

تتطلّبها حاجات العصر بنحو يحقق التطوّر العلمي باستمرار و ينمي قوّة الإبداع إلى جانب تعميق المفاهيم و حفظ الأصالة و الارتباط التامّ بالتراث الإسلامي العريق.

٣. الانفتاح على معضلات العصر و قضاياها و التصدي لكلّ الشبهات المستحدثة و

الإجابة على الأسئلة التي تتولّد باستمرار بنحو يوفّر للحوزات العلميّة عنصر مساهمة الزمن أو التقدّم عليه على أسس قرآنيّة علميّة و مبان عقلية قويمة.

و من هنا تبنّت المنظّمة العالميّة للحوزات و المدارس الإسلاميّة المنهج العلمي المتطوّر في نظامها الدراسي و أساليب التدريس و تدوين الكتب الدراسيّة في مختلف فروع المعرفة الإسلاميّة مستفيدة من الجهود العلميّة الجبّارة للعلماء و المحقّقين و المؤلفين الذين انتدبتهم لتحقيق هذه الأهداف السامية.

و قد روعيت في الكتب التي تبنّت المنظّمة تأليفها أو تدوينها ما يلي:

١. مراعاة الأهداف المتوخّاة في كلّ درسٍ من خلال الالتزام بالمنهج المقرّر لكلّ مادة دراسيّة.

٢. مراعاة المستوى العلمي للطلبة في كلّ مرحلة من المراحل الدراسيّة.

٣. مراعاة الانسجام فيما بين الكتب الدراسيّة لكلّ مرحلة دراسيّة مع الاجتناب عن ملل الإطناب و خلل التكرار.

٤. مراعاة أصول التدوين الدراسي.

إنّ هذا الكتاب تأريخ الإسلام (٢) يشكّل مفردة من هذه المنظومة الدراسيّة التي قرّرتها المنظّمة للمرحلة العامّة و من هنا نتقدّم بالشكر لسماحة حجة الإسلام و المسلمين السيّد منذر الحكيم الذي تصدّى لتأليف هذا الكتاب و لجميع من ساهم في إخراجه سائلين من البارئ لهم و لجميع المؤمنين التوفيق.

لجنة التأريخ

وحدة تأليف الكتب الدراسيّة

١٤٢١ هـ. ق

الفهرست

الدرس (١)

- عصر الإمام الحسن المجتبیٰ عليه السلام ٢٣
- نصّ الرسول الأعظم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على إمامة سبطه الحسن عليه السلام ٢٣
- أمير المؤمنين عليه السلام يؤكد إمامة العترة الطاهرة ٢٤
- توجيه الأنظار إلى إمامة الحسن عليه السلام ٢٥
- عهد أمير المؤمنين عليه السلام بالإمامة لابنه الحسن عليه السلام ٢٥
- وصايا أمير المؤمنين للإمام الحسن عليه السلام ٢٦
- البيعة للإمام الحسن عليه السلام بالخلافة ٢٧
- اعتراف معاصريه بمؤهلاته ٢٧
- خصائصه القيادية ٢٨

الدرس (٢)

- ملاحع عصر الإمام الحسن عليه السلام (١) ٣٣
- مرحلة ما قبل الصلح ٣٣
- التخطيط للمرحلة القادمة ٣٣
- دعوته معاوية للبيعة والطاعة ٣٤

- ٣٥ حركة معاوية العسكرية باتجاه العراق
- ٣٦ حركة الإمام الحسن عليه السلام لردّ العدوان
- ٣٧ مؤامرات معاوية
- ٣٨ توالي الخيانات في جيش الإمام عليه السلام
- ٣٨ توالي الإشاعات والحرب النفسية
- ٣٩ مراسلة معاوية للإمام عليه السلام ودعوته لتسليم الأمر إليه

الدرس (٣)

- ٤٣ ملامح عصر الإمام الحسن عليه السلام (٢)
- ٤٣ ظروف الصلح البعيدة والقريبة
- ٤٣ ظروف الحكم الأموي
- ٤٥ شخصيّة معاوية
- ٤٥ ظروف الحكم العلوي
- ٤٧ ظروف وأوضاع جيش الإمام الحسن عليه السلام
- ٤٨ شخصيّة الإمام الحسن عليه السلام

الدرس (٤)

- ٥٢ متطلّبات عصر الإمام الحسن عليه السلام (١)
- ٥٢ أسباب وعوامل الصلح
- ٥٢ أسباب عدم اختيار موقف التضحية
- ٥٤ شروط الإمام عليه السلام ووعود معاوية
- ٥٦ الدور الإيجابي للوعود والشروط
- ٥٧ الإمام الحسن عليه السلام والمبادرة إلى الصلح

الدرس (٥)

- ٦١ متطلّبات عصر الإمام الحسن عليه السلام (٢)
- ٦١ الصلح ومراعاة المصلحة الإسلامية
- ٦١ ١. شرعية الموقف والقرار
- ٦١ ٢. الظروف
- ٦٢ ٣. المصلحة الإسلامية
- ٦٢ المصلحة العامة للمسلمين
- ٦٥ ١. حقن دماء أفراد الجماعة الصالحة
- ٦٦ ٢. استمرار الدعوة من قبل الجماعة الصالحة
- ٦٧ ٣. إعادة بناء الجماعة الصالحة

الدرس (٦)

- ٧١ نتائج الصلح وآثاره
- ٧١ انكشاف حقيقة معاوية والحكم الأموي
- ٧٢ انكشاف انحراف معاوية وعدم وفائه بالشروط
- ٧٣ خصائص معاوية الإرهابية
- ٧٣ معارضة حرية الجماعة الصالحة
- ٧٤ رقابة الإمام الحسن عليه السلام لتصرفات معاوية
- ٧٥ حرية التحرك والعمل الرسالي
- ٧٧ توسع القاعدة الشعبية لأهل البيت عليهم السلام

الدرس (٧)

- ٨١ الإمام الحسن عليه السلام بعد الصلح حتّى الشهادة

- ٨١ الاجتماع في الكوفة
- ٨٢ عدم الاعتراف بشرعية أوامر معاوية
- ٨٣ رفض مصاهرة الأمويين وتبيان حقيقة الصراع بينهما
- ٨٣ فضح النظام الأموي في مركز قوته
- ٨٤ استقبال المعارضين
- ٨٥ الإعداد الفكري والسلوكي للجماعة الصالحة
- ٨٦ مدرسة الإمام ونشاطه العلمي
- ٨٧ غدر معاوية اغتيال الإمام الحسن عليه السلام
- ٨٨ وصايا الإمام عليه السلام

الدرس (٨)

- ٩١ ملامح عصر الإمام الحسين عليه السلام
- ٩١ منهج معاوية لهدم الإسلام

الدرس (٩)

- ١٠٠ منهج الإمام الحسين عليه السلام بعد استشهاد الإمام الحسن عليه السلام
- ١٠٠ ١. مواجهة معاوية وبيعة يزيد
- ١٠٢ ٢. محاولة جمع كلمة الأمة والاستجابة لحركة الجماهير
- ١٠٣ ٣. فضح جرائم معاوية
- ١٠٤ ٤. استعادة حق مضيع
- ١٠٦ ٥. تذكير الأمة بمسؤوليته

الدرسان (۱۰) و (۱۱)

- ۱۱۰ هجرة الإمام الحسين عليه السلام إلى مكة المكرمة
- ۱۱۴ دخول الإمام الحسين عليه السلام مكة المكرمة
- ۱۱۴ دعوة أهل الكوفة والإعلان عن الاستعداد للبيعة
- ۱۱۵ رسول الحسين عليه السلام إلى الكوفة
- ۱۱۷ المستشار المسيحي ليزيد
- ۱۱۷ كتاب الحسين عليه السلام إلى أهل البصرة
- ۱۱۸ الكوفة قبل ورود الحسين عليه السلام إليها
- ۱۱۸ موقف زعماء البصرة من دعوة الحسين عليه السلام
- ۱۲۰ ابن زياد يتدارك الوضع في الكوفة
- ۱۲۰ مسلم يأبى اغتيال ابن زياد
- ۱۲۰ ابن زياد يكشف مخبأ مسلم وأصحابه
- ۱۲۱ ابن زياد يعقل هانياً
- ۱۲۲ خروج مسلم في الكوفة
- ۱۲۶ مسلم يتحدث كبرياء ابن زياد

الدرسان (۱۲) و (۱۳)

- ۱۳۰ حركة الإمام الحسين عليه السلام من مكة إلى العراق
- ۱۳۲ ملاحقة السلطة للإمام الحسين عليه السلام
- ۱۳۴ كتاب الأمان من أمير المدينة
- ۱۳۴ الإمام عليه السلام يخبر أهل الكوفة بتوجهه إليهم
- ۱۳۵ اعتقال رسول الحسين عليه السلام و قتله
- ۱۳۶ التحاق زهير بن القين بركب الإمام عليه السلام

- ١٣٧ في التعليّة
- ١٣٨ نبأ مقتل مسلم و هاني
- ١٣٩ رسول الحسين عليه السلام يتحدّى ابن زياد
- ١٣٩ تفرّق الناس عن الحسين عليه السلام
- ١٤١ الإمام الحسين عليه السلام يلتقي بالحرّ
- ١٤١ كرم و مروءة
- ١٤٢ الإمام الحسين عليه السلام يصلّي بالحرّ وأصحابه
- ١٤٣ الحرّ يمنع الإمام الحسين عليه السلام من الانصراف
- ١٤٤ التحاق أنصار الحسين عليه السلام بإمامهم

الدرس (١٤)

- ١٤٧ موكب الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء
- ١٤٨ أرض الميعاد
- ١٤٩ هذا موضع كرب و بلاء
- ١٥٠ انطلاق عمر بن سعد لقتال الحسين عليه السلام
- ١٥٣ حرمان الحسين عليه السلام و أصحابه من الماء
- ١٥٤ أحداث ليلة عاشوراء
- ١٥٤ المفاوضات بين الحسين عليه السلام وابن سعد
- ١٥٦ ليلة عاشوراء

الدرس (١٥)

- ١٦٣ الإمام الحسين عليه السلام في صبيحة عاشوراء
- ١٦٣ الاستعداد للقتال

١٦٤	الخطبة الأولى
١٦٧	كرامة وهداية
١٦٨	خطبة زهير بن القين
١٧٠	خطبة بُرير بن خضير
١٧١	خطبة الحسين عليه السلام الثانية
١٧٤	توبة الحرّ بن يزيد الرياحيّ
١٧٦	نصيحة الحرّ لأهل الكوفة

الدرسان (١٦) و (١٧)

١٧٩	بطولة أصحاب الحسين عليه السلام واستشهادهم
١٧٩	الحملة الأولى
١٨٠	مبارزة الاثنين والأربعة
١٨٤	عزّة يستمدّ الرجال
١٨٥	أبوالشعناء
١٨٦	حبيب بن مظاهر الأسدي
١٨٦	الحرّ الرياحي
١٨٧	أداء الصلاة
١٨٨	عقير الخيل
١٨٩	أبو ثمامة الصائدي
١٨٩	زُهير وابن مُضارب
١٩٠	عمرو بن قرظّة الأنصاري
١٩٠	نافع الجملي
١٩١	واضح وأسلم

١٩١	 بُرير بن خضير
١٩٢	 حنظلة الشبامي
١٩٣	 عابس بن شبيب
١٩٤	 جَوْن مولى أبي ذر
١٩٤	 أَنَسُ الكاهلي
١٩٤	 عَمْرُو بْنُ جُنَادَةَ
١٩٥	 الحجاج الجُمَفي
١٩٥	 سَوَّار الفهمي
١٩٦	 سُويد بن عمرو

الدرسان (١٨) و (١٩)

١٩٩	 جهاد بنى هاشم واستشهادهم
١٩٩	 شِبلُ الحسين الأكبر عليه السلام
٢٠٢	 عبد الله بن مسلم بن عقيل
٢٠٢	 حملة آل أبي طالب
٢٠٣	 القاسم بن الحسن المجتبى عليه السلام
٢٠٤	 أخوة العباس
٢٠٤	 العباس بن أمير المؤمنين عليه السلام
٢٠٨	 مقتل عبد الله الرضيع
٢١٠	 الحسين السبط يودّع عياله
٢١٣	 مقتل محمد بن أبي سعيد بن عقيل
٢١٣	 مقتلُ عبد الله بن الحسن عليه السلام
٢١٥	 دعاء الحسين عليه السلام في لحظاته الأخيرة

الدرس (٢٠)

- الثورة الحسينية (١) ٢١٩
- العوامل والأهداف ٢١٩
١. لماذا وقّت الإمام الحسين عليه السلام ثورته بموت معاوية؟ ٢١٩
٢. ما هي الدوافع الحقيقية للثورة الحسينية؟ ٢٢٠
٣. ولماذا لم يكتف الإمام بالإمامة بالموعظة أو المقاطعة للسلطة؟ ٢٢٠

الدرس (٢١)

- الثورة الحسينية (٢) ٢٢٩
- المقومات، الخصائص، النتائج ٢٢٩
- المقومات والخصائص ٢٢٩
- نتائج الثورة الحسينية ٢٣٤

الدرس (٢٢)

- النص على إمامة علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام ٢٣٨
- الإمام علي بن الحسين عليه السلام بعد استشهاد أبيه ٢٣٩
- الإمام عليه السلام و ودائع الرسالة في الشام ٢٤١
- الإمام السجاد عليه السلام يتحدّى يزيد الطاغية ٢٤٣

الدرس (٢٣)

- الإمام زين العابدين عليه السلام في مدينة الرسول صلى الله عليه وآله ٢٥٠
- ردود فعل الثورة الحسينية ٢٥٠
- الإمام زين العابدين عليه السلام يتخذ بيتاً في البادية ٢٥٢

٢٥٣	ثورة أهل المدينة
٢٥٦	الإمام زين العابدين عليه السلام و ثورة أهل المدينة
٢٥٧	انهيار الحكم السفيفاني وانشقاق البيت الأموي
٢٥٨	ثورة التوابين
٢٥٩	ثورة المختار

الدرس (٢٤)

٢٦٢	ملاحع عصر الإمام زين العابدين عليه السلام
٢٦٢	أسس وعناصر قوة الحضارة الإسلامية
٢٦٥	محنة انحراف الحكم
٢٦٦	عوامل انهيار الحكم الأموي
٢٦٨	عوامل استمرار الحكم الأموي

الدرس (٢٥)

٢٧٥	ملاحع التخطيط في سيرة الإمام زين العابدين عليه السلام
٢٧٦	المرحلة والتدرج في العلاج
٢٧٧	معالم المرحلة الأولى
٢٧٧	معالم المرحلة الثانية
٢٧٩	متطلبات المرحلة الثانية
٢٨١	أهل البيت والدولة الإسلامية
٢٨٢	أهل البيت عليهم السلام و الحكم المنحرفون
٢٨٣	الإمام زين العابدين و المسخ الثقافي و الأخلاقي
٢٨٤	الإمام زين العابدين عليه السلام و الجماعة الصالحة

الدرس (٢٦)

٢٨٨	متطلّبات عصر الإمام زين العابدين عليه السلام (١)
٢٨٨	١ . ظاهرة الزهد
٢٩٠	٢ . ظاهرة العبادة
٢٩٢	٣ . ظاهرة الدعاء
٢٩٥	٤ . ظاهرة البكاء على سيّد الشهداء عليه السلام
٢٩٧	٥ . ظاهرة الإعتاق

الدرس (٢٧)

٣٠١	متطلّبات عصر الإمام زين العابدين عليه السلام (٢)
٣٠١	٦ . ظاهرة الإنفاق
٣٠٣	٧ . مدرسة الإمام زين العابدين عليه السلام
٣٠٩	استشهاد الإمام عليه السلام

الدرس (٢٨)

٣١٣	ملاح عصر الإمام محمّد الباقر عليه السلام
٣١٤	مظاهر الانحراف في عصر الإمام عليه السلام
٣١٤	أولاً: الانحراف الفكري والعقائدي
٣١٥	ثانياً: الانحراف السياسي
٣١٨	ثالثاً: الانحراف الاجتماعي والأخلاقي
٣١٩	رابعاً: الانهيار الاقتصادي

الدرس (٢٩)

- ٣٢٤ متطلّبات عصر الإمام محمّد الباقر عليه السلام (١)
- ٣٢٤ محاور النشاط العام
- ٣٢٤ الإصلاح الفكري والعقائدي
- ٣٢٨ الإصلاح السياسي

الدرس (٣٠)

- ٣٣٦ متطلّبات عصر الإمام محمّد الباقر عليه السلام (٢)
- ٣٣٦ الإصلاح الاجتماعي من خلال التغيير الأخلاقي
- ٣٣٦ توظيف السُنّة النبويّة الشريفة لإيجاد التغيير
- ٣٣٨ الدعوة إلى اكتساب مكارم الأخلاق
- ٣٣٩ الإصلاح الاقتصادي
- ٣٤٠ الدعوة إلى التعالي على الحرص والطمع
- ٣٤١ التحذير من الاعتداء على أموال الآخرين
- ٣٤١ الدعوة إلى الإنفاق الواجب
- ٣٤٢ الدعوة إلى الإنفاق الاستحيائي
- ٣٤٣ بناء الجماعة الصالحة

الدرس (٣١)

- ٣٤٨ أسس بناء الجماعة الصالحة (١)
- ٣٤٨ الأهداف العامّة للجماعة الصالحة
- ٣٥٢ أهمّ خصائص الجماعة الصالحة
- ٣٥٤ الأسس العامّة في بناء الجماعة الصالحة (١)

أسس العقيدة السليمة ٣٥٤

الدرس (٣٢)

أسس بناء الجماعة الصالحة (٢) ٣٥٨

أسس التربية الصحيحة ٣٥٨

مقومات التزكية المطلوبة عند الإمام علي عليه السلام ٣٥٩

منهج التزكية المطلوبة عند الإمام علي عليه السلام ٣٦١

الدرس (٣٣)

أسس بناء الجماعة الصالحة (٣) ٣٦٩

أسس التقيف والتربية العلمية ٣٦٩

التعليم والمنهج التقيفي عند الإمام الباقر عليه السلام ٣٧٠

أسس بناء الجماعة الصالحة (٤) ٣٧٦

إحياء الروح الثورية ٣٧٦

الدرس (٣٤)

ملاحم عصر الإمام الصادق عليه السلام (١١٤ - ١٣٢ هـ) ٣٨١

الحالة السياسية في عصر الإمام الصادق عليه السلام ٣٨٣

الدرس (٣٥) و (٣٦)

متطلبات عصر الإمام الصادق عليه السلام (١) ٣٩٣

النشاط الفكري والعقائدي للإمام الصادق عليه السلام ٣٩٤

مواجهة تيار الإلحاد والفلو ٣٩٦

- ٤٠٠ مواجهة أصحاب الشرايع
- ٤٠١ مواجهة تيار الخوارج والمعتزلة
- ٤٠٦ مواجهة تيار القياس والرأي
- ٤١٠ مواجهة تيار التصوف
- ٤١١ للمطالعة

الدرس (٣٧)

- ٤١٩ متطلّبات عصر الإمام الصادق عليه السلام (٢)
- ٤١٩ الإمام الصادق عليه السلام وبناء جامعة أهل البيت عليهم السلام
- ٤١٩ مميّزات جامعة الإمام الصادق عليه السلام
- ٤٢٤ النشاط السياسي للإمام الصادق عليه السلام

الدرس (٣٨)

- ٤٣٠ متطلّبات عصر الإمام الصادق عليه السلام (٣)
- ٤٣٠ النظام العام للجماعة الصالحة (تكامل البناء والتأصيل)
- ٤٣١ ١. الهوية ومشخصاتها
- ٤٣٣ ٢. المرجعية الدينية (الفكرية والسياسية)
- ٤٣٤ ٣. العلاقات في نظام الجماعة الصالحة
- ٤٣٥ ٤. الاتجاه السياسي للجماعة الصالحة
- ٤٣٧ ٥. النظام الأمني للجماعة الصالحة
- ٤٣٨ أ. التقية
- ٤٣٩ ب. كتمان الأسرار
- ٤٣٩ ج. التوازن في العلاقة مع الحكّام

٤٤٠ ٦ . النشاط الاقتصادي للجماعة الصالحة

٤٤١ ٧ . نظام العلاقات الاجتماعية والعبادات الإلهية

الدرس (٣٩)

٤٤٤ المستجذات السياسية ونشأة الحكم العباسي

٤٤٦ الحركة العباسية (النشأة والأساليب)

الدرس (٤٠)

٤٥٣ الإمام الصادق عليه السلام والحكم العباسي

٤٥٤ ١ . موقف الإمام عليه السلام من عرض أبي سلمة الخلال

٤٥٥ ٢ . موقف الإمام الصادق عليه السلام من العلويين

٤٥٦ ٣ . موقف الإمام عليه السلام من عرض أبي مسلم الخراساني

٤٥٨ الإمام الصادق و ضرورة الثورة

٤٥٩ الإمام الصادق عليه السلام في الكوفة

الدرس (٤١)

٤٦٢ موقف المنصور من الإمام الصادق عليه السلام

٤٦٧ ثورة محمد بن عبد الله ذي النفس الزكية

٤٦٨ موقف الإمام عليه السلام من الثورة

الدرس (٤٢)

٤٧١ العقد الأخير من حياة الإمام الصادق عليه السلام

٤٧٦ محاصرة الإمام عليه السلام الشاملة

٤٧٧ استشهاد الإمام الصادق عليه السلام

عصر الإمام الحسن المجتبي عليه السلام

نصّ الرسول الأعظم ﷺ على إمامة سبطه الحسن عليه السلام الإمامة بعد رسول الله ﷺ، تُعَيَّنُ بالنصّ، ولا تُتْرَكُ لاختيار الأمة، فهي عهد من الله لرسوله، ومنه ﷺ إلى مَنْ بعده، ويستمرّ العهد الإلهي منتقلاً من إمام إلى إمام يليه، حتّى يصل إلى آخر الأئمّة وهو المهدي المنتظر (عج).

فقد نصّ رسول الله ﷺ على إمامة اثني عشر رجلاً من قريش^١، ثمّ خصّص العموم ببني هاشم،^٢ ثمّ ضيق دائرته وحصرها في العترة الطاهرة^٣.

ووردت روايات عديدة عن رسول الله ﷺ ذكر فيها إمامة أمير المؤمنين عليه السلام ثم إمامة ابنه الحسن ومن بعده إمامه الحسين ومنها:

قوله ﷺ: (يا عليّ أنا وأنت وإبنك الحسن والحسين، وتسعة من ولد الحسين أركان الدين ودعائم الإسلام، مَنْ تبعنا نجا، ومن تخلف عنا فإلى النار)^٤.

١. مسند أحمد بن حنبل، ج ٦، ص ٩٢ إلى ١٢٤؛ صحيح مسلم، ج ٣، ص ١٤٥٢؛ سنن أبي داود، ج ٤، ص ١٠٦؛ سنن الترمذي، ج ٤، ص ٥٠١.

٢. مودة القربى، ص ٤٤٥؛ ينابيع المودة، ج ١، ص ٣٠٨؛ إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل، ج ١٣، ص ٣٠.

٣. كفاية الأثر في النصّ على الأئمّة الإثني عشر، ص ٨٩؛ ينابيع المودة، ج ٢، ص ٥٣٤.

٤. أمالي المفيد، ص ٢١٧.

وقال ﷺ للإمام الحسين عليه السلام : (أنت إمام ابن إمام أخو إمام...)¹.
 وقال ﷺ محدداً أوصياءه: (أولهم أخي ووزيري ووارثي وخليفتي في أمّتي،
 ووليّ كلّ مؤمن بعدي... ثمّ ابني الحسن... واحداً بعد واحد حتّى يردوا عليّ الحوض،
 هم شهداء الله في أرضه وحجّته على خلقه، وخزان علمه، ومعادن حكمته من أطاعهم
 أطاع الله ومن عصاهم عصى الله)².

أمير المؤمنين عليه السلام يؤكد إمامة العترة الطاهرة

حينما تصدّى أمير المؤمنين عليه السلام للقيادة وأصبح على رأس السلطة في الدولة الإسلامية؛ كثر أنصار أهل البيت عليه السلام وقاموا بنشر أحاديث رسول الله ﷺ عن إمامة أهل البيت عليه السلام، كان أمير المؤمنين عليه السلام يؤكد هذه الحقيقة ويوجّه الأنظار إلى خطّ الإمامة الحقّة، ومما قاله في ذلك: وكيف تفتّحون وبينكم عترة نبيّكم؟ وهم أئمة الحقّ، وأعلام الدين، وألسنة الصدق، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن، وردّوهم ورودّ الهيم العطاش)³.

وقال ﷺ : (انظروا أهل بيت نبيّكم، فالزموا سمتهم، واتّبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدىّ، ولن يعيدوكم في ردّى، فإن لبدوا فالبدوا، وإن نهضوا فانهضوا، ولا تسبقوهم فتضلّوا، ولا تتأخّروا عنهم فتهلكوا)⁴.

وقال ﷺ : (الأين مثل آل محمد ﷺ كمثل نجوم السماء، إذا هوى نجم طلع نجم، فكأنكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع)⁵.

١. الخصال، ص ٤٧٥؛ جامع الأخبار، ص ٦٢.

٢. فرائد السطّين، ج ١، ص ٣١٨.

٣. نهج البلاغة، ص ١١٩، الخطبة ٨٧.

٤. نهج البلاغة، ص ١٤٣، باب كلامه ٩٧.

٥. نهج البلاغة، ص ١٤٦، الخطبة ١٠٠.

وقال عليه السلام : (لا يقاس بآل محمد ﷺ من هذه الأمة أحد، ولا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً، هم أساس الدين، وعماد اليقين، إليهم يفى الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حقّ الولاية، وفيهم الوصيّة والوراثة)^١.

توجيه الأنظار إلى إمامة الحسن عليه السلام

كان أمير المؤمنين عليه السلام يوجّه الأنظار إلى إمامة ولده الحسن عليه السلام ومقامه السامي وخصائصه وكفاءته، فقد كان عليه السلام يسأله عن المسائل المختلفة أمام مرأى ومسمع الملائم أصحابه، فقد تركّزت أسئلته على: الزهد والسداد، والشرف، والنجدة، المجد، المروءة، والكرم، الإخاء، الجبن، المنعة^٢ وكان الإمام عليه السلام يجيب عليها بأجوبة مختصرة شافية. وبعث ملك الروم إلى معاوية من يسأله عن مسائل، فعجز معاوية وبعث رجلاً متنكراً ليسأل أمير المؤمنين عليه السلام، فاعترف الرجل بحاله فقال له عليه السلام : هذان ابنا رسول الله ﷺ فسل أيهما أحببت، فسأل الشامي الإمام الحسن عليه السلام فأجابه عن تلك المسائل^٣.

وكان عليه السلام يكلف الإمام الحسن عليه السلام بالمهام الصعبة، وبيعه لحلّ الأزمات، ويشركه في المواقف الحرجة فقد بعثه إلى أهل الكوفة لعزل الأشعري، وأمره بإجابة عبدالله بن الزبير في الجمل، وأمره بنقض حكم الحكمين لمخالفتها القرآن.

عهد أمير المؤمنين عليه السلام بالإمامة لابنه الحسن عليه السلام

في اليومين الأخيرين من حياة أمير المؤمنين عليه السلام - وبعد أن ضربه ابن ملجم -

١. شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ١٣٨، ١٣٩.

٢. تحف العقول، ص ١٥٨.

٣. تحف العقول، ص ١٦٢.

أدنى ابنه الحسن عليه السلام وأوصى إليه قائلاً: (يا بني! إنه أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله أن أوصي إليك، وأدفع إليك كتبي وسلاحي، كما أوصى إليّ ودفع إليّ كتبه وسلاحه، وأمرني أن آمرك إذا حضرك الموت أن تدفعها إلى أخيك الحسين...)^١.

وفي ليلة استشهاده عليه السلام دعا إليه ولديه الحسن والحسين، وقال لهما: (إني مقبوض في ليلتي هذه، فاسمعا قولي، وأنت يا حسن وصيّي والقائم بالأمر من بعدي، وأنت يا حسين شريكه في الوصية، فاصمت وكن لأمره تابعاً ما بقي، فإذا خرج من الدنيا فأنت الناطق من بعده، والقائم بالأمر عنه، وكتب له كتاباً بذلك نقله جمهور المؤرخين^٢.

وصايا أمير المؤمنين للإمام الحسن عليه السلام

انطلاقاً من استخلاف الإمام الحسن عليه السلام لأبيه؛ قام عليه السلام بإيصائه بوصايا عديدة، فعند انصرافه من صفين أوصاه بتقوى الله، وإحياء القلب بالموعظة، والنظر في أحوال الماضين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واللجوء إلى الله تعالى في جميع الأمور.

وأوصاه بالإيثار، وذم الإعجاب بالنفس، والصبر على المكاره والشدائد. وأوصاه بدوام العلاقة مع الله عن طريق المداومة على الدعاء، وذكر الموت. وكانت آخر وصية له بالخصوص قوله: (أوصيك، أي بني، بتقوى الله، وإقام الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة عند محلّها، وحسن الوضوء... وأوصيك بغفر الذنب، وكظم الغيظ، وصلة الرحم، والحلم عن الجاهل والتفقه في الدين، والتثبت في الأمر، والتعاهد للقرآن، وحسن الجوار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واجتناب الفواحش)^٣.

١. إعلام الوري بأعلام الهدى، ص ٢٠٧.

٢. إثبات الهداة، ج ٢، ص ٥٥٣.

٣. نهج البلاغة، ص ٣٩١ وما بعدها.

البيعة للإمام الحسن عليه السلام بالخلافة

بعد استشهد أمير المؤمنين عليه السلام وبعد دفنه قام الإمام الحسن عليه السلام خطيباً فقال: (قد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون، ولا يدركه الآخرون بعمل، لقد كان يجاهد مع رسول الله ﷺ فيسبقه بنفسه، ولقد كان يوجهه برايته، فيكنفه جبرائيل عن يمينه، وميكائيل عن يساره، فلا يرجع حتى يفتح الله عليه، ولقد توفي في الليلة التي عرج فيها بعيسى بن مريم، والتي توفي فيها يوشع بن نون، وما خلف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطائه).

ثم خنقته العبرة فبكى الناس معه ثم قال: (أيها الناس، من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد رسول الله ﷺ، أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير، أنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم تطهيرا، والذين افترض الله مودتهم في كتابه...).
ثم قام عبدالله بن العباس بين يديه؛ فدعا الناس إلى بيعته، فاستجابوا، وقالوا: ما أحبه إلينا وأحقه بالخلافة! فبايعوه^١.

وكان عدد المبايعين له أكثر من أربعين ألفاً، كانوا قد بايعوا أباه على الموت^٢.
وبقي نحو سبعة أشهر خليفة بالعراق، وما وراءه من خراسان والحجاز واليمن^٣.

اعتراف معاصريه بمؤهلاته

اعترف المعاصرون للإمام الحسن عليه السلام بمؤهلاته وفضائله التي تؤكد استحقاقه للخلافة - إضافة إلى النص والبيعة - وقد جاء هذا الإعراف من قبل شخصيات مخالفة لأهل البيت عليه السلام بشكل عام.

١. الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ١٧٠.

٢. شرح نهج البلاغة، ج ١٦، ص ٣٠، ٣١.

٣. أسد الغابة، ج ١، ص ٤٩١.

قال عبد الله بن الزبير: والله ما قامت النساء عن مثل الحسن بن علي.^١
وقال واصل بن عطاء: كان الحسن بن علي عليه سيماء الأنبياء وبهاء الملوك.^٢
وقال معاوية لابنه يزيد: إن الحق حقهم.^٣
وقال عنه مروان بن الحكم: أحلم من هذا - وأشار إلى الجبل -^٤
وكتب إليه الحسن البصري: أما بعد: فإنكم معشر بني هاشم الفلك الجارية، واللجج
الغامرة، والأعلام النيرة الشاهرة، أو كسفينة نوح عليه السلام، التي نزلها المؤمنون، ونجا فيها
المسلمون.^٥

خصائصه القيادية

كان الإمام الحسن عليه السلام يتمتع بخصائص ذاتية تعبر عن استحقاقه للخلافة، وانطباق
شروطها عليه، فقد كان عاقلاً حليماً محباً للخير فصيحاً، من أحسن الناس منطقاً
وبديهةً، وكان معاوية يوصي أصحابه باجتناب محاورته.^٦
وكان يُبَسِّطُ له على باب داره، فإذا خرج وجلس انقطع الطريق، فما مرَّ أحد من
الناس إلّا وقف إجلالاً له.^٧
وكان معاوية يخشاه ويتخوف من عودة الخلافة إليه لتمتعه بخصائص لا يتّصف بها
غيره^٨ لذا كُتِبَ عند موته عليه السلام وقال: والله ما كُتِبَ شماعة لموته، ولكن استراح قلبي

١. أسد الغابة، ج ١، ص ٤٩١.

٢. تاريخ ابن كثير، ج ٨، ص ٣٧.

٣. أنسكتنا، ج ١، ص ١٦٨.

٤. تحف العقول، ص ١٦٦.

٥. الأعلام للزركلي، ج ١، ص ٢٣٠.

٦. بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٣٣٨.

٧. ربيع الأبرار، ج ٤، ص ٢٠٩.

٨. وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٦٩.

وصفت لي الخلافة.^١

وكان أعلم الناس بعد أبيه عليه السلام في جميع العلوم، وكان ذا معرفة تامة بالأحداث والمواقف الآتية والمستقبلية.

وكان دائم الإرتباط بالله تعالى وأكثر الناس خشيةً منه، فإذا فرغ من الوضوء تغيّر لونه، فقليل له في ذلك، فقال: حقّ على من أراد أن يدخل على ذي العرش أن يتغيّر لونه.^٢

وحجّ بيت الله الحرام عشرين مرّة ماشياً على قدميه وقيل خمساً وعشرين حجة.^٣ وامتاز بالكرم وإشباع حاجات الناس، فقد سمع إلى جنبه رجلاً يسأل الله تعالى أن يرزقه عشرة آلاف دينار، فانصرف إلى منزله فبعث بها إليه.^٤

وامتاز بالزهد وهو القائل^٥:

لكسرة من خسيس الخبز تشبعني وشربة من قراح الماء تكفيني
وطمرة من رقيق الثوب تسترني حياً وإن متّ تكفيني لتكفيني
وكان متّصفاً بالحلم إلى أقصى حدوده، وكان يقابل الإساءة بالإحسان، فقد جاء رجل من أهل الشام يبغض أمير المؤمنين عليه السلام فسبّه وسبّ أباه، فقال له الإمام عليه السلام: أحسبك غريباً... فإن احتجت إلى منزل أنزلناك، أو إلى مال آسيناك، أو إلى حاجة عاوناك.^٦

وكان شجاعاً لا يخشى إلا الله تعالى، فقد خطب بعد الصلح ومعاوية حاضر قائلاً:
... وأيم الله لا ترى أمة محمد خفلاً ما كانت سادتهم وقادتهم في بني أمية، ولقد وجّه

١. مختصر تاريخ دمشق، ج ٧، ص ٢٣.

٢. مختصر تاريخ دمشق، ج ٧، ص ٢٥.

٣. أعيان الشيعة، ج ١، ص ٥٧٨.

٤. وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٦٧.

٥. شرح نهج البلاغة، ج ١٦، ص ٢٨.

٦. ربيع الأبرار، ج ٢، ص ٨٣٧.

اللّٰهُ إِلَيْكُمْ فَتْنَةٌ لَّنْ تَصْدُرُوا عَنْهَا حَتَّى تَهْلِكُوا، لَطَاعَتَكُمْ طَوَاغِيتَكُمْ.^١
وقال لمعاوية: إِنَّ الْخِلَافَةَ لَمَنْ سَارَ بِسِيرَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ... وَلَيْسَتْ الْخِلَافَةُ لِمَنْ
عَمِلَ بِالْجَوْرِ وَعَطَّلَ الْحُدُودَ.^٢
وكانت له مواقف شجاعة في قلب العاصمة الأموية وهو وحيد بين معاوية وأعوانه.
ومن كفاءاته عليه السلام أَنَّهُ وَجَدَ أَنَّ الْمَصْلَحَةَ تَكْمُنُ فِي الصَّلَاحِ، فَصَالِحٌ مُعَاوِيَةُ وَحَقْنُ
دِمَاءِ أَنْصَارِهِ وَأَتْبَاعِهِ وَسَائِرِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَدْخُلْ فِي مَعْرَكَةٍ خَاسِرَةٍ لَا تَحْسُمُ لِمُصَالِحِهِ
وَلِمُصَالِحِ الْوُجُودِ الْإِسْلَامِيِّ.

١. شرح نهج البلاغة، ج ١٦، ص ٢٨.

٢. ربيع الأبرار، ج ٢، ص ٨٣٧.

الخاص

□ إن تأكيد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام على إمامة ابنه الحسن عليه السلام من بعده يمثل مساراً عقائدياً، وامتداداً شرعياً لحقيقة إمامة الحسن عليه السلام من بعد أبيه ليمارسها وإن وقف الرافضون في طريقها.

□ و المهام الفكرية التي اضطلع بها الإمام الحسن في عهد أبيه عليه السلام تدل على علمه عليه السلام وخبرته و غزارة معارفه، فقد أجاب على أسئلة وردت إلى معاوية من ملك الروم كان قد عجز عن الجواب عليها.

□ و عهد الإمام علي عليه السلام إليه بالإمامة من بعده ليتولى زمام السلطة ويقود الأمة إلى حيث يريد الله سبحانه.

□ و قد اعترف المعاصرون للإمام الحسن عليه السلام بمؤهلاته السامية وفضائله، التي دلت على وجوب بيعة الأمة له، وعلى إمامته من بعد أبيه بنص من جده عليه. إذ كان يتمتع بخصائص القائد الفذ، وتنطبق عليه كل مواصفات السيد المطاع.

□ كان سلام الله عليه على جانب كبير من الزهد والورع والتقوى، كما كان شجاعاً عرف بصلابته في مواطن الحق، يذود عن الإسلام حفاظاً على كيان الأمة التي عرفته غيوراً على دينها، مدافعاً عن حقوقها، حريصاً على مصلحتها حتى وافاه الأجل فترك الدنيا شهيداً محتسباً بعد أن وضع أمة جده على الطريق الحق القويم.

الأسئلة

- ١ . كيف تستدل على إمامة الحسن عليه السلام من خلال قول أمير المؤمنين عليه السلام : (وكيف تمهون وبينكم عترة نبيكم! وهم أزمّة الحق، وأعلام الدين، وألسنة الصدق...؟)
- ٢ . ما هي الحكمة من وصايا أمير المؤمنين عليه السلام للإمام الحسن عليه السلام، وهو الإمام المعصوم عليه السلام والذي وصل إلى القمة في السمو والتكامل؟
- ٣ . ما هي المقومات الشرعية لخلافة الإمام الحسن عليه السلام في رأي الشيعة والسنة؟
- ٤ . قال الإمام الحسن عليه السلام : (أنا من أهل البيت... الذين افترض الله مودّتهم في كتابه)، اذكر دليلاً من القرآن على ذلك.
- ٥ . اعترف المعاصرون للإمام الحسن عليه السلام بأهليّته للخلافة، اذكر نصّاً صريحاً -لأحدهم- في ذلك؟
- ٦ . ما هي أهمّ خصائص الإمام الحسن عليه السلام والتي تعتبر كافية لإثبات أحقيّته بالخلافة؟

ملاح عصر الإمام الحسن عليه السلام (١)

مرحلة ما قبل الصلح

التخطيط للمرحلة القادمة

كان الإمام الحسن عليه السلام يدرك جيداً المخططات التي كان يضعها معاوية والمتربصون بالإسلام وبأهل البيت عليهم السلام لإعادة الجاهلية من جديد وبمظهر إسلامي. وكان معاوية يمتلك جيشاً مطيعاً، ذا قدرة على استمالة قلوب الانتهازيين والنفعيين من القاطنين في الكوفة، إضافة إلى وجود عدد من الموالين لمعاوية فيها؛ لذا جاء تخطيطه منسجماً مع الظروف والأحداث المستقبلية، حيث وضع لكل موقف موقفاً يقابله ينسجم مع الظروف ومع المصلحة الإسلامية الكبرى، ومصلحة الجماعة الصالحة على وجه الخصوص.

فحينما بوع بالخلافة قال له قيس بن سعد الأنصاري: ابسط يَدَكَ أبايعكَ على كتاب الله وسنة نبيه وقاتل المحلّين. أجابه عليه السلام: على كتاب الله وسنة رسوله، فإنهما يأتيان على كلّ شرط. فبايعه الناس، وكان عليه السلام يشترط عليهم بقوله: (إنكم مطيعون تسالمون من سالمته، وتحاربون من حاربت).^١

لقد جعل الأمر إليه في اتخاذ الموقف المطلوب في السلم والحرب ومن أجل حث المبايعين على الطاعة له؛ قام بزيادة عطاء المقاتلين مائة مائة.^١

دعوته معاوية للبيعة والطاعة

كتب الإمام الحسن عليه السلام لمعاوية كتاباً أرسله مع جندب بن عبد الله الأزدي جاء

فيه:

(بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله الحسن أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان... إن الله تعالى بعث محمداً عليه السلام رحمة للعالمين... فلما توفي عليه السلام تنازعت سلطانه العرب، فقالت قريش: نحن قبيلته وأسرته وأولياؤه، ولا يحلّ لكم أن تنازعوا سلطان محمد في الناس وحقه... فأنعمت لهم العرب وسلّمت ذلك، ثم حاجبنا قريشاً بمثل ما حاجت به العرب، فلم تنصفنا قريش إنصاف العرب لها... واستولوا بالاجتماع على ظلمنا ومراغمتنا... فأمسكنا عن منازعتهم مخافة على الدين... فاليوم فليعجب المتعجب من توثبك يا معاوية على أمر لست من أهله، لا بفضل في الدين معروف، ولا أثر في الإسلام محمود، وأنت ابن حزب من الأحزاب...)

إنّ علياً - رضوان الله عليه - لمتا مضى لسبيله - رحمة الله عليه - ... ولأنّي المسلمون الأمر بعده... فدع التمادي في الباطل وأدخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي، فإنّك تعلم أنّي أحقّ بهذا الأمر منك عند الله، وعند كلّ أوّاب حفيظ، ومن له قلب منيب.

واتّق الله، ودع البغي، واحقن دماء المسلمين... فادخل في السلم والطاعة، ولا تنازع الأمر أهله، ومن هو أحقّ به منك، ليطفئ الله النائرة بذلك، وتجمع الكلمة وتصلح ذات البين.

وإن أنت أبيت إلا التمادي في غيِّك نهدت إليك بالمسلمين، فحاكمتك حتّى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين).

فأجابه معاوية متمرداً عليه وقائلاً له: (... فأنت أحقّ أن تجيئني إلى هذه المنزلة التي سألتني، فادخل في طاعتي ولك الأمر من بعدي ولك...)^١.
لقد أصرّ معاوية على تمّردّه على الإمام والخليفة الشرعي، وبعث الجواسيس إلى الكوفة والبصرة لإشاعة الاضطراب والبلبلة بين الناس وإفساد الوضع داخل دولة الإمام عليه السلام، فألقى عليه القبض عليهم وقتلهم، وكتب إلى معاوية: أمّا بعد فإنك دسست الرجال للاحتيال والاغتيال، وأرصدت العيون كأنك تحبّ اللقاء، وما أوشك ذلك! فتوقّعه إن شاء الله.^٢

حركة معاوية العسكريّة باتّجاه العراق

تبادل الإمام الحسن عليه السلام الرسائل مع معاوية لإلقاء الحجّة عليه في حقن دماء المسلمين إلا أنّ معاوية تمادى في غيّه وتمّردّه وكان آخر كتاب من معاوية يتضمّن تهديده للإمام عليه السلام بقوله: (... فاحذر أن تكون منيَّتك على يد رعاك الناس... وإن أنت أعرضت عمّا أنت فيه، وبايعتني وفيت لك بما وعدت).

فأجابه الإمام عليه السلام: أمّا بعد، وصل إليّ كتابك تذكر فيه ما ذكرت، فتركت جوابك خشية البغي عليك، وبالله أعوذ من ذلك، فاتبع الحقّ تعلم أنّي من أهله، وعليّ إثم أن أقول، فأكذب والسلام.

فلما وصل كتاب الإمام عليه السلام قرأه، ثمّ كتب إلى عمّاله على النواحي يأمرهم بالتهيؤ لقتال الإمام عليه السلام، فاجتمعت العساكر لديه، وسار قاصداً العراق،^٣ فلما انتهى إلى جسر

١. مقاتل الطالبين، ص ٥٥ إلى ٥٧.

٢. الإرشاد، ص ١٨٩.

٣. مقاتل الطالبين، ص ٥٩، ٦٠.

(منيج) - وهو بلد قديم يبعد عن حلب مسافة يومين - أقام فيه، بعد أن اجتمع لديه ستون ألفاً وقيل أكثر.

حركة الإمام الحسن عليه السلام لردّ العدوان

واستنهض الإمام الحسن عليه السلام الناس للجهاد، فبعث جِجْر بن عدي يأمر العمال والناس بالتهيؤ للمسير، وقام عليه السلام بالناس خطيباً: أما بعد: فإنّ الله كتب الجهاد على خلقه وسماه كُرْهاً، ثمّ قال لأهل الجهاد من المؤمنين: اصبروا إنّ الله مع الصابرين، فلستم أنّها الناس نائلين ما تحبّون إلّا بالصبر على ما تكرهون. إنه بلغني أنّ معاوية بلغه أنّا كنّا أزمعنا المسير إليه؛ فتحرّك لذلك، فاخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالنخيلة.^١

فسكنوا ولم يجيبوه، فقام عدي بن حاتم الطائي وبعده قيس بن سعد بن عبادة ومعل بن قيس الرياحي وزياد بن صعصعة التيمي يؤثّبون الناس ويلومونهم على السكوت ويحرّضونهم على الجهاد.

فتهيّأ الناس للخروج معه، فتحرّك عليه السلام حتّى نزل دير عبد الرحمن ثمّ دعا عبيدالله بن العباس وبعثه مع اثني عشر ألفاً من فرسان أهل الكوفة، وأمره أن لا يقاتل معاوية حتّى يقاتله.

فسار عبيدالله حتّى أتى مسكن، وتحرّك الإمام الحسن عليه السلام حتّى دخل دير كعب، ثمّ نزل ساباط، فلمّا أصبح خطب بالناس، وممّا جاء في خطابه: إنّني لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ومنه وأنا أنصح خلقه لخلقه، وما أصبحت حاملاً على مسلم ضغينة، ولا مريداً له بسوء ولا غائلة، ألا وإنّ ما تكرهون في الجماعة خير لكم ممّا تحبّون في الفرقة، ألا وإنّي ناظر لكم خيراً من نظركم لأنفسكم، فلا تخالفوا أمري، ولا

تردّوا عليّ رأيي، غفر الله لي ولكم، وأرشدني وإياكم لما فيه محبته ورضاه إن شاء الله. ثم نزل، فنظر الناس بعضهم إلى بعض، وقالوا: نظرته يريد أن يصلح معاوية، كفر والله الرجل! ثم شدّوا على فسطاطه فانتهبوه، وقام إليه رجل من بني أسد فطعنه بمعول، فحمل عليّ إلى المدائن.^١

مؤامرات معاوية

نزل معاوية قرب مسكن وبعث خيله للإغارة على جيش عبيد الله بن العباس، فرجعت مقهورة، فلما كان الليل أرسل معاوية إليه أن الحسن قد راسلني في الصلح، وهو مسلم الأمر إليّ، فان دخلت في طاعتي الآن كنت متبوعاً، وإلا دخلت وأنت تابع، ولك إن أجبتي الآن أن أعطيك ألف ألف درهم، فانطلت الخديعة على عبيد الله، فانسلّ ليلاً ودخل عسكر معاوية ومعه ثمانية آلاف^٢ فاستلم القيادة من بعده قيس بن سعد بن عباد، فحثّ الناس على الجهاد فأجابوه بالطاعة.

وكتّف معاوية مؤامراته الإعلامية، ونادى قائد جيشه: يا أهل العراق! ويحكم هذا أميركم عندنا قد بايع، وإمامكم الحسن قد صالح، فعلاًم تقتلون أنفسكم؟ وكتب معاوية إلى قيس يدعوه ويمنيه، فكتب إليه قيس: لا والله لا تلقاني أبداً إلا بيني وبينك الرمح.^٣

واستمر معاوية في دسائسه، فقد دسّ إلى أربعة من كبار الشخصيات دسيساً أفرد كلّ واحد منهم قائلاً: إنك إن قتلت الحسن بن عليّ؛ فلك مائتا ألف درهم، وجند من أجناد الشام، و بنت من بناتي، فبلغ الإمام عليه السلام ذلك فكان يخرج لابساً درعه.^٤

١. شرح نهج البلاغة، ج ١٦، ص ٤١، ٤٢.

٢. تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٢١٤.

٣. شرح نهج البلاغة، ج ٦، ص ٤٣.

٤. علل الشرائع، ص ٢٢١.

توالي الخيانات في جيش الإمام علي عليه السلام

بعث الإمام علي عليه السلام قائداً من كندة في أربعة آلاف، فلما نزل الأنبار أغراه معاوية بمال ومنصب، فالتحق به مع منتي رجل من خواصه، ثم التحق بمعاوية قائد من مراد في أربعة آلاف^١.

وكتب جماعة من رؤساء القبائل إلى معاوية بالسمع والطاعة له، وضمنوا له تسليم الإمام الحسن عليه السلام إليه عند دئوهم من عسكره، أو الفتك به^٢.
وأخبر الإمام علي عليه السلام المحيطين به: أن أهل الشرف منكم قد أتوا معاوية فبايعوه، فحسبي منكم لا تغروني في ديني ونفسي^٣.

وكان جيشه علي عليه السلام متعدّد الولاءات، فبعضهم شيعة له، وبعضهم خوارج، وبعضهم أصحاب فتن وطمع في الغنائم، وبعضهم أصحاب عصبية اتّبعوا رؤساء قبائلهم^٤ وبعضهم له ولاء الأمويين، وله اتّصالات سرّية معهم، فلا غرابة من توالي الخيانات، وعدم الثبات مع الإمام علي عليه السلام حتّى النهاية.

توالي الإشاعات والحرب النفسية

كان معاوية يدسّ الجواسيس في جيش الإمام علي عليه السلام لخلق البلبلة والاضطراب في صفوفه، فقد دسّ من يتحدّث - في عسكر الإمام - بأنّ قيس بن سعد قد صالح معاوية وصار إليه، ودسّ إلى عسكر قيس من يتحدّث أنّ الحسن قد صالح معاوية وأجابه.
ووجّه معاوية إلى الإمام الحسن عليه السلام المغيرة بن شعبة وآخرين فالتقوا به، وحينما خرجوا، أخذوا يتحدّثون لإسماع الجيش ويقولون: إنّ الله قد حقن بآبى رسول الله الدماء، وسكّن به الفتنة، وأجاب إلى الصلح، فاضطرب عسكره بسبب ما سمعوه.

١. الإرشاد، ص ١٩١.

٢. الإرشاد، ص ١٩٠.

٣. أنساب الأشراف، ج ٣، ص ٣٩.

٤. الإرشاد، ص ١٨٩.

وافترق بعضهم عنه^١ وأشاع معاوية أن قيس ابن سعد قد قتل.^٢
وتوالت الإشاعات مما أدت إلى خلخلة جيش الإمام عليه السلام وإضعاف معنوياته،
وتشجيع أهل الأهواء والمنافع للالتحاق بمعاوية أو الفرار من معسكرات الجيش،
فبدأت القبائل تلتحق به قبيلةً بعد قبيلةً حتى خفَّ عسكره.^٣

مراسلة معاوية للإمام عليه السلام ودعوته لتسليم الأمر إليه

بعد استمرار الفرار من جيش الإمام عليه السلام والالتحاق بمعاوية، وبعد تعرّض
الإمام عليه السلام لعدّة محاولات استهدفت قتله،^٤ وبعد أن ينس الإمام عليه السلام من حسم
المعركة لصالحه، وأيقن أن بقاء الأوضاع على هذه الحالة يؤدي إلى قتله وقتل أهل
بيته وأصحابه المخلصين، جاءته وفود معاوية تدعوه للصالح، ومعهم كتب رؤساء
العشائر الذين ضمنوا لمعاوية فيها قتل الإمام أو تسليمه إليه.^٥

وكان مع آخر الوفود صحيفة بيضاء، مختوم على أسفلها، بخط معاوية وختمه: أن
اشترط في هذه الصحيفة التي ختمت أسفلها ما شئت فهو لك.^٦

ولما راسله معاوية خطب في البقيّة المتبقية من جيشه، وأخبرهم بدعوة معاوية
للصالح، ثم قال: فإن أردتم الموت رددناه عليه، وحاكمناه إلى الله عز وجل بطبني
السيوف، وإن أردتم الحياة قبلناه، وأخذنا لكم الرضا فناداه الناس من كلّ جانب: البقيّة
البقيّة.^٧

١. تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢١٥.

٢. الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٢٠٣.

٣. الفتوح، ج ٤، ص ٢٩١.

٤. الإرشاد، ص ١٩٠؛ حياة الإمام الحسن للقرشي، ج ٢، ص ١٠٦.

٥. الإرشاد، ص ١٩١.

٦. تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٦٢.

٧. الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٤٠٦.

فوجد عليه السلام أن جيشه غير مستعد للقتال لانتهياره العسكري والمعنوي، وأنه لا يقوى على مواجهة جيش معاوية المتماسك في صفوفه، والمستسلم لمعاوية استسلاماً مطلقاً، فأجاب عليه السلام إلى الصلح، وكان الصلح أفضل موقف في تلك الظروف، ولا خيار له غيره، فتمّ الصلح.

□ أراد معاوية من خلال حكمه أن يعيد الجاهلية ولكن تحت غطاء الإسلام وكان يعتمد دائماً في تصرفاته أسلوب الخداع والتضليل، وسياسة البطش والتنكيل مع المعارضين على سياسته، وكان ينظر للحياة بمنظار مادي فهو يمتلك جيشاً كبيراً مطيعاً له، ويده خزائن الدنيا، وله أتباع يدورون في فلكه.

□ وقد اشترط على الناس وجوب مبايعته، وليس لأحد الاعتراض عليه، فهو الحاكم المطلق، ومن أجل ذلك فقد بدّد الثروة بيّث حكمه وبسط نفوذه، وكان يتظاهر بأنه يعمل بالقرآن والسنة. ولكنه أصرّ على تمرّده على الخلافة الشرعية. وكان يبيّث الجواسيس إلى الأمصار لبعث الرعب في النفوس، وإشاعة الاضطراب والبلبلة في صفوف الناس، حتّى اغتال عدداً من المؤمنين الموالين لأهل البيت عليهم السلام.

□ والإمام الحسن عليه السلام تصدّى لمعاوية، وكتبه لإلقاء الحجة عليه، ولكنه تمادى في غيّه، وتمرّد على أوامر الإمام، وأخذ يهيء العدة لقتاله، واستعمل الحرب النفسية لإشاعة الخوف وبثّ الرعب في نفوس الناس، ولعبت الدعاية المضلّة دوراً خبيثاً، فالتحق بجيوش معاوية بعض قادة جيش الإمام عليه السلام. فمالت كفة الحرب إلى صالح معاوية قبل وقوعها. ودبّ الوهن في جيش الإمام الأمر الذي أدّى إلى تعريض حياة الإمام عليه السلام إلى الموت، فقد تعرّض لعدّة محاولات لقتله، ممّا اضطرّ عليه إلى ركونه للصالح ليحفظ بذلك وحدة الأمة وكيانها، ويحفظ مسيرتها وكرامتها. وقد ناداه الناس: البقية البقية، فلبّى الطلب، وهو أفضل أسلوب سلكه الإمام عليه السلام لدعم الحق وإرساء قواعد الإسلام.

الأسئلة

- ١ . لماذا اشترط الإمام عليه السلام على المبايعين أن يسالموا من سالمه، ويحاربوا من حاربه؟
- ٢ . في كتابه عليه السلام إلى معاوية ذكر فيه سكوت أمير المؤمنين عليه السلام عن حقّه في الخلافة، فما هي أسباب ذلك؟
- ٣ . لماذا خاطب الإمام عليه السلام معاوية بالقول: إِنَّ عَلِيّاً - رضوان الله عليه - لَمَّا مَضَى إِلَى سَبِيلِهِ وَلَآتِي الْمُسْلِمُونَ الْأَمْرَ بَعْدَهُ، وَلَمْ يَخَاطِبْهُ بِأَنَّهُ إِمَامٌ مَنْصُوصٌ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟
- ٤ . لماذا لم يترك الإمام عليه السلام حاكماً على الشام، ويبقى هو خليفة على غير الشام؟
- ٥ . ما هي الآثار السلبية لالتحاق عبيد الله بن العباس بجيش معاوية؟
- ٦ . ما هي الأسباب وراء انقياد جيش الشام لمعاوية، وعدم انقياد جيش العراق للإمام الحسن عليه السلام؟
- ٧ . ما هي الأسباب وراء التحاق بعض قادة الجيش ورؤساء العشائر بمعاوية؟
- ٨ . ما هي الآثار السلبية لإشاعات معاوية؟

ملاح عصر الإمام الحسن عليه السلام (٢)

ظروف الصلح البعيدة والقريبة

لابد في قضية صلح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية من الإحاطة بهذا الحدث وملابساته، والنظر إليه من جميع زواياه والتنقل بين الرأي والرأي الآخر، لكي تكون الصورة واضحة في معرفة المبررات الموضوعية للصلح، وأثرها في خدمة الرسالة الإلهية التي شكّلت الهدف الأساسي من قبول الإمام عليه السلام بذلك الصلح المفروض عليه.

ظروف الحكم الأموي

إن صلح الإمام عليه السلام لم يكن منفصلاً عن ظروفه وأسبابه البعيدة التي شكّلت صراعاً داخل الجسد الإسلامي الواحد، حيث استطاع الطلقاء أن يجدوا لهم موقعاً ومركزاً حساساً في داخل الكيان الإسلامي، فقد كان معاوية والياً على الشام في عهد الخلفاء وكانت له صلاحيات مطلقة، حتّى كان عمر بن الخطاب يحاسب جميع ولاته غير معاوية حيث كان يقول له: (لا آمرك ولا أنهاك)،^١ وكان يمدحه كثيراً، وينهى عن ذمه ويقول: دعونا من ذمّ فتى قريش.^٢

١. الاستيعاب، ج ٣، ص ٣٩٧؛ العقد الفريد، ج ١، ص ١٥.

٢. مختصر تأريخ دمشق، ج ٢٥، ص ١٨.

كما حذر أهل الشورى من الفرقة وقال: إياكم والفرقة بعدي فإن فعلتم، فاعلموا أن معاوية بالشام، فإذا وكلتم إلى رأيكم عرف كيف يستبزها منكم.^١

وكان يقول أيضاً: هذا كسرى العرب.^٢

فاستقل معاوية بالشام استقلالاً حقيقياً نظراً لصلحياته المطلقة وعدم تدخل الحكام في شؤونه، وتوسعت ولايته بعد أن ضمّ عثمان له الشام كلها.^٣ فاستطاع أن يكون جيشاً مطيعاً مستسلماً، عن طريق الخداع والتضليل وشراء الضمائر بأموال المسلمين، وكان يوجهه توجيهاً خاصاً عن طريق الوعاظ والرواة المتملقين، وكان معزولاً عن بقيّة الأمصار، فلا يعرف غير معاوية وبيت أبي سفيان، ولا يعرف من الإسلام إلا ما يوجهه به معاوية، من حيث تاريخ الإسلام، وتاريخ رجاله، فكان الناس يفهمون أن معاوية خال المؤمنين، وموضع ثقة الخلفاء السابقين، وابن عم الخليفة عثمان، إضافة إلى ما نسبته وعاظ السلاطين إليه من فضائل بعد غياب الوعي وعدم الاختلاط ببقية الأمصار.

وتربّص معاوية بعثمان حتى قتل، فلم ينصره في حياته، وإنما استغلّ مقتله للتمرد على خلافة عليّ أمير المؤمنين عليه السلام، ومن ثمّ الإستقلال الكامل بالشام بعد حرب صفّين.

فكان أهل الشام مستسلمين له وحده، ومنقادين لقيادة واحدة، وليس له في الشام من ينافسه على الحكم والإمرة.

ومما ساعد على تقوية كيان الأمويين هو عدم تأمير أحد من بني هاشم في عهد أبي بكر وعمر وعثمان.^٤

١. الإصابة، ج ٦، ص ١١٤.

٢. تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص ١٥٥.

٣. تاريخ الخلفاء، ص ١٥٦.

٤. النزاع والتخاصم، ص ٨٤.

شخصية معاوية

أسلم معاوية بعد فتح مكة بعد أن اشترك في مواجهات مسلحة مع رسول الله ﷺ طيلة العهد المكي والمدني، لذا لم يكن إسلامه انقياداً حقيقياً لله ولرسوله، ولم يتفاعل مع مفاهيم الإسلام وقيمه فكرياً وعاطفياً وسلوكياً، مع كل هذا التأريخ القاتم فقد مارس شتى الأساليب غير المشروعة لتثبيت حكمه وتقوية كيانه، كحاكم مسلم وكان منها:

١. تزوير الأحاديث المتضمنة بيان فضله وفضل أهل الشام.
 ٢. اختلاق الأحاديث التي تشوّه سمعة الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام وأهل البيت عليهم السلام.
 ٣. انفاق الأموال في شراء الضمائر، وتوسيع القاعدة الشعبية له.
 ٤. استغلال المفاهيم العامة للتمويه على الأمة.
 ٥. حكمه برأيه دون الرجوع إلى الكتاب والسنة.
- واستطاع من خلال هذه التصرفات أن يجعل نفسه شخصية مقدسة في نفوس أهل الشام، وقد تمرّن على المناورة السياسية لعدم تقيده بالشرعة، وكان مستعداً للدخول في أي معركة متوقعة أو مفاجأة، لأن أوامره نافذة في جيشه، فلا يوجد له منافس في أهل الشام، ليقوم بتبسيط الناس أو صرف ولائهم عنه.

ظروف الحكم العلوي

عاد الحق إلى أهله بعد ربع قرن من رحيل رسول الله ﷺ، إذ تولّى الإمام علي عليه السلام أمير الخلافة بعد فتنة تصارعت فيها الأهواء، واصطدمت فيها المصالح، وانتشر المناقون والمتربصون بأهل البيت عليهم السلام في جميع الميادين الاجتماعية والسياسية، وكانوا يتحينون الفرص لإعادة الجاهلية من جديد إلى واقع الأمة، لذا انخرطوا تحت جميع الرايات والشعارات التي رفعت في مواجهة حكومة

أمير المؤمنين عليه السلام ، بعد أن أيقنوا أنَّ الخلافة عادت إلى أصحابها الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم في تطبيق العدالة الإسلامية والمساواة بين الطبقات وإعطاء كل ذي حق حقه، وتوزيع المناصب على المخلصين والأكفاء.

وفي بداية خلافته عليه السلام تمرّد ثلاثة ممّن اشتهر بالصحةبة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وهم عائشة وطلحة والزبير، ولم ينته تمرّدهم إلّا بمقتل جماعة من الطرفين، إضافة إلى عدد كبير من الجرحى والمعوقين.

واستثمر معاوية ظروف حرب الجمل وظروف مقتل عثمان، فحارب أمير المؤمنين عليه السلام وانتهت المعركة بمجموعة كبيرة من القتلى، من ضمنهم كبار الشخصيات الموالية لأهل البيت عليهم السلام.

وأبرزت المعركة ظاهرة الانشقاق في جيش أمير المؤمنين عليه السلام حيث تمرّدت عليه جماعة عرفت فيما بعد بالخوارج وقاموا بخلق البلبلة والاضطراب في داخل قوّة الإمام عليه السلام.

وكان معاوية يشنّ الغارات المتوالية على أطراف دولته عليه السلام، ويقوم بقتل كلّ موالٍ له والاستيلاء على ممتلكاته.

ولم تسمح الظروف لأمر المؤمنين عليه السلام كي يبني دولته وجيشه بناءً عقائدياً وسلوكياً.

وكان أغلب المكّيين وأهل البصرة لا يدينون بالولاء له.

وإضافة إلى كلّ ذلك أنّ المنخرطين في جيشه لم ينخرطوا ولاءً له، وإنّما تابعوه لأنّه على رأس دولة، فهم تبع لأيّ حاكم؛ لا يفرّقون بين أمير المؤمنين عليه السلام وبين غيره من الحكّام، وقد يكون أقصى تقييمهم أنّه عليه السلام أفضل من معاوية فقط.

ولم تستمر خلافته سوى أربع سنين حتّى اغتالته أيدي المتآمرين، للحيلولة دون أن يقوم بإكمال المسيرة التي تحتاج إلى زمن طويل في بناء دولة وكيان، وتأسيس جيش عقائدي متماسك.

ظروف وأوضاع جيش الإمام الحسن عليه السلام

لم يكن جيش الإمام الحسن عليه السلام موحّداً في أفكاره وعواطفه، وولائه، بل كان خليطاً من ولاءات متعدّدة، وآراء مختلفة، وقد عبّر الإمام الحسن عليه السلام عنه قائلاً: رأيت أهل الكوفة قوماً لا يثق بهم أحد أبداً إلا غلب، ليس أحد منهم يوافق آخر في رأي ولا هوى، مختلفين، لا نيّة لهم في خير ولا شر.^١

فقد بيّن عليه السلام تعدّد الآراء والأهواء والاتجاهات والنوايا، وهي كافية لخلق البلبلة والاضطراب وعدم الوصول إلى وحدة في التخطيط والتنسيق والتنفيذ.

فمنهم أهل الطمع وعددهم عشرون ألفاً، ومنهم أتباع كلّ ناعق، ومنهم الخوارج^٢ ومنهم من يوالي الأمويّين كعمر بن سعد وغيره، ومنهم الذين يقاتلون طلباً للثأر لا عن عقيدة وإدراك للأحداث، وهم مزيج من عرب مكّة والمدينة واليمن إضافة إلى عدد كبير من الموالي - غير العرب - التابعين لأسيادهم وللقبائل التي تحالفوا معها. ومنهم من كان يرى أنّ الصراع قائم بين قبيلتين من قريش؛ بين بني أميّة وبني هاشم، أو بين شخصيتين: معاوية والحسن عليه السلام، فلا يكثرثون بمن يقودهم، ولا يفرّقون بين باطل معاوية وحقّ الإمام الحسن عليه السلام.

وقد لعبت الأهواء والشهوات والمنافع الذاتية دوراً كبيراً في تبدّل النوايا عمّا كانت عليه من قبل، وقد وصف الإمام الحسن عليه السلام هذه الظاهرة قائلاً: (كنتم في مسيركم إلى صفّين ودينكم أمام دنياكم، وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم).^٣

فحينما يصبح أمر الدنيا مقدّماً على أمر الدين وحاكماً عليه؛ فإنّه يغيّر من معادلة الصراع ومعادلة الموقف، ويصبح المقاتل تبعاً لمصالحه الذاتية التي تتغيّر من ولائه ومواقفه العمليّة.

١. الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٤٠٧.

٢. بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ١٥.

٣. الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٤٠٦.

فلم تبق إلا القلّة المخلصة في ولائها للإمام الحسن عليه السلام ولنهجه السليم كحجر بن عدي وقيس بن سعد وآخرين، حيث إنّ معركة صفّين قد أدّت إلى فقدان الكثير منهم، إضافة إلى قيام معاوية بقتل الآخرين منهم كمحمّد بن أبي بكر ومالك الأشتر. وأفرز تعدّد الولاءات وتعدّد الآراء إضافة إلى تقديم الدنيا على الدين الظواهر السلبية التالية:

١. عدم الإخلاص في القتال.
 ٢. ضعف القدرة على الثبات والصمود إلى آخر المعركة.
 ٣. عدم الانقياد للقيادة الصالحة والتعاطف مع معاوية.
 ٤. الاستعداد الفعلي للغدر والخيانة.
 ٥. التأثير بالإشاعات والحرب النفسية.
- وقد تحقّق ذلك بالفعل بالالتحاق بجيش معاوية، والاستعداد لتسليم الإمام عليه السلام إليه، إضافة إلى محاولات اغتياله عليه السلام.

شخصيّة الإمام الحسن عليه السلام

وجد الإمام الحسن عليه السلام نفسه أمام مرحلة طويلة من الإعداد، وإصلاح وترميم كثير من المواقع السياسيّة والعسكريّة، وحتى الاقتصاديّة والاجتماعيّة، وهو يرى أنّه يقود جيشاً منهاراً عسكرياً ومعنوياً، لا يمكن جعله منقاداً إلا باستخدام وسائل وأساليب كالتي يستخدمها معاوية، وهو عليه السلام غير مستعدّ لاستخدام تلك الوسائل والأساليب غير المشروعة كالخداع والتضليل وشراء الضمائر بأموال المسلمين وإنفاقها على جماعة خاصّة كرؤساء القبائل وقادة الجيش، فالإمام عليه السلام مقيّد بقيود شرعيّة حاکمة على جميع ممارساته ومواقفه. وليس هدفه البقاء في السلطة الآنيّة، وإنّما هو جزء من حركة إصلاحيّة تنظر إلى الحاضر من زاوية المستقبل، لكي تبقى المفاهيم والقيم الإسلاميّة هي الحاكمة على أفكار المسلمين وعواطفهم وممارساتهم العمليّة على طول الحركة التاريخيّة لهم.

وكان عليه السلام حريصاً على المصلحة الإسلامية الكبرى، ومصلحة الجماعة الصالحة، وهي المصالح الحاكمة على جميع مواقف، فقد وجد عليه السلام أنه لا يستطيع - حسب الظروف القائمة - أن يحسم الموقف لصالح الوجود الإسلامي، ولا يستطيع القضاء على رأس الفتنة التي كان يقودها معاوية، فأصبح أمام خيارين هما: الاستمرار في معركة خاسرة تؤدي إلى إضعاف الكيان الإسلامي ككل أمام التحديات الخارجية أو الميل إلى الصلح وحقن الدماء، والمحافظة على الوجود الإسلامي ثم ممارسة الإصلاح من الداخل.

وفي غير ذلك فالمعركة إما أن تؤدي إلى استيلاء معاوية على الحكم دون قيد أو شرط بعد مقتل الإمام الحسن عليه السلام وأهل بيته عليه السلام والخيرة من أصحابه، وإما أن تؤدي إلى قيام دولتين إحداهما في الكوفة وأخرى في الشام وتبقى كل واحدة منهما في حالة صراع دائم، وتنشغل عن مواجهة الأعداء الخارجيين، وبالتالي إلى إنهاء الوجود والكيان الإسلامي الذي جاهد الرسول ﷺ وخيرة صحابته وأهل بيته من أجل بنائه. فاختار عليه السلام الصلح على الاستمرار في المعركة، مقيداً بشروط فيها مصلحة الكيان الإسلامي وكيان الجماعة الصالحة التي تضمن للشريعة بقاءها واستمرار حياتها.

الخاص

❑ لكي تكون صورة صلح الإمام الحسن عليه السلام واضحة في الأذهان، لابد من الإحاطة بظروف الحدث الذي دخل مرحلة التنفيذ على الرغم من اعتراض مجموعة من المسلمين عليه. فقد كان الصلح نتيجة تصرف معاوية المعتدي ومن يحيطون به، إذ جدوا في هذا الصلح مبرراً لاستقرار الحكم الأموي في البلاد الإسلامية.

❑ و من خلال سياسة الخداع التي مارسها معاوية استطاع أن يكون جيشاً مطيعاً له عن طريق شراء الضمائر الميئة التي لا تعي موقفاً ولا يملك أصحابها إرادة ولا صنع قرار. وقد أدى الوعاط والرواة المتملقون السائرون في ركاب السياسة الأموية دوراً خطيراً في تثبيت دعائم هذا النظام، الأمر الذي استطاع من خلاله معاوية أن يستبد في السلطة وأن يسلط سيف جوره واستبداده على رقاب الأمة. فكان الوعاط يروجون أن معاوية خال المؤمنين، وموضع ثقة الخلفاء السابقين، وابن عم الخليفة عثمان وأنه كان كاتب وحي رسول الله صلى الله عليه وآله.

❑ ولم تكن عودة الحكم إلى أهله فترة حكم الإمام علي عليه السلام كافية، للأمة التي أغرتها السياسة الأموية بألاعيبها الخبيثة لمعرفة الأمة دينها. فما برحت حتى فاجأها القدر باستشهاد الإمام علي عليه السلام، واضطراب الأمور بعد ذلك. فقد غابت شرعية الخلافة عن الساحة، وحجبت القيادة الحقّة عن النور، وكان المنافقون يساندون سياسة الحكم الأموي لتحقيق مآربهم.

❑ ولم يكن جيش الإمام الحسن عليه السلام، موحداً في أفكاره وولائه، بل كان خليطاً من ولاءات متعدّدة، وقد لعبت المنافع الذاتية دوراً منحرفاً في تمزيق الصفّ وتثبيط العزائم. فوجد الإمام عليه السلام نفسه أمام مرحلة شاقّة من

الصراعات السياسية والعسكرية والاقتصادية، وتحيط بها النزاعات والمطامع، ولكنه بحكمته وإيمانه وبثقته بنفسه، وصبره استطاع فضح مؤامرات الأعداء.

□ وكان هدفه جزءاً من حركة إصلاحية، تنظر من زاوية المستقبل لكي تبقى المفاهيم والقيم الإسلامية هي المهيمنة على ذهنية وأفكار المسلمين، وعواطفهم وممارساتهم العملية على طول خط الحركة الفكرية والتأريخية لهم. فاختار الصلح على القتال بشروط أعطت ثمارها، في المستقبل القريب والبعيد معاً.

الأسئلة

١. ما هي الظروف التي استثمرها معاوية لبناء كيانه؟
٢. ما هي العوامل التي شجعت معاوية للتفكير في الوصول إلى الحكم؟
٣. ما هي العوامل التي أدت إلى تفرد معاوية في سلطته على الشام؟
٤. ما هي الأسباب التي أعاققت أمير المؤمنين عليه السلام عن بناء دولته وجيشه بناءً محكماً؟
٥. ما هي مظاهر التعددية في جيش الإمام الحسن عليه السلام؟
٦. ما هي أهم الظواهر السلبية التي اتصف بها جيش الإمام الحسن عليه السلام؟
٧. ما هي أهم الفوارق بين جيش الإمام الحسن عليه السلام وجيش معاوية؟
٨. ما هي النتائج المتوقعة في حالة استمرار الإمام الحسن عليه السلام في القتال؟

متطلبات عصر الإمام الحسن عليه السلام (١)

أسباب وعوامل الصلح

هنالك أسباب وعوامل عديدة اجتمعت وتضافرت لتجعل الإمام الحسن عليه السلام مضطراً لقبول الخيار الصعب من بين الخيارات المطروحة، والتي منها: الاستمرار في القتال ثم التضحية بالنفس في حال عدم إحراز النصر العسكري.

أسباب عدم اختيار موقف التضحية

إن موقف الإمام الحسن عليه السلام لابد وأن يكون منسجماً مع الأهداف المرحلية والبعيدة المدى لمنهج أهل البيت عليهم السلام ولحركة الإسلام العامة، لتستتبعه نتائج إيجابية للمنهج والوجود الإسلامي معاً، فاتخاذ الموقف بجميع ألوانه في سلم أو تضحية مقيد بقيود المصلحة الإسلامية العليا، وتبع لها، ومن هنا اختار الإمام الحسن عليه السلام موقف التوقف عن القتال المؤدي إلى التضحية للأسباب التالية:

أولاً: إن معاوية أحكم خطته وأظهر نفسه بمظهر المسالم المحب للصلح، وحقن الدماء، وإعادة الألفة بين المسلمين، وأراد أن يُلصق بالإمام الحسن عليه السلام رغبته في القتال وإراقة الدماء، وقد استطاع أن يدخل في عقول المسلمين هذه المغالطات، فلو لم يستجب الإمام الحسن عليه السلام للصلح لكان مخطط معاوية سيجد له قبولاً ورواجاً،

وسيلقي المسلمون باللائمة على الإمام عليه السلام وينسبون إليه حبه للقتال وإراقة الدماء.

ثانياً: إن الظروف التي كانت تحيط بالإمام الحسن عليه السلام لم تكن في صالحه، فإن استمرار القتال سيؤدي إلى قتله من قبل عملاء معاوية المندسين في جيشه، وسيتمصل معاوية من جريمة قتله. أو قد يؤدي القتال إلى تسليم الإمام عليه السلام إلى معاوية من قبل رؤساء بعض العشائر أو قادة الجيش، وفي جميع التقادير سيكون معاوية هو الغالب، كما ورد ذلك في قول الإمام عليه السلام: يزعمون أنهم لي شيعة، ابتغوا قتلي وانتهبوا ثقتلي وأخذوا مالي. والله لئن أخذ من معاوية عهداً أحقن به دمي وآمن به في أهلي خير من أن يقتلوني، فيضيع أهل بيتي وأهلي. والله لو قاتلت معاوية؛ لأخذوا بعنقي حتى يدفعوني إليه سلباً، فوالله لئن أسالته وأنا عزيز خير من أن يقتلني وأنا أسير، أو يمن علي فتكون سبة على بني هاشم إلى آخر الدهر.^١

ثالثاً: إن تضحية الإمام الحسن عليه السلام ستكون بلا صدى؛ وذلك لقدرة معاوية على احتواء آثارها وتشويه أهدافها، وما دام كثير من المسلمين لا يعي طبيعة الصراع، ويسمع الإشاعات المستمرة بأن الإمام الحسن عليه السلام كان يقاتل من أجل السلطة، أو بدوافع قبلية موروثه في الصراع بين بني هاشم وبني أمية.

رابعاً: إن التضحية ستؤدي إلى القضاء على الإمامين الحسن والحسين عليه السلام وبقيّة بني هاشم، والصفوة الخيرة الصالحة من أتباع أهل البيت عليهم السلام، وبالتالي ستخلو الساحة لمعاوية وأنصاره دون معارضين ودون غيورين ومصلحين، وخلو الساحة يشجع معاوية وأتباعه على قلب المفاهيم الإسلامية، وتغيير القيم، وإعادة الجاهلية بلباس إسلامي من جديد.

وتكفي هذه الأسباب ولثلاً يستمر الإمام عليه السلام في القتال المؤدي إلى القضاء على رموز المنهج الإسلامي، وإلى تسلط معاوية على رقاب المسلمين دون قيد أو شرط،

ودون رادع أو معارض، فلم يبق له خيار إلا الصلح الذي اضطرَّ إليه تحت ضغط الظروف والأوضاع التي عرفناها بالتفصيل.

وتتلخّص الأسباب التي فرضت الصلح على الإمام عليه السلام فيما يلي:
أولاً: عدم رغبة جيشه في القتال.

ثانياً: التواطؤ مع معاوية من قبل الكثير من القادة والجنود.

ثالثاً: الخيانات الفعلية المتكررة، والمتمثلة بالالتحاق بمعاوية، أو الفرار من المعسكرات.

رابعاً: شيع البلبله والاضطراب في صفوف القادة والجنود.

خامساً: عدم الإخلاص للقيادة الشرعية.

وقد عبّر الإمام عليه السلام عن الأسباب التي أجبرته على القبول بالصلح في كثير من أقواله، كما ركّز عليه على قلة الأنصار الذين ينهض بهم للقتال، فقال عليه السلام: واللّه ما سلّمت الأمر إليه إلا أنّي لم أجد أنصاراً، ولو وجدت أنصاراً لقاتلته ليلي ونهاري^١.

وقال عليه السلام في موقف آخر: وقد خذلتني الأمة وبايعتك يا ابن حرب، ولو وجدت عليك أعواناً يخلصون ما بايعتك^٢.

شروط الإمام عليه السلام ووعود معاوية

إنّ الصلح الذي قرّر الإمام عليه السلام قبوله قد أحاطه بشروط تجعل الإمام عليه السلام في موقع القوّة دائماً ومعاوية في موقع الضعف على المدى القريب والمدى البعيد معاً سواء كان معاوية يفي بالشروط أم لا يفي بها، فإنّ عدم الوفاء بها يتضمن للإمام عليه السلام ولخطّ أهل البيت عليهم السلام نصراً على المدى البعيد لا محالة.

١. بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ١٤٧.

٢. بحار الأنوار، ج ١٠، ص ١٤٣.

وقد وعد معاوية الإمام الحسن عليه السلام بوعود عديدة^١ نذكر منها مايلي:

- ١ . لك الأمر من بعدي.
 - ٢ . لك ما في بيت مال العراق من مالٍ بالغاً ما يبلغ تحمله إلى حيث أحببت.
 - ٣ . لك خراج أيّ كور العراق شئت، معونة لك على نفقتك، يجيبها أمينك ويحملها إليك في كلّ سنة.
 - ٤ . لك ألا نستولي عليك بالإساءة.
 - ٥ . لا نقضي دونك الأمور.
 - ٦ . لا نعصيك في أمر أردت به طاعة الله.
- وفي رواية كتب إليه: إني صالحتك على أن لك الأمر من بعدي ولك عهد الله وميثاقه وذمته... لا أبغيك غائلة ولا مكروهاً، وعلى أن أعطيك في كلّ سنة ألف ألف درهم من بيت المال، وعلى أن لك خراج (منسا) و(دار أبجرد) تبعث إليها عمّالك، وتصنع بهما ما بدا لك.^٢
- وأهمّ ما في الوعود هو جعل الخلافة للإمام عليه السلام من بعده.^٣
- وأما شروط الإمام الحسن عليه السلام فيمكن تحديدها بما يلي^٤:
- ١ . أن يعمل معاوية بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وسيرة الخلفاء الصالحين.
 - ٢ . ليس لمعاوية بن أبي سفيان أن يعهد لأحد من بعده عهداً.
 - ٣ . الناس آمنون حيث كانوا في العراق والشام والحجاز وتهامة.
 - ٤ . أمان شيعة وأصحاب علي عليه السلام على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم.
 - ٥ . أن لا يبغى للحسن ولا لأحد من أهل بيته غائلة سرّاً وعلانية، ولا يُخيف أحداً

١. شرح نهج البلاغة، ج ١٦، ص ٣٦.

٢. أنساب الأشراف، ج ٣، ص ٤١.

٣. الإصابة، ج ٢، ص ١٣؛ الاستيعاب، ج ١، ص ٣٧٣.

٤. الفتوح، ج ٤، ص ٢٩٣؛ أنساب الأشراف، ج ٣، ص ٤٢.

منهم في أفق من الآفاق.

٦. أن تكون الخلافة للإمام الحسن عليه السلام من بعده.^١

٧. أن لا يسمّيه أمير المؤمنين.

٨. أن لا يقيم عنده شهادة.

٩. أن يضمن نفقة أولاد الشهداء من أصحاب الإمام علي عليه السلام.

١٠. ترك سب الإمام علي عليه السلام والعدول عن القنوت عليه في الصلاة.

١١. أن لا يتعرّض لشيئته بسوء، ويوصل إلى كلّ ذي حقّ حقّه.

الدور الإيجابي للوعود والشروط

إنّ الوعود والشروط الممضاة من قبل الطرفين، تفرض منطقياً على كلّ من يفاضل بين الحرب والصلح، أن يختار الصلح مع تلك الظروف والموازنة العسكرية غير المتكافئة، وإلاّ فإنّ معاوية سيتسلم السلطة إمّا بانتصاره العسكري أو بقتل الإمام عليه السلام من قبل عملائه المندسين في جيش الإمام عليه السلام، وستؤول السلطة إليه دون شروط أو قيود تقيّده أمام المسلمين.

بينما أخذ الإمام عليه السلام عهداً ومواريث مقرونة بأيمانٍ مغلّظة من قبل معاوية على أن يفي بها.

فإنّ وفئ بما تعهّد به، فإنّ الأمر سيعود إلى الإمام من بعده، وستكون لأتباع الإمام عليه السلام مطلق الحرّية في أداء دورهم الإصلاحي والتغيير.

وإنّ شرط عدم تسميته بأمر المؤمنين يسلب عنه شرعيّة الخلافة وإمرة المؤمنين، ويبقى مجرد حاكمٍ أو ملك في أنظار المسلمين.

وإذا لم يفّ معاوية بالشروط فإنّ الأمة ستتكشف لها حقيقة معاوية والحكم

الأموي، وأنه مجرد طالب سلطة منذ أوّل شعار أعلنه حين مطالبته بدم عثمان، وبالتالي فإنّ الأمة ستشخص قادتها الحقيقيّين وهم أهل البيت عليهم السلام وستعود إلى موالاتهم في الحاضر أو في المستقبل.

الإمام الحسن عليه السلام والمبادرة الى الصلح

ذكر جماعة من المؤرّخين أنّ الإمام الحسن عليه السلام علم أنّه لن تغلب إحدى الفئتين حتّى يقتل أكثر الأخرى، ورأى تفرّق الأمر عنه فبادر إلى الصلح مع معاوية، ففرح معاوية بذلك وأجابه طبقاً للشروط التي وضعها الحسن عليه السلام.^١

وهذا الرأي له وجهة وقبول، فالإمام الحسن عليه السلام وإن تفرّق عنه كثير من قادة جيشه، وحاول بعضهم اغتياله، إلّا أنّه كان يشكّل خطراً حقيقياً على معاوية، وهذا ما عبّر عنه معاوية في قوله لعمر بن العاص - في شأن قيس بن سعد -: على رسلك، فإنّا لا نخلص إلى قتلهم حتّى يقتلوا أعدادهم من أهل الشام، فما خير العيش بعد ذلك؟ فإنّي واللّه لا أقاتله أبداً حتّى لا أجد من قتاله بدءاً.^٢

وعلى هذا فإنّ الإمام عليه السلام قد صالح من موقع القوة، فإنّ معاوية كان يعلم أنّ الإمام عليه السلام إن استمر على القتال فإنّه سيخسر كثيراً من قاداته وجنوده، ولا يستطيع معاوية حسم المعركة إلّا بتضحيات جسيمة يخرج منها منهوكاً لا يقوى على النهوض. ويمكن أن نستشهد بشخصيّة معاوية أيضاً، وذلك أنّ معاوية كان متيقناً من صعوبة حسم الموقف لصالحه إلّا بتقديم خسائر جسيمة، إذ لو كان يرى سهولة القضاء على جيش الإمام عليه السلام لما كان يصالح الإمام عليه السلام ويقيّد نفسه بشروط وقيود صعبة، فشخصيّة ترفض أن يكون لها نذ يعارضها، أو ينافسها في مجالات الحياة المختلفة،

١. بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٤٨، ٢ و ٦٥.

٢. تاريخ الطبري ٥: ١٥٩، أسد الغابة ١: ٤٩١، تأريخ الخميس ٢: ٢٩٠، البداية والنهاية ٨: ١٧، المنتظم ٥: ١٨٣.

وبالخصوص في مجال الحكم والرئاسة، وترفض أيضاً أن يمنح الحرّية لمعارضيه. فمن المنطقي أن يكون الإمام الحسن عليه السلام هو الذي قد بادر إلى الصلح، وعلى ضوئه يكون الإمام عليه السلام قد فوّت الفرصة على معاوية لأن يظهر بمظهر المصلح والمحبّ لحقن الدماء، ويكون له قَصَب السَّبْق في ذلك. ومما يؤيد ذلك أن الإمام عليه السلام كان قد اشترط على المبايعين له بعد استشهاد أبيه عليه السلام أن يستسلموا لأوامره إن حارب أو سالم. وعلى كلا الرأيين فإن الإمام عليه السلام قد اتخذ الصلح من أجل حقن الدماء والتفرّغ للعمل الإصلاحي والتغيير بعدة، وبناء القاعدة الشعبية التي أنهكتها حروب ثلاث في أقلّ من أربع سنين.^١

الناص

□ تضافرت عدّة عوامل أدّت الى أن يقبل الإمام الحسن عليه السلام الخيار الصعب من بين الخيارات الماثلة؛ أمامه وهي: الاستمرار في الحرب التي تنتهي بتصفيته جسدياً وتمزيق جيشه، أو الصلح، والحكمة التي تقف وراءه اقتضت أن يختاره - وهو موقف ينسجم مع المصلحة الإسلامية في أجمل صورها، وبذلك خسر معاوية ما كان يخطّط له. وقد تظاهر بمظهر المسالم المحبّ، وأشاع بأنّه أراد بذلك حقن دماء المسلمين، وهي مغالطة وقع في هوّتها، فقد سار إلى حتفه بيده، وتظاهر وكأنّه هو المنتصر، وكان يقدر قبل ذلك أنّ القتال إذا استمرّ سيسلّم المقاتلون الإمام الحسن عليه السلام إليه وبذلك يربح طرفي المعركة اجتماعياً وعسكرياً. ولكنّ الصلح لم يحقق أهدافه إذ في إطار هذا الصلح حقّق الإمام عليه السلام مجموعة من المكاسب والتي كان في مقدّمتها حفظ بيضة الإسلام، والحفاظ على أصحابه، وإلا فلو وقعت الحرب لأنت على كلّ شيء يتطلع إليه الحكم الأموي.

الأسئلة

١. ما هي العوامل التي تحدّد الموقف السياسي في نظر أهل البيت عليهم السلام؟
٢. ما هي الأسباب التي دفعت الإمام عليه السلام لعدم الاستمرار في القتال؟
٣. لو كان الإمام عليه السلام قد ضحى الإمام عليه السلام بنفسه فهل كانت تترتب آثار إيجابية على هذه التضحية؟
٤. ما هي الأسباب التي أكرهت الإمام عليه السلام على قبول الصلح؟
٥. ما هي أهمّ الوعود التي قطعها معاوية على نفسه؟
٦. ما هي أهمّ الشروط التي اشترطها الإمام الحسن عليه السلام على معاوية؟
٧. هل اعترف الإمام عليه السلام بشرعية معاوية أم لا؟ وما هو الدليل على ذلك؟
٨. ما هو الدور الإيجابي لشروط الإمام الحسن عليه السلام؟

متطلبات عصر الإمام الحسن عليه السلام (٢)

الصلح ومراعاة المصلحة الإسلامية

إن موقف الإمام المعصوم عليه السلام تحدده عدّة عوامل، راعاها الإمام الحسن عليه السلام في صلحه ومن أهمّها:

١. شرعية الموقف والقرار

وهذا الأمر بدیهي في السيرة التاريخية لحركة الإسلام وقادته الصالحين، فالشريعة هي الحاكمة على الموقف وهي التي تحدّده في جميع الظروف والأحوال، فقد صالح رسول الله ﷺ قريشاً في الحديبية وهم كفّار، وصالح اليهود والنصارى في أكثر من واقعة، وصالح أمير المؤمنين عليه السلام معاوية في وقته.

٢. الظروف

الظروف بنوعها: الإيجابي والسلبي هي التي تحدّد الموقف وتكون حاكمة عليه، وهذا واضح من خلال سيرة رسول الله ﷺ وسيرة أمير المؤمنين عليه السلام، فرسول الله ﷺ لم يجاهد قريشاً في المرحلة المكيّة لأنّ الظروف لا تسمح بذلك، وحينما تغيّرت في المرحلة المدنيّة غير ﷺ موقفه واستمرّ في جهاده إلى أن انتصر على جميع قوى الشرك في المدينة والحجاز واليمن، وكذلك أمير المؤمنين عليه السلام في سيرته مع الخلفاء الذين سبقوه، ومع المتمرّدين عليه في خلافته.

٣. المصلحة الإسلامية

من أساسيات المنهج الإسلامي أنَّ لأي حكم شرعي مصلحة يتضمَّنُها، فمن باب أولى أن يكون لأخطر موقف - وهو الصلح وفي تلك الظروف الحساسة - مصلحة على المدى القريب والبعيد، فالصلح انطوى على عدَّة مصالح آنِيَّة ومستقبليَّة راعاها الإمام عليه السلام قبل اتخاذه القرار، بعضها متعلِّق بالمصلحة العامة للمسلمين، والآخر متعلِّق بمصلحة منهج أهل البيت عليهم السلام في حركته الواقعيَّة في المسيرة التاريخيَّة. وقد عبَّر الإمام عليه السلام عن صلحه بالقول: (لا تعذلوني فإنَّ فيها مصلحة)^١.

المصلحة العامة للمسلمين

إنَّ الإمام الحسن عليه السلام قدَّم مصلحة المسلمين العامَّة على جميع الإمتيازات الأخرى، لأنَّه مكلف بالحفاظ على كيان المسلمين الإجتماعي والسياسي، وقد تبلورت المصلحة العامَّة في صلحه بالنقاط التالية:

أولاً: وحدة الدولة والأمة

إن استمرار التصادم العسكري ينتهي حتماً إلى إحدى النتيجتين: وهي قيام دولتين أحدهما في العراق وما وراءه من جهة الشرق كالحجاز وخراسان والري، والأخرى في الشام وما وراءه من جهة الغرب كافريقيا وما بعدها.

والنتيجة الأخرى: انتصار أحد الطرفين وخروجه من المعركة ضعيفاً لا يقوى على مواجهة الأعداء في الخارج أو بناء الدولة الإسلاميَّة في الداخل، وكلاهما خسارة فادحة للمسلمين.

فمن أجل وحدة الدولة والمجتمع صالح الإمام عليه السلام بعد أن رأى المصلحة في (جمع

الكلمة وترك القتال)،^١ فنزل عن الخلافة وجعل الملك بيد معاوية حتى تجتمع الكلمة على أمير واحد.^٢

ثانياً: إفشال المخططات الخارجية

إنّ الكيان الإسلامي معرّض في كلّ حين لمؤامرات خارجية تسعى للقضاء على الكيان الإسلامي منهجاً وسلوكاً ووجوداً، وإذا كان لكلّ معركة استحقاقاتها الخاصة، فإنّ دخول الإمام (عليه السلام) في معركة مع معاوية يعني وضع جميع الإمكانيات والطاقات العسكرية والاقتصادية في صراع داخلي ينهك القوى ويجعل الكيان الإسلامي يتهاوى لمجرّد أية ضربة متوقعة من الخارج أو فتنة من الداخل، وعليه فإنّه صالح لأنّه وجد أنّ الكيان الإسلامي يواجه خطر الأعداء إلى جانب خطر المفروضين عليه باسمه.^٣ فقد أفشل (عليه السلام) مخططات الأعداء؛ ومنع من تفكيرهم في الإنقراض على الوجود الإسلامي أو تحجيمه في بقعة جغرافية محدودة.

ثالثاً: حقن الدماء

إنّ حقن دماء المسلمين بالتخلّي عن معركة خاسرة هي موقف يستوجب النظر إليه في إطار المسؤولية والحرص على كيان الأمة، وقد أدرك الإمام (عليه السلام) النتائج من أنّ وضع المسلمين لا يحتمل صراعاً من هذا النوع، لذا صالح حقناً للدماء وإصلاح الأوضاع، وأن يكون موقفه وقراره حجة على الطامعين في السلطة، والذين يضخّون بإمكانات الأمة من أجلها.

وقد عبّر (عليه السلام) عن هذه المصلحة في كثير من أقواله ومواقفه، قال (عليه السلام): (وإنّ معاوية نازعني حقاً هو لي، فتركته لصالح الأمة وحقن دماؤها... ورأيت أنّ حقن الدماء خير

١. تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٢٩٠.

٢. البداية والنهاية، ج ٨، ص ١٦.

٣. الحسن بن علي، سليمان كامل، ص ١٠٥.

من سفكها وأردت صلاحكم، وأن يكون ما صنعت حجة على من كان يتمنى هذا الأمر).^١

وقال عليه السلام للمعتزين على صلحه: (رأينا أن حقن دماء المسلمين خير من إهراقها).^٢

وقد قدر عليه السلام ضحايا المعركة - لو حدثت - بسبعين ألفاً، وهي خسارة كبيرة حيث قال: ولكنتي خشيت أن يأتي يوم القيامة سبعون ألفاً، تشخب أوداجهم دماً كلهم يستعدي الله فيم أهرق دمه.^٣

وعبر عليه السلام عن صلحه في موضع آخر قائلاً: (طالت الفتنة وسفكت فيها الدماء، وقطعت فيها الأرحام، وقطعت السبل، وعطلت النفور).^٤

رابعاً: إدامة مسؤولية الإصلاح والتغيير

إن الظروف التي عاشتها الأمة من قبل جعلتها تتجه نحو الاعتماد عن المنهج الإسلامي عقيدة وسلوكاً، حيث تغيرت بعض المفاهيم والقيم، وقام الولاة والمنحرفون بتشويه المفاهيم والحقائق، وقلب الموازين، وإشاعة الأحاديث الكاذبة.

ومن هنا فإن الأمة بحاجة إلى وجود عدد كبير من المصلحين والمغيّرين لإعادتها إلى الاستقامة في الفكر والعاطفة والسلوك، بعد خطوات دائمة من التحرك في مختلف ميادينها وأوساطها، وهذا يستدعي بقاء الجماعة الصالحة والمحافظة على حياتها لتؤدي مسؤوليتها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن أجل ذلك قام الإمام عليه السلام باتخاذ قرار الصلح، وقد عبر عن ذلك بالقول: (إني لما رأيتمكم ليس بكم عليهم قوة سلّمت الأمر، لأبقى أنا وأنتم بين أظهرهم، كما عاب العالم السفينة لتبقى

١. أنساب الأشراف، ج ٣، ص ٤٣.

٢. البداية والنهاية، ج ٨، ص ٤٢.

٣. شرح نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٧.

٤. تهذيب تاريخ دمشق، ج ٤، ص ٢٢٤.

لأصحابها، وكذلك نفسي وأنتم لتبقى بينهم).^١

وهذا لا يتم إلا بالصلح. وبقاء الجماعة الصالحة يمنع معاوية من كثير من ممارساته التي تستهدف تشويه الحقائق وقلب الموازين، وتمنعه من تحريف الكتاب والسنة، وتمنعه من التفرغ لتنفيذ مخططاته لعودة الجاهلية من جديد.

ثانياً: مصلحة الجماعة الصالحة

لقد واجهت الجماعة الصالحة بقيادة أهل البيت عليهم السلام ومنذ اللحظات الأولى لوفاة رسول الله ﷺ محاولات كثيرة لتحديد وتحجيم دورها الريادي في الأمة، خلافاً لوصايا رسول الله ﷺ الصريحة على ضرورة تفعيل دور الإمامة في الحياة الإسلامية، وتمكينها من واقع المسلمين بما يحفظ وجود الكيان الإسلامي وديمومة المنهج السليم.

وحيث أن القاعدة العريضة من الأمة المندرجة في كيان الجماعة الصالحة تحتاج إلى القائد الذي يوجه حركتها وسلوكها نحو أهداف الإسلام الكبرى، فإن وجود القائد الإمام المعصوم يعدّ من أوليات حفظ هذه الجماعة وتدعيم حركتها نحو وضع التحرك الإسلامي العام في إطاره الصحيح.

ومن خلال الصلح بقيت القيادة المعصومة حاضرة في الأحداث وفي المسيرة بما يحفظ الشرعية الواعية للأمة وتوجيه الدولة والأمة صوب المسار الصحيح لحركتها. وبالإضافة إلى الحفاظ على وجود الإمام الحسن عليه السلام ووجود الإمام الحسين عليه السلام وامتداد خط الإمامة بهما، فإن مصلحة الجماعة الصالحة تمثلت في المظاهر التالية:

١. حقن دماء أفراد الجماعة الصالحة

استطاع الإمام عليه السلام من خلال اتخاذ قرار الصلح حقن دماء أفراد الجماعة الصالحة،

والحيلولة دون إراقة دمائها، وقد عبّر عليه السلام عن هذه المصلحة المتوخّاة من قراره، ففي جوابه لمن اعترض عليه قال: (إنّما فعلت ما فعلت ابقاءً عليكم).^١
وقال أيضاً: (فلو كنت بالجزم في أمر الدنيا أعمل، ولسلطانها أريض وأحب، ما كان معاوية بأبأس منّي بأساً... وما أردت فيما فعلت إلّا حقن الدماء...).^٢
وقال عليه السلام: (ولولا ما أتيت لما ترك من شيعتنا على وجه الأرض إلّا قتل).^٣

٢. استمرار الدعوة من قبل الجماعة الصالحة

الهدف من وجود الجماعة الصالحة هو إقرار المنهج الإلهي في الواقع، بالدعوة إلى مفاهيمه العقائدية وقيمه التشريعية، وتحقيقها في صورة عملية وواقع موضوعي ذي معالم منظورة، تترجم فيها النصوص والمفاهيم النظرية إلى حركات وأعمال وممارسات وأوضاع وارتباطات، والانتقال من مرحلة التأثر الوجداني بالفكر والعقيدة إلى مرحلة العمل الإيجابي وفق هذا التأثر تحقيقاً للمنهج الذي أراده الله تعالى.
ولا يتحقّق ذلك إلّا بالحفاظ على وجود الجماعة الصالحة، فهي الكفيلة بالدعوة إلى المنهج السليم وإقراره في الواقع، وفي هذا الصدد قال الإمام عليه السلام: (إنّي لما رأيت الناس تركوا ذلك إلّا أهلهم؛ خشيت أن يجتثوا عن وجه الأرض، فأردت أن يكون للدين في الأرض ناع).^٤

أحرز الإمام عليه السلام من خلال الصلح حرّية أتباعه وأنصاره، حيث جعلها شرطاً من شروطه، والحرّية المنشودة هي فرض على معاوية لا يستطيع التخلّص عنه بسهولة ما دام يخشى من المواجهة المسلحة من جديد، ومن مظاهر الحرّية عدم متابعة من له دور

١. أنساب الأشراف، ج ٣، ص ٤٥.

٢. أنساب الأشراف، ج ٣، ص ٤٩.

٣. علل الشرائع، ص ٢١١.

٤. مختصر تاريخ دمشق، ج ٧، ص ٣٨.

كبير في معركة صفين أو التحريض على معارضة عثمان، ومن مظاهرها أيضاً حرّية الإعتراض على معاوية، وحرّية التحرك باتجاه توعية الأمة وتصحيح فهمها للأفكار والأشخاص والأحداث.

٣. إعادة بناء الجماعة الصالحة

إنّ الأحداث التي ابتدأت منذ أواخر عهد عثمان مروراً بثلاث معارك طاحنة لإخماد تمرّد أصحاب الجمل وصفين والنهروان أدّت إلى تصدّع الطاقات والإمكانات التي تتمتع بها الجماعة الصالحة، حيث أنّ سرعة الأحداث وشدّتها أدّت إلى حدوث الكلل والإرهاق داخل الجماعة الصالحة، فهي بحاجة إلى استراحة نسبيّة من أجل إعادة بنائها وتمتين قوّتها، وتوسيع قاعدتها ورفدها بعناصر جديدة، وجميع ذلك حقّقه الإمام عليه السلام بصلحه، وقد عبّر عن ذلك قائلاً: (أردت صلاحكم وكفّ بعض عن بعض، فارضوا بقدر الله وقضائه، حتّى يستريح برّ أو يستراح من فاجر).^١

وجميع الشروط الموضوعية تنطوي على جملة من المصالح الخاصّة بالجماعة الصالحة وقيادتها المتمثلة بالإمام الحسن عليه السلام.

وجميع المصالح التي تحقّقت من صلح الإمام عليه السلام هي التي جعلت الإمام عليه السلام يدفع الحرب بالصلح على أساس خدمة الأهداف الإسلاميّة الكبرى، فقد ضحّى عليه السلام بالسلطة الفوقيّة من أجل سلامة البنى التحتيّة.

وقد عبّر الإمام الباقر عليه السلام عن هذه المصالح قائلاً: (والله، لذي صنعه الحسن بن علي عليه السلام كان خيراً لهذه الأمة ممّا طلعت عليه الشمس).^٢

١. شرح نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٥.

٢. الكافي، ج ٨، ص ٣٣٠.

الخاص

□ إن شرعية الموقف والقرار الذي اتخذته الإمام اتجهاء عملية الصلح مع معاوية، والظروف التي أحدثت بقرار الصلح، ومن فوقها المصلحة الإسلامية العليا كانت كلها مبرراً عملياً وموقفاً عاماً لتقرير أسلوب الصلح ليكون أسلوباً عملياً في حياة الأمة متى ما دعت الحاجة إليه. ولا غرو في أن ما جنح الإمام عليه إليه إبان توقيعه على وثيقة الصلح إنما يمثل منعطفاً تاريخياً لمسيرة الأمة في كل زمان باعتباره منهجاً سياسياً وفكرياً وقيادياً تتعامل الأمة على أساسه كلما أرادت أن تتخذ قراراً إلى صالح الإسلام.

□ و تقديم المصلحة الإسلامية يظل مناراً للأمة ترجع إليه في إزهاق الباطل، وتثبيت الحق، وتنبلور تلك المصلحة حينما يكون وعي الأمة طاعياً على تفكيرها وآفاقها النفسية. وإذا كانت وحدة الأمة هي المحور لتحركها في بناء كيانها؛ فلا ريب أن التضحية من أجلها هو الثمن لنجاحها. فإذا حفظت الأمة كيانها وموقعها كان ذلك كفيلاً في حقن الدماء، وإفشال المخططات للإطاحة بنظامها السياسي والفكري وحفظ وحدتها. فطالما تعرّض حياة أكثر من أمة حينما تفقد شخصيتها، وموقعها القيادي.

□ ولو قدر للإمام عليه السلام اتخاذ قرار الحرب، وهو يخوضها مع جيش متخاذل طامع في أموال معاوية؛ لكانت نتيجة ذلك ضياع الإسلام، وانتصار الباطل على الحق في الساحة العسكرية، لأن الظروف التي عاشتها الأمة وهي تتابع طغيان حكم معاوية، جعلتها تعتزل حياة المواجهة مع العدو لكثرة عدده. وقلّة الناصرين لجبهة الحق.

□ و غياب القيادة الشرعية عن الساحة الميدانية والعسكرية بقتل الإمام عليه السلام يؤدي إلى فقدان الأمة للقائد الذي يقود مسيرتها ويوجّه أفكارها وحركتها

وسلوكلها، فإقرار المنهج الإسلامي، وحقن دماء الأمة، وإحراز حرّية الجماعة الصالحة، والثبات على المبدأ من معطيات عملية الصلح التي مارسها الإمام عليه السلام ودافع بعد ذلك عنها. وإذا كان اتخاذ القرار منطلقاً للعمل من أجل تقرير المصلحة الإسلامية العليا، فلا مجال للتنصّل عنه حينما لا يروق ذلك لمن لا يحلم إلا بتحقيق مآربه.

□ وقد عبّر الإمام الباقر عليه السلام عن هذه المصالح قائلاً: (والله لذي صنعه الحسن بن علي عليه السلام كان خيراً لهذه الأمة ممّا طلعت عليه الشمس).

الأسئلة

- ١ . ما هو دور المصلحة في اتخاذ قرار الصلح؟
- ٢ . لماذا لم يقيم الإمام الحسن عليه السلام بتشكيل حكومته في الكوفة، وترك الشام لمعاوية؟
- ٣ . ما هو دور الصلح في إفشال المؤامرات الخارجية على الكيان الإسلامي؟
- ٤ . ما هو المقصود من قول الإمام عليه السلام : وأن يكون ما صنعت حجة على من كان يتمنى هذا الأمر؟
- ٥ . ما هو المقصود من قول الإمام عليه السلام : سلمت الأمر؛ لأبقى أنا وأنتم بين أظهرهم؟
- ٦ . ما هو المقصود من قول الإمام عليه السلام : أردت أن يكون للدين في الأرض ناع؟
- ٧ . ما هو الهدف من محافظة الإمام عليه السلام على نفسه من القتل؟
- ٨ . من أهداف الإمام عليه السلام حقن دماء أنصاره، ما هو الضمان لذلك في حال سيطرة معاوية على الحكم؟
- ٩ . ما هي أهم الأضرار التي ستلحق بالجماعة الصالحة، في حال الإستمرار في القتال؟
- ١٠ . كيف تفسر قول الإمام محمد الباقر عليه السلام : واللّه لئلذي صنعه الحسن بن علي عليه السلام كان خيراً لهذه الأمة ممّا طلعت عليه الشمس؟

نتائج الصلح وآثاره

انكشاف حقيقة معاوية والحكم الأموي

في أجواء الكيد والدس، والتربص بقيادة الأمة الحقيقيين، وفي خضمّ تزيين الضلال، وتزييف الحقائق، وإشاعة اللبس والغش في الرؤية من قبل معاوية لإبقاء المسلمين بعيداً عن الوعي وإدراك الحقائق؛ كان للصلح دوره الكبير في كشف حقيقة معاوية ونواياه الخفية، فبعد أن استلم معاوية زمام الأمور استسلم لزهو الإنتصار، ولم يتمالك نفسه حتّى كشف عن سريره ومكنونات أهوائه، ولم يلتفت إلى الآثار المترتبة على هذا الكشف، فأعلن لأهل العراق عن أهدافه الحقيقيّة وهي تتلخّص في الوصول إلى قمّة السلطة، كما جاء ذلك في خطابه حين قال: **إني والله ما قاتلتكم لتصلّوا، ولا لتصوموا، ولا لتحجّوا، ولا لتزكّوا، إنّكم لتفعلون ذلك، وإنّما قاتلتكم لأتأمر عليكم.**^١

وهذا التصريح قد كشف عن الوجه الحقيقي لمعاوية كشفاً لا يمكن بعد ذلك التسترّ عليه بتزوير الأحاديث، وتحريف الوقائع، ولا تقوى المبررات الموضوعة للتسترّ عليه والتي كان منها عدالة جميع الصحابة، وغيرها من الفضائل التي أدلى بها الوضّاعون من وعاظ السلاطين.

وانكشفت حقيقة معاوية أمام الأمويين وخصوصاً أمام عائلة عثمان، إذ قد رفع معاوية شعار الطلب بدم عثمان وتمرد على الإمامة الشرعية المنصوبة من قبل رسول الله ﷺ وبالبيعة من قبل أهل الحل والعقد - كما هو الرأي السائد آنذاك - ثم تمرد على خلافة الإمام الحسن عليه السلام بعد أن بايعه عامة المهاجرين والأنصار، تخلى عن شعاراته حين تمّ الصلح، وترك متابعة قتلة عثمان، وحينما دخل دار عثمان قالت عائشة بنت عثمان: وأبائاه، وبكت، فأجابها معاوية: يا ابنة أخي إن الناس أعطونا طاعة، وأعطيناهم أماناً... وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد، ومع كل إنسان سيفه وهو يرى مكان أنصاره، فإن نكشنا بهم نكثوا بنا ولا ندري أعلينا تكون أم لنا؟ ولأن تكوني بنت عم أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عرض المسلمين.^١

انكشاف انحراف معاوية وعدم وفائه بالشروط

لقد كشف معاوية عن نواياه في عدم الوفاء بالعهود والمواثيق التي قطعها على نفسه وقال: ألا أن كل شيء أعطيته للحسن بن عليّ تحت قدمي هاتين لا أفي به.^٢ وكان لهذا التصريح دور واضح في تقييم الأشخاص والأحداث والمواقف من قبل عموم المسلمين، حيث استطاعوا تشخيص القيادة الحقيقية عن القيادة المزيفة، وانكشفت لهم طبيعة الصراع القائم، فهو ليس صراعاً بين قبيلتين أو شخصين، وإنما هو صراع بين منهجين: منهج الاستقامة الذي يمثلُه أهل البيت عليه السلام ومنهج الانحراف والجاهلية الذي يمثلُه الأمويون.

وكان هذا التصريح فرصة للجماعة الصالحة لتبيان الحقائق وإقناع الأمة بمخططات معاوية التخريبية النابعة من أهوائه.

١. عيون الأخبار لابن قتيبة، ج ١، ص ٦٧.

٢. مقاتل الطالبين، ص ٦٩.

خصائص معاوية الإرهابية

كان معاوية يتظاهر بالعمو والحلم والسماحة، ويتظاهر بحبّ السلام والأمان، وكرهه إراقة الدماء، فقد رفع المصاحف في صفّين ودعا إلى الصلح مبرّراً ذلك بحقن الدماء وهكذا فعل قبل الصلح، إلّا أنّه سرعان ما كشف القناع عن زيفه، فبعد أن تمّ تسليم السلطة إليه بأيّام قلائل؛ نادى - وهو في المدائن - بأعلى صوته: (ألا إنّ دُمة الله بريئة ممّن لم يخرج فيبيع... ألا وإنّا قد أجلنا ثلاثاً، فمن لم يبيع فلا دُمة له ولا أمان له عندنا). فقد خالف معاوية أساسيات المنهج الإسلامي المتفق عليه بين عموم المسلمين وهو عدم الإكراه على البيعة، وقد قامت سيرة رسول الله ﷺ وسيرة أمير المؤمنين عليه السلام على ذلك، فلم يكرهوا أحداً على البيعة لأنّها اختيارية. بينما أعلن معاوية عن طبيعته الإرهابية في ملاحقة ومطاردة وقتل الرافضين لبيعته.

معارضة حرّية الجماعة الصالحة

لم يستطع معاوية في حياة الإمام الحسن عليه السلام أن يقيّد حرّية الجماعة الصالحة، خوفاً من إعلان المواجهة المسلّحة ضدّ حكمه، فكان لها دور في التحرك في أوساط الأمة، وكان كثير من أعضائها البارزين يعترضون على معاوية، ويكشفون عن الحقائق دون أن يعمل معاوية شيئاً.

فقد صرّح عبدالله بن عباس بتباطئ معاوية عن نصر عثمان^١ وحمله قسماً من المسؤولية عن قتله دون أن يجيب على شيء.

وهدّده جارية بن قدامة قاتلاً: (فإن وفيت لنا وفينا، وإن ترغب إلى غير ذلك فقد تركنا وراءنا رجالاً مدداً وأذرعاً شداداً وأسنةً حداداً، فإن بسطت إلينا فترا من غدر، زلفنا إليك بباع من ختر...)^٢.

١. أنساب الأشراف، ج ٣، ص ٤٧.

٢. شرح نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٥٥.

وكان الأنصار لا يلتقون به إن قدم المدينة وحينما سأل أباقادة عن ذلك، قال: لم يكن لنا دواب، وحينما قال له: أين النواضح؟ أجابه: عقرناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر.^١

رقابة الإمام الحسن عليه السلام لتصرفات معاوية

تمتع الإمام الحسن عليه السلام بحرية كاملة في الاعتراض على معاوية وكشف انحرافه عن المنهج الإسلامي.

فقد قام خطيباً عليه السلام - ومعاوية جالس - فقال: (أيها الناس إن معاوية زعم: أنني رأيت للخلافة أهلاً، ولم أر نفسي لها أهلاً، وكذب معاوية؛ أنا أولى الناس بالناس في كتاب الله وعلى لسان نبي الله...)^٢.

وهكذا بين الإمام عليه السلام إحدى الحقائق الأساسية وهي عدم أهلية معاوية للخلافة وكذب مدعياته، وأكد إمامة أهل البيت عليهم السلام ونفى الشرعية عن حكم معاوية فلم يخاطبه إلا باسمه.

وفي خطاب آخر وضع عليه السلام منهجاً لتشخيص الخليفة الحق وبين انحراف معاوية عن المنهج السياسي الإسلامي، فخاطب معاوية أمام جمهور من المسلمين بقوله: (ويلك يا معاوية إنما الخليفة من سار بسيرة رسول الله ﷺ وعمل بطاعة الله، ولعمري إنا لأعلام الهدى ومنار التقى، ولكنك يا معاوية ممن أبار السنن وأحيا البدع، واتخذ عباد الله خولاً ودين الله لعباً، فكان قد أخمل ما أنت فيه، فعشت يسيراً، وبقيت عليك تبعاته).^٣

وفي داخل البلاط في عاصمة الأمويين أراد معاوية وبعض رجال الحكم انتقاظه

١. تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص ١٥٩.

٢. تاريخ الخلفاء، ص ١٦٠.

٣. الاحتجاج، ج ٢، ص ٨.

فلَمَّا أَكْمَلُوا كَلَامَهُمْ، تَكَلَّمَ الْإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُتَحَدِّثاً الْحُكْمَ الْأُمَوِيَّ فِي عَقْرِ دَارِهِ، وَقَالَ: أَمَّا بَعْدُ يَا مُعَاوِيَةَ، فَمَا هَؤُلَاءِ شَتْمُونِي وَلَكِنَّكَ شَتَمْتَنِي، فَحُشاً أَلْفَتَهُ، وَسَوْءَ رَأْيٍ عُرِفَتْ بِهِ، وَخُلُقاً سَيِّئاً شَبَّ عَلَيْهِ، وَبَغِياً عَلَيْنَا؛ عَدَاوَةٌ مِنْكَ لِمُحَمَّدٍ وَأَهْلِهِ... وَأَنْتَ يَا مُعَاوِيَةَ وَأَبَاكَ مِنْ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ تُسَرِّوْنَ الْكُفْرَ، وَتُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ، وَتُسْتَمَالُونَ بِالْأَمْوَالِ. ثُمَّ بَيَّنَّ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَضَائِلَ أَبِيهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَسَاوِيَّ أَعْدَائِهِ، فَابْتَدَأَ بِمُعَاوِيَةَ وَأَبِيهِ ثُمَّ ابْنَ الْعَاصِ، وَالْوَلِيدَ بْنَ عَقْبَةَ، وَالْمَغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ ثُمَّ خَرَجَ. فَقَالَ مُعَاوِيَةَ: وَاللَّهِ مَا قَامَ حَتَّى أَظْلِمَ عَلَيَّ الْبَيْتَ، قَوْمُوا عَنِّي، فَلَقَدْ فَضَحَكُمْ وَاللَّهِ وَأَخْزَاكُمْ.^١

حُرِّيَّةُ التَّحَرُّكِ وَالْعَمَلِ الرَّسَالِيِّ

لَمْ يَسْتَطِعْ مُعَاوِيَةُ تَحْجِيمَ التَّحَرُّكِ وَالْعَمَلِ الرَّسَالِيِّ لِلْإِمَامِ الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَنْصَارِهِ، بَلْ كَانَ يَزْجُرُ مِنْ يَرِيدٍ أَنْ يَتَدَخَّلَ لَتَقْيِيدِ هَذِهِ الْحُرَّةِ فِي حَيَاةِ الْإِمَامِ الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَدْ كَتَبَ زِيَادُ بْنُ أَبِيهِ إِلَيْهِ: إِنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ يَفْسُدُ النَّاسَ عَلَيَّ، فَإِنْ أَذْنَتَ لِي أَنْ أَتَوَعَّدَهُ فَعَلْتُ. فَكَتَبَ مُعَاوِيَةُ: إِنَّ أَبَا الْفَضْلِ وَأَبَاسَفِيَانَ كَانَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فِي مَسْلَاخٍ وَاحِدٍ، وَذَلِكَ حَلْفٌ لَا يَحُلُّهُ سَوْءُ رَأْيِكَ.^٢

وَمِنْ خِلَالِ هَذَيْنِ الْكِتَابَيْنِ نَرَى أَنَّ لِلْمُقَرَّبِينَ مِنَ الْإِمَامِ الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَطْلَقَ الْحُرِّيَّةِ فِي التَّحَرُّكِ وَالْعَمَلِ الرَّسَالِيِّ، حَيْثُ إِنَّ إِفْسَادَ النَّاسِ الَّذِي وَرَدَ فِي كِتَابِ زِيَادٍ، يَعْنِي تَبْيَانِ فَضَائِلِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالِدَعْوَةَ إِلَى التَّمَسُّكِ بِمَنْهَجِهِمْ، وَفَضَحِ مَآرِسَاتِ الْحُكْمِ الْأُمَوِيِّ وَانْحِرَافِهِ عَنِ الْأَسْسِ الْإِسْلَامِيَّةِ الثَّابِتَةِ، وَالتَّحْرِيزِ عَلَى مُخَالَفَةِ حُكْمِهِمْ، وَكَانَ مَوْقِفُ مُعَاوِيَةَ هُوَ رَدُّ زِيَادٍ عَنْ تَوَعُّدِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَتَهْدِيدِهِ.

١. تحف العقول، ص ١٦٤.

٢. شرح نهج البلاغة، ج ٦، ص ٢٨٨ إلى ٢٩٤.

وحينما لاحق زياد رجلاً من أصحاب الإمام الحسن عليه السلام، كتب الإمام الحسن عليه السلام إلى زياد كتاباً جاء فيه: من الحسن بن عليّ إلى زياد، أما بعد... قد ذكر لي فلان أنك تعرّضت له، فأحبّ ألا تعرض له إلا بخير، والسلام.

فغضب زياد وكتب له: ... وأيم الله لأطلبته بين جلدك ولحمك.

فبعث الإمام عليه السلام بكتاب زياد إلى معاوية، فلما قرأه غضب وكتب له: من معاوية ابن أبي سفيان إلى زياد. أما بعد، فإنّ لك رأيين: رأياً من أبي سفيان ورأياً من سميّة، فأما رأيك من أبي سفيان فحلّم وحزم، وأما رأيك من سميّة، فما يكون من مثلها، إنّ الحسن بن عليّ كتب إليّ بأنك عرضت لصاحبه، فلا تعرض له، فإنّي لم أجعل لك عليه سبيلاً، وأنّ الحسن ليس ممّن يرمى به الرجوان، والعجب من كتابك إليه لا تنسبه إلى أبيه أو إلى أمّه، فالآن حين اخترت له، والسلام.^١

وهدم زياد دار أحد الشيعة - وهو سعيد بن سرح -، فكتب الإمام عليه السلام إليه كتاباً فلم يستجب له، فأخبر معاوية بالأمر فكتب معاوية إلى زياد: ... كتابك إلى الحسن تشتم أباه، وتعرض له بالفسق، ولعمري إنّك الأولى بالفسق من أبيه... فإذا ورد عليك كتابي فخلّ ما في يديك لسعيد بن سرح، وابن له داره، واردد عليه ماله، ولا تعرّض له، فقد كتبت إلى الحسن أن يخيره، إن شاء أقام عنده، وإن شاء رجع إلى بلده، ولا سلطان لك عليه لا بيد ولا لسان.

وكتب في أسفل الكتاب شعراً، من جملته:

أما حسنٌ فابن الذي كان قبله إذا سار سار الموت حيث يسير

وهل يلد الرئبال إلا نظيره وذا حسنٌ شبه له ونظيره^٢

وفي إمارة المغيرة بن شعبة على الكوفة كان لأصحاب الإمام الحسن عليه السلام مطلق

١. العقد الفريد، ج ٥، ص ٢٧٣.

٢. شرح نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٨، ١٩؛ أنساب الأشراف، ج ٣، ص ٥٣.

الحرية في التحرك والعمل الرسالي، فلم يتعرض لأحد منهم بسجن أو قتل أو ملاحقة، وكان يقال له: إن فلاناً يرى رأي الشيعة، وفلاناً يرى رأي الخوارج، فيقول: قضى الله أن لا يزالوا مختلفين وسيحكم الله بين عباده.^١

توسّع القاعدة الشعبية لأهل البيت عليه السلام

استثمر الإمام عليه السلام الفرصة المتاحة له في توسيع القاعدة الشعبية لأهل البيت عليه السلام بنشر الأفكار والمفاهيم السليمة، ونشر فضائل أمير المؤمنين عليه السلام ونشر الأحاديث التي توجّه الأنظار إلى إمامة أهل البيت عليه السلام ودورهم القيادي في الأمة، ونشر مطلق أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله بعد أن منع الخلفاء الثلاثة نشرها في العهود السابقة، واستطاع عليه السلام أن ينشر الوعي في صفوف المسلمين حتّى أصبحوا يميّزون بين منهجين: منهج الإستقامة على خطّ الرسالة بقيادة أهل البيت عليه السلام، ومنهج الأمويين المنحرف وهكذا وضع الإمام الحسن عليه السلام اللبنة الأولى لتعرية الحكم الأموي وبيان حقيقته الجاهلية لكي تأتي اللبنة الأخرى في مراحل الحركة الرسالية ولتكون الأمة في حالة تعبئة نفسية وروحية للتفاعل مع ثورة الإمام الحسين عليه السلام فيما بعد، فقد تفاعل صلح الحسن عليه السلام مع ثورة الحسين عليه السلام ليؤدّي بالنتيجة إلى تبني الجهاد المسلّح ل إيقاف انحراف الحاكم أو إزالته، فكانت ثورة أهل المدينة وثورة التوابين والمختار وغيرها من الثورات، التي كسرت الطوق المفروض على أئمة أهل البيت عليه السلام وأتباعهم فانطلقوا لأداء دورهم الرسالي في الأمة رغم التخطيط الجاهلي لهدم أصول الإسلام وحصونه.^٢

١. شرح نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٩٤، ١٩٥.

٢. الكامل في التاريخ ٣: ٤٢١.

الثالث

□ في وقت استعمل فيه معاوية الكيد والدس والخداع والتمويه على الحقائق في أجواء سادها الركود الفكري، وطفا فيه الطمع المادي، وشاع فيه الخوف والإرهاب؛ جاء دور الصلح الذي صالح به الإمام الحسن عليه السلام معاوية، جاء كاشفاً زيف السياسة الأموية، وواضحاً الحقيقة ناصعة أمام الأمة إذ وجدت في ذلك حكمة الإسلام في تنظيم شؤون الأمة في إطار تفكير قائدها المحنك الإمام الحسن عليه السلام الذي فوّت بدوره فتنة لولاه لحلت بالأمة المأساة الكبرى التي خطط لها معاوية، والأتباع الضالعون في مخطّطه الإرهابي. وانكشفت من خلال الصلح حقيقة معاوية أمام الأمويين الذين خدعهم بريق سياسته المزيفة، فقد تسرّع معاوية بمطالبة الإمام بدم عثمان، ولكن معاوية حينما وصل إلى قمة السلطة تخلّى عن المطالبة بدم عثمان.

□ و بعد استشهاد الإمام الحسن عليه السلام أخذت التدايعات للضجة التي أثارها معاوية في إبان مطالبته بدم عثمان أخذت تلك التدايعات تنكشف حقائقها يوماً بعد يوم ويتضح زيفها حتّى لمن لا صلة له بالأحداث فضلاً عن الضالعين في مؤامرات معاوية من المقرّبين والمنفعيين، والمنخدعين. فقد انطلت إشاعة حلم معاوية وسماحته وعفوه حتّى على بعض الواعين للأحداث وإلى يومنا هذا.

□ و طارد معاوية أنصار الإمام عليّ عليه السلام والحسن عليه السلام، ونكّل بالمؤمنين شر تنكيل وأدخل في الإسلام ما ليس فيه، ومهّد الطريق أمام تنفيذ الحكم الأموي بالحديد والنار، وحكم الأمة بالقهر والتهديد، وزيف الحقائق، حتّى أوعز إلى عامله زياد بهدم دور أنصار الإمام عليّ عليه السلام والحسن عليه السلام.

□ وقد استثمر الإمام الحسن عليه السلام فرصة وعي الأمة وهو يقودها فكرياً ولو لم يكن حاكماً فاستغلها في توسيع القاعدة الشعبية التي ربّاهَا أبوه عليّ وأُمّه الزهراء عليهما السلام بنشر الأحاديث التي توجّه الأنظار إلى إمامة أهل البيت، باعتبار ذلك منهجاً فكرياً وروحياً يتميّز به شيعته ومحبيه والسائرون على هدى الإسلام و موضحاً عليه السلام إلى جانب هذا منهجاً منحرفاً يتميّز به أتباع السّياسيّة الأمويّة الرعناء، وقد هيأت سياسة الإمام الحسن عليه السلام هذه الأذهان إلى قيام ثورة الإمام الحسين عليه السلام وأدّى استشهادُه بعده إلى قيام ثورات ضدّ بني أميّة رغم طغيانهم كسرت طوق الخوف، فانطلقت الأمة في ظلّ تلك الثورات لأداء دورها الرسالي.

الأسئلة

- ١ . ما هي أهمّ النوايا السلبية التي صرّح بها معاوية أمام جمهور من المسلمين بعد أن كان مستتراً عليها؟
- ٢ . كان لشعار المطالبة بدم عثمان دور كبير في وصول معاوية إلى السلطة، فما هي الأسباب التي دفعت له للتخلّي عن ذلك بعد أن أصبحت القوّة بيده؟
- ٣ . ما هي أسباب سكوت معاوية عن معارضيّه، هل هي: الحلم والوفاء بالشروط أم غير ذلك؟
- ٤ . خالف معاوية سيرة رسول الله ﷺ في أخذ البيعة، فما هو وجه هذه المخالفة؟
- ٥ . من نوايا معاوية هي عدم تنفيذ الوعود وعدم التقيد بالشروط الموضوعّة في الصلح، إلّا أنّه نفّذ بعضاً منها، فما هي أسباب ذلك؟
- ٦ . هل حصل الشيعة على الأمان في عهد الإمام الحسن؟ أذكر الدليل على ذلك؟
- ٧ . ما هي أهمّ المواضيع التي تطرّق إليها الإمام عليّ عليه السلام في تبيانّه لخصائص الحاكم الإسلامي؟
- ٨ . ما هي أهمّ انحرافات الحكم الأموي التي بيّنها الإمام الحسن عليه السلام؟
- ٩ . ما هو الميزان الذي ذكره الإمام عليّ عليه السلام في إثبات عدم إيمان معاوية؟
- ١٠ . ما هي أهمّ المكاسب التي حصل عليها الإمام عليّ عليه السلام من خلال اتخاذه قرار الصلح؟

الإمام الحسن عليه السلام بعد الصلح حتى الشهادة

الاجتماع في الكوفة

عُقد اجتماع موسّع حضره أنصار أهل البيت عليهم السلام وأنصار الأمويين ممن انخرطوا في جيش معاوية، وتبادل معاوية والإمام عليه السلام الخطب التي تعبر عن منهج كل منهما. بين الإمام عليه السلام دور أهل البيت القيادي في الأمة ووجوب طاعتهم ومما جاء في ذلك قوله عليه السلام: (نحن حزب الله المفلحون وعتره رسول الله ﷺ الأقربون، وأهل بيته الطاهرون الطيبون، وأحد الثقلين اللذين خلفهما رسول الله ﷺ ... فإن طاعتنا مفروضة، إذ كانت بطاعة الله والرسول وأولي الأمر مقرونة...)^١

وبين فضل أهل البيت عليهم السلام على المسلمين في هدايتهم وحقن دمائهم، كما بين سنن التاريخ في تقلب الدول وعدم دوامها، فقال عليه السلام: (أما بعد أيها الناس، فإن الله قد هداكم بأولنا، وحقن دماءكم بآخرنا، وأن لهذا الأمر مدة، والدنيا دول، وأن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: «وإن أذري لعلّ فتنة لكم ومتاع إلى حين».)^٢

وأكد عليه السلام على المواثيق المأخوذة على معاوية في إقامة العدالة وتحسين الأوضاع

١. مروج الذهب، ج ٢، ص ٤٣١ وقد ينسب هذا القول للحسين عليه السلام في بعض كتب الاحتجاج.

٢. تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٦٣؛ سورة الأنبياء / ١١١.

المعيشية وأشهد على ذلك، فقال عليه السلام: (... وإني قد أخذت لكم على معاوية أن يعدل فيكم وأن يوفر عليكم غنائمكم، وأن يقسم فيكم فينكمم).

ثم أقبل على معاوية فقال: أكذاك؟ قال: نعم.^١

وحينما نال معاوية من أمير المؤمنين عليه السلام في خطابه أجابه الإمام عليه السلام: (أيها الذاكر علياً أنا الحسن وأبي علي، وأنت معاوية وأبوك صخر، وأمي فاطمة، وأمك هند، وجدّي رسول الله صلى الله عليه وآله وجدك حرب، وجدتي خديجة وجدتك قتيلة، فلن الله أخلصنا ذكراً، والأمنأ حسباً، وشرنا قدماً، وأقدمنا كفراً ونفاقاً).

فقال من في المسجد: آمين.^٢

وفي جميع المواقف كان عليه السلام يسمي معاوية باسمه دون إضافة أي لقب إليه لئلا يضمني عليه أية صفة شرعية، ولم يستطع معاوية أن يكرهه على تسميته بالأمير، أو الخليفة.

عدم الاعتراف بشرعية أوامر معاوية

أراد معاوية من الإمام عليه السلام أن يتولّى قتال الخوارج، من أجل إشغال المعارضة بعضها ببعض، فلم يجبه عليه السلام إلى ذلك وكان جوابه: (والله لقد كففت عنك لحقن دماء المسلمين، وما أحسب ذلك يسعني، أفأقاتل عنك قوماً أنت والله أولى بالقتال منهم).^٣ وجاء في رواية أنه قال له: (لو آثرت أن أقاتل أحداً من أهل القبلة لبدأت بقتالك، فأبني تركتك لصالح الأمة وحقق دمائها).^٤

فرفض الاستجابة لأوامره وبين عدم شرعيته، وأفضل مخطط معاوية في زرع العداوة المصحوبة في توجه الأنظار إلى العدو المشترك. وترك عليه السلام الكوفة عائداً إلى المدينة.

١. تاريخ الإسلام للذهبي، ص ٣٩.

٢. مقاتل الطالبين، ص ٧٨.

٣. شرح نهج البلاغة، ج ٥، ص ٩٨؛ المقد الفريد، ج ١، ص ١٨١.

٤. الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٤٠٩.

رفض مصاهرة الأمويين وتبيان حقيقة الصراع بينهما

رام معاوية مصاهرة بني هاشم، وكتب لعامله مروان أن يخاطب زينب بنت عبد الله بن جعفر ليزيد، على حكم أبيها في الصداق وقضاء دينه، وعلى صلح بني هاشم وبني أمية، فأجاب عبد الله مروان بأن الأمر بيد الإمام الحسن عليه السلام.

فجمع مروان الهاشميين والأمويين وخطب من الإمام الحسن عليه السلام فأجابه الإمام عليه السلام قائلاً: (أما ما ذكرت من حكم أبيها في الصداق، فإننا لم نكن نلتم عن سنة رسول الله ﷺ في أهله وبناته، وأما قضاء دين أبيها فمتى قضت نساؤنا ديون آبائهن؟! وأما صلح الحيين، فإننا عاديناكم لله وفي الله، فلا نصالحكم للدنيا).^١

وهكذا رفض الإمام عليه السلام توثيق العلاقة مع الأمويين، وبيّن أنّ حقيقة الصراع هو صراع في جميع مقومات الشخصية، صراع الفكر والعاطفة والسلوك، صراع بين الاستقامة والانحراف العقائدي والسلوكي، فلا دور للقيم المادية في إزالته وإعادة الأمور إلى التوافق حيث لا توافق بين منهجين متناقضين في قريهما وبعدهما عن المنهج الإسلامي.

فضح النظام الأموي في مركز قوّته

وفد الإمام عليه السلام على معاوية في عاصمة نظامه، وكان اللقاء على هيئة مناظرات استطاع الإمام عليه السلام من خلالها فضح رأس النظام الأموي وأتباعه، ففي أوّل مناظرة بعد أن افتخر معاوية عليه عند اجتماع الناس حوله أجابه عليه السلام:

هيئات، لشرّ ما علوت يابن آكلة الأكباد، المجتمعون عليك رجلان: بين مطيع ومكره، فالطائع لك عاص لله، والمكره معذور بكتاب الله، وحاشا لله أن أقول أنا خير منك؛ لأنك لا خير فيك، فإن الله قد برأني من الرذائل كما برأك من الفضائل).^٢

١. مقتل الحسين للموارزمي، ج ١، ص ١٢٤.

٢. حياة الإمام الحسن، ج ٢، ص ٣٠٦ عن روضة الواعظين للنيسابوري.

وفي مناظرة أخرى كشف مساوئ معاوية والمقربين إليه - كما تقدّم في الدرس السابق - وبين عداة معاوية لرسول الله ﷺ على امتداد مراحل حياته.

وفي مجلس آخر قال معاوية: من أكرم الناس أباً وأماً وجدّاً وجدّةً وخالاً وخالةً وعمّاً وعمّة؟ فقام النعمان بن العجلان الزرقي، فأخذ بيد الإمام الحسن عليه السلام فقال: هذا... ثم التفت إلى عمرو بن العاص وقال: يا ابن العاص أما علمت أنّه من التمس رضا مخلوق بسخط الخالق حرمه الله أمنيته، وختم له بالشقاء في آخر عمره؟!^١

وفي مناظرة رابعة بين علي عليه السلام وخيانة معاوية للحكّام ودوره في التربّص بعثمان، وصّدّ أبيه عن الإسلام، فقال عليه السلام: ولّاك عمر الشام فخنثه، ثمّ ولّاك عثمان فتربّصت عليه، وأنت الذي كنت تنهى أباك عن الإسلام حتّى قلت له:

يا صخر لا تسلمن طوعاً فتفضحننا بعد الذين ببدّرٍ أصبحوا مزقاً^٢

وقد شجعت مواقف الإمام الحسن عليه السلام غيره على تحدّي معاوية، حتّى قد تحدّاه سعد بن أبي وقاص وقال له: إنّما أنت منتزٍ، بعد أن سلّم عليه بالقول: السلام عليك أيّها الملك،^٣ وتحّداه أبو الأسود، وابن عباس، وابن الزبير، وعبدالله بن هاشم المرقال وآخرون.

وله عليه السلام مواقف عديدة في المدينة واجه بها معاوية عند قدومه إليها وبين فيها مقام أهل البيت ومثالب معاوية والحكم الأموي.

استقبال المعارضين

كان المعارضون للحكم الأموي يتوجّهون إلى الإمام علي عليه السلام في مقرّ إقامته بالمدينة،

١. مختصر تاريخ دمشق، ج ٧، ص ٢٣.

٢. تذكرة الخواص، ص ١٨٣.

٣. تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢١٧.

وكان يستقبلهم ويوجه أفكارهم وممارساتهم، وعلى الرغم من صدور الإساءة من بعضهم لمقامه السامي إلا أنه عليه السلام كان يقابلهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ويوضح لهم الظروف التي دفعته للصلح، والمصالح المترتبة عليه، ويدعوهم للصبر والتعبئة النفسية والروحية إلى أن يأتي اليوم الذي يتخذون فيه قرار الثورة المسلحة في ظرفها المناسب.

وكان عليه السلام مأوئاً للشخصيات المطاردة من قبل الولاة، يدافع عنهم ويطالب بحقوقهم، ورفع الحظر عنهم.

الإعداد الفكري والسلوكي للجماعة الصالحة

كان عليه السلام مستمراً في إعداد أصحابه إعداداً فكرياً وسلوكياً، وكان يوجه عقولهم وقلوبهم وإرادتهم إلى المسؤولية الكبرى في حمل المنهج الإسلامي وتقرير مفاهيمه وقيمه في واقع الحياة، وكان يؤكد على اتساع أفق النظر، والتعامل الموضوعي مع الأفكار والأحداث، وبذل الجهد لحماية العقيدة والشرعية، وصيانة الأخلاق في الشعور والممارسات العملية إضافة إلى أعماق الضمير وفي الواقع الاجتماعي، وكان يدعو أصحابه وسائر المسلمين إلى جعل مصادر موازين الإسلام الثابتة معياراً لتقويم الأفكار والأعمال والأحداث والناس.

وكان يؤكد على أن التشيع مسؤولية وممارسة سلوكية، وهو مرتبة شريفة وليس شعاراً يرفع وادعاءً، فارغاً كما جاء في قوله لأحد أصحابه: (إن كنت لنا في أوامرنا وزواجرنا مطيعاً فقد صدقت، وإن كنت بخلاف ذلك فلا تزدد في ذنوبك بدعواك مرتبة شريفة لست من أهلها...)^١

وكانت أحاديثه الشريفة تؤكد على الإخاء والتعاون والإحسان وحسن الخلق،

وصدق اللسان، والتكافل الاجتماعي، وكان يؤكد المداومة على اللقاءات في المساجد والبيوت لمدارسة الجوانب المختلفة في العقيدة والشرعة، وله عليه السلام لقاءات مع مختلف الطبقات ومختلف الناس من أنصاره وغيرهم.

مدرسة الإمام ونشاطه العلمي

أنشأ الإمام عليه السلام مدرسته الكبرى في المدينة، لنشر علوم أهل البيت عليهم السلام في مختلف حقولها، وقد انتمى لمدرسته كبار العلماء، وعظماء المحدثين والرواة، وقد ذكر المؤرخون بعض أعلام تلامذته مثل: ابنه الحسن المثنى، والمسيب ابن نجبة، وسويد بن غفلة، والشعبي، والأصبغ بن نباتة، وجابر بن خلد، وأبومريم قيس الثقفى، وإسحاق بن يسار.^١

وكان عليه السلام يجلس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ويجتمع الناس حوله فيتكلم بما يشفي غليل السائلين ويقطع حجج المجادلين.^٢

وكان يجيب على الأسئلة الموجهة إليه من مختلف الأفراد والذين ينتسبون إلى مدارس فكرية أخرى، كالحسن البصري الذي أجابه عليه السلام في مختلف حقول المعرفة الإسلامية، في العقيدة والشرعة.^٣

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وكان يحث على تداول حديث الرسول صلى الله عليه وآله ونشره وتدوينه.^٤

١. تاريخ دمشق، ج ١٢ صورة فوتوغرافية في مكتبة الإمام أمير المؤمنين. مختصر تاريخ دمشق، ج ٧ ترجمة الإمام الحسن عليه السلام.

٢. الفصول المهمة، ص ١٥٥.

٣. تحف العقول، ص ١٦٦.

٤. مختصر تاريخ دمشق، ج ٧، ص ٥.

غدر معاوية اغتيال الإمام الحسن عليه السلام

أيقن معاوية أنّ بقاء الإمام عليه السلام حيّاً يشكّل تهديداً واضحاً لنظامه القائم على أساس الخداع والتضليل وتزوير الحقائق وشراء الضمائر، وإشاعة الإرهاب، وقد منعتُه الهيبة من الإمام عليه السلام من ممارسة كثير من الانحرافات المخالفة للكتاب والسنة والمنهج الإسلامي الثابت، وبقيت تراوده الهواجس من وقوف الإمام عليه السلام بوجه مؤامراته والتي كان منها ترشيح يزيد للخلافة، فنقذ أول غدر له، حين نسّق مع زوجة الإمام عليه السلام - جعدة بنت الأشعث - لدس السم إليه.

وبالفعل نفّذت جعدة المؤامرة وسمّت الإمام،^١ فاستشهد الإمام مسموماً، وحينما وصل الخبر إلى معاوية كبر في جمعٍ من أهل الشام، وقال: واللّه ما كبرت شماتة بموته، ولكن استراج قلبي^٢ وصفّت لي الخلافة.^٣

ثمّ استمر معاوية بنقضه لليهود بعد استشهاده عليه السلام حتّى قيل إنّ: أوّل دُلّ دخل على العرب موت الحسن بن علي.^٤

وكان معاوية يخطّط لبيعة يزيد إلّا أنّه لم يكشف عنها إلّا بعد استشهاده الإمام،^٥ ولما استشهد الإمام عليه السلام لعن معاوية أمير المؤمنين عليه السلام على المنابر وكتب إلى عمّاله أن يلعنوه ففعلوا.^٦

وازداد البلاء بعد استشهاده، فلم يبق أحد من أتباعه إلّا وهو خائف على دمه، أو

١. الاستيعاب، ج ١، ص ٣٧٥؛ مقاتل الطالبين، ص ٨٠؛ تذكرة الخواص، ص ١٩٢.

٢. وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٦٦.

٣. ربيع الأبرار، ج ٤، ص ٢٠٩.

٤. مختصر تاريخ دمشق، ج ٧، ص ٤٦؛ شرح نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٠.

٥. الاستيعاب، ج ١، ص ٣٧٦.

٦. العقد الفريد، ج ٥، ص ١١٤.

طريد في الأرض،^١ حيث أصدر معاوية براءة الذمة ممن يذكر أهل البيت عليهم السلام بخير، وملاحقة أتباعهم بقطع أرزاقهم وهدم منازلهم^٢ وأصدر أوامره بقتل من اتهم بحب علي عليه السلام وإن لم تقم عليه بيّنة،^٣ فقتل حجر بن عدي وعمرو ابن الحمق وخيرة صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين علي عليه السلام.

وصايا الإمام علي عليه السلام

دخل عليه الصحابي الجليل جنادة بن أبي أمية، وقال له: عظمي يابن رسول الله، فأجابه - وهو في أشد الأحوال - وأوصاه قائلاً: استعد لسفرك... واعلم أنك تطلب الدنيا والموت يطلبك... واعلم أن الدنيا في حلالها حساب وفي حرامها عقاب، وفي الشبهات عتاب... واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً...^٤

وأوصى أخاه الإمام الحسين عليه السلام بوصايا عديدة تتعلق بالشؤون العامة، وبشؤونه الخاصة، وأن يدفن مع رسول الله صلى الله عليه وآله فإن رفض الحكام ذلك دفن في البقيع، وأوصاه أن لا تراق محجمة دم من أجله.^٥

وأوصى أخاه محمد بن الحنفية قائلاً: (... كونوا أوعية العلم ومصابيح الدجى... علم الله أنكم خير خلقه فاصطفى منكم محمد صلى الله عليه وآله واختار محمد علياً، واختارني علي للإمامة، واخترت أنا الحسين) فأجابه محمد بالطاعة والتسليم.^٦

١. شرح نهج البلاغة، ج ١١، ص ٤٦.

٢. شرح نهج البلاغة، ج ١١، ص ٤٤ وما بعدها.

٣. بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ١٢٦.

٤. أعيان الشيعة، ج ٤، ص ٨٥.

٥. أعيان الشيعة، ج ٤، ص ٧٩.

٦. حياة الإمام الحسن، ج ٢، ص ٤٨٧، ٤٨٩.

الناص

□ تبادل الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية الخطب والمناظرات التي توضّح منهج كلّ منهما، وأنّ طاعة أهل البيت واجبة على الأُمّة دون غيرهم بنصّ من القرآن، وأقوال الرسول ﷺ.

□ و رغم معاندة معاوية للحقّ؛ فقد اعترف للإمام عليه السلام بأحقّيّته بالأمر منه، ولكن معاوية حرّض على قتال الإمام بإشعال نار الفتن، وإثارة الأحقاد، فأراد من الإمام أن يقاتل الخوارج ورفض الإمام عليه السلام ذلك وبذلك أفضل خطط معاوية، وفضح أساليب مكره. وطلب معاوية من مروان أن يخطب زينب بنت عبد الله لابنه يزيد، ولكن الإمام عليه السلام رفض هذه الخطبة، ويبيّن أنّ الإنحراف والاستقامة لا يلتقيان.

□ و تحدّى الإمام الحسن عليه السلام معاوية في عاصمته حينما ناظره أمام الناس، وأكد على دور الحقّ في بناء الأُمّة، فكان عليه السلام خلال ذلك لا يسمّي معاوية إلّا باسمه، وخرج عليه السلام من المناظرة تاركاً معاوية منفعلاً حتّى أمر الناس بالإنصراف عنه، حيث فضحه أمام الحاضرين وسقّه أحلامه، وترك الناس، يعتقدون بغضب معاوية للإدارة السياسيّة، والقيادة الشرعيّة من أهلها.

□ و اعتراف معاوية أمام أهل الشام في مجلسه؛ بأنّ الإمام الحسن عليه السلام أكرم الناس أباً وأماً وجدّاً وجدّة وخالاً وخالة وعمّاً وعمّة يدلّ على اغتصاب الخلافة من يد أهلها، وعلى عدم أهليّة معاوية لها.

□ و كان عليه السلام يؤكّد من خلال ما قام به من نشاطات على دور التشييع لمستقبل الأُمّة، فهو يريد أن يعدّ أتباعه إعداداً فكرياً وروحياً يتناسب مع روح الإسلام، ليمارسوا بأنفسهم دوراً قيادياً رائداً، وتتوخّد كلمتهم للدفاع عن الحقّ الذي يحمل رايته المقدّسة أئمة الهدى صلوات الله عليهم

أجمعين. فقد أنشأ عليه السلام مدرسة كبرى في المدينة لنشر علوم أهل البيت عليهم السلام انتمى إليها كبار الصحابة والمحدثون والرواة. ولكن معاوية لم يحل له ما كان يشاهده من الإمام عليه السلام فتربّص به حتّى دسّ إليه السم، ومات عليه السلام مسموماً. فاستغلّ بذلك معاوية استشهاد الإمام، فأمر بسبّ علي عليه السلام على المنابر ليشفى غيظه، وجعل مسبّته سنّة يشبّ عليها الصغير، ويهرم عليها الكبير.

الأسئلة

١. لماذا أكّد الإمام عليه السلام في خطابه بالكوفة على المواثيق المأخوذة على معاوية، ولماذا أشهده عليها؟
٢. في أوّل خطاب لمعاوية حين نال أمير المؤمنين عليه السلام بسوء، ما الدافع لذلك؟ وماذا كان جواب الإمام عليه السلام؟
٣. لماذا كان الإمام عليه السلام يسمّي معاوية باسمه دون إضافة أيّ لقب آخر عليه؟
٤. ماهي الأسباب التي دفعت الإمام الحسن عليه السلام لعدم الاستجابة إلى أوامر معاوية في قتال الخوارج؟
٥. ما هي الأسباب الحقيقيّة للصراع بين العلويّين والأمويّين والتي وضّحها الإمام عليه السلام بعد رفضه لمصاهرة الأمويّين؟
٦. ما هي أهمّ المواقف التي فضح بها الإمام معاوية؟
٧. ما هي أهمّ نشاطات الإمام عليه السلام في المدينة بعد الصلح؟
٨. لماذا أقدم معاوية على اغتيال الإمام عليه السلام بالسمّ؟

ملاحع عصر الإمام الحسين عليه السلام

لقد مهّد الانحراف الذي خضع له المسلمون في سقيفة بني ساعدة بعد وفاة الرسول ﷺ والاستيلاء غير المشروع على منصب الخلافة إلى أن يستولي الطلقاء على كرسي الحكم الإسلامي واشتداد زاوية الانحراف حتّى تحوّلت الخلافة الإسلامية بالتدريج إلى ملك عضوض يتوارثه شرار الخلق مع الاستخفاف التام بالقيم الإسلامية واستبدالها بقيم جاهليّة بائدة.

لقد عاصر الإمام الحسين عليه السلام - بعد استشهاد أخيه الإمام الحسن عليه السلام - عشر سنوات من حكم معاوية الذي كشف واقع أهدافه بكلّ صراحة بعد إبرام وثيقة الصلح مع الإمام الحسن عليه السلام ولخصّها في حبّ السيطرة على الحكم.

وكان معاوية يتدرّج في تنفيذ المخطّط الأموي الذي أفصح عنه أبوسفیان حين تولّى عثمان منصب الحكم إذ اعتبر خلافة النبي ﷺ كرهة يتلاعب بها صبيان بني أميّة.

منهج معاوية لهدم الإسلام

لقد كانت الخطوات التي خطاها معاوية بعد إبرام الصلح مع الإمام الحسن عليه السلام تشكّل مخطّطاً متكاملاً لهدم الإسلام وإعادة الجاهليّة إلى المجتمع الإسلامي باسم الإسلام وخلافة الرسول ﷺ وإمرة المؤمنين . وتتلخّص هذه الخطوات فيما يلي:

١ . إشاعة الإرهاب والتصفية الجسدية لكل القوى المعارضة للحكم الأموي سيما أتباع الإمام علي عليه السلام منهم، ومتابعيهم، وإخراس كل لسان حُرّ بكلّ وسائل التنكيل والاضطهاد.

وبمقدور القارئ الكريم أن يدرك أبعاد تلك السياسة الهوجاء من خلال النصّ الآتي الذي يوصي به معاوية أحد قادة جيوشه: ... فاقتل من لقيته ممّن ليس هو علي مثل رأيك، واخرب كلّ ما مرت به من القرى، واخرب الأموال، فإنّ حرب الأموال شبيهة بالقتل وهو أوجع للقلب^١.

وإذا كان المخطّط الأموي المنحرف الذي يعكس النصّ السابق طبيعته وانحرافه، قد بدأ تنفيذه في عهد الإمام علي عليه السلام ، فإنّه بعد توقيع الوثيقة قد اتخذ أبعاداً أشدّ خطورة، وأبعد أثراً في إراقة الدماء البريئة، وتصفية المعارضين بشتّى مذاهبهم، وفي طليعتهم أتباع الإمام علي وأهل بيته عليه السلام .

فقد كتب معاوية إلى ولاته في جميع الأمصار: انظروا من قامت عليه البيّنة أنّه يحبّ علياً وأهل بيته، فامحوه من الديوان واسقطوا عطاءه ورزقه^٢.

وكتب كتاباً آخر جاء فيه: من اتهمتموه بموالاته هؤلاء القوم فنكّلوا به واهدموا داره^٣.

وقد صور الإمام محمد الباقر عليه السلام تلك المأساة الدامية بأقصر عبارة وأدقّها حين قال: فقُتِلَتْ شيعتنا بكلّ بلدة، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنّة، وكان من يُذكر بحبّنا والإنقطاع إلينا سجن، أو نهب ماله، أو هدمت داره، ثم لم يزل البلاء يشتدّ ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين عليه السلام^٤.

١. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ٢، ص ٨٦.

٢. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١١، ص ٤٥.

٣. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١١، ص ٤٥.

٤. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١١، ص ٤٣.

وكان في طليعة ضحايا تلك المجزرة الرهيبة كوكبة من الصحابة الأبرار أمثال: حجر بن عدي وجماعته، ورشيد الهجري، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وأوفى بن حصن، وسواهم كثير، ومن شاء الإحاطة بمزيد من الأرقام الدالة على مواقف معاوية؛ فدونه الطبري والكمال وشرح النهج وغيرها.

٢ . إغداق الأموال من أجل شراء الضمائر والذمم إمعاناً في إذابة الشخصية الإسلامية وتمكيناً للسياسة المنحرفة من تحقيق أهدافها السوداء، وقد تمّ فعلاً شراء نوعين من الناس:

أ - بعض الوعّاظ والمحدثين الذي كان لهم دور مفضوح في العمالة لمعاوية وافتراء الأحاديث الكاذبة ونسبتها إلى الرسول ﷺ للنيل من علي عليه السلام وأهل بيته قاطبة.

ب - شراء ضمائر الوجوه الاجتماعية التي يخشى من تحرّكها ضدّ الحكم الأموي، وهو أسلوب مارسه معاوية وغيره من ساسة الحكم حتّى صار إحدى متبنيات السياسة الأموية في جميع مراحلها؛ وليس أدلّ على ذلك من إرسال معاوية إلى مالك بن هبيرة السكوني ألف درهم حين بلغه استيأؤه من قتل معاوية للصحابي الجليل حجر بن عدي وأصحابه (رض)، فما كان من السكوني إلّا أن أخذ ثمن ضميره وتخلّى عن عزمه على التحرك بوجه الظلم والفساد!!.

٣ . المضايقة الاقتصادية وأسلوب التجويع: وهو أكثر الأساليب الأموية تأثيراً سلبياً في نفسيّة الأئمة المسلمة بإذلالها وإشاعة المسكنة في نفوس أبنائها.

وبالنظر إلى أنّ السياسة المذكورة تقوم على أساس محاربة القوى المعارضة في رزقها وقوتها اليومي، فقد سلك معاوية أبشع الطرق لمحاصرة شيعة أهل البيت عليهم السلام على وجه الخصوص، ومضايقتهم اقتصادياً كما تشير الوثائق التاريخية إلى ذلك، ومنها بيان معاوية الذي بلغه لجميع ولاته بهذا الصدد: انظروا من قامت عليه البيّنة أنّه يحبّ

علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان، واسقطوا عطاءه ورزقه^١.

ولك أن تقدّر أبعاد تلك السياسة الهوجاء التي درج على انتهاجها البيت الأموي من تخريب للضمائر وإفساد للنفوس وهي مسألة ليست يسيرة وليست طارئة، وإنما منحها معاوية صفة الاستمرارية طيلة العشرين سنة التي صفا الجو السياسي له فيها (٤١ هـ حتى ٦٠ هـ).

٤. العمل على تمزيق أواصر الأمة الإسلامية بإثارة الروح القومية والقبلية والإقليمية بين قطاعاتها المختلفة إمعاناً منه في إلهاء الأمة في تناقضات جانبية على حساب تناقضها الأساسي مع الحكم الأموي الجائر، وذلك في ممارسة إثارة الضغائن بين القبائل العربية وإشغالها بالصراعات الجانبية فيما بينها، كالصراع الذي نشب بين قيس ومضر، وأهل اليمن والمدينة، وبين قبائل العراق فيما بينها، وإثارة العنصرية عند العرب ضد المسلمين من غير العرب الذي يعرفون تاريخياً باسم الموالي، وبمقدور المرء أن يجد آثار تلك السياسة الجاهلية جلياً في أشعار مسكين الدارمي والفرزدق وجريير والأخطل وسواهم^٢.

٥. اغتيال الإمام السبط الحسن بن علي عليه السلام بالرغم من أنه كان قد تعهد بأن لا يبغى له ولا لأخيه الفوائل.

٦. فرض البيعة لولده (يزيد) المعلن بفسقه وتحكيمة في رقاب المسلمين تحت ظلال الكبت والإضطهاد والإغراء والترغيب، خلافاً للوثيقة التي تقضي أن يكون الحسن خليفة للمسلمين بعد موت معاوية، فإن كان الحسن هو الآخر قد رحل إلى ربّه يومها فالحسين ولي الأمر من بعده.

١. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١١، ص ٤٥.

٢. محمد مهدي شمس الدين، ثورة الحسين، ط دارالأندلس (بيروت)، إحياء النزعة القبلية واستغلالها، ص ٦١ وما بعدها.

وهكذا استكمل معاوية مخطّطه الجاهلي حين نقض كلّ بند من بنود الوثيقة التي عقدها مع الإمام الحسن عليه السلام ، وقد ارتكب معاوية شططاً آخر تجاوز فيه حدود المفهوم الإسلامي في الحكم، من خلال اتّخاذ «الوراثية» ذات الطابع الدكتاتوري أطروحة للحكم في دنيا المسلمين؛ الأمر الذي عرّض المبدأ الإسلامي والأمة الإسلامية إلى أعنف كارثة في تاريخها، حيث بدأ مسار حركتها يأخذ طريقاً مضاداً للقيم الإسلامية التي أرسى قواعدها القرآن الكريم.

وقد تبلور واقع الانحراف الذي خطّط له السياسة الأموية المتمثلة في خطط معاوية حينما سيطر ابنه يزيد على زمام الحكم.

إنّ منح يزيد السلطة ليقود الأمة الإسلامية، ويخطّط لمستقبلها، ويحدّد مسارها؛ معناه الإنهاء العملي للوجود الإسلامي على الإطلاق، وردّة واقعية عن مبادئ السماء، وعودة للجاهلية ولكن في ثوب جديد وبشكل صريح.

فيزيد - كما تؤكّد المصادر التاريخية - كان يغلب عليه طابع الشذوذ في شتّى أفكاره وممارساته ومشاعره، الأمر الذي يحمل المنصف على القول بأنّ يزيداً لم يتوفّر له أي انفتاح وإع على الرسالة الإسلامية وأهدافها العليا التي تحقّق أرقى صياغة للإنسان - كفرد وكعضو في المجتمع - صياغة لا تتصل مطلقاً بمرتكزات الجاهلية من قريب أو بعيد.

وحين يعدم يزيد الجو التربوي الذي يوفّره الإسلام عادة لأبنائه؛ فإنّ الأمر لا يدعو إلى العجب بعد ذلك إذ أطلعنا التاريخ الإسلامي على نشاطات مشبّعة بروح الانحراف عن الإسلام ممّا كان ابن معاوية يمارسه على مسمع ومرأى من كثير من المسلمين في بلاد الشام، كاللّهو الماجن واللّعب الخليع وشرب الخمر ومنادمة الفتيات والغناء، بل كان يلبس كلابه أساور الذهب^١.

قال البلاذري: كان ليزيد قرد يجعله بين يديه ويكتّيه أباقيس ويقول: هذا شيخ من بني إسرائيل أصاب خطيئة فمسخ، وكان يسقيه النبيذ ويضحك ممّا يصنع، وكان يحمله على أتان وخشبة ويرسلها مع الخيل^١.

وقال المسعودي: وكان يزيد صاحب طرب وجوارح^٢ وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب، وجلس ذات يوم على شرايه، وعن يمينه ابن زياد، وذلك بعد قتل الحسين، فأقبل على ساقيه فقال:

أسقني شربة تروي مشاشي^٣ ثم مل فاسقي مثلها ابن زياد
صاحب السر والأمانة عندي ولتسديد مغنمي وجهادي
ثم أمر المغنّين فغنّوا به.

وغلب على أصحاب يزيد وعمّاله ما كان يفعله من الفسوق، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهي، وأظهر الناس شرب الشراب^٤.

ولم ينته الموقف إلى هذا الحدّ، ولم تهدأ الحرب والصراع الممتدّ من بزوغ الدعوة الإسلاميّة بين الأمويّين وأهل البيت عليهم السلام، حتّى حينما جلس الحسنان (الحسن والحسين) بعيدين عن الميدان السياسي بصيغته العمليّة، بل بدأت الحملة تشتدّ ضدّ أهل البيت عليهم السلام وضدّ أتباعهم من قبل معاوية وجهازه الحاكم، والصراع يتصاعد، والمحنة تتفاقم، حتّى توفيّ الحسن عليه السلام فاتّجه الناس إلى الحسين عليه السلام وقروا البيعة له وخلع حكومة معاوية.

→

١- البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤، ص ١ و ٢.

٢- البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤، ص ١ و ٢.

٣- الجوارح: السباع والطير ذات الصيد. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٩٦-١٩٧.

٤- مشاشي: عظامي.

٥- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط دار الأندلس (بيروت)، ج ٣، ص ٦٧.

بينما قرّر معاوية أن ينصب ابنه يزيداً خليفة على المسلمين من بعده، ويأخذ له البيعة بنفسه خلافاً للأعراف والأحكام الإسلامية المتبعة حينذاك في تعيين الخليفة، فأنار هذا القرار الرأي العام الإسلامي وخصوصاً الشخصيات الإسلامية البارزة كالحسين بن علي عليه السلام، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وشخصيات مرموقة أخرى.

فقد نقل المؤرخون صوراً ومواقف تاريخية معبرة عن الرفض والمواجهة نذكر منها ما ذكره السيوطي:

قال: في سنة خمسين فتحت قوهستان عنوةً، وفيها دعا معاوية أهل الشام إلى البيعة بولاية العهد من بعده لابنه يزيد، فبايعوه، وهو أول من عهد بالخلافة لابنه، وأول من عهد بها في صحته. ثم أنه كتب إلى مروان بالمدينة أن يأخذ البيعة، فخطب مروان فقال: إن أمير المؤمنين رأى أن يستخلف عليكم ولده يزيداً سنة أبي بكر وعمر، فقام عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق فقال: بل سنة كسرى وقيصر، إن أبابكر وعمر لم يجعلها في أولادهما، ولا في أحد من أهل بيتهما.

ثم حجّ معاوية سنة إحدى وخمسين، وأخذ البيعة لابنه يزيد، فبعث إلى ابن عمر فتشهد وقال: أما بعد يا ابن عمر، إنك كنت تحدّثني أنك لا تحب أن تبيت ليلة سوداء ليس عليك فيها أمير، وإني أحذرك أن تشقّ عصا المسلمين^١ أو تسعى في فساد ذات بينهم.

فحمد ابن عمر الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإنّه قد كان قبلك خلفاء لهم أبناء ليس ابنك بخير من أبنائهم، فلم يروا في آبائهم ما رأيت في ابنك، ولكنهم اختاروا المسلمين حيث علموا الخيار، وأنك تحدّرتني أن أشقّ عصا المسلمين، ولم أكن لأفعل وإنا أنا رجل من المسلمين، فإذا اجتمعوا على أمر فإنما أنا رجل منهم. فقال: يرحمك

الله! فخرج ابن عمر، ثم أرسل إلى ابن أبي بكر فتشهد ثم أخذ في الكلام فقطع عليه كلامه، وقال: إنك لو وددت إنا وكلناك في أمر ابنك إلى الله، وإنا والله لا نفعل، والله لتردن هذا الأمر شورى في المسلمين، أو لتُعِدَّنَّها عليك جذعة^١، ثم وثب ومضى، فقال معاوية: اللهم اكفنيه بما شئت، ثم قال: على رسلك أيها الرجل، لا تشرفن على أهل الشام فإني أخاف أن يسبقوني بنفسك حتى أخبر العشيبة أنك قد بايعتنا، ثم كن بعد على ما بدا لك من أمرك. ثم أرسل إلى ابن الزبير، فقال: يا ابن الزبير، إنما أنت ثعلب رَوَّاعٌ كلما خرج من حجر دخل في آخر، وأنتك عمدت إلى هذين الرجلين فنفخت في مناخرهما^٢، وحملتكما على غير رأيهما.

فقال ابن الزبير: إن كنت قد ملكت الإمارة فاعتزلها، وهلم ابنك فلنبايعه، أرايت إذا بايعنا ابنك معك لأيكما نسمع ونطيع؟ لا تجتمع البيعة لكما أبداً. ثم راح، فصعد معاوية المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار^٣، زعموا أن ابن عمر وابن أبي بكر وابن الزبير لن يبايعوا يزيداً، وقد سمعوا وأطاعوا وبايعوا له، فقال أهل الشام: والله لا نرضى حتى يبايعوا له على رؤوس الأشهاد، وإلا ضربنا أعناقهم. فقال: سبحان الله! ما أسرع الناس إلى قريش بالشر، لا أسمع هذه المقالة من أحد منكم بعد اليوم، ثم نزل.

فقال الناس: بايع ابن عمر، وابن أبي بكر، وابن الزبير، وهم يقولون: لا والله ما بايعنا، فيقول الناس: بلى، وارتحل معاوية فلحق بالشام^٤.

وهكذا وقفت الأمة على عتبة تاريخ جديد من حياتها، وأصبحت أمام خيارين: - إما أن تتبنى سياسة الرفض القاطع للواقع الذي فرض عليها مهما كان الثمن.

١. جذعة: اعادتها كما بدأت.

٢. فنفخت في مناخرهما: أغريتهما.

٣. العوار: العيب.

٤. جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٩٦ و ١٩٧.

أو القبول بسياسة الأمر الواقع، حيث عليها أن تتنازل عن رسالتها وسرّ عظمتها وعنوان عزّتها في الحياة، فكيف كان الأمر؟

الخاص

□ يتلخص منهج معاوية لهدم الإسلام في إشاعة الإرهاب والتصفية الجسدية لكلّ القوى المعارضة وإغداق الأموال لشراء الضمائر وسياسة التجويع وتمزيق أواصر الأمة بإثارة الروح القومية واغتيال الإمام الحسن عليه السلام وفرض البيعة ليزيد الفاسق - المعلن بالفسق - متحدّياً بذلك قيم الرسالة وسنّة جميع الخلفاء السابقين عليه في رفض جعل الخلافة سلطة بالوراثة.

□ وهكذا جرّ الأمة إلى وضع جديد وجعلها أمام أحد خيارين؛ هما رفض الحكم والحاكم المنحرف عملاً بالأصول السياسية للشريعة الإسلامية، أو الخضوع للانحراف الذي يمثل عودة الجاهلية بكلّ ثقلها إلى الساحة السياسية من جديد.

الأسئلة

١. هل خطّط معاوية لهدم الإسلام؟ ولماذا؟
٢. ما هي الأساليب التي اتّخذها معاوية لقمع المعارضة؟
٣. كيف مهّد معاوية لولاية العهد ليزيد الفاجر؟ ولماذا؟
٤. لماذا بادر معاوية إلى قتل الإمام الحسن عليه السلام؟
٥. ما هي الأدلّة على أنّ الحكم الأموي كان حكماً جاهلياً؟ ولماذا؟
٦. كيف مرّق معاوية أواصر الأمة الإسلامية؟ ولماذا؟

منهج الإمام الحسين عليه السلام بعد استشهاد الإمام الحسن عليه السلام

لم يسكت الإمام الحسين عليه السلام بعد إبرام الصلح مع معاوية، بل كان يتحرك وفق مسؤوليته تجاه شريعة ربه وأمة جدّه صلّى الله عليه وآله بصفته وريث النبوة - بعد أخيه الإمام الحسن عليه السلام - مراعيًا ظروف الأمة ومراقبًا لمدى تدهورها وساعياً للمحافظة على نعمة جهود الرسول الكريم وصحابته الأبرار.

وقد عمل الإمام عليه السلام في فترة حكم معاوية على تحصين الأمة ضدّ الانهيار التام وإعطائها من المقومات القدر الكافي، كي تتمكن من البقاء صامدةً في مواجهة المحن التي تستولدها الجاهلية الأموية.

ويمكن أن نلخص مجمل نشاطه في هذه الفترة فيما يلي:

١. مواجهة معاوية وبيعة يزيد

أعلن الإمام الحسين عليه السلام رفضه القاطع لبيعة يزيد بعدما قرّر معاوية أن يسافر إلى يثرب ليتولّى بنفسه إقناع المعارضين، وبعد أن اجتمع بالإمام عليه السلام وعبد الله بن عباس أشاد بالنبي صلّى الله عليه وآله وأثنى عليه، وعرض بيعة ابنه ومنحه الألقاب الفخمة ودعاها إلى بيعته، فانبرى الإمام عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أما بعد يا معاوية فلن يؤدي المادح وإن أطنب في صفة الرسول صلّى الله عليه وآله وقد فهمتُ

ما لبست به الخلف بعد رسول الله ﷺ من إيجاز الصفة، والتكَبُّ عن استبلاغ النعت، وهيهات هيهات يا معاوية!! ففضح الصبحُ فحمةَ الدجى، وبهرت الشمس أنوار السرج، ولقد فضلت حتى أفرطت، واستأثرت حتى أجحفت، ومنعت حتى بخلت، وجُرت حتى تجاوزت، ما بذلت لذي حقٍّ من إسمِ حقِّه من نصيبٍ، حتى أخذ الشيطان حظَّه الأوفر ونصيبه الأكمل.

وفهمْتُ ما ذكرته عن يزيد من اكتماله، وسياسته لأمة محمد ﷺ تريد أن توهم الناس في يزيد كأنك تصفُ محجوباً أو تنعت غائباً، أو تخبر عما كان ممَّا احتويته بعلم خاصٍّ، وقد دلَّ يزيد من نفسه على موقع رأيه، فخذ ليزيد فيما أخذ به من استقرائه الكلاب المهارشة عند التحارش، والحمام السبق لأترابهنَّ، والقيان ذوات المعازف، وضروب الملاهي، تجذَّه ناصراً.

ودغ عنك ما تحاول، فما أغناك أن تلقى الله بوزر هذا الخلق بأكثر ممَّا أنت لاقيه، فوالله ما برحتَ تقدح باطلاً في جورٍ وحنقاً في ظلمٍ حتى ملأتِ الأسقية، وما بينك وبين الموت إلا غمضة فتقدم على عملٍ محفوظ في يوم مشهودٍ، ولات حين مناص، ورأيتك عرَّضت بنا بعد هذا الأمر، ومنعتنا عن آباتنا ترائاً، ولعمر الله لقد أورثنا الرسول ﷺ ولادة، وجئت لنا بما حججتم به القائم عند موت الرسول ﷺ فأذعن للحجة بذلك وردَّه الإيمان إلى النصف.

فركبتم الأعاليل وفعلتم الأفاعيل، وقلتم كان ويكون حتى أتاك الأمر يا معاوية من طريق كان قصدها لغيرك، فهناك فاعتبروا يا أولي الأبصار.

وذكرت قيادة الرجل القوم بعهد رسول الله ﷺ وتأميره له، وقد كان ذلك لعمر بن العاص يومئذ فضيلة بصحبة الرسول وبعثه له وما صار لعمر يومئذ حتى أنف القوم إمرته وكرهوا تقديمه وعدّوا عليه أفعاله، فقال ﷺ لا جرمَ يا معشر المهاجرين لا يعمل عليكم بعد اليوم غيري، فكيف تحتجُّ بالمنسوخ من فعل الرسول في أوكد الأحكام وأولاها بالمجتمع عليه من الصواب؟ أم كيف ضاهيت بصاحبٍ تابعاً وحولك من يؤمن في صحبته، ويعتمد في دينه وقرباته، وتتخطأهم إلى مسرفٍ مفتونٍ، تريد أن تلبس الناس شبهةً يسعد بها الباقي في دنياه وتشقى بها في آخرتك، إنَّ هذا لهو

الخرسان المبين، وأستغفر الله لي ولكم».

وذهل معاوية من خطاب الإمام عليه السلام، وضاعت عليه جميع السبل فقال لابن عباس: ما هذا يا ابن عباس؟ فقال ابن عباس: لعمر الله إنها لذرية رسول الله صلى الله عليه وآله وأحد أصحاب الكساء ومن البيت المطهر، فاسأله عما تريد فإن لك في الناس مقنعاً حتى يحكم الله بأمره وهو خير الحاكمين.^١

وقد اتسم موقف الإمام الحسين عليه السلام مع معاوية بالشدة والصرامة، وأخذ يدعو المسلمين علناً إلى مقاومة معاوية، ويحذّره من سياسته الهدامة التي تحمل شارات الدمار إلى الإسلام.

٢. محاولة جمع كلمة الأمة والاستجابة لحركة الجماهير

وأخذت الوفود تترى على الإمام من جميع الأقطار الإسلامية وهي تعج بالشكوى وتستغيث به نتيجة الظلم والجور الذي حلّ بها، وتطلب منه القيام بإنقاذها من الإضطهاد، ونقلت العيون في يثرب إلى السلطة المحلية تجمع الناس واختلافهم على الإمام عليه السلام، وكان الوالي مروان بن الحكم، ففرغ من ذلك وخاف إلى حد بعيد من عواقبه، فرفع مذكرة إلى معاوية جاء فيها: أما بعد فقد كثر اختلاف الناس إلى الحسين، والله، إني لأرى لكم منه يوماً عصيباً.^٢

واضطرب معاوية من تحرك الإمام فكتب إليه رسالة جاء فيها: أما بعد، فقد أنهيت إليّ عنك أمور، إن كانت حقاً فإني لم أظنها بك رغبة عنها، وإن كانت باطلة فأنت أسعد الناس بمجانبتها، وبحظ نفسك تبدأ، وبعد الله تُوفي فلا تحمّلي على قطيعتك والإساءة إليك، فإنك متى تُنكرني أنكرُك، ومتى تكذّني أكذُك، فاتق الله يا حسين في شق عصا الأمة، وأن تردّهم في فتنه.^٣

١. المصدر السابق، ص ٢٢٣.

٢. كتاب سليم بن قيس، ص ١٦٦، طبعة طهران.

٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٤، ص ٣٢٧ وناسخ التواريخ، ج ١، ص ١٩٥.

٣. فضح جرائم معاوية

كتب الإمام عليه السلام إلى معاوية مذكرةً خطيرةً كانت جواباً لرسالته يحمله فيها مسؤوليات جميع ما وقع في البلاد من سفك الدماء وفقدان الأمن وتعريض الأمة للأزمات، وتعدّ من أروع الوثائق الرسمية التي حفلت بذكر الأحداث التي صدرت من معاوية، وهذا نصّها: «أما بعد، بلغني كتابك تذكر فيه أنّه انتهت إليك عني أمور أنت عنها راغب وأنا بغيرها عندك جدير، وإنّ الحسنات لا يهدي لها ولا يسدّد إليها إلّا الله تعالى. أما ما ذكرت أنّه رقي إليك عني فإنّه إنّما رقاہ إليك الملاقون المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الجمع، وكذب الغاوون، ما أردت لك حرباً ولا عليك خلافاً، وإني لأخشى الله في ترك ذلك منك، ومن الإعذار فيه إليك وإلى أوليائك القاسطين حزب الظلمة.

ألسنّ القاتل حجر بن عدي أخوا كندة وأصحابه المصلّين العابدين الذين كانوا ينكرون الظلم، ويستعظمون البدع، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولا يخافون في الله لومة لائم؟ قتلتم ظلماً وعدواناً من بعدما أعطيتهم الأيمان المغلظة والموائيق المؤكدة، جرأةً على الله واستخفافاً بعهده.

أولست قاتل عمرو بن الحمق الخزاعي صاحب رسول الله ﷺ العبد الصالح الذي أبلته العبادة فنحل جسمه واصفرّ لونه؟ فقتلته بعدما أمنتّه وأعطيتّه ما لو فهمته العصم لنزلت من رؤوس الجبال .

أولست بمذعي زياد بن سمية المولود على فراش عبيد ثقيف، فزعمت أنّه ابن أبيك؟ وقد قال رسول الله ﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحجر» فتركت سنة رسول الله ﷺ تعمداً، وتبعت هواك بغير هدى من الله، ثم سلّطته على أهل الإسلام يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم ويسمل أعينهم ويصلبهم على جذوع النخل، كأنك لست من هذه الأمة وليسوا منك.

أولست قاتل الحضرمي الذي كتب فيه إليك زياد أنّه على دين عليّ كرّم الله وجهه، فكتبته إليه أن اقتل كلّ من كان على دين عليّ؟ فقتلهم ومثّل بهم بأمرك، ودين عليّ هو دين ابن عمّه ﷺ الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه، ولولا ذلك لكان شركك

وشرف آبائك الرحلتين رحلة الشتاء ورحلة الصيف.

وقلت فيما قلت: أنظر لنفسك ودينك ولأمة محمد ﷺ وأتق شق عصا هذه الأمة وأن تردّهم إلى فتنة، وإني لا أعلم فتنة أعظم على هذه الأمة من ولايتك عليها، ولا أعظم لنفسي ولديني ولأمة محمد ﷺ أفضل من أن أجأرك، فإن فعلت فإنه قربة إلى الله، وإن تركته فإني أستغفر الله لديني وأسأله توفيقه لإرشاد أمري.

وقلت فيما قلت: إني إن أنكرتكَ تنكرني، وإن أكذك تكذني، فكذني ما بدا لك، فإني أرجو أن لا يضرنّي كيدك، وأن لا يكون على أحدٍ أضّرّ منه على نفسك، لأنك قد ركبت جهلك وتحزّصت على نقض عهدك، ولعمري ما وفيّ بشرط، ولقد نقضت عهدك بقتل هؤلاء النفر الذين قتلهم بعد الصلح والأيمان واليهود والموائق، فقتلتهم من غير أن يكونوا قد قاتلوا أو قُتلوا، ولم تفعل ذلك بهم إلّا لذكرهم فضلنا وتعظيمهم حقنا، مخافة أمرٍ لعلك إن لم تقتلهم متّ قبل أن يفعلوا، أو ماتوا قبل أن يدركوا.

فأبشر يا معاوية بالقصاص، واستيقن بالحساب، واعلم أنّ لله تعالى كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها، وليس الله بناس لأخذك بالظنّة، وقتلك أوليائه على التّهم، ونفيك إياهم من دورهم إلى دار الغربة، وأخذك الناس ببيعة ابنك الغلام الحدث، يشرب الشراب، ويلعب بالكلاب، ما أراك إلّا قد خسرت نفسك، وبرت دينك، وعششت رعيّتك، وسمعت مقالة السفية الجاهل، وأخفت الورع التقّي^١.

ولا توجد وثيقة سياسية في ذلك العهد عرضت لعبث السلطة وسجّلت الجرائم التي ارتكبتها معاوية غير هذه الوثيقة، وهي صرخة في وجه الظلم والاستبداد.

٤. استعادة حقّ مضيع

وكان معاوية ينفق أكثر أموال الدولة على تدعيم ملكه، كما كان يهب الأموال الطائلة لبني أميّة لتقوية مركزهم السياسي والاجتماعي، وكان الإمام الحسين عليه السلام يشجب هذه السياسيّة، ويرى ضرورة إنقاذ الأموال من معاوية الذي يفتقد حكمه لأيّ

أساس شرعي، ولا يقوم إلا على القمع والتزيف والإغراء. وقد اجتازت على يثرب أموال من اليمن إلى خزينة دمشق، فعمد الإمام عليه السلام إلى الاستيلاء عليها ووزعها على المحتاجين، وكتب إلى معاوية: «من الحسين بن عليّ إلى معاوية بن أبي سفيان، أما بعد فإنّ عيراً مرّت بنا من اليمن تحمل مالاً وحُللاً وغنيراً وطيباً إليك لتودعها خزائن دمشق وتعلّ بها بعد النهل بني أبيك، وإنّي احتجتها فأخذتها، والسلام»^١.

فأجاب معاوية: من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى الحسين بن عليّ، سلام عليك، أما بعد فإنّ كتابك ورد عليّ تذكر أنّ عيراً مرّت بك من اليمن تحمل مالاً وحُللاً وغنيراً وطيباً إليّ لأودعها خزائن دمشق وأعلّ بها بعد النهل بني أبي، وأنك احتجت إليها فأخذتها، ولم تكن جديراً بأخذها إذ نسبتها إليّ لأنّ الوالي أحقّ بالمال ثمّ عليه المخرج منه، وأيم الله لو تركت ذلك حتّى صار إليّ لم أبخسك حظك منه، ولكنتي قد ظننت يا ابن أخي أنّ في رأسك نزوة وبوذي أن يكون ذلك في زماني، فأعرف لك قدرك وأتجاوز عن ذلك، ولكنتي والله أتخوّف أن تبتلني بمن لا ينظرك فوق ناقة^٢.

إنّ الإمام الحسين عليه السلام دلّ بعمله على أنّ الخليفة غير الشرعي ليس من حقّه أن يتصرّف بأموال المسلمين، وأنّ ذلك من حقوق الحاكم الشرعي، والحاكم الشرعي هو الإمام الحسين عليه السلام نفسه الذي يتفق أموال بيت المال وفق المعايير الإسلامية. وقد أكّد عليه السلام في رسالته أنّه لا يعترف رسمياً بخلافة معاوية إذا لم يصفه بأمر المؤمنين كما كان يصفه الآخرون، ومن هنا حاول معاوية الالتفاف على موقف الإمام فوصف نفسه في رسالته الجوابية بأمر المؤمنين ووالي المسلمين ولكنّه فشل في محاولته تلك، فقد بات موقف الإمام الحسين عليه السلام معياراً إسلامياً بين الصواب والخطأ للمسلمين على مدى التاريخ، في حين لم يعتبر المسلمون موقف معاوية سوى أنّه تشويه للحقيقة وتضليل للرأي العام.

لقد كان موقف الإمام عليه السلام هذا إشارة واضحة للاعتراض على تصرّفات معاوية

١. الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٢٨٤ والدرجات الرفيعة، ص ٣٣٤ والفدير، ج ١٠، ص ١٦١.

٢. حياة الإمام الحسين عليه السلام، ج ٢، ص ٢٤٤.

والمطالبة بسيادة الحق والعدل الإلهي.

٥. تذكير الأمة بمسؤوليته

عقد الإمام عليه السلام مؤتمراً سياسياً عاماً دعا فيه جمهوراً غفيراً ممن شهد موسم الحج من المهاجرين والأنصار والتابعين وغيرهم من سائر المسلمين ، فأنبرى عليه السلام خطيباً فيهم ، وتحدث بما أَلَمَ بعثرة النبي ﷺ وشيعتهم من المحن والإحْنِ والتي صَبَّها عليهم معاوية ، وما اتَّخذه من الإجراءات المشددة في إخفاء فضائلهم ، وستر ما أثر عن الرسول ﷺ في حقهم ، وألزم الحاضرين بإذاعة ذلك بين المسلمين ، وفيما يلي ما رواه سليم بن قيس عن هذا المؤتمر ونص خطاب الإمام عليه السلام حيث قال : ولما كان قبل موت معاوية بسنة حجَّ الحسين بن عليّ وعبدالله بن عباس وعبدالله بن جعفر ، فجمع الحسين بن عليّ هاشم ونساءهم ومواليهم ومن حجَّ من الأنصار ممن يعرفهم الحسين وأهل بيته ، ثم أرسل رسلاً وقال لهم : لاتدعوا أحداً حجَّ العام من أصحاب رسول الله ﷺ المعروفين بالصلاح والنسك إلّا إجمعوهم لي ، فاجتمع إليه بمئى أكثر من سبعمائة رجل وهم في سرادق ، وعامتهم من التابعين ، ونحو من مائتي رجل من أصحاب النبي ﷺ ، فقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد فإنَّ هذا الطاغية - يعني معاوية - قد فعل بنا وبشيعتنا ما قد رأيتم وعلمتم وشهدتم ، وإنِّي أريد أن أسألكم عن شيء فإنَّ صدقت فصدقوني ، وإن كذبتُ فكذبوني ، اسمعوا مقالتي واكتموا قلبي ، ثم ارجعوا إلى أمصاركم وقبائلكم من آمنتموه ووثقتم به فادعوه إلى ما تعلمون ، فإنِّي أخاف أن يندرس هذا الحق ويذهب ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

قال الراوي : فما ترك الحسين شيئاً ممَّا أنزل الله فيهم إلّا تلاه وفسره ، ولا شيئاً ممَّا قاله رسول الله ﷺ في أبيه وأخيه وأمه وفي نفسه وأهل بيته إلّا رواه ، وفي كل ذلك يقول أصحابه : اللهم نعم قد سمعنا وشهدنا ، وممَّا ناشدهم عليه السلام أن قال : أنشدكم الله ، أتعلمون أنَّ عليّ بن أبي طالب كان أخا رسول الله حين آخى بين أصحابه فأخى بينه وبين نفسه ، وقال : أنت أخي وأنا أخوك في الدنيا والآخرة ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال :

أنشدكم هل تعلمون أن رسول الله اشترى موضع مسجده ومنازله فابتناه ثم ابتنى فيه عشرة منازل تسعة له، وجعل عاشرها في وسطها لأبي، ثم سد كل باب شارع إلى المسجد غير بابه؟ فتكلّم في ذلك من تكلم، فقال: ما أنا سدّدْتُ أبوابكم وفتحت بابه، ولكن الله أمرني بسدّ أبوابكم وفتح بابه، ثم نهى الناس أن يناموا في المسجد غيره، وكان بجانب في المسجد ومنزله في منزل رسول الله، فولد لرسول الله وله فيه أولاد، قالوا: اللهم نعم، قال: أفعلتمون أن عمر بن الخطاب حرص على كوة قدر عينه يدعها في منزله إلى المسجد فأبى عليه، ثم خطب فقال: إن الله أمرني أن أبني مسجداً طاهراً لا يسكنه غيري وغير أخي وبنيه؟ قالوا: اللهم نعم، قال: أنشدكم الله أتعلمون أن رسول الله قال في غزوة تبوك: أنت مني بمنزلة هارون من موسى، وأنت ولي كل مؤمن بعدي؟ قالوا: اللهم نعم، قال: أنشدكم الله أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله حين دعا النصارى من أهل نجران إلى المباحلة لم يأت إلا به وبصاحبته وابنيه؟ قالوا: اللهم نعم، قال: أنشدكم الله أتعلمون أن رسول الله دفع إليه اللواء يوم خيبر، ثم قال: لأدفعه إلى رجل يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله كزار غير فزار، يفتحها الله على يديه؟ قالوا: اللهم نعم، قال: أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله بعثه ببراءة وقال: لا يبلغ عني إلا أنا أو رجل مني؟ قالوا: اللهم نعم.

قال: أتعلمون أن رسول الله لم تنزل به شدة قط إلا قدّمه لها ثقة به وأنه لم يدعه باسمه قط، إلا يقول يا أخي؟ قالوا: اللهم نعم.

قال: أتعلمون أن رسول الله قضى بينه وبين جعفر وزيد فقال: يا علي أنت مني وأنا منك وأنت ولي كل مؤمن بعدي؟ قالوا: اللهم نعم.

قال: أتعلمون أنه كانت له من رسول الله صلى الله عليه وآله كل يوم خلوة، وكل ليلة دخلة، إذا سأله أعطاه، وإذا سكت أبدا؟ قالوا: اللهم نعم.

قال: أتعلمون أن رسول الله فضله على جعفر وحزمة حين قال لفاطمة عليها السلام: زوجتك خير أهل بيتي أقدمهم سلماً وأعظمهم حلاًماً وأكثرهم علماً؟ قالوا: اللهم نعم.

قال: أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: أنا سيّد ولد آدم، وأخي عليّ سيّد العرب، وفاطمة سيّدّة نساء أهل الجنّة، والحسن والحسين إبناي سيّد شباب أهل الجنّة؟ قالوا:

اللَّهُمَّ نعم.

قال: أتعلمون أن رسول الله ﷺ أمره بغسله، وأخبره أن جبرئيل يعينه عليه؟ قالوا: اللَّهُمَّ نعم.

قال: أتعلمون أن رسول الله ﷺ قال في آخر خطبة خطبها: إني تركتُ فيكم الثقلين كتاب الله وأهل بيته فتمسكوا بهما لن تضلّوا؟ قالوا: اللَّهُمَّ نعم.

فلم يدع ﷺ شيئاً أنزله الله في علي بن أبي طالب خاصة وفي أهل بيته من القرآن ولا على لسان نبيّه إلا ناشدهم فيه فيقول الصحابة: اللَّهُمَّ نعم قد سمعناه، ويقول التابع: اللَّهُمَّ قد حدّثني من أئق به فلان وفلان، ثم ناشدهم أنهم قد سمعوه يقول: من زعم أنه يحبني ويبغض علياً فقد كذب، ليس يحبني ويبغض علياً، فقال له قائل: يا رسول الله وكيف ذلك؟ قال: لأنه منّي وأنا منه، من أحبه فقد أحببني ومن أحببني فقد أحب الله، ومن أبغضه فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله، فقالوا: اللَّهُمَّ نعم، قد سمعناه، وتفرّقوا على ذلك.^١

وكان هذا المؤتمر يتضمّن الإعداد لوضع مستقبلي كان قد خطّط له الإمام الحسين عليه السلام.

الخاص

□ كان للإمام الحسين عليه السلام بعد استشهاد أخيه الحسن السبط عليه السلام نشاط سياسي واضح تجاه معاوية، فهو لم ينقض بنود الصلح التي أمضاها أخوه الحسن عليه السلام مع معاوية كما نقضها معاوية ولكنه بدأ يتحرك باتجاه إعداد وتجنيد الطاقات المستعدة للمعارضة وابتدأ بمواجهة معاوية بكل جرأة وصراحة لأخذه البيعة اللا مشروعة ليزيد كولي للعهد بعده.

□ و حاول أن يجمع كلمة الأمة ويوحدها باتجاه واحد. وكان مراقباً لكل تصرفات معاوية وفاضحاً لجرائمه باستمرار ولم يزل يستفيد من كل الفرص الممكنة للاستعداد للمرحلة المقبلة من المواجهة.

الأسئلة

- ١ . لماذا كانت الثورة الحسينية بعد موت معاوية؟ لا قبله؟
- ٢ - هل كان الإمام الحسين عليه السلام ناقضاً لبنود الصلح لو كان قد ثار على معاوية بعد استشهاد الإمام الحسن عليه السلام؟
- ٣ - كيف فضح الإمام الحسين عليه السلام جرائم معاوية؟
- ٤ - لماذا استولى الإمام الحسين عليه السلام على أموال كانت قد أرسلت لمعاوية؟
- ٥ - ما هو المؤتمر الذي عقده الإمام الحسين عليه السلام؟ ولماذا عقده؟

هجرة الإمام الحسين عليه السلام إلى مكة المكرمة

«لَمَّا اسْتَشْهَدَ الْإِمَامُ الْحَسَنُ عليه السلام تَحَرَّكَتِ الشَّيْعَةُ بِالْعِرَاقِ وَكَتَبُوا إِلَى الْحُسَيْنِ عليه السلام فِي خَلْعٍ مَعَاوِيَةٍ وَالْبَيْعَةِ لَهُ، فَامْتَنَعَ عَلَيْهِمْ وَذَكَرَ أَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعَاوِيَةِ عَهْدًا وَعَقْدًا لَا يَجُوزُ لَهُ نَقْضُهُ حَتَّى تَمْضِيَ الْمُدَّةُ فَإِذَا مَاتَ مَعَاوِيَةُ نَظَرَ فِي ذَلِكَ.

فَلَمَّا مَاتَ مَعَاوِيَةُ مُنْتَصَفَ رَجَبِ سَنَةِ سِتِّينَ مِنَ الْهَجْرَةِ وَتَخَلَّفَ بَعْدَهُ وَلَدُهُ يَزِيدُ، كَتَبَ يَزِيدُ إِلَى ابْنِ عَمِّهِ الْوَلِيدِ بْنِ عَتْبَةَ وَالْيَاسَنِ بْنِ أَبِي سَهْلٍ وَمَوْلَى لِمَعَاوِيَةَ يَقُولُ لَهُ ابْنُ أَبِي زُرَيْقٍ يَأْمُرُهُ بِأَخْذِ الْبَيْعَةِ عَلَى أَهْلِهَا وَخَاصَّةً عَلَى الْحُسَيْنِ عليه السلام وَلَا يَرْخِصُ لَهُ فِي التَّأَخُّرِ عَنْ ذَلِكَ وَيَقُولُ: إِنَّ أَبِي عَلَيْكَ فَاضْرِبْ عُنُقَهُ وَابْعَثْ إِلَيَّ بِرَأْسِهِ.

وَكَانَ مَعَاوِيَةُ قَبْلَ وَفَاتِهِ قَدْ حَذَّرَ يَزِيدَ مِنْ أُرْبَعَةِ: الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ وَلَا سَيِّمًا مِنَ الْحُسَيْنِ وَابْنِ الزُّبَيْرِ.

أَمَّا ابْنُ الزُّبَيْرِ فَهَرَبَ إِلَى مَكَّةَ وَأَرْسَلَ الْوَلِيدَ خَلْفَهُ وَاحِدًا وَثَمَانِينَ رَاكِبًا فَلَمْ يَدْرِكُوهُ وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ بِمَكَّةَ.

وَأَمَّا الْحُسَيْنُ عليه السلام فَأَحْضَرَ الْوَلِيدُ مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ وَاسْتَشَارَهُ فِي أَمْرِهِ، فَقَالَ: إِنَّهُ لَا يَقْبَلُ، وَلَوْ كُنْتُ مَكَانَكَ لَضَرَبْتُ عُنُقَهُ، فَقَالَ الْوَلِيدُ: لَيْتَنِي لَمْ أَكْ شَيْئًا مَذْكُورًا.

ثُمَّ بَعَثَ إِلَى الْحُسَيْنِ عليه السلام فِي اللَّيْلِ فَاسْتَدْعَاهُ فَعَرَفَ الْحُسَيْنُ عليه السلام الَّذِي أَرَادَ فِدْعَا بَجَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَمَوَالِيهِ وَكَانُوا ثَلَاثِينَ رَجُلًا وَأَمْرَهُمْ بِحَمْلِ السِّلَاحِ وَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ

الوليد قد استدعاني في هذا الوقت ولست آمن أن يكلفني فيه أمراً لا أجيبه إليه وهو غير مأمون فكونوا معي فإذا دخلت فاجلسوا على الباب فإن سمعتم صوتي قد علا فادخلوا عليه لتمنوه عتي.

فصار الحسين عليه السلام إلى الوليد فوجد عنده مروان بن الحكم فنعى الوليد معاوية فاسترجع الحسين عليه السلام ، ثم قرأ عليه كتاب يزيد وما أمره فيه من أخذ البيعة منه لزيد، فلم يرد الحسين عليه السلام أن يصاحره بالامتناع من البيعة وأراد التخلص منه بوجه سلمي، فورّئ عن مراده وقال: إني أراك لا تقنع ببيعتي سرّاً حتّى أبايه جهراً فيعرف ذلك الناس، فقال له الوليد: أجل، فقال الحسين عليه السلام تصبح وترى رأيك في ذلك، فقال له الوليد انصرف على اسم الله حتّى تأتينا مع جماعة الناس.

فقال له مروان والله لئن فارقك الحسين الساعة ولم يبايع لا قدرت منه على مثلها أبداً حتّى تكثر القتلى بينكم وبينه، ولكن احبس الرجل فلا يخرج من عندك حتّى يبايع أو تضرب عنقه.

فلما سمع الحسين عليه السلام هذه المجابهة القاسية من مروان الوزغ ابن الوزغ صارحهما حينئذٍ بالامتناع من البيعة وأنه لا يمكن أن يبايع لزيد أبداً، فوثب الحسين عليه السلام عند ذلك وقال لمروان: ويلي عليك يا ابن الزرقاء! أنت تأمر بضرب عنقي؟! كذبت والله ولؤمت.

ثم أقبل على الوليد فقال: أيها الأمير إنّ أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة بنا فتح الله وبنا ختم، ويزيد فاسق شارب الخمر قاتل النفس المحترمة ملعن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله، ولكن نصبح وتصبحون وننظر وتنظرون أيّنا أحقّ بالخلافة والبيعة، ثم خرج يتهادى بين مواليه.

ولما بلغ يزيد ما صنع الوليد عزله عن المدينة وولّاها عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق فقدّمها في رمضان.

وأقام الحسين عليه السلام في منزله تلك الليلة وهي ليلة السبت لثلاث بقين من رجب

سنة ستين فلما أصبح خرج من منزله يستمع الأخبار، فلقى مروان فقال له: يا أبا عبد الله إني لك ناصح فأطعني ترشد، فقال الحسين عليه السلام وما ذاك، قل حتى أسمع.

فقال مروان: إني أملك بيعة يزيد بن معاوية فإنه خير لك في دينك ودنياك.

فقال الحسين عليه السلام : إنا لله وإنا إليه راجعون وعلى الإسلام السلام إذ قد بليت الأمة براع مثل يزيد. وطال الحديث بينه وبين مروان حتى انصرف وهو غضبان، فلما كان آخر نهار السبت بعث الوليد الرجال إلى الحسين عليه السلام ليحضر فيبايع فقال لهم الحسين عليه السلام أصبحوا ثم ترون ونرى، فكفوا تلك الليلة عنه ولم يلحوا عليه فخرج في تلك الليلة وقيل في غداها وهي ليلة الأحد ليومين بقيا من رجب متوجهاً نحو مكة.

ولما علم ابن الحنفية عزمه على الخروج من المدينة لم يدر أين يتوجه، فقال له: يا أخي أنت أحب الناس إلي وأعزهم علي ولست والله أدخر النصيحة لأحد من الخلق وليس أحد من الخلق أحق بها منك لأنك مزاج مائي ونفسي وروحي وبصري وكبير أهل بيتي ومن وجبت طاعته في عنقي لأن الله قد شرفك علي وجعلك من سادات أهل الجنة تنح ببيعتك عن يزيد وعن الأمصار ما استطعت ثم ابعت رسلك إلى الناس فادعهم إلى نفسك، فإن تابعك الناس وبايعوا لك حمدت الله على ذلك وإن اجتمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك ولا تذهب به مروءتك ولا فضلك وإني أخاف عليك أن تدخل مصراً من هذه الأمصار فيختلف الناس بينهم فمنهم طائفة معك وأخرى عليك فيقتلون فتكون لأول الأئمة غرضاً، فإذا خير هذه الأمة كلها نفساً وأباً وأماً أضيعها دماً وأذلها أهلاً.

فقال له الحسين عليه السلام : فأين أذهب يا أخي؟

قال: تخرج إلى مكة فإن اطمانت بك الدار بها فذاك وإن تكن الأخرى خرجت إلى بلاد اليمن فإنهم أنصار جدك وأبيك وهم أرف الناس وأرقهم قلوباً وأوسع الناس بلاداً فإن اطمانت بك الدار وإلا لحقت بالرمال وشعب الجبال وجزت من بلد إلى بلد حتى تنظر ما يؤول إليه أمر الناس ويحكم الله بيننا وبين القوم الفاسقين فإنك أصوب ما

تكون رأياً حين تستقبل الأمر استقبالاً.

فقال الحسين عليه السلام : يا أخي والله لو لم يكن في الدنيا ملجأ ولا مأوى لما بايعت يزيد بن معاوية.

فقطع محمد بن الحنفية عليه السلام الكلام وبكى، فبكى الحسين عليه السلام معه ساعة.

ثم قال له الحسين عليه السلام : يا أخي جزاك الله خيراً فقد نصحت وأشفقت وأرجو أن يكون رأيك سديداً موقفاً وأنا عازم على الخروج إلى مكة وقد تهيت لذلك أنا وإخوتي وبنو أخي وشيعتي أمرهم أمري ورأيهم رأيي وأما أنت يا أخي فلا عليك أن تقيم بالمدينة فتكون لي عيناً عليهم لا تخفي عني شيئاً من أمورهم.

وأقبلت نساء بني عبد المطلب فاجتمعن للنياحة لما بلغهن أن الحسين عليه السلام يريد الشيوخ من المدينة، حتى مشى فيهن الحسين عليه السلام فقال: أنشدكن الله أن تبدين هذا الأمر معصية لله ولرسوله.

قالت له نساء بني عبد المطلب: فلمن نستبقي النياحة والبكاء؟ فهو عندنا كيوم مات فيه رسول الله ﷺ وعليّ وفاطمة والحسن ورقية وزينب وأمّ كلثوم، جعلنا الله فداك من الموت يا حبيب الأبرار من أهل القبور.

ولما عزم الحسين عليه السلام على الخروج من المدينة مضى في جوف الليل إلى قبر أمه فودّعها ثم مضى إلى قبر أخيه الحسن عليه السلام ففعل كذلك وخرج معه بنو أخيه وإخوته وجلّ أهل بيته إلا محمّد بن الحنفية وعبدالله بن جعفر.

وخرج الحسين عليه السلام من المدينة في جوف الليل وهو يقرأ ﴿فخرج منها خائفاً يترقب قال ربّ نجني من القوم الظالمين﴾ ولزم الطريق الأعظم فقال له أهل بيته لو تنكّبت الطريق الأعظم كما فعل ابن الزبير كيلا يلحقك الطلب، فقال: لا والله لا أفارقه حتى يقضي الله ما هو قاض.

فلقيه عبدالله بن مطيع فقال جعلت فداك أين تريد؟ قال: أما الآن فمكة، وأما بعد فإني أستخير الله قال: خار الله لك وجعلنا فداك، فإذا أتيت مكة فإياك أن تقرب

الكوفة فإنها بلدة مشؤومة بها قُتل أبوك وخُذِل فيها أخوك واغتيل بطعنة كادت تأتي على نفسه، الزم الحرم فأنت سيّد العرب لا يعدل بك أهل الحجاز أحداً ويتداعى إليك الناس من كلّ جانب لا تفارق الحرم فذاك عَمِي وخالي، فواللّٰه لئن هلكت لنسترقن بعدك.

دخول الإمام الحسين عليه السلام مكة المكرمة

كان دخوله عليه السلام إلى مكة يوم الجمعة لثلاث مضيّن من شعبان، ودخلها وهو يقرأ: ﴿وَلَمَّا توجَّه تَلَقَّاهُ مَدِينُ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾. فأقام بمكة باقي شعبان وشهر رمضان وشوالاً وذا القعدة وثمانى لىال من ذى الحجة.

وأقبل أهل مكة ومن كان بها من المعتمرين وأهل الآفاق يخلّفون إليه وابن الزبير بها قد لزم جانب الكعبة فهو قائم يصلّي عندها عامّة النهار ويطوف ويأتي الحسين عليه السلام فيمن يأتيه اليومين المتواليين وبين كلّ يوم مرّة ولا يزال يشير عليه بالرأى وهو أثقل خلق الله على ابن الزبير لأنّه قد علم أنّ أهل الحجاز لا يبايعونه ما دام الحسين عليه السلام باقياً في البلد وأنّ الحسين عليه السلام أطوع في الناس منه وأجلّ.

دعوة أهل الكوفة والإعلان عن الاستعداد للبيعة

ولمّا بلغ أهل الكوفة موت معاوية وامتناع الحسين عليه السلام من البيعة ارجفوا بيزيد وعقد اجتماع في منزل سليمان بن صرد الخزاعي، فلمّا تكاملوا قام سليمان فيهم خطيباً وقال في آخر خطبته: إنكم قد علمتم بأنّ معاوية قد هلك وصار إلى ربّه وقدم على عمله وقد قعد في موضعه ابنه يزيد، وهذا الحسين بن عليّ قد خالفه وصار إلى مكة هارباً من طواغيت آل أبي سفيان وأنتم شيعة وشيعة أبيه من قبله، وقد احتاج إلى نصرتكم اليوم فإن كنتم تعلمون أنّكم ناصروه ومجاهدو عدوّه فاكتبوا إليه، وإن خفتم

الوهن والفشل فلا تغزوا الرجل من نفسه. قالوا: بل نقاتل عدوّه ونقتل أنفسنا دونه. فأرسلوا وفداً من قبلهم وعليهم أبو عبد الله الجدلي وكتبوا إليه معهم (بسم الله الرحمن الرحيم للحسين بن عليّ من سليمان بن صرد والمسيّب بن نجبة ورفاعة بن شدّاد البجلي وحبيب بن مظاهر وعبد الله بن وال وشيعته من المؤمنين والمسلمين، سلام عليك أماً بعد فالحمد لله الذي قصم عدوك وعدوّ أبيك من قبل الجبار العنيد الغشوم الظلوم الذي انتزى على هذه الأُمّة فابتزّها أمرها وغصبتها فيأها وتأمّر عليها بغير رضا منها ثمّ قتل خيارها واستبقى شرارها وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وعاتتها فبعداً له كما بعدت ثمود وإنّه ليس علينا إمام غيرك فأقبل لعلّ الله يجمعنا بك على الحقّ والنعمان بن بشير في قصر الإمارة ولسنا نجتمع معه في جمعة ولا نخرج معه إلى عيد ولو قد بلغنا أنّك أقبلت أخرجناه حتّى يلحق بالشام إن شاء الله تعالى والسلام عليك ورحمة الله يا ابن رسول الله وعلى أبيك من قبلك ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم).

ثمّ لبثوا يومين وأنفذوا قيس بن مسهر الصيداوي وعبد الرحمن بن عبد الله بن شدّاد الأرحبي وعمارة بن عبد الله السلولي إلى الحسين عليه السلام ومعهم نحو مائة وخمسين صفحة من الرجل والإثنين والأربعة وهو مع ذلك يتأنّى ولا يجيبهم فورده عليه في يوم واحد ستمائة كتاب وتواترت الكتب حتّى اجتمع عنده اثنا عشر ألف كتاب ثمّ لبثوا يومين آخرين وسرّحوا إليه هاني بن هاني السبيعي وسعيد بن عبد الله الحنفي وكانا آخر الرسل وكتبوا إليه: [بسم الله الرحمن الرحيم للحسين بن عليّ من شيعته من المؤمنين والمسلمين أماً بعد فحيّلاً فإنّ الناس ينتظرونك لا رأي لهم غيرك فالعجل العجل ثمّ العجل العجل والسلام].

رسول الحسين عليه السلام إلى الكوفة

ثم كتب الإمام الحسين عليه السلام مع هاني بن هاني وسعيد بن عبد الله : بسم الله

الرحمن الرحيم من الحسين بن عليّ إلى الملاّ من المؤمنين والمسلمين أمّا بعد فإنّ هانياً وسعيداً قدما عليّ بكتبكم وكانا آخر من قدم عليّ من رسلكم وقد فهمت كلّ الذي اقتصصتم وذكرتم ومقالة جلّكم أنّه ليس علينا إمام فأقبل لعلّ الله يجمعنا بك على الحقّ والهدى وأنا باعث إليكم أخي وابن عمّي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل فإنّ كتب إليّ أنّه قد اجتمع رأي ملئكم وذوي الحجب والفضل منكم على مثل ما قدمت به رسلكم وقرأتُ في كتبكم فإنّي أقدم إليكم وشيكاً إن شاء الله تعالى فلمعري ما الإمام إلّا الحاكم بالكتاب القائم بالقسط الدائن بدين الحقّ الحائس نفسه على ذلك لله والسلام.

ودعا الحسين عليه السلام ابن عمّه مسلم بن عقيل، وقيل إنّ كتب معه جواب كتبهم فسرّحه مع قيس بن مسهر الصيداوي ورجلين آخرين وأمره بالتقوى وكتمان أمره واللفظ فإن رأى الناس مجتمعين مستوسقين عجّل إليه بذلك، فأقبل مسلم عليه السلام حتّى أتى المدينة واستأجر دليلين من قيس فأقبلا به يتنكبان الطريق وأصابهما عطش شديد فعجزا عن السير فاوماً له إلى سنن الطريق ومات الدليلان عطشاً.

ثمّ أقبل حتّى دخل الكوفة فنزل دار المختار، وأقبلت الناس تختلف إليه فكلّما اجتمع إليه جماعة قرأ عليهم كتاب الحسين عليه السلام وهم يبكون، وبايعه الناس حتّى بايعه منهم ثمانية عشر ألفاً، فكتب إلى الحسين عليه السلام : أمّا بعد فإنّ الرائد لا يكذب أهله وإنّ جميع أهل الكوفة معك وقد بايعني منهم ثمانية عشر ألفاً فعجّل الإقبال حين تقرأ كتابي هذا والسلام.

وجعل الناس يختلفون إليه حتّى علّم بمكانه فبلغ النعمان بن بشير ذلك «وكان والياً على الكوفة» فصعد المنبر وخطب الناس وحذّره الفتنة، فقام إليه عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرمي حليف بني أميّة فقال له: إنّ لا يصلح ما ترى إلّا الغشم إنّ هذا الذي أنت عليه رأي المستضعفين، فقال له النعمان: أن أكون من المستضعفين في طاعة الله أحبّ إليّ من أن أكون من الأعزّين في معصية الله، ثمّ نزل.

المستشار المسيحي ليزيد

كتب عبدالله بن مسلم إلى يزيد يخبره بقدوم مسلم بن عقيل الكوفة ومبايعة الناس له ويقول: إن كان لك في الكوفة حاجة فابعث إليها رجلاً قوياً ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك في عدوك فإنّ النعمان بن بشير رجل ضعيف أو هو يتضعّف.

وكتب إليه عمارة بن الوليد بن عقبة وعمر بن سعد بنحو ذلك فدعا يزيد سرجون الرومي مولى معاوية (وكان سرجون مستولياً على معاوية في حياته) واستشاره فيمن يولي على الكوفة وكان يزيد عاتباً على عبيدالله بن زياد وهو يومئذ وال على البصرة وكان معاوية قد كتب لابن زياد عهداً بولاية الكوفة ومات قبل إنفاذه، فقال سرجون لزيد: لو نشر لك معاوية، ما كنت آخذاً برأيه؟ قال: بلى. قال: هذا عهد لعبيد الله على الكوفة.

فضمّ يزيد البصرة والكوفة إلى عبيدالله وكتب إليه بهده وسيّره مع مسلم بن عمرو الباهلي وكتب إلى عبيدالله معه: أما بعد فإنّه كتب إليّ شيعتي من أهل الكوفة يخبرونني أنّ ابن عقيل فيها يجمع الجموع ليشقّ عصا المسلمين، فسر حين تقرأ كتابي هذا حتّى تأتي الكوفة فتطلب ابن عقيل طلب الخرزة حتّى تتقفه فتوثقه أو تقتله أو تنفيه والسلام.

• فخرج مسلم ابن عمرو حتّى قدم على عبيدالله بالبصرة فأمر عبيدالله بالجهاز من وقته والتهيؤ والمسير إلى الكوفة من الغد.

كتاب الحسين عليه السلام إلى أهل البصرة

وكتب الحسين عليه السلام إلى رؤساء الأخماس بالبصرة وإلى أشرافها مع ذراع السدوسي ومع مولى للحسين عليه السلام اسمه سليمان ويكنّى أبارزين فكتب إلى مالك بن مسمع البكري والأحنف بن قيس ويزيد بن مسعود النهشلي والمنذر بن الجارود العبدي ومسعود بن عمر الأزدي بنسخة واحدة:

أما بعد فإنَّ الله اصطفى محمداً ﷺ على خلقه وأكرمه بنبوته واختاره لرسالته ثم قبضه الله إليه وقد نصح لعباده وبلغ ما أرسل به وكنا أهله وأولياءه وأوصيائه وورثته وأحقَّ الناس بمقامه في الناس فاستأثر علينا قومنا بذلك فأغضينا كراهية للفرقة ومحبة للعافية ونحن نعلم أننا أحقَّ بذلك الحقَّ المستحقَّ علينا ممَّن تولاه، وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيته، فإنَّ السنة قد أميتت وإنَّ البدعة قد أحييت فإنَّ تَجِيبُوا دَعْوَتِي وَتَطِيعُوا أَمْرِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرِّشَادِ^١.

الكوفة قبل ورود الحسين عليه السلام إليها

موقف زعماء البصرة من دعوة الحسين عليه السلام

فجمع يزيد بن مسعود بني تميم وبني حنظلة وبني سعد فلما حضروا قال: يا بني تميم كيف ترون موضعي فيكم وحسبي منكم؟ فقالوا: بخ بخ أنت والله فقرة الظهر ورأس الفخر حللت في الشرف وسطاً وتقدّمت فيه فرطاً. قال فإنّي قد جمعتكم لأمر أريد أن أشاوركُم فيه وأستعين بكم عليه، فقالوا: إذا والله نمنحك النصيحة ونجهد لك الرأي، فقل نسمع.

فقال: إنَّ معاوية قد مات فأهون به والله هالكاً ومفقوداً، ألا وإنَّه قد انكسر باب الجور والاثم وتضعضت أركان الظلم وقد كان أحدث بيعة عقد بها أمراً ظنَّ أن قد أحكمه، وهيئات الذي أراد، اجتهد والله ففشل وشاور فخذل وقد قام ابنه يزيد شارب الخمر ورأس الفجور يدعي الخلافة على المسلمين ويتأمر عليهم بغير رضئ منهم مع قِصْر حلم وقلة علم، لا يعرف من الحقِّ موطئ قدمه، فأقسم بالله قسماً مبروراً لجهاذه على الدين أفضل من جهاد المشركين، وهذا الحسين بن عليّ ابن رسول الله ﷺ ذو الشرف الأصيل والرأي الأئيل له فضل لا يوصف وعلم لا ينزف وهو

أولى بهذا الأمر لسابقتها وسنّه وقدمه وقربته، يعطف على الصغير ويحنو على الكبير فأكرم به راعي رعيّة وإمام قوم وجبت لله به الحجة وبلغت به الموعظة وقد كان صخر بن قيس (وهو الأحنف) انخزل بكم يوم الجمل فاغسلوها بخروجكم إلى ابن رسول الله صلّى الله عليه وآله ونصرته، والله لا يقصّر أحد عن نصرته إلا أورثه الله تعالى الذلّ في ولده والقلّة في عشيرته وها أنا ذا قد لبست للحرب لامتها وأدرعت لها بدرعها، من لم يقتل يمت ومن يهرب لم يُقت فآحسنوا رحمكم الله ردّ الجواب.

فتكلّمت بنو حنظلة فقالوا: أبأخالد نحن نبل كنانتك وفرسان عشيرتك إن رميت بنا أصبت وإن غزوت بنا فتحت، لا تخوض والله غمرة إلا خضناها ولا تلقى والله شدة إلا لقيناها ننصرك والله بأيدينا ونفديك بدمائنا إذا شئت فافعل.

وتكلّمت بنو سعد بن يزيد فقالوا: أبأخالد إن أبغض الأشياء إلينا خلافاً والخروج عن رأيك وقد كان صخر بن قيس (الأحنف) أمرنا بترك القتال يوم الجمل فحمدنا رأيه فأهلنا نراجع الرأي فنأتيك برأينا... وتكلّمت بنو عامر بن تميم وأعرّبوا عن استجابتهم لأمره.

ثمّ كتب إلى الحسين عليه السلام جوابه مبدياً فيه استعداداً للنصرة وقرأ الحسين كتابه ودعا له بالأمن يوم الخوف والارواء يوم العطش الأكبر، ولكن لما تجهّز للخروج لنصرة سيّده الحسين عليه السلام بلغه قتله فجزع من انقطاعه عنه.

وأما الأحنف بن قيس فقد كتب للحسين عليه السلام : أمّا بعد فاصبر إنّ وعد الله حقّ ولا يستخفّنك الذين لا يوقنون.

وأما المنذر بن الجارود فإنّه جاء بالكتاب والرسول إلى عبيدالله بن زياد في عشية الليلة التي يريد ابن زياد أن يذهب في صبيحتها إلى الكوفة. فأخذ عبيدالله الرسول فصلبه، ثم خطب الناس وتوعّدهم على الخلاف وخرج من البصرة واستخلف أخاه عثمان عليها.

ابن زياد يتدارك الوضع في الكوفة

وأقبل ابن زياد إلى الكوفة فلما أشرف عليها نزل حتى أمسى، ودخلها ليلاً ممّا يلي النجف وعليه عمامة سوداء وهو متلثم فدخلها من جهة البادية في زي أهل الحجاز ليوهم أنّه الحسين عليه السلام، والناس كانوا قد بلغهم إقبال الحسين عليه السلام فهم ينتظرونه فظنّوا أنّه الحسين فقالت امرأة الله أكبر ابن رسول الله صلى الله عليه وآله فتصايح الناس وقالوا: إنا معك أكثر من أربعين ألفاً، وأخذ لا يمرّ على جماعة من الناس إلّا سلّموا عليه وقالوا: مرحباً بك يا ابن رسول الله قدمت خير مقدم فرأى من تباشرهم بالحسين عليه السلام ما ساءه، وازدحموا عليه حتى أخذوا بذنب دابّته، وكشف لهم عبدالله بن مسلم الباهلي عن هويته قائلاً: تأخّروا، هذا الأمير عبيدالله بن زياد وحسر اللثام عن وجهه وقال: أنا عبيدالله فتساقط القوم ووطىء بعضهم بعضاً. وسار حتى وافى القصر بالليل.

وأصبح ابن زياد فخطب وتوعّد الناس بالعقوبة للعاصي والإحسان للمطيع منهم.

مسلم يأبى اغتيال ابن زياد

ولما سمع مسلم بن عقيل خبر مجيء عبيدالله وتوعّده الناس خرج من دار المختار إلى دار هاني بن عروة في جوف الليل وأخذ أنصاره يختلفون إليه على تسرّ وألحّ عبيدالله في طلبه، وجاء عبيدالله لعيادة شريك بن الحارث الهمداني في دار هاني وأمر شريك مسلم بن عقيل بأن يقتل عبيدالله إذا جلس عنده ونهاه هاني. ولما أراد الخروج تعلّقت به امرأة لهاني وبكت في وجهه وناشدته الله أن يفعل وخرج ابن زياد ومات شريك من مرضه ذلك.

ابن زياد يكتشف مخبأ مسلم وأصحابه

ولما خفي على ابن زياد أمر مسلم عمد إلى التجسّس فدعا غلاماً له اسمه معقل ودفع إليه أربعة آلاف درهم وأمره بحسن التوصل إلى أصحاب مسلم وأن يدفع إليهم المال ليستعينوا به ويظهر لهم أنّه منهم من أهل حمص فجاء إلى مسلم بن عوسجة

فاغترّ بكلامه وأدخله على مسلم بن عقيل فأخبر ابن زياد بكلّ ما أراد.
وبلغ الذين بايعوا مسلماً خمسة وعشرين ألف رجل فعزم على الخروج، فقال
هاني: لا تعجل، وخاف هاني عبيد الله على نفسه فانقطع عن مجلسه وتمارض.
فدعا ابن زياد محمّد بن الأشعث وحسان بن أسماء بن خارجة وعمرو بن الحجاج
الزبيدي وكان هاني متزوجاً برويحة بنت عمرو هذا فقال لهم: ما يمنع هانياً من
زيارتنا؟ قالوا: إنه مريض، قال: بلغني أنّه بريء وأنّه يجلس على باب داره فالتقوه
ومروه أن لا يدع ما عليه من حقنا فإنّي لا أحب أن يفسد عندي مثله من أشرف
العرب.

فأتوه وقالوا: ما يمنعك من لقاء الأمير؟ فإنه قد ذكرك، قال: المرض، قالوا: بلغه أنك
برئت، وأقسموا عليه أن يذهب معهم فذهب، ولم يكن حسان يعلم بشيء ممّا كان،
وكان محمّد بن الأشعث عالماً به.

ابن زياد يعتقل هانياً

فلما دخل هاني على ابن زياد قال: ايه يا هاني ما هذه الأمور التي تربص في دارك
لأمير المؤمنين وعامة المسلمين؟ جئت بمسلم بن عقيل فأدخلته دارك وجمعت له
الجموع والسلاح في الدور حولك وظننت أنّ ذلك يخفى عليّ فأنكر هاني أن يكون
قد فعل، فدعا ابن زياد معقلاً.

فعلم هاني أنّه كان عيناً عليهم فسقط في يده ساعة ثمّ راجعته نفسه وجعل يعتذر
إلى ابن زياد بأنّه ما دعا مسلماً إلى منزله وإنّما جاءه يسأله النزول فاستحيا من ردّه
وداخله من ذلك ذمام وأنّه يذهب الآن فيخرجه، فقال ابن زياد: واللّه لا تفارقني حتّى
تأتيني به فقال: لا واللّه لا أجيئك به، أجيئك بضيئي تقتله؟!

وخلا به مسلم بن عمرو الباهلي ليقنعه بأن يأتي به فأبى، فقال ابن زياد واللّه
لتأتيني به أو لأضربن عنقك، قال: إذا تكثرت البارقة حول دارك، فقال: والهاء عليك!

أبالبارقة تخوفني؟ وهانئ يظن أن عشيرته سيمنعونه، ثم قال: ادنوه مني فاستعرض وجهه بالقضيب حتى كسر أنفه وشق حاجبه ونثر لحم جبينه وخذه على لحيته وسالت الدماء على ثيابه ووجهه ولحيته وكسر القضيب.

وضرب هانئ يده على قائم سيف شرطي وجاذبه الشرطي ومنعه، فقال عبيدالله: أحروري سائر اليوم؟ قد حلّ دمك، جرّوه فجرّوه فألقوه في بيت من بيوت الدار وأغلقوا عليه بابه وجعلوا عليه حرساً.

فقام إليه حسان بن خازجة فقال: أرسل غدر سائر اليوم؟! أمرتنا أن نجيثك بالرجل حتى إذا جئناك به فعلت به هذا، فقال عبيدالله: وإتاك لها هنا فأمر به فضرب وتعتع وأجلس ناحية.

فقال محمد بن الأشعث: رضينا بما رأى الأمير، لنا كان أم علينا إنما الأمير مؤدّب. وبلغ عمرو بن الحجاج أن هانئاً قد قتل فأقبل في مذبح حتى أحاط بالقصر فقال ابن زياد لشريح القاضي: ادخل على صاحبهم فانظر إليه ثم أعلمهم أنه حيّ ففعل فقالوا: أما إذا لم يقتل فالحمد لله وانصرفوا.

خروج مسلم في الكوفة

أرسل مسلم إلى القصر من يأتيه بخبر هانئ فلما أخبر أنه ضرب وحبس، قال لمناديه: ناد يا منصور أمت، وكان ذلك شعارهم، فنادى، فاجتمع إليه أربعة آلاف كانوا في الدور حوله - وقال المسعودي: اجتمع إليه في وقت واحد ثمانية عشر ألف رجل - فسار إلى ابن زياد فما نزل ابن زياد حتى دخلت النظارة المسجد يقولون: جاء ابن عقيل فدخل عبيدالله القصر مسرعاً وأغلق أبوابه.

وقدّم مسلم مقدّمته وعباً أصحابه ميمنة وميسرة ووقف هو في القلب وأقبل نحو القصر وتداعى الناس واجتمعوا حتى امتلأ المسجد والسوق وضاق بعبيد الله. أمره وبعث إلى وجوه أهل الكوفة فجمعهم عنده وليس معه إلا ثلاثون رجلاً من الشرطة

وعشرون رجلاً من أشرف الناس وخاصته وجعل من في القصر مع ابن زياد يُشرفون على أصحاب مسلم وأصحاب مسلم يرمونهم بالحجارة ويشتمونهم ويفترون على عبيد الله وأمه وأبيه.

فدعا ابن زياد كثير بن شهاب وأمره أن يخرج فيمن أطاعه من مذحج ويخذل الناس عن ابن عقيل ويخونهم، وأمر محمد بن الأشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كندة وحضرموت فيرفع راية أمان وأمر جماعة من الأشراف بمثل ذلك وحبس باقي وجوه الناس عنده استيحاشاً إليهم لقلّة من معه.

وأقام الناس مع ابن عقيل يكثرّون حتّى المساء وأمرهم شديد، وأمر ابن زياد من عنده من الأشراف أن يشرفوا على الناس فيمتنوا أهل الطاعة الزيادة والكرامة ويخوفوا أهل المعصية الحرمان والعقوبة، وجعل كثير يخذل الناس ويخونهم بأجناد الشام فأخذوا يتفرّقون، وكانت المرأة تأتي ابنها وأخاها فتقول: انصرف، الناس يكفونك، ويجيء الرجل إلى ابنه وأخيه ويقول: غداً يأتيك أهل الشام فما تصنع بالحرب؟ حتّى أمسى ابن عقيل في خمسمائة فلما اختلط الظلام جعلوا يتفرّقون فصلّى المغرب وما معه إلّا ثلاثون نفساً فتوجّه نحو باب المسجد فلم يبلغه إلّا ومعه عشرة أنفس فخرج من الباب فإذا ليس معه أحد. فمضى على وجهه متلذداً في أرقة الكوفة حتّى أتى باب امرأة اسمها (طوعة) ولها ولد اسمه بلال كان قد خرج مع الناس وأمه قائمة تنتظره فسلم عليها ابن عقيل فردّت عليه السلام وطلب منها ماء فسقته وجلس، ودخلت ثم خرجت فقالت يا عبد الله ألم تشرب؟ قال: بلى، قالت: فاذهب إلى أهلِكَ فسكت، ثم أعادت مثل ذلك فسكت، فقالت: سبحان الله يا عبد الله قم عافاك الله إلى أهلِكَ فإنه لا يصلح لك الجلوس على بابي ولا أحله لك، فقام وقال: يا أمة الله ما لي في هذا المصر أهل ولا عشيرة، فهل لك في أجر ومعروف ولعليّ مكافيك بعد اليوم؟ قالت: وما ذاك؟ قال: أنا مسلم بن عقيل، قالت: أنت مسلم؟ قال: نعم، قالت: أدخل فدخل إلى بيت في دارها غير الذي تكون فيه وفرشت له وعرضت عليه العشاء فلم يتعشّ، وجاء ابنها

فرآها تكثر الدخول في البيت والخروج منه فاستراب بذلك ولم يزل بها حتى أخبرته. وجعل ابن زياد لا يسمع لأصحاب ابن عقيل صوتاً كما كان يسمع، فأمر أصحابه أن يشرفوا فينظروا هل يرون أحداً فلم يروا أحداً، فأخبروه بتفرق القوم.

فخرج بأصحابه إلى المسجد ونادى مناديه: برئت الذمة من رجل من الشرط والعرفاء والمناكب والمقاتلة صلى العتمة إلا في المسجد فامتلاً المسجد من الناس فصلّى بهم وأقام الحرس خلفه ثم صعد المنبر وقال: إنّ ابن عقيل السفیه الجاهل قد أتى ما رأيتم من الخلاف والشقاق فبرئت ذمة الله من رجل وجدناه في داره، ومن جاء به فله دينه، اتقوا الله عباد الله ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلاً، يا حصين بن تميم - وهو صاحب شرطته - ثكلتك أمك إن ضاع باب من سكك الكوفة وخرج هذا الرجل ولم تأتني به وقد سلطتك على دور أهل الكوفة ثم دخل القصر.

فلما أصبح جلس مجلسه وأذن للناس فدخلوا عليه وأقبل محمد بن الأشعث فقال له: مرحباً بمن لا يستغش ولا يتهم، وأقعده إلى جنبه، وجاء ابن تلك المرأة فأخبر عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بمكان مسلم من أمه، وكانت أمه أم ولد للأشعث بن قيس فأعتقها وتزوجها أسيد الحضرمي فولدت له بلالاً فبين بلال وأولاد الأشعث علاقة بسبب تلك المرأة، فجاء عبد الرحمن فأخبر أباه سرّاً وهو عند ابن زياد فعرف ابن زياد سراره فبعث معه سبعين رجلاً حتى أتوا الدار التي فيها مسلم فلما سمع مسلم وقع حوافر الخيل وأصوات الرجال علم أنه قد أتى فخرج إليهم بسيفه واقتحموا عليه الدار فشدّ عليهم يضرهم بسيفه حتى أخرجهم من الدار ثم عادوا إليه فشدّ عليهم كذلك فأخرجهم مراراً وقتل منهم جماعة واختلف هو وبكر بن حمران ضربتين ف ضرب بكر فم مسلم فقطع شفته العليا وأسرع السيف في السفلى وفصلت له ثنيتاه، وضربه مسلم في رأسه ضربة منكراً وثناه بأخرى على حبل العاتق كادت تطلع إلى جوفه فأشرفوا عليه من فوق البيوت يرمونه بالحجارة ويلهبون النار في أطنان القصب ويلقونها عليه، فلما رأى ذلك قال أكلّ ما أرى من الأجلاب لقتل مسلم بن عقيل يا نفس اخرجي إلى

الموت الذي ليس عنه محيص، فخرج عليهم مصلاً سيفاً في السكّة فقاتلهم فناداه ابن الأشعث لك الأمان وهو يقاتلهم ويتمثل:

أقسمت لا أقتل إلاّ حرّاً وإن رأيت الموت شيئاً نُكر
أخاف أن أكذب أو أغرّاً أو أخلط البارد سخناً مُرّاً
ردّ شعاع الشمس فاستقرّاً كلّ امرئ يوم ملاقي شرّاً
أضربكم ولا أخاف ضرّاً

فقال له ابن الأشعث: إنك لا تكذب ولا تغرّ وكان قد أئخن بالحجارة وعجز عن القتال فأسند ظهره إلى جنب تلك الدار وأعاد عليه ابن الأشعث لك الأمان. وقيل: إنهم تكاثروا عليه بعد أن أئخن بالجراح قطعنه رجل من خلفه فخرّ إلى الأرض فأخذ أسيراً وحمل على بغلة وانتزع ابن الأشعث سيفه وسلاحه.

فيئس عند ذلك من نفسه ودمعت عيناه وبكى، فقيل له: إنّ الذي يطلب مثل الذي تطلب إذا نزل به مثلما نزل بك لم يبك، فقال: واللّه ما لنفسي بكيت ولا لها من القتل أرثي وإن كنت لم أحب لها طرفة عين تلفاً، ولكنني أبكي لأهلي المقبلين إليّ، أبكي لحسين وآل حسين، ثم قال لابن الأشعث هل عندك خير؟ تستطيع أن تبعث من عندك رجلاً على لساني يبلغ حسيناً؟ فإنّي لا أراه إلاّ وقد خرج اليوم أو هو خارج غداً وأهل بيته، ويقول له إنّ ابن عقيل بعثني إليك وهو أسير في أيدي القوم لا يرى أنّه يمسي حتّى يقتل وهو يقول لك: ارجع فذاك أبي وأمي بأهل بيتك ولا يغرك أهل الكوفة فإنّهم أصحاب أبيك الذي كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل.

قال ابن الأشعث: واللّه لأفعلن - وكذب - . وجيء به إلى باب القصر وقد اشتدّ به العطش وعلى الباب قلّة فيها ماء بارد فقال: اسقوني من هذا الماء، فقال له مسلم بن عمرو الباهلي - والد قتيبة أمير خراسان - : أتراها؟ ما أبردها! لا واللّه لا تذوق منها قطرة حتّى تذوق الحميم، ومنهم أن يسقوه، فقال له ابن عقيل: لأمك الشكل ما أجفاك وأفظك وأقسى قلبك! أنت يا ابن باهلة أولى بالحميم والخلود في نار جهنّم مني.

وأرسل عمرو بن حريث غلاماً له فأتاه بقلّة عليها منديل وقدح فصبّ فيه ماء، وقال له: اشرب فأخذ كلّما شرب امتلأ القدح دماً من فمه فلا يقدر أن يشرب، فعل ذلك مرّة أو مرّتين فلماً ذهب في الثالث ليشرّب سقطت ثناياه في القدح فقال: الحمد لله، لو كان لي من الرزق المقسوم لشربته .

مسلم يتحدّى كبرياء ابن زياد

ثمّ أدخل مسلم على ابن زياد فلم يسلم عليه بالإمرة، فقال له الحرسي: سلّم على الأمير، فقال: اسكت ويحك! والله ما هو لي بأمرير، فقال ابن زياد: لا عليك سلّمت أم لم تسلم فإنّك مقتول، قال: إن قتلتنني فلقد قتل من هو شرّ منك من هو خير ممّي.

قال: قتلني الله إن لم أقتلك قتلة لم يقتلها أحد في الإسلام.

فقال: أما إنّك أحقّ من أحدث في الإسلام ما لم يكن ، وإنّك لا تدع سوء القتلة وقبح المثلة وخيب السريرة ولؤم الغلبة لأحد أولى بها منك.

فقال: يا عاتق يا شاق! شققت عصا المسلمين وألقت الفتنة.

قال: كذبت إنّما شقّ عصا المسلمين معاوية وابنه يزيد، وأما الفتنة فإنّما ألقتها أنت وأبوك زياد بن عبيد عبد بني علاج من ثقيف.

قال: ايه، ابن عقيل أتيت الناس وهم جميع وأمرهم ملثم فشتت أمرهم وفرقت كلمتهم.

قال: كلّا لست لذلك أتيت ولكنكم أظهرتم المنكر ودفنتم المعروف وتأمرتم على الناس بغير رضا منهم وعلمتم فيهم بأعمال كسرى وقيصر فأتيناهم لنأمر فيهم بالمعروف وننهى عن المنكر وندعوهم إلى حكم الكتاب والسنة وكنا أهل ذلك.

فأقبل ابن زياد يشتمه ويشتم عليّاً والحسن والحسين وعقيلاً.

فقال له مسلم: أنت وأبوك أحقّ بالشتيمة فاقض ما أنت قاض يا عدوّ الله.

فقال ابن زياد : اصعدوا به فوق القصر فاضربوا عنقه ثمّ أتبعوه جسده، فصعد به

وهو يكبر ويستغفر الله ويُسَبِّحُه وَيُصَلِّي على رسوله صلى الله عليه وآله فضرب عنقه وأتبع رأسه جثته.

وقام ابن الأشعث فشفع في هاني فوعده ابن زياد ثم بدا له فأمر بهاني بعد قتل مسلم فقال: اخرجوه إلى السوق فاضربوا عنقه فأخرجوه وهو مكتوف فجعل يقول وامدحجاء ولا مدحج لي اليوم ثم جذب يده فنزعها من الكتاف ووثبوا إليه فشدّوه وثاقاً وضربه مولى تركي لعبيد الله بن زياد يقال له رشيد فقتله.

وكان خروج مسلم في الكوفة يوم الثلاثاء لثمان مضيّن من ذي الحجة يوم التروية وقتله يوم الأربعاء يوم عرفة لتسع خلون منه. وأمر ابن زياد بجثة مسلم وهاني فصلبتا بالكناسة وبعث برأسيهما إلى يزيد بن معاوية وأخبره بأمرهما فأعاد يزيد الجواب إليه يشكره على فعله وسطوته ويقول له: قد بلغني أنّ حسيناً قد سار إلى الكوفة فضع المناظر والمسالح واحبس على الظنة وخذ على التهمة واكتب إليّ في كلّ ما يحدث.^١

الفصل

□ أمر يزيدُ واليَ المدينة بأن يأخذ البيعة له من الحسين عليه السلام وامتنع الحسين
 معلناً بأن مثله لا يبايع مثل يزيد. وهنا قرّر الهجرة من المدينة واتجه إلى
 مكة فدخلها في الرابع من شعبان سنة ٦٠ هجرية وقد ثقل على ابن الزبير
 تواجد الحسين عليه السلام في مكة. وبدأت دعوات الكوفيين تترى عليه وتطلب
 منه التوجه إلى العراق ليقاتلوا معه الحزب الأموي الحاكم، ووجه الحسين
 رسوله مسلم بن عقيل ليستخير الوضع له، وراسل الإمام زعماء البصرة فلم
 يستجب إلا يزيد بن مسعود النهشلي مع من كان تحت أمره من بني تميم
 وبني حنظلة وبني سعد، وتدارك يزيد وضع الكوفة بإرسال عبيد الله بن
 زياد إليها ويتراجع الكوفيون ويسجن هاني والمختار ويحاصر مسلم بن
 عقيل بعد تفرق أصحابه ثم يستشهد هو وهاني ويجزان في سكك الكوفة
 لإرعاب أهلها والحيلولة دون أي تحرّك آخر بعدها.

الأسئلة

- ١ . لماذا أرغم يزيد الإمام الحسين عليه السلام على البيعة؟
- ٢ . كيف قابل الإمام عليه السلام وإلى المدينة حينما أخبره بأمر يزيد وطلب منه البيعة؟
- ٣ . لماذا هاجر الإمام عليه السلام من المدينة واتجه إلى مكة؟
- ٤ . لماذا نقل على ابن الزبير حضور الإمام في مكة؟
- ٥ . ما هي أهم النقاط التي أثارها الإمام عليه السلام منذ واجه الوليد حتّى هاجر من مكة (في كلماته و خطبه و وصاياه)؟
- ٦ . لماذا تراجع الكوفيون عند مجيء ابن زياد إلى الكوفة؟
- ٧ . ما هو موقف هاني ومسلم من ابن زياد؟
- ٨ . ما هي الروح العامة التي كانت تسيطر على أهل الكوفة قبل وصول الحسين إليها؟

حركة الإمام الحسين عليه السلام من مكة إلى العراق

وكان يزيد بن معاوية قد أنفذ عمرو بن سعيد بن العاص من المدينة إلى مكة في عسكر عظيم وولاه أمر الموسم وأمره على الحاجّ كلّهم فحجّ بالناس وأوصاه بقبض الحسين عليه السلام سرّاً وإن لم يتمكّن منه يقتله غيلة، وأمره أن يناجز الحسين عليه السلام القتال إن هو ناجزه.

فلما كان يوم التروية قدم عمرو بن سعيد إلى مكة في جند كثيف فلما علم الحسين عليه السلام بذلك عزم على التوجّه إلى العراق وكان قد أحرم بالحجّ وقد وصله قبل ذلك كتاب مسلم بن عقيل ببيعة أهل الكوفة له فطاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة وقصر من شعره وأحلّ من إحرام الحجّ وجعلها عمرة مفردة ؛ لأنّه لم يتمكّن من إتمام الحجّ مخافة أن يقبض عليه، فخرج من مكة يوم الثلاثاء وقيل: يوم الأربعاء يوم التروية لثمان مضيّن من ذي الحجة. فكان الناس يخرجون إلى منى والحسين عليه السلام خارج إلى العراق.

ولما عزم الحسين عليه السلام على الخروج من مكة إلى العراق قام خطيباً في أصحابه، فكان ممّا قال: «الحمد لله وما شاء الله ولا قوة إلا بالله وصلى الله على رسوله رضا الله رضانا أهل البيت نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين، لن تشذّ عن رسول الله لحمته بل هي مجموعة له في حظيرة القدس تقرّ بهم عينه ويُنجزّ بهم وعده، من كان باذلاً فينا مهجته

وموطناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا فإني راحلٌ مصباحاً إن شاء الله تعالى.

وجاءه أبو بكر عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي فنهاه عن الخروج إلى العراق فقال له الحسين عليه السلام : جزاك الله خيراً يا ابن عمّ قد اجتهدت رأيك، ومهما يقض الله يكن.

وجاءه عبدالله بن عباس فنهاه عن الخروج أيضاً فقال أستخير الله وأنظر ما يكون. ثم أتاه مرة ثانية فأعاد عليه النهي وقال: إن أبيت إلا الخروج فاخرج إلى اليمن، فقال الحسين عليه السلام : يا ابن عمّ إني والله لأعلم أنك ناصح مشفق وقد أزمعت وأجمعت المسير.

وجاءه عبدالله بن الزبير فأشار عليه بالعراق ثم خشي أن يتهمه فقال : لو أقمت لما خالفنا عليك، فلما خرج ابن الزبير قال الحسين عليه السلام : إن هذا ليس شيء أحب إليه من أن أخرج من الحجاز.

ثم جاءه عبدالله بن عمر فأشار عليه بصلح أهل الضلال وحذره من القتل والقتال فقال له: يا أبا عبد الرحمن أما علمت أن من هوان الدنيا على الله أن رأس يحيى بن زكريّا أهدى إلى بغيّ من بغايا بني إسرائيل؟ أما تعلم أن بني إسرائيل كانوا يقتلون ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس سبعين نبياً ثم يجلسون في أسواقهم يبيعون ويشترون كأن لم يصنعوا شيئاً فلم يعجل الله عليهم بل أخذهم بعد ذلك أخذ عزيز ذي انتقام؟ اتق الله يا أبا عبد الرحمن ولا تدعن نصرتي.

وكان الحسين عليه السلام يقول: وأيم الله لو كنت في جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقتلوني والله ليعتدنّ عليّ كما اعتدت اليهود في السبت. والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقه من جوفي فإذا فعلوا ذلك سلط الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذلّ من فرام المرأة.

وجاءه محمد بن الحنفية في الليلة التي أراد الحسين عليه السلام الخروج في صبيحتها عن مكة فقال له: يا أخي إن أهل الكوفة قد عرفت غدرهم بأبيك وأخيك وقد خفت أن يكون حالك كحال من مضى فإن رأيت أن تقيم فإنك أعز من بالحرم وأمنعه. فقال: يا أخي قد خفت أن يغتالي يزيد بن معاوية بالحرم فأكون الذي يستباح به حرمة هذا البيت.

فقال له ابن الحنفية: فإن خفت ذلك فصر إلى اليمن أو بعض نواحي البر فإنك أمتع الناس به، ولا يقدر عليك أحد، فقال عليه السلام: أنظر فيما قلت.

فلما كان السحر إرتحل الحسين عليه السلام فبلغ ذلك ابن الحنفية فأثاء فأخذ بزمام ناقته - وقد ركبها - فقال: يا أخي ألم تعدني النظر فيما سألتك؟ فما حداك على الخروج عاجلاً؟ قال: أتاني رسول الله صلى الله عليه وآله بعدما فارقتك فقال: يا حسين أخرج فإن الله شاء أن يراك قتيلًا. فقال محمد ابن الحنفية: إنا لله وإنا إليه راجعون. فما معنى حملك هؤلاء النسوة معك وأنت تخرج على مثل هذا الحال؟! فقال: إن الله قد شاء أن يراهن سبايا فسلم عليه ومضى.

وسمع عبدالله بن عمر بخروجه فقدّم راحلته وخرج خلفه مسرعاً فأدركه في بعض المنازل فقال: أين تريد يا ابن رسول الله؟ قال: العراق، قال: مهلاً أرجع إلى حرم جدك فأبى الحسين عليه السلام، فلما رأى ابن عمر إباءه قال: يا أبا عبدالله اكشف لي عن الموضع الذي كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقبله منك فكشف الحسين عليه السلام عن سرّته فقبلها ابن عمر ثلاثاً وبكى وقال: استودعك الله يا أبا عبدالله فإنك مقتول في وجهك هذا.

ملاحقة السلطة للإمام الحسين عليه السلام

لما خرج الحسين عليه السلام من مكة اعترضته رسل عمرو بن سعيد ابن العاص أمير الحجاز من قبل يزيد، عليهم أخوه يحيى بن سعيد ليردّوه، فأبى عليهم وتدافع الفريقان وتضاربوا بالسياط ثم امتنع عليهم الحسين عليه السلام وأصحابه امتناعاً شديداً ومضى

الحسين عليه السلام على وجهه فبادروا وقالوا: يا حسين ألا تتقي الله؟! تخرج من الجماعة وتفرّق بين هذه الأمة؟ فقال: لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون ممّا أعمل وأنا بريء ممّا تعملون.

وعن علي بن الحسين عليه السلام قال: خرجنا مع الحسين عليه السلام فما نزل منزلاً ولا ارتحل منه إلا ذكر يحيى بن زكريّا وقتله.

وكتب عمرو بن سعيد وهو والي المدينة بأمر الحسين عليه السلام إلى يزيد فلما قرأ الكتاب تمثّل بهذا البيت:

فإن لا تزر أرض العدو وتأتاه يزرك عدوّ أو يلومنك كاشح

ثم سار عليه السلام حتّى مرّ بالتنعيم فلقي هناك عيراً تحمل هديّة قد بعث بها بحير بن ريسان الحميري عامل اليمن إلى يزيد بن معاوية وعليها الورس والحلل فأخذ الهدية وقال لأصحاب الجمال: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْطَلِقَ مَعَنَا إِلَى الْعِرَاقِ وَفِينَاهُ كِرَاهٌ وَأَحْسَنًا مَعَهُ صَحْبَتُهُ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَفَارِقَنَا أَعْطَيْنَاهُ كِرَاهٌ بِقَدْرِ مَا قَطَعَ مِنَ الطَّرِيقِ، فَمَضَى مَعَهُ قَوْمٌ وَامْتَنَعَ آخَرُونَ.

ثم سار عليه السلام حتّى أتى الصفاح فلقبه الفرزدق الشاعر، قال الفرزدق: حججت بأمي سنة ستين فبينما أنا أسوق بغيرها حتّى دخلت الحرم إذ لقيت الحسين عليه السلام خارجاً من مكة معه أسيافه وأتراسه. فقلت: لِمَنِ هَذَا الْقَطَارُ؟ فَقِيلَ لِلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، فَأَتَيْتُهُ وَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ: أَعْطَاكَ اللَّهُ سَوْلكَ وَأَمْلَكَ فِيمَا تَحَبُّ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ مَا أَعْجَلَكَ عَنِ الْحَيِّ؟ فَقَالَ: لَوْ لَمْ أُعَجَّلْ لَأَخَذْتُ. ثُمَّ قَالَ لِي: مَنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: رَجُلٌ مِنَ الْعَرَفِ فَلَا وَاللَّهِ مَا فَتَشَنِي عَنْ أَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ لِي: أَخْبِرْنِي عَنِ النَّاسِ خَلَقَكَ؟ فَقُلْتُ: الْخَبِيرُ سَأَلْتُ، قُلُوبُ النَّاسِ مَعَكَ وَأَسْيَافُهُمْ عَلَيْكَ، وَالْقَضَاءُ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَاللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ. فَقَالَ عليه السلام: صَدَقْتَ، لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ وَكُلَّ يَوْمٍ رَبَّنَا هُوَ فِي شَأْنٍ، إِنْ نَزَلَ الْقَضَاءُ بِمَا نَحَبُّ فَنَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى نِعَمَائِهِ وَهُوَ الْمُسْتَعَانُ عَلَى أَدَاءِ الشُّكْرِ، وَإِنْ حَالَ الْقَضَاءُ دُونَ الرَّجَاءِ فَلَمْ يَبْعِدْ مِنْ كَانَ الْحَقُّ نَبِيَّتَهُ وَالتَّقْوَى

سيرته. فقلت له: أجل بلغك الله ما تحب وكفاك ما تحذر وسألته عن أشياء من نذور ومناسك فأخبرني بها وحرك راحلته، وقال السلام عليك.

كتاب الأمان من أمير المدينة

والحق عبدالله بن جعفر الحسين عليه السلام بابنيه عون ومحمد وكتب على أيديهما كتاباً يقسم عليه فيه بالرجوع ويقول: إني مشفق عليك من هذا الوجه أن يكون فيه هلاكك وإن هلكت اليوم طفئ نور الأرض فإنك علم المهتدين.

وصار عبدالله إلى عمرو بن سعيد أمير المدينة فسأله أن يكتب للحسين عليه السلام أماناً ويمنيه البر والصلة، فكتب له وأنفذه مع أخيه يحيى بن سعيد، فلحقه يحيى وعبدالله بن جعفر وجهدا به في الرجوع، فقال: إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله في المنام وأمرني بما أنا ماضٍ له. فقال له: فما تلك الرؤيا، قال: ما حدثت بها أحداً وما أنا محدث بها أحداً حتى ألقى ربي عز وجل، فلما أيس منه عبدالله بن جعفر أمر ابنه عوناً ومحمداً بلزومه والمسير معه والجهاد دونه ورجع هو إلى مكة.

وسار الحسين عليه السلام نحو العراق مسرعاً لا يلوي على شيء حتى بلغ وادي العقيق فنزل ذات عرق فلقى رجل من بني أسد يسمى بشر بن غالب وارداً من العراق فسأله عن أهلها، فقال: خلفت القلوب معك والسيوف مع بني أمية فقال: صدق أخو بني أسد إن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

الإمام عليه السلام يخبر أهل الكوفة بتوجهه إليهم

ولما بلغ الحسين عليه السلام إلى الحاجز من بطن الرمة كتب كتاباً إلى جماعة من أهل الكوفة منهم سليمان بن صرد الخزاعي والمسيب بن نجبة ورفاعة بن شداد وغيرهم وأرسله مع قيس بن مسهر الصيداوي، وذلك قبل أن يُخبر بقتل مسلم يقول فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم من الحسين بن علي إلى إخوانه من المؤمنين والمسلمين، سلام

عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو (أما بعد) فإن كتاب مسلم بن عقيل جاءني يخبرني فيه بحسن رأيكم واجتماع ملئكم على نصرنا والطلب بحقنا سألت الله أن يحسن لنا الصنيع وأن يثيبكم على ذلك أعظم الأجر، وقد شخصت إليكم من مكة يوم الثلاثاء لثمان مضين من ذي الحجة يوم التروية فإذا قدم عليكم رسولي فانكمشوا في أمركم وجدوا فإني قادمٌ عليكم في أيامي هذه إن شاء الله تعالى والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وكان مسلم بن عقيل قد كتب إليه قبل أن يقتل بسبع وعشرين ليلة.

اعتقال رسول الحسين عليه السلام و قتله

أقبل قيس بكتاب الحسين عليه السلام، وكان ابن زياد لما بلغه مسير الحسين عليه السلام من مكة إلى الكوفة بعث الحصين بن تميم صاحب شرطته حتى نزل القادسيّة ونظّم الخيل ما بين القادسيّة إلى خفان وما بين القادسيّة إلى الققطانة وإلى جبل لعلع، قال الناس: هذا الحسين يريد العراق فلما انتهى قيس إلى القادسيّة اعترضه الحصين ابن تميم ليفتشه فأخرج قيس الكتاب وخرقه فحملة الحصين إلى ابن زياد فلما مثل بين يديه قال له: من أنت؟ قال أنا رجل من شيعة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب وابنه. قال: فلماذا خرقت الكتاب؟ قال لئلا تعلم ما فيه. قال: وممن الكتاب وإلى من؟ قال: من الحسين إلى جماعة من أهل الكوفة لا أعرف أسماءهم فغضب ابن زياد وقال: والله لا تفارقني حتى تخبرني بأسماء هؤلاء القوم أو تصعد المنبر فتسبّ الحسين بن علي وأباه وأخاه وإلا قطعتك إرباً إرباً. فقال قيس: أما القوم فلا أخبرك بأسمائهم وأما سبّ الحسين وأبيه وأخيه فافعل (وكان قصده أن يبلغ رسالة الحسين عليه السلام إلى أهل الكوفة). فصعد قيس فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وآله وأكثر من الترحم على عليّ والحسن والحسين ولعن عبيد الله بن زياد وأباه ولعن عتاة بني أميّة ثم قال: أيها الناس إن هذا الحسين بن عليّ خير خلق الله ابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا

رسوله إليكم وقد خلفته بالحاجر فأجيبوه. فأمر به ابن زياد فرمي من أعلى القصر فتقطع فمات، فبلغ الحسين عليه السلام قتله فاسترجع واستعبر بالبكاء ولم يملك دمعته، ثم قرأ ﴿فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾، ثم قال: جعل الله له الجنة ثواباً اللهم اجعل لنا ولشيعتنا منزلاً كريماً واجمع بيننا وبينهم في مستقر من رحمتك ورغائب مذخور ثوابك إنك على كل شيء قدير.

ثم أقبل الحسين عليه السلام من الحاجر حتى انتهى إلى ماء من مياه العرب فإذا عليه عبدالله بن مطيع العدوي وهو نازل به فلما رأى الحسين عليه السلام قام إليه فقال: بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله ما أقدمك؟! واحتمله فأنزله، فقال له الحسين عليه السلام: كان من موت معاوية ما قد بلغك فكتب إلي أهل العراق يدعونني إلى أنفسهم. فقال له عبدالله: أذكرك الله يا ابن رسول الله وحرمة الإسلام أن تنتهك، أنشدك الله في حرمة قريش، أنشدك الله في حرمة العرب، فوالله لئن طلبت ما في أيدي بني أمية ليقتلنك ولئن قتلوك لا يهابوا بعدك أحداً أبداً، والله إنها لحرمة الإسلام تنتهك وحرمة قريش وحرمة العرب، فلا تفعل ولا تأت الكوفة ولا تعرض نفسك لنبي أمية.

وكان عبيدالله بن زياد أمر فأخذ ما بين واقصة إلى طريق الشام إلى طريق البصرة فلا يدعون أحداً يلج ولا أحد يخرج.

التحاق زهير بن القين بركب الإمام عليه السلام

وأقبل الحسين عليه السلام لا يشعر بشيء حتى لقي الأعراب فسألهم، فقالوا: لا والله ما ندري غير أننا لا نستطيع أن نلج ولا نخرج، فسار تلقاء وجهه، وكان زهير بن القين البجلي قد حج في تلك السنة وكان عثمانياً فلما رجع من الحج جمعه الطريق مع الحسين عليه السلام، فحدث جماعة من فزارة وبجيلة قالوا: كنّا مع زهير بن القين حين أقبلنا من مكة فكنا نساير الحسين عليه السلام فلم يكن شيء أبغض إلينا من أن نسير معه في مكان واحد أو ننزل معه في منزل واحد، فإذا سار الحسين تخلف زهير بن القين وإذا نزل

الحسين تقدّم زهير فنزلنا يوماً في منزل لم نجد بداً من أن ننزل معه فيه فنزل هو في جانب ونزلنا في جانب آخر فبينما نحن جلوس نتغذى من طعام لنا إذ أقبل رسول الحسين عليه السلام حتى سلّم ثم دخل فقال: يا زهير إن أبا عبد الله بعثني إليك لتأتيه، فطرح كل إنسان ممّا في يده كأنّ على رؤوسنا الطير كراهة أن يذهب زهير إلى الحسين عليه السلام.

قال أبو مخنف: فحدّثني دلهم بنت عمرو وهي امرأة زهير قالت: فقلت له: الله! أبيعك إليك ابن رسول الله ثم لا تأتيه؟! سبحانه الله لو أتيتك فسمعت من كلامه! ثم انصرفت، فأتاه زهير على كره فما لبث أن جاء مستبشراً قد أشرق وجهه فأمر بفسطاطه وثقله ورحله فحوّل إلى الحسين عليه السلام ثم قال لامرأته أنت طالق الحقي بأهلك فإنّي لا أحبّ أن يصيبك بسبيي إلّا خيراً، وقد عزمْتُ على صحبة الحسين عليه السلام... وقال لأصحابه: من أحبّ منكم أن يتّبعني وإلّا فهو آخر العهد منّي، إنّني سأحدّثكم حديثاً: إنّنا غزونا بلنجر - وهي بلدة ببلاد الخزر - ففتح الله علينا وأصبنا غنائم ففرحنا فقال لنا سلمان الفارسي: إذا أدركتم قتال شباب آل محمّد فكونوا أشدّ فرحاً بقتالكم معهم ممّا أصبتم من الغنائم، فأما أنا فأستودكم الله، ولزم الحسين عليه السلام.

في الثعلبية

ولما نزل الحسين عليه السلام الخزيمية أقام بها يوماً وليلة ثم سار حتّى نزل الثعلبية فبات بها فلما أصبح إذا برجل من أهل الكوفة يكتي أباهرة الأزدي قد أتاه فسلم عليه، ثم قال: يا ابن رسول الله ما الذي أخرجك عن حرم الله وحرم جدك محمّد ﷺ؟ فقال الحسين عليه السلام: ويحك يا أباهرة إنّ بني أميّة أخذوا مالي فصبرت وشتما عرضي فصبرت وطلبوا دمي فهربت وأيم الله لتقتلني الفئة الباغية وليلبسهم الله ذلاًّ شاملاً وسيفاً قاطعاً وليسطنّ عليهم من يذلّهم حتّى يكونوا أدلّ من قوم سبا إذ ملكتهم امرأة فحكمت في أموالهم ودمائهم.

نبأ مقتل مسلم وهاني

وروى عبدالله بن سليم والمذري بن المشعل الأسديان قالا، لما قضينا حَجَّنا لم يكن لنا همّة إلاّ اللحاق بالحسين عليه السلام لننظر ما يكون من أمره فأقبلنا ترقل بنا ناقتانا مسرعين حتّى لحقناه بزروء فلما دنونا منه إذا نحن برجل من أهل الكوفة قد عدل عن الطريق حين رأى الحسين عليه السلام فوقف الحسين كأنه يريدّه ثم تركه ومضى، فقال أحدهما لصاحبه: إذهب بنا إلى هذا لنسأله فإنّ عنده خبر الكوفة فمضينا إليه فقلنا: من الرجل؟ قال أسدي قلنا له ونحن أسديان. ثم قلنا له أخبرنا عن الناس من ورائك، قال: لم أخرج من الكوفة حتّى قُتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة ورأيتهما يجزّان بأرجلهما في السوق. فأقبلنا حتّى لحقنا الحسين عليه السلام فسايرناه حتّى نزل الشعبيّة ممسياً، فجنّنا فقلنا له: رحمك الله إنّ عندنا خبراً إن شئت حدّثناك علانية وإن شئت سرّاً، فنظر إلينا وإلى أصحابه ثم قال: ما دون هؤلاء سرّ، فقلنا له: رأيت الراكب الذي استقبلته عشية أمس؟ قال: نعم وقد أردت مسألته، فقلنا قد والله استبرأنا لك خبره وكفيناك مسألته، وهو امرؤ منّا ذو رأي وصدق وعقل، وأنّه حدّثنا أنّه لم يخرج من الكوفة حتّى قتل مسلم وهاني ورأهما يجزّان في السوق بأرجلهما، فقال: إنّنا لله وإنّا إليه راجعون رحمة الله عليهما، يردّد ذلك مراراً، فقلنا له: ننشدك الله في نفسك وأهل بيتك إلاّ انصرفت من مكانك هذا فإنّه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة، بل تتخوّف أن يكونوا عليك، فنظر إلى بني عقيل فقال: ما ترون فقد قتل مسلم؟ فقالوا: والله لا نرجع حتّى نصيب ثأرنا أو نذوق ما ذاق، فأقبل علينا الحسين عليه السلام وقال: لا خير في العيش بعد هؤلاء، فعلمنا أنّه قد عزم رأيه على المسير، فقلنا له: خار الله لك، فقال: رحمكما الله، وارتجّ الموضع بالبكاء لقتل مسلم بن عقيل وسالت الدموع عليه كلّ مسيل.

فلما كان السحر قال لفتياناه وغلماؤه: أكثروا من الماء فاستقوا وأكثروا، وكان لا يمرّ بماء إلاّ اتّبعه من عليه، ثم ارتحلوا فصار حتّى انتهى إلى زبالته فأتاه بها خبر عبدالله بن

بقطر^١ وهو أخو الحسين عليه السلام من الرضاعة.^٢

رسول الحسين عليه السلام يتحدث عن ابن زياد

قال الطبري: وكان سرّحه إلى مسلم بن عقيل من الطريق وهو لا يعلم بقتله فأخذه خيل الحصين فسيّره من القادسيّة إلى ابن زياد^٣ فقال له ابن زياد: اصعد فوق القصر والعن الكذاب ابن الكذاب، ثم أنزل حتّى أرى فيك رأيي، فصعد فأعلم الناس بقدم الحسين عليه السلام ولعن ابن زياد وأباه فألقاه من القصر فتكسّرت عظامه وبقي به رمق فأتاه عبد الملك بن عمير اللخمي قاضي الكوفة فذبحه بمديته، فعيب عليه فقال: أردت أن أريحه.

تفرّق الناس عن الحسين عليه السلام

فلما بلغ الحسين عليه السلام خبره أخرج إلى الناس كتاباً فقرأ عليهم وفيه: بسم الله الرحمن الرحيم. أمّا بعد فإنّه قد أتاني خبر فظيع، قتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة وعبدالله بن بقطر وقد خدّلتنا شيعتنا فمن أحبّ منكم الانصراف فلينصرف في غير حرج ليس عليه ذمام. فتفرّق الناس عنه وأخذوا يميناً وشمالاً حتّى بقي أصحابه الذين جاءوا معه من المدينة ونفر يسير ممّن انضمّوا إليه، وكان اجتمع إليه مدّة مقامه بمكة نفر من أهل الحجاز ونفر من أهل البصرة، وإنّما فعل ذلك لعلّهم بأنّ أكثر من اتّبعوه إنّما اتّبعوه ظنّاً منهم أنّه يقدم بلداً قد استقامت له طاعة أهله فكره أن يسيروا معه إلّا وهم يعلمون ما يقدمون عليه وقد علم أنّه إذا بيّن لهم لم يصحبه إلّا من يريد مواساته والموت معه.

١. بالباء الموحّدة كما ضبطه ابن الأثير ولكنّه سميّ رضيعاً له لحضانه أمّه له.

٢. قبل كانت أمّه حاضنة للحسين عليه السلام ولم يكن رضع، ولكنّه سميّ رضيعاً له لحضانه أمّه له.

٣. وقيل بل أرسله الحسين عليه السلام مع مسلم فلما رأى مسلم الخذلان بعثه إلى الحسين يخبره بما انتهى إليه الأمر

فقبض عليه الحصين وأرسله إلى ابن زياد.

ولقيه الفرزدق بعدما رجع من الحجّ فسلم عليه وقال: يا ابن رسول الله كيف تركن إلى أهل الكوفة وهم الذين قتلوا ابن عمك مسلم بن عقيل وشيعته فاستعبر الحسين عليه السلام، باكياً ثم قال: رحم الله مسلماً فلقد صار إلى روح الله وريحانه وتحياته ورضوانه أما إنه قد قضى ما عليه وبقي ما علينا وأنشأ يقول:

لئن تكن الدنيا تعدّ نفيسة فإن ثواب الله أعلى وأنبل
وإن تكن الأبدان للموت أنشئت فقتل امرئ بالسيف في الله أفضل
وإن تكن الأرزاق قسماً مقدراً فقلّة حرص المرء في السعي أجمل
وإن تكن الأموال للترك جمعها فما بال متروك به المرء يبخل؟

فلما كان وقت السحر أمر الحسين عليه السلام أصحابه فاستقوا ماء وأكثروا ثم سار من زباله حتّى مرّ ببطن العقبة فنزل عليها فلقبه شيخ من بني عكرمة وهو عمّ لوزان^١ فسأله: أين تريد؟ فقال له الحسين عليه السلام: الكوفة، فقال الشيخ: أنشدك الله لما انصرفت فوالله ما تقدم إلّا على الأسنة وحدّ السيوف، وإن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤونة القتل ووطأوا لك الأشياء فقدمت عليهم كان ذلك رأياً، فأما على هذا الحال التي تذكر فإنّي لا أرى لك أن تفعل، فقال له الحسين عليه السلام: يا عبدالله ليس يخفى عليّ الرأي ولكنّ الله تعالى لا يُغلب على أمره، ثمّ قال عليه السلام: والله لا يدعوني حتّى يستخرجوا هذه العلقه من جوفي فإذا فعلوا سلّط الله عليهم من يذلّهم حتّى يكونوا أذلّ من فرق الأمة.

ثمّ سار حتّى نزلوا شراف، فلما كان في السحر أمر فتيانه فاستقوا من الماء فأكثروا.

١. الذي في إرشاد المفيد يقال له: عمرو بن لوزان والذي في تاريخ الطبري، ثمّ سار حتّى مرّ ببطن العقبة فنزل بها قال أبو مخنف: فحدّثني لوزان أحد بني عكرمة أنّ أحد عمومته سأل الحسين عليه السلام أين تريد إلى آخر ما ذكره المفيد. وعليه فالظاهر أنّ صواب العبارة فلقبه شيخ من بني عكرمة وهو عمّ لوزان كما ذكرناه فصحف عمّ وعمرو وزيد عليه يقال له عمرو، والله أعلم. المؤلّف.

الإمام الحسين عليه السلام يلتقي بالحرّ

ثم سار حتى انتصف النهار، فبينما هو يسير إذ كبر رجل من أصحابه، فقال الحسين عليه السلام: الله أكبر، لم كبرت؟ قال: رأيت النخل فقال له جماعة من أصحابه: والله إن هذا المكان ما رأينا به نخلة قط، فقال لهم الحسين عليه السلام فما ترونه؟ قالوا: نراه والله أسنة الرماح وآذان الخيل، قال: وأنا والله أرى ذلك، ثم قال عليه السلام: ما لنا ملجأً لنجأ إليه فنجعله في ظهورنا ونستقبل القوم بوجه واحد؟ فقالوا له: بلى هذا ذو حسم وهو جبل إلى جنبك فمل إليه عن يسارك فإن سبقت إليه فهو كما تريد، فأخذ إليه ذات اليسار وملنا معه فما كان بأسرع من أن طلعت علينا هوادي الخيل فتبينّاها وعدلنا عن الطريق فلما رأونا عدلنا عدلوا إليها كأنّ أسنّتهم اليعاسيب وكأنّ رياتهم أجنحة الطير فاستبقنا إلى ذي حسم فسبقناهم إليه وذلك على مرحلتين من الكوفة، وأمر الحسين عليه السلام بأبنيته فضربت.

كرم و مروءة

جاء القوم زهاء ألف فارس مع الحرّ بن يزيد التميمي حتى وقف هو وخيله مقابل الحسين في حرّ الظهيرة والحسين وأصحابه معتمّون متقلّدون أسياهم فقال الحسين عليه السلام لفتيانهِ: اسقوا القوم وأرووهم من الماء ورشّفوا الخيل ترشيفاً أي اسقوها قليلاً، فأقبلوا يملؤون القصاص والطساس من الماء ثم يدنونها من الفرس فاذا عبّ فيها ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً عزلت عنه وسقوا آخر حتى سقوها عن آخرها.^١

وقال الحسين عليه السلام للحرّ: أننا أم علينا؟ فقال: بل عليك يا أبا عبد الله، فقال

١. قال علي بن الطعان المحاربي: كنت مع الحرّ يومئذ فبحث في آخر من جاء من أصحابه، فلما رأى الحسين عليه السلام ما بي وبفرسي من العطش قال إنخ الراوية، والراوية عندي السقاء ثم قال يا ابن الأخ إنخ الجمل فأنخته، فقال: اشرب، فجعلت كلّما شربت سال الماء من السقاء، فقال الحسين عليه السلام: إخنث السقاء أي اعطفه فلم أدرك كيف أفعل، فقام فخنّته بيده فشربت وسقيتُ فرسي.

الحسين عليه السلام: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وكان مجيء الحر من القادسيّة، وكان عبيد الله بن زياد بعث الحصين بن تميم وأمره أن ينزل القادسيّة ويقدم الحرّ بين يديه في ألف فارس يستقبل بهم الحسين فلم يزل الحرّ موافقاً للحسين حتّى حضرت صلاة الظهر، فأمر الحسين عليه السلام الحجاج ابن مسروق أن يؤذّن فلمّا حضرت الإقامة خرج الحسين عليه السلام في إزار ورداء ونعلين، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيّها الناس! إنّها معذرة إلى الله وإليكم إنّي لم آتكم حتّى أتتني كتبكم وقدمت عليّ رسلكم أن أقدم علينا فإنّه ليس لنا إمام لعلّ الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق فإن كنتم على ذلك فقد جئتمكم فأعطوني ما أطمئنّ إليه من عهودكم ومواثيقكم وإن لم تفعلوا وكنتم لقدمي كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذي جئت منه إليكم فسكتوا فقال للمؤذّن أقم فأقام الصلاة.

الإمام الحسين عليه السلام يصلّي بالحرّ وأصحابه

قال الحسين عليه السلام للحرّ: أتريد أن تصلّي بأصحابك؟ قال: لا، بل تصلّي أنت ونصلّي بصلاتك، فصلّى بهم الحسين عليه السلام ثم دخل فاجتمع إليه أصحابه وانصرف الحرّ إلى مكانه الذي كان فيه فدخل خيمة قد ضربت له واجتمع إليه جماعة من أصحابه وعاد الباقون إلى صفّهم الذي كانوا فيه فأعادوه ثم أخذ كلّ رجل منهم بعنان دابّته وجلس في ظلّها، فلمّا كان وقت العصر أمر الحسين عليه السلام أن يتهيأوا للرحيل ففعلوا ثم أمر مناديه فنادى بالعصر وأقام، فاستقدم الحسين عليه السلام وقام فصلّى ثم سلّم وانصرف إليهم بوجهه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أمّا بعد أيّها الناس فإنكم إن تتقوا الله وتعرفوا الحق لأهله يكن الله عنكم ونحن أهل بيت محدّد أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم والساثرين فيكم بالجور والعدوان وإن أبيتم إلا الكراهية لنا والجهل بحقنا وكان رأيكم الآن غير ما أتتني به كتبكم وقدمت به عليّ

رسلكم انصرفت عنكم.

فقال له الحرّ: أنا والله ما أدري ما هذه الكتب والرسل التي تذكر، فقال الحسين عليه السلام لبعض أصحابه يا عقبة بن سميان أخرج الخوارج الذين فيهما كتبهم إليّ فأخرج خريجين مملوئين صحفاً فنشرت بين يديه، فقال له الحرّ: إنّنا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك وقد أمرنا إذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتّى تقدمك الكوفة على عبيد الله، فقال له الحسين عليه السلام: الموت أدنى إليك من ذلك.

الحرّ يمنع الإمام الحسين عليه السلام من الانصراف

ثمّ قال الحسين عليه السلام لأصحابه: قوموا فاركبوا فركبوا وانتظر هو حتّى ركبت نساؤه، فقال لأصحابه: انصرفوا، فلما ذهبوا لينصرفوا حال القوم بينهم وبين الانصراف، فقال الحسين عليه السلام للحرّ: نكلتك أمّك ما تريد؟ فقال له الحرّ: أما لو غيرك من العرب يقولها لي وهو على مثل الحال التي أنت عليها ما تركت ذكر أمّه بالكل كائنًا من كان ولكن مالي إلى ذكر أمّك من سبيل إلا بأحسن ما أقدر عليه. فقال له الحسين عليه السلام فما تريد؟ قال أريد أن أنطلق بك إلى الأمير عبيد الله بن زياد، فقال: إذا والله لا أتبعك، فقال: إذا والله لا أدعك، فترادّا القول ثلاث مرّات فلمّا كثر الكلام بينهما قال له الحرّ: إنّني لم أؤمر بقتالك إنّما أمرت أن لا أفارقك حتّى أقدمك الكوفة فإذا أبيت فخذ طريقاً لا يدخلك الكوفة ولا يردّك إلى المدينة يكون بيني وبينك نصفا حتّى أكتب إلى الأمير عبيد الله بن زياد فلمعلّ الله يرزقني العافيه من أن أبتلى بشيء من أمرك، فخذ هاهنا، فتياسر عن طريق العذيب والقادسيّة، فتياسر الحسين وسار والحرّ يسايره.

فقال الحسين عليه السلام: إنّ رسول الله ﷺ قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله ﷺ يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغيّر بقول ولا فعل كان حقاً على الله أن يدخله مدخله، ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتولّوا عن طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء

وأحلّوا حرام الله وحرموا حلاله وإني أحقّ بهذا الأمر وقد أتتني كتبكم وقدمت عليّ رسلكم ببيعتمكم : أنكم لا تسلموني ولا تدخلوني فإن وقّيتم لي ببيعتمكم فقد أصبتم حظكم ورشدكم، وأنا الحسين بن علي بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ونفسي مع أنفسكم وأهلي وولدي مع أهاليكم وأولادكم ولكم بي أسوة. وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدي وخلعتم بيعتي فلعمري ما هي منكم بنكر لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم بن عقيل والمغرور من اغترّ بكم فحظكم أخطأتم ونصيبكم ضيعتم ومن نكث فإنما ينكث على نفسه وسيغني الله عنكم والسلام.

فقال له الحرّ أذكرك الله في نفسك فإنني أشهد لئن قاتلت لتقتلن.

فقال له الحسين عليه السلام : أقبال الموت تخوفني؟ وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني؟ وسأقول كما قال أخو الأوس لابن عمّه وهو يريد نصرة رسول الله ﷺ فخوفه ابن عمّه وقال: أين تذهب؟ إنك مقتول فقال:

سأمضي وما بالموت عارٌّ على الفتى إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلماً
وواسى الرجال الصالحين بنفسه وفارق مشبوراً وودّع مجرماً
أقدم نفسي لا أريد بقاءها لتلقى خميساً في الوغى وعمرماً
فإن عشت لم أندم وإن مت لم ألم كفى بك ذلاً أن تعيش وترغماً
فلما سمع الحرّ ذلك تنحّى عنه وجعل يسير ناحية عن الحسين عليه السلام.

التحاق أنصار الحسين عليه السلام بإمامهم

ولم يزل الحسين سائراً حتّى انتهوا إلى (عذيب الهجانات) فإذا هم بأربعة نفر قد أقبلوا من الكوفة لنصرة الحسين على رواحلهم وهم عمرو بن خالد الصيداوي ومجمع العائذي وابنه وجنادة بن الحارث السلماني ومعهم غلام لنافع بن هلال الجملي، وهو يجنب فرساً لنافع يقال له الكامل وكان نافع خرج إلى الحسين عليه السلام قبلهم فلقيه في الطريق وأوصى أن يتبع بفرسه المسمّى بالكامل ومعهم دليل يقال له الطرمّاح بن عدي

الطائي على فرسه، وكان قد امتاز لأهله من الكوفة ميرة فخرج بهم على غير الطريق حتى إذا قاربوا الحسين عليه السلام حدا بهم الطرماح فقال:

يا ناقتي لاتذعري من زجري وشعري قبل طلوع الفجر
بخير ركبان وخير سفر حتى تحلي بكريم النجر
الماجد الحر الرحيب الصدر أتى به الله لخير أمر

نمّة أبقاه بقاء الدهر

فلما وصلوا إلى الحسين عليه السلام أراد الحرّ حبسهم أو ردّهم إلى الكوفة فمنعه الحسين عليه السلام من ذلك وقال: لأمنعهم ممّا أمنع منه نفسي إنّما هؤلاء أنصاري وهم بمنزلة من جاء معي فإن بقيت على ما كان بيني وبينك وإلا ناجزتك، فكفّ الحرّ عنهم. ثمّ سألهم الحسين عليه السلام عن خبر الناس فقالوا: أمّا الأشراف فقد استمالهم ابن زياد بالأموال فهم إلب واحد عليك، وأمّا سائر الناس فأفندتهم لك وسيوفهم مشهورة عليك، ثم قال لهم: فهل لكم علم برسولي قيس بن مسهر؟ قالوا: نعم قتله ابن زياد، فترقرقت عينا الحسين عليه السلام ولم يملك دمعته . ثمّ قال: منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً، اللهم اجعل لنا ولهم الجنة نزلاً واجمع بيننا وبينهم في مستقرّ من رحمتك ورغائب مذخور ثوابك.^١

١. وقال له الطرماح بن عدي: أدركك الله في نفسك ولا يغرنك أهل الكوفة فوالله إن دخلتها لتقتلن وإنّي لأخاف أن لا تصل إليها وما أرى مهلك كثير أحد ولم لم يقاتلك إلا هؤلاء لكفى، ولقد رأيت قبل خروجي من الكوفة جمعاً عظيماً يريدون المسير إليك فأنشدك الله إن قدرت أن لا تقدم إليهم شيراً فأفضل وطلب منه أن يذهب معه إلى بلاد قومه حتى يرى رأيه وأن ينزل جبلهم أجاً ويبعث إلى من بأجاً وسلمى وهما جبلان لطبيء فجزّاه الحسين عليه السلام وقومه خيراً وقال له إنّ بيننا وبين القوم قولاً لا تقدر معه على الإنصراف، فإن يدفع الله عنا قديماً ما أنعم علينا وكفى وإن يكن ما لا بدّ منه ففوز وشهادة إن شاء الله.

الخاص

□ قَرَّرَ يزيد أن يقتل الحسين إذا امتنع من البيعة ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة، وعلم الحسين بأنه مقتول لا محالة فقرر أن يكون ذلك في خارج الحرمين الشريفين لئلا تنتهك حرمتها، ولئلا يضيع دمه ويذهب هدرًا بل يكون مصباحاً للهدى يستضيء به السائرون على درب الحسين عليه السلام. فتوجه إلى العراق الذي كان قد دُعي إليه، ولم يتراجع بالرغم من علمه باستشهاد رسوله مسلم بن عقيل وبالرغم من تفرق كثير ممن كان قد التحق به طلباً للدين، وقرر الشهادة هو وخاصة أهل بيته وأصحابه ترجيحاً للموت مع العز على الحياة مع الذلّ وامتناعاً من الاستسلام للسلطة الجاهلية وتحريكاً للضامات الميّنة التي عرفت الحق ولكنها كانت قد فقدت عزيمتها وشجاعتها أمام صولة الباطل آنذاك.

الأسئلة

١. لماذا لم يُتم الإمام حجّه وخرج يوم التروية من مكة إلى العراق؟
٢. ماذا كان صدى خروج الإمام في هذا اليوم وبماذا خاطب أصحابه؟
٣. لماذا أشار ابن الزبير على الحسين عليه السلام بالخروج إلى العراق؟
٤. لماذا نهى عامة المشيرين الحسين عليه السلام من الخروج إلى العراق؟
٥. لماذا مرّق مسهر بن قيس كتاب الحسين عليه السلام إلى الكوفة؟
٦. كيف ولماذا التحق زهير بن القين بركب الإمام عليه السلام؟
٧. كيف تحدّى رسول الإمام الحسين عليه السلام ابن زياد؟
٨. ما هي دلالة صلاة الحرّ بإمامة الحسين عليه السلام وهو الذي كان يمنعه من الرجوع؟

موكب الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء

لم يزل الحسين عليه السلام سائراً حتّى انتهى إلى قصر بني مقاتل فنزل به، فلمّا كان آخر الليل أمر فتيانه فاستقوا من الماء ثمّ أمر بالرحيل فارتحل من قصر بني مقاتل ليلاً.

قال عقبة بن سميان فسرنا معه ساعة فخفق وهو على ظهر فرسه خفقة ثمّ انتبه وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون والحمد لله ربّ العالمين ففعل ذلك مرّتين أو ثلاثاً فأقبل إليه ابنه عليّ الأكبر^١ فقال: يا أبه! جعلت فداك ممّ حمدت واسترجعت؟ قال: يا بني إنّي خفقت خفقة فحنّ لي فارس على فرس وهو يقول: القوم يسIRON والمنايا تسير إليهم فعلمت أنّها أنفسنا نُعيّت إلينا فقال: هل يا أبه لا أراك الله سوءاً، ألسنا على الحقّ؟ قال: بلى والذي إليه مرجع العباد، قال: إذا لا نبالي أن نموت محقّين. فقال له الحسين عليه السلام: جزاك الله من ولد خير ما جرى ولداً عن والده.

فلمّا أصبح نزل فصلّى الغداة ثمّ عبّل الركوب فأخذ يتياسر بأصحابه يريد أن يفرّ بهم فيأتيه الحرّ فيردّه وأصحابه، فجعل إذا ردّهم نحو الكوفة ردّاً شديداً امتنعوا عليه وارتفعوا فلم يزالوا يتياسرون كذلك حتّى انتهوا إلى نينوى، فإذا راكب على نجيب له عليه السلاح متنكبّ قوساً مقبل من الكوفة وهو مالك بن النسر الكندي فوقفوا جميعاً

١. كان للحسين ولدان باسم عليّ وهذا الأكبر، أمّا الأصغر فهو الملقّب بزَيْن العابدين.

ينتظرونه، فلما إنتهى إليهم سلم على الحرّ وأصحابه ولم يسلم على الحسين عليه السلام وأصحابه ودفع إلى الحرّ كتاباً من ابن زياد فإذا فيه:

أما بعد فجمع بالحسين - أي ضيق عليه - حين يبلغك كتابي ويقدم عليك رسولي فلا تنزله إلا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء وقد أمرت رسولي أن يلزمك فلا يفارقك حتى يأتيني بإنفاذك أمري والسلام.

فعرض لهم الحرّ وأصحابه ومنعهم من السير وأخذهم الحرّ بالنزول في ذلك المكان على غير ماء ولا قرية فقال له الحسين عليه السلام ألم تأمرنا بالعدول عن الطريق؟ قال: بلى ولكن كتاب الأمير عبيد الله قد وصل يأمرني فيه بالتضييق عليك وقد جعل عليّ عيناً يطالبني بذلك فنظر يزيد بن زياد بن مهاصر الكندي وكان خرج إلى الحسين عليه السلام من الكوفة قبل أن يلاقيه الحرّ إلى رسول ابن زياد فعرفه، فقال له: ثكلتك أمك ماذا جئت به؟ قال: أطعت إمامي ووفيت ببيعتي فقال له ابن مهاصر: بل عصيت ربك وأطعت إمامك في هلاك نفسك وكسبت العار والنار وبش الإمام إمامك قال الله تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾ فإمامك منهم.

فقال الحسين عليه السلام للحرّ: دعناك ويحك تنزل هذه القرية أو هذه يعني نينوى والغاضرية أو هذه يعني شقية فقال: لا أستطيع هذا رجل قد بعث عليّ عيناً.

أرض الميعاد

فقال زهير بن القين للحسين عليه السلام: آتي والله لا أرى أن يكون بعد الذي ترون إلا أشدّ مما ترون، يا ابن رسول الله: إن قتال هؤلاء الساعة أهون علينا من قتال من يأتينا بعدهم، فلعمري ليأتينا من بعدهم ما لا قبل لنا به. فقال الحسين عليه السلام: ما كنت لأبدأهم بالقتال.

فقال له: سر بنا إلى هذه القرية حتى ننزلها فإنها حصينة وهي على شاطئ الفرات فإن منعونا قاتلناهم فقتلهم أهون علينا من قتال من يجيء بعدهم، فقال الحسين عليه السلام:

ما هي؟ قال العقر، قال: اللهم إني أعوذ بك من العقر.

قال له: فسر بنا يا ابن رسول الله حتى ننزل كربلاء فإنها على شاطئ الفرات فنكون هناك فإن قاتلونا قاتلناهم واستعنا الله عليهم، قال فدمعت عينا الحسين عليه السلام ثم قال: «اللهم إني أعوذ بك من الكرب والبلاء».

ثم خطب أصحابه وقيل أنه خطب هذه الخطبة بذى حسم فحمد الله وأثنى عليه وقال: إنه قد نزل بنا من الأمر ما قد ترون وإن الدنيا تغيرت وتكررت وأدبر معروفها واستمرت حذاء ولم يبق منها إلا صباية كصباية الإناء وخسيس عيش كالمرعى الويل ألا ترون إلى الحق لا يعمل به وإلى الباطل لا يتناهى عنه؟ ليرغب المؤمن في لقاء ربه محققاً فإنني لأرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً.

فقام زهير بن القين فقال: قد سمعنا هداك الله يا ابن رسول الله مقاتلك ولو كانت الدنيا لنا باقية وكنا فيها مخلصين لآثرنا النهوض معك على الإقامة فيها.

ووثب نافع بن هلال الجملي فقال: والله ما كرهنا لقاء ربنا وإننا على نياتنا وبصائرنا نوالي من والاك ونعادي من عاداك.

وقام برير بن خضير فقال: والله يا ابن رسول الله لقد من الله بك علينا أن نقاتل بين يديك وتقطع فيك أعضاؤنا ثم يكون جدك شفيعنا يوم القيامة.

هذا موضع كرب وبلاء

ثم إن الحسين عليه السلام قام وركب وكلما أراد المسير يمنعون تارة ويسايرونه أخرى حتى بلغ كربلاء يوم الخميس الثاني من المحرم سنة إحدى وستين فلما وصلها قال: ما اسم هذه الأرض؟ فقيل: كربلاء فقال: اللهم إني أعوذ بك من الكرب والبلاء، ثم أقبل على أصحابه فقال:

الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معاشهم فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون.

ثم قال: أهذه كربلاء؟ قالوا: نعم يا ابن رسول الله، فقال: هذا موضع كرب وبلاء، انزلوا، هاهنا مناخ ركابنا ومحط رحالنا ومقتل رجالنا ومسفك دمائنا، فنزلوا جميعاً ونزل الحرّ وأصحابه ناحية.

ثم إن الحسين عليه السلام جمع ولده وأخوته وأهل بيته ثم نظر إليهم فدمعت عيناه ثم قال: اللهم إنا عترة نبيك محمد ﷺ وقد أزعجنا وطردنا وأخرجنا عن حرم جدنا وتعدت بنو أمية علينا اللهم فخذ لنا بحقنا وانصُرنا على القوم الظالمين.

وكتب الحرّ إلى عبيد الله بن زياد يعلمه بنزول الحسين بكربلاء، فكتب ابن زياد إلى الحسين أمّا بعد فقد بلغني يا حسين نزولك بكربلاء وقد كتب إليّ أمير المؤمنين يزيد أن لا أتوسد الوثير ولا أشبع من الخمير أو ألحقك باللطيف الخبير أو ترجع إلى حكمي وحكم يزيد والسلام.

فلما قرأ الحسين الكتاب ألقاه من يده وقال: لا أفلح قوم اشتروا مرضاة المخلوق بسخط الخالق.

فقال له الرسول: الجواب يا أبا عبد الله، فقال له: ما عندي جواب فرجع الرسول إلى ابن زياد فأخبره فاشتد غضبه وجهّز إليه العساكر وجمع الناس في مسجد الكوفة وخطبهم ومدح يزيد وأباه وذكر حسن سيرتهما ووعد بتوفير العطاء وزادهم في عطائهم مائة مائة وأمر بالخروج إلى حرب الحسين عليه السلام.

انطلاق عمر بن سعد لقتال الحسين عليه السلام

فلما كان اليوم الثالث من المحرم قدم عمر بن سعد بن أبي وقاص في أربعة آلاف، وكان ابن زياد قد ولّاه الري وأرسل معه أربعة آلاف لقتال الديلم فلما جاء الحسين عليه السلام قال له سر إليه فإذا فرغت فسر إلى عمك فاستعفاء، فقال: نعم على أن ترد إلينا عهدنا فاستمهلنا واستشار نصحاءه فنهوه عن ذلك فبات مفكراً فسمعوه وهو يقول:

دعاني عبيد الله من دون قومه
فوالله لا أدري وإني لواقف
أترك ملك الريّ والريّ رغبة
وفي قتله النار التي ليس دونها
إلى خطة فيها خرجت لحيني
أفكر في أمري على خطرين
أم أرجع مذموماً بقتل حسين
حجاب وملك الريّ قرة عين

وجاء حمزة بن المغيرة بن شعبة وهو ابن أخته فقال له: أنشدك الله يا خال أن تسير إلى الحسين فتأثم عند ربك وتقطع رحمك، فوالله لأن تخرج من دنيك ومالك وسلطان الأرض كلها لو كان لك خير لك من أن تلقى الله بدم الحسين. فقال له ابن سعد فإني أفعل إن شاء الله.

وجاء ابن سعد إلى ابن زياد فقال إنك وليّني هذا العمل يعني الريّ وتسامع به الناس فإن رأيت أن تنفذ لي ذلك وتبعث إلى الحسين من أشرف الكوفة من لست خيراً منه وسمي له أناساً فقال له ابن زياد: لست استشيرك في من أبعث، إن سرت بجندنا وإلا فابعث إلينا بعهدنا، قال: فإني سائر. وقيل أن يحارب الحسين عليه السلام.

وسار ابن سعد إلى قتال الحسين بالأربعة الآلاف التي كانت معه، وانضم إليه الحرّ وأصحابه فصار في خمسة آلاف ثم جاءه شمر في أربعة آلاف ثم أتبعه ابن زياد بيزيد بن ركاب الكلبي في ألفين والحصين بن تميم السكوني في أربعة آلاف وفلان المازني في ثلاثة آلاف ونصر ابن فلان في ألفين، فذلك عشرون ألف فارس تكملت عنده إلى ست ليال خلون من المحرم، وبعث كعب بن طلحة في ثلاثة آلاف وشبث ابن ربعي الرياحي في ألف وحجار بن أبجر في ألف ذلك خمسة وعشرون ألفاً، وما زال يرسل إليه بالعساكر حتى تكامل عنده ثلاثون ألفاً ما بين فارس وراجل^١.

ثم كتب إليه إني لم أجعل لك علة في كثرة الخيل والرجال فانظر لا أصبح ولا أمسي إلا وخبرك عندي غدوة وعشيّة وكان يستحثه لستة أيام مضين من المحرم.

وأراد ابن سعد أن يبعث إلى الحسين رسولاً يسأله ما الذي جاء به فعرض ذلك على جماعة من الرؤساء فكلّهم أبى استحياءً من الحسين عليه السلام لأنهم كاتبوه، فقام إليه كثير بن عبد الله الشعبي وكان فارساً شجاعاً لا يردّ وجهه شيء فقال: أنا أذهب إليه والله إن شئت لأفتكنّ به. فقال عمر: ما أريد أن تفتك به ولكن اذهب فسله ما الذي جاء به؟ فأقبل، فلما رآه أبو ثمامة الصائدي قال للحسين عليه السلام : أصلحك الله يا أبا عبد الله قد جاءك شرّ أهل الأرض وأجرأه على دم وأفتكه، وقام إليه فقال له: ضع سيفك، قال: لا والله ولا كرامة إنّما أنا رسول فإن سمعتم منّي وإلا انصرفت. قال: فأخذ بقاتم سيفك ثمّ تكلم، قال: لا والله لا تمسه، قال إخبارني بما جئت به وأنا أبلغه عنك ولا أدعك تدنو منه فإنك فاجر. فاستبّأ وانصرف إلى عمر بن سعد فأخبره فأرسل قرة ابن قيس الحنظلي، فلما رآه الحسين عليه السلام مقبلاً قال أتعرفون هذا؟ قال: حبيب بن مظاهر: نعم هذا رجل من حنظلة تميم وهو ابن اختنا وقد كنت أعرفه بحسن الرأي وما كنت أراه يشهد هذا المشهد فجاء حتّى سلّم على الحسين عليه السلام وبلغه رسالة عمر ابن سعد.

فقال له الحسين عليه السلام : كتب إليّ أهل مصركم هذا أن أقدم. فأمّا إذا كرهتموني فإنّي أنصرف عنكم. فقال له حبيب بن مظاهر: ويحك يا قرة أين ترجع إلى القوم الظالمين انصر هذا الرجل الذي بآبائه أيّدك الله بالكرامة فقال له ارجع إلى صاحبي بجواب رسالته وأرى رأيي فانصرف إلى ابن سعد فأخبره، فقال: أرجو أن يعافيني الله من أمره وكتب إلى ابن زياد بذلك فلما قرأ الكتاب قال:

الآن إذ علقت مخالبتنا به يرجو النجاة ولات حين مناص

ثمّ كتب إلى ابن سعد أن أعرض على الحسين أن يبايع ليزيد هو وجميع أصحابه فإذا هو فعل ذلك رأينا رأينا، فقال ابن سعد: قد خشيت أن لا يقبل ابن زياد العافية.

حرمانُ الحسين عليه السلام وأصحابه من الماء

وورد كتاب ابن زياد في الأثر إلى ابن سعد أن حُل بين الحسين وأصحابه وبين الماء فلا يذوقوا منه قطرة كما صنع بالتقيّ الزكي عثمان بن عفان.

فبعث عمر في الوقت عمرو بن الحجاج في خمسمائة فارس فنزلوا على الشريعة وحالوا بين الحسين عليه السلام وأصحابه وبين الماء ومنعوه أن يستقوا منه قطرة وذلك قبل قتل الحسين عليه السلام بثلاثة أيام. فلما اشتد العطش على الحسين عليه السلام وأصحابه أمر أخاه العباس بن علي عليه السلام فسار في عشرين رجلاً يحملون القرب وثلاثين فارساً فجاءوا حتى دنوا من الماء ليلاً وأمامهم نافع بن هلال الجملي يحمل اللواء، فقال عمرو بن الحجاج: من الرجل؟ قال نافع، قال: ما جاء بك؟ قال: جئنا نشرب من هذا الماء الذي حلّتمونا عنه، قال فاشرب هنيئاً، قال: لا والله لا أشرب منه قطرة والحسين عطشان هو وأصحابه، فقالوا: لا سبيل إلى سقي هؤلاء إنّما وضعنا بهذا المكان لنمنعهم الماء. فقال نافع لرجاله: املأوا قربكم فملؤها ونار إليهم عمرو بن الحجاج وأصحابه فحمل عليهم العباس ونافع بن هلال فكشفوهم وأقبلوا بالماء، ثم عاد عمرو بن الحجاج وأصحابه وأرادوا أن يقطعوا عليهم الطريق فقاتلهم العباس وأصحابه حتى ردّوهم وجاءوا بالماء إلى الحسين عليه السلام.

وقال سبط بن الجوزي: إنّهم اقتتلوا على الماء ولم يمكنوهم من الوصول إليه (وضيق) القوم على الحسين عليه السلام حتى نال منه العطش ومن أصحابه، فقال له برير بن خضير الهمداني: يا ابن رسول الله أتأذن لي أن أخرج إلى القوم؟ فأذن له فخرج إليهم فقال: يا معشر الناس إنّ الله عزّ وجلّ بعث محمداً بالحقّ بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وهذا ماء الفرات تقع فيه خنازير السواد وكلابه وقد حيل بينه وبين ابنه، فقالوا: يا برير قد أكثرت الكلام فاكفف والله ليمطش الحسين كما عطش من كان قبله، فقال الحسين عليه السلام: أقعد يا برير.

ثم وثب الحسين عليه السلام متوكئاً على قائم سيفه ونادى بأعلى صوته فقال: أنشدكم الله

هل تعرفونني؟ قالوا: نعم أنت ابن رسول الله ﷺ وسيطه، قال: أنشدكم الله، هل تعلمون أن جدِّي رسول الله ﷺ؟ قالوا: اللهم نعم، قال: أنشدكم الله هل تعلمون أن أمِّي فاطمة بنت محمد ﷺ؟ قالوا: اللهم نعم، قال: أنشدكم الله هل تعلمون أن جدتي خديجة بنت خويلد أول نساء هذه الأمة إسلاماً؟ قالوا: اللهم نعم، قال: أنشدكم الله هل تعلمون أن سيد الشهداء حمزة عم أبي؟ قالوا: اللهم نعم، قال: أنشدكم الله هل تعلمون أن هذا سيف رسول الله ﷺ أنا متقلّده؟ قالوا: اللهم نعم، قال: أنشدكم الله هل تعلمون أن هذه عمامة رسول الله ﷺ أنا لابسها؟ قالوا: اللهم نعم، قال: أنشدكم الله هل تعلمون أن عليّاً كان أول القوم إسلاماً وأعلمهم علماً وأعظمهم حِلماً وأنه وليّ كلّ مؤمن ومؤمنة؟ قالوا: اللهم نعم، قال: فبِمَ تَسْتَحِلُّون دمي وأبي الذائد عن الحوض يذود عنه رجالاً كما يذاد البعير الصادّ^١ عن الماء ولواء الحمد في يد أبي يوم القيامة؟ قالوا: قد علمنا ذلك كلّهُ ونحن غير تاركين حتى تذوق الموت عَطْشاً.

فلَمَّا خطب هذه الخطبة وسمع بناته وأخواته كلامه بكين وارتفعت أصواتهنّ فوجّه إليهن أخاه العباس وعليّاً ابنه وقال لهما: أسكتاهن فلعمري ليكثرن بكاهن.

أحداث ليلة عاشوراء

المفاوضات بين الحسين ﷺ وابن سعد

وأرسل الحسين ﷺ إلى عمر بن سعد مع عمرو بن قرظة الأنصاري أنّي أريد أن أكلمك فالتقني الليلة بين عسكري وعسكرك، فخرج إليه ابن سعد في عشرين وخرج الحسين ﷺ في مثلها فأمر الحسين ﷺ أصحابه فتنحّوا وبقي معه أخوه العباس وابنه عليّ الأكبر وأمر ابن سعد أصحابه فتنحّوا وبقي معه ابنه حفص و غلام له، فقال له الحسين ﷺ: ويلك يا ابن سعد أما تتقي الله الذي إليه معادك؟ أتقاتلني وأنا ابن من

١. الصاد بلفظ حرف الهجاء البعير الذي أصابه الصيد وهو داء يلوي العنق كذا في الفائق للزمخشري.

علمت؟ ذر هؤلاء القوم وكن معي فإنه أقرب لك إلى الله؟

فقال ابن سعد: أخاف أن تهدم داري، فقال الحسين أنا أبنيها لك، فقال: أخاف أن تؤخذ ضيعتي؟ فقال الحسين: أنا أخلف عليك خيراً منها من مالي بالحجاز. فقال: لي عيال وأخاف عليهم، ثم سكوت ولم يجبه إلى شيء، فانصرف عنه الحسين وهو يقول: مَالَكَ ذَبَحَكَ اللَّهُ عَلَى فَرَاشِكَ عَاجِلاً وَلَا غَفَرَ لَكَ يَوْمَ حَشْرِكَ فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ لَا تَأْكُلَ مِنْ بَرِّ الْعِرَاقِ إِلَّا يَسِيراً، فقال: في الشكير كفاية عن البر، مستهزئاً بذلك القول.

وأرسل إليه مرة أخرى إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَلْقَاكَ فَاجْتَمِعَا لَيْلاً بَيْنَ الْعَسْكَرَيْنِ وَتَنَاجِيَا طَوِيلًا، والتقى الحسين وعمر بن سعد مراراً ثلاثاً أو أربعاً ثم كتب عمر إلى ابن زياد: أَمَا بَعْدَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَطْفَأَ النَّارَ وَجَمَعَ الْكَلِمَةَ وَأَصْلَحَ أَمْرَ الْأُمَّةِ، هذا الحسين قد أعطاني أن يرجع إلى المكان الذي منه أتى أو أن يسير إلى ثغر من الثغور فيكون رجلاً من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم أو أن يأتي أمير المؤمنين يزيد فيضع يده في يده فيرى فيما بينه وبينه رأيه، وفي هذا لك رضا وللأمة صلاح.

وعن عقبة بن سميان أنه قال: واللّه ما أعطاهم الحسين عليه السلام أن يضع يده في يد يزيد ولا أن يسير إلى ثغر من الثغور، ولكنه قال: دعوني أرجع إلى المكان الذي أقبلت منه أو أذهب في هذه الأرض العريضة.

قال: فلما قرأ ابن زياد الكتاب، قال: هذا كتاب ناصح لأمره مشفق على قومه، فقام إليه شمر بن ذي الجوشن وقال: أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك وإلى جنبك واللّه لئن رحل من بلادك ولم يضع يده في يدك ليكوننّ أولى بالقوة والعزة ولتكوننّ أولى بالضعف والعجز، ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه فإن عاقبت فأنت أولى بالعقوبة وإن عفوت كان ذلك لك. فقال له ابن زياد: نعم ما رأيت، الرأي رأيك. أخرج بهذا الكتاب إلى عمر بن سعد فليعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكمي فإذا فعلوا فليبعث بهم إليّ سلماً وإن أبوا فليقاتلهم فإن فعل فاسمع له وأطع وإن أبى فأنت أمير الجيش فاضرب عنقه وابعث إليّ برأسه.

وكتب إلى ابن سعد أنني لم أبعثك إلى الحسين لتكف عنه ولا لتطاوله ولا لتمنيه السلامة والبقاء ولا لتعذر عنه ولا لتكون له عندي شافعاً أنظر فإن نزل حسين وأصحابه على حكمي واستسلموا فابعث بهم إليّ سلماً وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فإنهم لذلك مستحقون، فإن قتلت حسيناً فاططئ الخيل صدره وظهره فإنه عاق شاق قاطع ظلوم ولست أرى أن هذا يضر بعد الموت شيئاً ولكن على قول قد قتلته لو قد قتلته لفعلت هذا به فإن أنت مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع وإن أبيت فاعتزل عملنا وجندنا وخل بين شمر بن ذي الجوشن وبين العسكر فإننا قد أمرناه بأمرنا والسلام.

فلما قرأ ابن سعد الكتاب، قال له: مالك، وملك لا قرب الله دارك وقبح الله ما قدمت به عليّ والله إنني لأظنك أنت نهيت أن يقبل ما كتبت به إليه وأفسدت علينا أمراً كنا قد رجونا أن يصلح، لا يستسلم والله حسين إن نفس أبيه لتيئن جنبه. فقال له شمر بن ذي الجوشن: أخبرني بما أنت صانع، أتمضي لأمر أميرك وتقاتل عدوه؟ وإلا فخل بيني وبين الجند والعسكر قال: لا ولا كرامة لك، ولكن أنا أتولى ذلك فدونك، فكن أنت على الرجال.

ليلة عاشوراء

ونهض عمر بن سعد إلى الحسين عليه السلام عشية يوم الخميس لتسع مضين من المحرم، وجاء شمر حتى وقف على أصحاب الحسين عليه السلام فقال: أين بنو أختنا - يعني العباس وجعفر - وعبد الله وعثمان أبناء علي عليه السلام - فقال الحسين عليه السلام: أجيئوه وإن كان فاسقاً، فإنه بعض أحوالكم، وذلك أن أمهم أم البنين كانت من بني كلاب وشمر من بني كلاب. فقالوا له: ما تريد؟ فقال لهم: أنتم يا بني أختي آمنون فلا تقتلوا أنفسكم مع أخيكم الحسين والزمو طاعة يزيد، فقالوا له: لعنك الله ولعن أمانك أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له؟!

وناداه العباس ابن أمير المؤمنين عليه السلام : تَبَّتْ يَدَاكَ وَلَقَنَ مَا جِئْنَا بِهِ مِنْ أَمَانِكَ يَا
عَدُوَّ اللَّهِ أَتَأْمُرُنَا أَنْ نَتْرِكَ أَخَانَا وَسَيِّدَنَا الْحُسَيْنَ بْنَ فَاطِمَةَ وَنَدْخُلَ فِي طَاعَةِ اللَّعْنَاءِ
وَأَوْلَادِ اللَّعْنَاءِ؟^١

ثُمَّ نَادَى عُمَرَ بْنَ سَعْدٍ يَا خَيْلَ اللَّهِ أَرَكِبِي وَبِالْجَنَّةِ أَبْشِرِي فَرَكِبَ النَّاسُ ثُمَّ زَحَفَ
نَحْوَهُمْ بَعْدَ الْعَصْرِ وَالْحُسَيْنُ عليه السلام جَالِسٌ أَمَامَ بَيْتِهِ مُحْتَبٍ بِسَيْفِهِ إِذْ خَفِقَ بِرَأْسِهِ عَلَى
رُكْبَتَيْهِ فَسَمِعَتْ أُخْتُهُ زَيْنَبُ الصَّيْحَةَ فَدَنَتْ مِنْ أَخِيهَا فَقَالَتْ: يَا أَخِي أَمَا تَسْمَعُ هَذِهِ
الْأَصْوَاتُ قَدْ اقْتَرَبَتْ؟ فَرَفَعَ الْحُسَيْنُ عليه السلام رَأْسَهُ فَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
السَّاعَةَ فِي الْمَنَامِ فَقَالَ إِنَّكَ تَرُوحُ إِلَيْنَا، فَلَطَمَتْ أُخْتُهُ وَجْهَهَا وَنَادَتْ بِالْوَيْلِ فَقَالَ لَهَا
الْحُسَيْنُ عليه السلام : لَيْسَ لَكَ الْوَيْلُ يَا أُخْتِي اسْكُنِي رَحِمَكَ اللَّهُ.^٢

وَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ: يَا أَخِي أَتَاكَ الْقَوْمُ فَنَهَضَ ثُمَّ قَالَ: يَا عَبَّاسُ أَرَكِبُ أَنْتَ حَتَّى
تَلْقَاهُمْ وَتَقُولَ لَهُمْ: مَا بِالْكَفِّ وَمَا بِدَا لَكُمْ؟ وَتَسْأَلُهُمْ عَمَّا جَاءَ بِهِمْ، فَأَتَاهُمْ فِي نَحْوِ
عَشْرِينَ فَارِسًا فِيهِمْ زَهِيرُ بْنُ الْقَيْنِ وَحَبِيبُ بْنُ مَظَاهِرٍ فَسَأَلَهُمْ فَقَالُوا: قَدْ جَاءَ أَمْرُ الْأَمِيرِ
أَنْ نَعْرُضَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِهِ أَوْ نَنَاجِزْكُمْ، قَالَ: فَلَا تَعْبَلُوا حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى
أَبِي عَبْدِ اللَّهِ فَأَعْرُضَ عَلَيْهِ مَا ذَكَرْتُمْ، فَوَقَفُوا وَرَجَعَ الْعَبَّاسُ إِلَيْهِ بِالْخَبَرِ وَوَقَفَ أَصْحَابُهُ
يَخَاطَبُونَ الْقَوْمَ وَيَعْظُمُونَهُمْ وَيَكْفُونَهُمْ عَنْ قِتَالِ الْحُسَيْنِ عليه السلام .

فَلَمَّا أَخْبَرَهُ الْعَبَّاسُ يَقُولُهُمْ قَالَ لَهُ: أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تُوَخِّرَهُمْ إِلَى غَدْوَةٍ
وَتُدْفَعَهُمْ عَنَّا الْعَشِيَّةَ لَعَلَّنَا نَصَلِّيَ لِرَبَّنَا اللَّيْلَةَ وَنَدْعُوهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ فَهُوَ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَحَبَّ

١. فَرَجَعَ الشَّعْرُ إِلَى عَسْكَرِهِ مَغْضَبًا، وَكَانَ ابْنُ خَالِهِمُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي الْمَحَلِّ بْنِ حِزَامٍ وَقِيلَ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
مَخْلَدٍ الْكَلَابِيِّ قَدْ أَخَذَ لَهُمْ أَمَانًا مِنْ ابْنِ زِيَادٍ وَأَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ مَعَ مَوْلَى لَهُ وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَهُمْ أُمَّ الْبَنِينَ بِنْتَ حِزَامٍ زَوْجَةَ
عَلِيِّ عليه السلام هِيَ عَمَّةُ عَبْدِ اللَّهِ هَذَا، فَلَمَّا رَأَوْا الْكِتَابَ، قَالُوا: لَا حَاجَةَ لَنَا فِي أَمَانِكُمْ أَمَانَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ أَمَانِ ابْنِ
سَمِيَّةٍ.

٢. وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ عليه السلام جَلَسَ فَرَقْدَ ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَقَالَ: يَا أَخْتَاهُ رَأَيْتَ السَّاعَةَ جَدِّي مُحَمَّدًا وَأَبِي عَلِيًّا وَأُمِّي فَاطِمَةَ
وَأَخِي الْحَسَنَ وَهُمْ يَقُولُونَ يَا حُسَيْنُ إِنَّكَ رَاحْتَ إِلَيْنَا عَنْ قَرِيبٍ.

الصلاة له وتلاوة كتابه وكثرة الدعاء والاستغفار. فسألهم العباس ذلك، فتوقف ابن سعد، فقال له عمرو بن الحجاج الزبيدي سبحانه الله والله لو أنهم من الترك أو الديلم وسألونا مثل ذلك لأجبناهم فكيف وهم آل محمد؟! وقال له قيس ابن الأشعث بن قيس: أجيبهم لعمرى ليصحبك بالقتال. فأجابوهم إلى ذلك.

فجمع الحسين عليه السلام أصحابه عند قرب المساء. قال زين العابدين عليه السلام: فدنوت منه لأسمع ما يقول لهم وأنا إذ ذاك مريض فسمعت أبي يقول لأصحابه: أني على الله أحسن الثناء وأحمده على السراء والضراء اللهم إني أحمدك على أن أكرمنا بالنبوة وعلمتنا القرآن وفقهتنا في الدين وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة فاجعلنا لك من الشاكرين. أما بعد فإنني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي فجزاكم الله عني خيراً ألا وإني لأظن يوماً لنا من هؤلاء ألا وأني قد أذنت لكم انطلقوا جميعاً في حلّ ليس عليكم مني ذمام، وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً وليأخذ كل واحد منكم بيد رجل من أهل بيتي وتفرقوا في سواد هذا الليل وذروني وهؤلاء القوم فإنهم لا يريدون غيري.

فقال له إخوته وأبنائوه وبنو أخيه وأبناء عبد الله بن جعفر: ولم نفعل ذلك لنبقى بعدك؟ لا أرانا الله ذلك أبداً، بدأهم بهذا القول أخوه العباس ابن أمير المؤمنين وأتبعه الجماعة عليه فتكلموا بمثله ونحوه.

ثم نظر إلى بني عقيل فقال: حسبكم من القتل بصاحبكم مسلم، إذهبوا قد أذنت لكم، قالوا: سبحانه الله فما يقول الناس لنا؟! وما نقول لهم؟ إنا تركنا شيخنا وسيّدنا وبني عمومنا خير الأعمام ولم نرم معهم بسهم ولم نطعن معهم برمح ولم نضرب معهم بسيف ولا ندرى ما صنعوا! لا والله ما نفعل ذلك، ولكننا نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا ونقاتل معك حتى نردّ موردك، ففتح الله العيش بعدك.

وقام إليه مسلم بن عوسجة الأسدي فقال: أنحن نخلي عنك وقد أحاط بك هذا العدو؟ وبم نعتذر إلى الله في أداء حقك؟ لا والله لا يراني الله أبداً وأنا أفعل ذلك حتى

أكسر في صدورهم رمحي وأضاربهم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقدفتهم بالحجارة ولم أفارقك أو أموت معك.

وقام سعيد بن عبد الله الحنفي فقال: لا والله يا ابن رسول الله لا نخليك أبداً حتى يعلم الله أننا قد حفظنا فيك وصية رسوله محمد ﷺ والله لو علمت أنني أقتل فيك ثم أحيأ ثم أحرقت ثم أدرى يفعل ذلك بي سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى جمامي دونك، وكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة ثم أنال الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً.

وقام زهير بن القين وقال: والله يا ابن رسول لوددت أنني قُتلت ثم نُشِرت ألف مرة وأن الله تعالى يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن نفس هؤلاء الفتيان من إخوانك وولدك وأهل بيتك.

وتكلم جماعة أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضا وقالوا: أنفسنا لك الفداك نقيك بأيدينا ووجوهنا، فإذا نحن قُتلنا بين يديك نكون قد وفينا لربنا وقضينا ما علينا.^١

وأمر الحسين عليه السلام أصحابه أن يقرَّبوا بين بيوتهم ويدخلوا الأطناب بعضها في بعض ويكونوا بين يدي البيوت فيستقبلون القوم من وجه واحد والبيوت من ورائهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم قد حَفَّت بهم إلا الوجه الذي يأتيهم منه عدوهم.

وقام الحسين وأصحابه الليل كله يصلُّون ويستغفرون ويدعون وباتوا ولهم دويّ كدويّ النحل ما بين ركاع وساجد وقائم وقاعد، فعبّر إليهم في تلك الليلة من عسكر ابن سعد اثنان وثلاثون رجلاً.

قال بعض أصحاب الحسين عليه السلام : مرّت بنا خيل لابن سعد تحرسنا وكان الحسين عليه السلام يقرأ ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيراً لأنفسهم إنما نملي لهم

١. و وصل الخبر إلى محمد بن بشير الحضرمي في تلك الحال بأن ابنه قد أسر بنجر الرمي فقال: عند الله أحسنه ونفسي ما كنت أحب أن يؤسر وأبقى بعده، فسمع الحسين عليه السلام قوله فقال: رحمك الله أنت في حل من بيعتي فاعمل في فكاك ابنك، فقال: أكلتني السباع حياً إن فارقتك، قال: فأعط ابنك هذا هذه الأتواب البرود يستعين بها في فداء أخيه فأعطاه خمسة أتواب برود قيمتها ألف دينار فحملها مع ولده.

ليزدادوا إثمًا ولهم عذابٌ مهين، ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴿٢﴾.

فسمعها رجل من تلك الخيل يقال له عبد الله بن سمير فقال: نحن ورب الكعبة الطيبون مِيزنا منكم، فقال له برير بن خضير: يا فاسق أنت يجعلك الله من الطيبين؟! فقال له: مَنْ أنت وملك؟ قال: أنا برير بن خضير فتسابًا، فلمّا كان وقت السحر خفق الحسين عليه السلام برأسه خفقة ثمّ استيقظ فقال: رأيت كأنّ كلاباً قد جهدت لتنهشني وفيها كلب أبقع رأيته أشدّها عليّ وأظنّ أنّ الذي يتولّى قتلي رجل أبرص.

الناص

□ «ألسنا على الحق؟ إذن لا نبالي أن نموت محققين»، إنها الكلمة البليغة في التعبير عن روح التفاني في الحق وسمو المعنى الذي بلغه الحسين عليه السلام وأهل بيته وصحبه.

□ ولم يبدأ الإمام أحداً بالقتال حين نزوله كربلاء حتى جمع ابن زياد ثلاثين ألفاً، وحاول ابن سعد أن يتخلص من القتال بعد مفاوضات عديدة مع الإمام الحسين عليه السلام وكاتب ابن زياد بذلك ولكن ابن زياد كان مضطراً على قتال الحسين عليه السلام، وتوريط ابن سعد - الذي كان يعلم بملك الري - بقتل الإمام عليه السلام وقد صير ابن زياد شمر بن ذي الجوشن ليتسلم قيادة الجيش إن لم يبادر ابن سعد إلى القتال.

□ وهنا رجح ابن سعد أن يتولى قيادة الجيش ويرتكب هذه الجريمة الكبيرة ولم يفلح شمر في تخذيل العباس وإخوته. وأحيا الحسين عليه السلام وأصحابه ليلة عاشوراء بالعبادة انتظاراً للشهادة التي كانوا قد اشتاقوا إليها في ركاب سيد الإباء أبي عبد الله عليه السلام.

الأسئلة

١. ما هي كلمة علي بن الحسين الأكبر؟ وما مدى دلالتها على التفاني في الله.
٢. لماذا لم يبدأ الإمام الحسين عليه السلام الحر بالقتال؟
٣. كيف استطاع ابن زياد أن يجنّد من الكوفة ثلاثين ألفاً لقتال الحسين عليه السلام؟
٤. ما هي محاولات الإمام الحسين لصرف ابن سعد عن قتاله؟
٥. لماذا قرّر ابن سعد قتال الإمام الحسين بنفسه؟
٦. لماذا خذّل شمر بن ذي الجوشن العباس وإخوته عن نصره الحسين عليه السلام؟ وهل تفلح في ذلك؟
٧. لماذا طلب الحسين عليه السلام تأجيل القتال إلى يوم عاشوراء؟
٨. ماذا كان موقف أصحاب الحسين عليه السلام حينما علموا بأنهم سيقتلون؟ وماذا كان موقفهم قبل علمهم بذلك؟
٩. صف حالة الحسين وأصحابه ليلة عاشوراء.

الإمام الحسين عليه السلام في صبيحة عاشوراء

الاستعداد للقتال

لَمَّا أَصْبَحَ الْحُسَيْنُ عليه السلام يَوْمَ عَاشُورَاءَ وَصَلَّى بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الصُّبْحِ، قَامَ خَطِيباً فِيهِمْ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَتَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَذِنَ فِي قَتْلِكُمْ وَقَتْلِي فِي هَذَا الْيَوْمِ فَعَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ وَالْقِتَالِ».^١

ثُمَّ صَفَّهِمُ لِلْحَرْبِ، وَكَانُوا إِثْنَيْنِ وَثَمَانِينَ فَارِساً وَرَاجِلاً.

فَجَعَلَ زُهَيْرُ بْنُ الْقَيْنِ فِي الْمِئْمَنَةِ، وَحَبِيبُ بْنُ مَظَاهِرٍ فِي الْمَيْسِرَةِ^٢، وَثَبَتَ هُوَ عليه السلام وَأَهْلَ بَيْتِهِ فِي الْقَلْبِ،^٣ وَأَعْطَى رَايَتَهُ أَخَاهُ الْعَبَّاسَ.^٤

وَجَعَلُوا الْبُيُوتَ فِي ظُهُورِهِمْ، وَأَمَرَ بِحَطِّبٍ وَقَصَبٍ كَانَ مِنْ وَرَاءِ الْبُيُوتِ أَنْ يُتْرَكَ فِي خَنْدَقٍ كَانَ قَدْ حُفِرَ هُنَاكَ، وَأَنْ يُحْرَقَ بِالنَّارِ، مَخَافَةَ أَنْ يَأْتَوْهُمْ مِنْ وَرَائِهِمْ.^٥

وَأَقْبَلَ عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ نَحْوَ الْحُسَيْنِ عليه السلام فِي ثَلَاثِينَ أَلْفاً.

وَأَقْبَلُوا يَجُولُونَ حَوْلَ الْبُيُوتِ، فَيُرُونَ النَّارَ تَضْطَرِّمُ فِي الْخَنْدَقِ.

١. اثبات الوصية، ص ١٦٣ وكامل الزيارات، ص ٧٣.

٢. الإرشاد للمفيد، ص ٢٣٣.

٣. مقتل الحسين للخوارزمي، ج ٢، ص ٤.

٤. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٢١٧.

٥. الإرشاد للمفيد، ص ٢٣٣.

فنادى شمر بن ذي الجوشن بأعلى صوته: يا حسينُ تعَجَّلْتَ النَّارَ قبل يوم القيامة؟

فقال الحسين عليه السلام: مَنْ هذا؟ كأنه شمرُ بن ذي الجوشن؟

قيل: نعم، فقال عليه السلام: يا بن راعية المعزى^١ أنت أولى بها مِنِّي صلياً.

ورام مسلم بن عوسجة أن يرميه بسهم، فمنعه الحسين عليه السلام، وقال: أكره أن أبدأهم

بقتال.^٢

ولما نظر الحسين عليه السلام إلى جمعهم كأنه السيل، رفع يديه بالدعاء وقال:

«اللَّهُمَّ أنت ثقتي في كلِّ كربٍ، ورجائي في كلِّ شدةٍ، وأنت لي في كلِّ أمرٍ نزل بي

ثقةٌ وعُدَّةٌ، كم من همٍّ يضعفُ فيه الفؤادُ، وتقلُّ فيه الحيلةُ، ويخذلُ فيه الصديقُ، ويشمتُ

فيه العدوُّ، أنزلته بك وشكوته إليك، رغبةً مِنِّي إليك عَمَّن سِوَاكَ، فكشفتَه وفرَجته، فأنتَ

وَلِيِّ كُلِّ نعمةٍ، ومُنْتَهَى كُلِّ رَغْبَةٍ».^٣

الخطبة الأولى

ثمَّ دَعَا بِرَاحِلَتِهِ فَرَكَبَهَا، ونادى بصوتٍ عالٍ، يسمعه جُلُهمُ:^٤

أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا قَوْلِي وَلَا تَعْجَلُوا، حَتَّى أَعْظَمَكُم بِمَا هُوَ حَقٌّ لَكُمْ عَلَيَّ، وَحَتَّى

أَعْتَذِرَ إِلَيْكُم مِّنْ مَّقْدَمِي عَلَيْكُم، فَإِنْ قَبِلْتُمْ عُذْرِي، وَصَدَّقْتُمْ قَوْلِي، وَأَعْطَيْتُمُونِي

النِّصْفَ^٥ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، كُنْتُمْ بِذَلِكَ أَسْعَدُ، وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ عَلَيَّ سَبِيلٌ، وَإِنْ لَمْ تَقْبَلُوا مِنِّي

الْعُذْرَ، وَلَمْ تَعْطُوا النَّصْفَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ «فاجمعوا أَمْرَكُمْ وشركاءكم ثمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ

١. التمرّز خلاف الضأن من الغنم أي ذوات الشعر والأذناب القصّار، سمي بذلك لشدة وصلابة فيه لا تكون في

الضأن، والمعزى - بكسر الميم - أنثى الماعز، المنجد.

٢. الإرشاد للمفيد، ص ٢٣٤ و تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣١٨.

٣. الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٦١.

٤. المقتل للمقرّم، ص ٣٧٣.

٥. النصف - بفتح النون والصاد - بمعنى العدل والإنصاف، المنجد.

عليكم غَمَّةٌ ثُمَّ اقضوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُون»^١ «إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ»^٢.

فَلَمَّا سَمِعَ النِّسَاءَ هَذَا مِنْهُ صِخْرًا وَيَكِينًا، وَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُنَّ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِنَّ أَخَاهُ الْعَبَّاسَ وَابْنَهُ عَلِيًّا الْأَكْبَرَ، وَقَالَ لَهُمَا: سَكُنَاهُنَّ فَلَمْعَرِي لِيَكُنَّ بِكَأْوَهِنَّ. وَلَمَّا سَكُنَ حَمْدُ اللَّهِ وَأَتَى عَلَيْهِ، وَصَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ، وَقَالَ فِي ذَلِكَ مَا لَا يَحْصِي ذِكْرُهُ، وَلَمْ يُسْمَعْ مِتْكَأَمُ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَبْلَغُ مِنْهُ فِي مَنْطِقِهِ^٣. ثُمَّ قَالَ:

عِبَادَ اللَّهِ اتَّقُوا اللَّهَ، وَكُونُوا مِنَ الدُّنْيَا عَلَى حَذَرٍ، فَإِنَّ الدُّنْيَا لَوْ بَقِيَتْ عَلَى أَحَدٍ أَوْ بَقِيَ عَلَيْهَا أَحَدٌ لَكَانَتْ الْأَنْبِيَاءُ أَحَقَّ بِالْبَقَاءِ وَأَوْلَى بِالرِّضَا وَأَرْضَى بِالْقَضَاءِ، غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الدُّنْيَا لِلْفَنَاءِ، فَجَدِيدُهَا بَالٍ، وَنَعِيمُهَا مُضْمِلٌ، وَسُرُورُهَا مُكْهَفٌ^٤، وَالْمَنْزِلُ تَلْعَةً^٥، وَالْدَارُ قَلْعَةٌ، فَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ^٦.

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الدُّنْيَا، فَجَعَلَهَا دَارَ فَنَاءٍ وَزَوَالٍ، مُتَصَرِّفَةً بِأَهْلِهَا حَالًا بَعْدَ حَالٍ، فَالْمَغْرُورُ مِنْ غَرَّتِهِ، وَالشَّقِيءُ مِنْ فِتْنَتِهِ، فَلَا تَغْرَبْكُمْ هَذِهِ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا تَقْطَعُ رَجَاءً مِنْ رُكْنِ إِلَيْهَا، وَتُخَيِّبُ طَمَعًا مِنْ طَمَعٍ فِيهَا، وَأَرَاكُمُ قَدْ اجْتَمَعْتُمْ عَلَى أَمْرٍ قَدْ أَسْخَطْتُمْ اللَّهَ فِيهِ عَلَيْكُمْ، وَأَعْرَضَ بِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ عَنْكُمْ، وَأَحْلَلَ بِكُمْ نِقْمَتَهُ، فَنَعَمْ الرَّبُّ رَبُّنَا، وَيَسُّ الْعَبِيدِ أَنْتُمْ، أَقْرَرْتُمْ بِالطَّاعَةِ وَأَمَنْتُمْ بِالرَّسُولِ مُحَمَّدٍ عليه السلام، ثُمَّ إِنَّكُمْ زَحَفْتُمْ إِلَى دُرَيْتِهِ وَعَتَرْتَهُ تَرِيدُونَ قَتْلَهُ، لَقَدْ اسْتَحَوْذَ عَلَيْكُمْ الشَّيْطَانُ، فَأَنْسَاكُمْ ذِكْرَ اللَّهِ

١. سورة يونس / ٧١.

٢. سورة الأعراف / ١٩٦.

٣. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣١٨ والكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٦١.

٤. يقال «فلان مكهف» أي منقبض كالح لا يرى فيه أثر بشر ولا فرح، المنجد.

٥. ما سفل من الأرض، المنجد.

٦. مقتل الحسين للمقرم، ص ٢٧٤؛ نقلًا عن زهر الآداب للحصري، ج ١، ص ٦٢.

العظيم، فتباً لكم ولما تريدون، إنا لله وإنا إليه راجعون، هؤلاء قومٌ كفروا بعد إيمانهم، فبُعداً للقوم الظالمين.^١

أنها الناس انسبوني من أنا، ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، وانظروا هل يحلُّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألسنتُ ابنِ بنتِ نبيِّكم، وابنِ وصيِّه وابنِ عمِّه، وأوَّل المؤمنين بالله والمصدِّق لرسوله بما جاء من عند ربِّه؟ أوليس حمزةُ سيِّد الشهداء عمُّ أبي؟، أوليس جعفرُ الطيّار عمِّي؟، أو لم يبلِّغكم قول رسول الله لي ولأخي: «هذان سيِّدا شبابِ أهل الجنة»؟ فإن صدقتموني بما أقول - وهو الحق - والله ما تعمَّدتُ الكذب مُد علمتُ أنَّ الله يمقّت^٢ عليه أهله، ويضربُ به من اختلقه، وإن كذبتُموني فإنَّ فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم، سلُّوا جابر بن عبد الله الأنصاري، وأبا سعيد الخدري، وسهل الساعدي، وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك، يخبروكم أنَّهم سمِعوا هذه المقالةَ من رسول الله لي ولأخي، أما في هذا حاجزٌ لكم عن سفكِ دمي؟

فقال الشعر: هو يعبُد الله على حرفٍ إن كان يدري ما يقول.

فقال له حبيب بن مظاهر: والله إنِّي أراك تعبدُ الله على سبعين حرفاً، وأنا أشهد أنَّك صادقٌ، ما تدري ما يقول، قد طبعَ الله على قلبك.

ثم قال الحسين عليه السلام: فإن كنتم في شكٍّ من هذا القول أفتشكّون أنَّي ابن بنت نبيِّكم، فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبيٍّ غيري فيكم ولا في غيركم، ويحكِّمكم أطلبوني بقتيلٍ منكم قتلته؟، أو مالٍ لكم استهلكته، أو بقصاصٍ جراحة؟!

فأخذوا لا يكلمونه، فنادى: يا سبَّ بن ربي، يا حجار بن أبجر، يا قيس ابن الأشعث، يا يزيد بن الحارث، ألم تكتبوا إليَّ أن أقدمَ قد أينعت^٣ الشمار، واخضرَّ

١. بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٥: تقلَّع عن محمد ابن أبي طالب.

٢. المقت بمعنى البغض الشديد لمن تراه تعاطى القبيح، مفردات الراغب.

٣. أينعت الشر: أي أدرك وطاب وحان قطافه، المنجد.

الجناب،^١ وإنّا تقدّم على جُنْدٍ لَكَ مُجَنَّدَةٌ؟.

فقالوا: لم نفعل.

قال: سبحان الله! بلى والله لقد فعلتم، ثم قال: أيّها الناس إذا كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمّني من الأرض.

فقال له قيس بن الأشعث: أولا تنزل على حكم بني عمّك، فإنّهم لن يروك إلّا ما تُحبّ، ولن يصل إليك منهم مكروه؟

فقال الحسين عليه السلام: أنت أخو أخيك، أتريد أن يطلبك بنو هاشم أكثر من دم مسلم بن عقيل؟

لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذيل، ولا أفرّ فرار العبيد.

عباد الله، إنّي عُدّت برّبّي وربّكم أن ترجمون، أعوذ برّبّي وربّكم من كلّ متكبّرٍ لا يؤمنُ بيوم الحساب.

ثمّ أناخ^٢ راحلته، وأمر عقبة بن سميان ففعلها.^٣

كرامة وهداية

وأقبل القوم يزحفون نحوه، وكان فيهم عبدالله بن حوزة التميمي، فصاح: أفيكم حسين؟ وفي الثالثة قال أصحاب الحسين: هذا الحسين، فما تريد منه؟ قال: يا حسين أبشر بالنار، قال الحسين عليه السلام: كذبت، بل أقدم على ربّ غفورٍ كريمٍ مطاعٍ شفيعٍ، فمن أنت؟ قال: أنا ابن حوزة.

فرفع الحسين عليه السلام يديه حتّى بان بياض أبطيه، وقال: اللهمّ حُزه إلى النار، فغضب ابن حوزة، وأقمم الفرس إليه، وكان بينهما نهرٌ فسقط عنها، وعُلّقت قدمه بالركاب،

١. الجناب - بفتح الجيم - ما قرب محلّة القوم، المنجد.

٢. أناخ إناخة الجمل أي أبركه، المنجد.

٣. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣١٩.

وجالت به الفرس، وانقطعت قدمه وساقه وفخذه، وبقي جانبه الآخر مُعلّقاً بالركاب، وأخذت الفرس تضرب به كلّ حجرٍ وشجرٍ،^١ وألقته في النار المشتعلة في الخندق، فاحترق بها ومات.

فخرّ الحسين ساجداً شاكيراً حامداً على إجابة دعائه. ثمّ إنّه رفع صوته يقول: «اللهمّ إنّ أهل بيت نبيك وذريّته وقرباته، فاقصم من ظلمنا وغصبنا حقّنا، إنّك سميعٌ قريبٌ».

فقال له محمّد بن الأشعث: أيّ قرابة بينك وبين محمّد؟ فقال الحسين: «اللهمّ إنّ محمّد بن الأشعث يقول ليس بيني وبين محمّدٍ قرابة، اللهمّ أرني فيه هذا اليوم دُلّلاً عاجلاً».

فاستجاب الله دعاءه، فخرج محمّد بن الأشعث من العسكر، ونزل عن فرسه لحاجته، وإذا بعقرب أسود يضربه ضربةً، تركته متلوثاً في ثيابه ممّا به،^٢ ومات بادي العورة.^٣

قال مسروق بن وائل الحضرمي: كنت في أوّل الخيل التي تقدّمت لحرب الحسين لعلّي أن أصيب رأس الحسين، فأخطى به عند ابن زياد، فلما رأيت ما صنع الله بآبى حوزة عرفت أنّ لأهل هذا البيت حرمةً ومنزلةً عند الله، وتركْتُ الناس، وقلت: لا أقاتلهم فأكون في النار.^٤

خطبة زهير بن القين

وخرج إليهم زهير بن القين على فرسٍ ذنوبٍ، وهو شاكٍ في السلاح.

١. الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٦٦.

٢. مقتل الحسين للخوارزمي، ج ١، ص ٢٤٩.

٣. روضة الواعظين، ص ١٨٥.

٤. الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٦٦.

فقال: يا أهل الكوفة، نذار لكم من عذاب الله، إنَّ حقاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتى الآن إخوة، وعلى دين واحد، ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحة منّا أهل، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنا أمةً وأنتم أمةً.

إنَّ الله ابتلانا وإياكم بذرية محمد صلى الله عليه وآله، لينظر ما نحن وأنتم عاملون، إنا ندعوكم إلى نصرهم وخذلان الطاغية يزيد وعبيد الله بن زياد، فإنكم لا تدركون منهما إلّا سوء. عمر سلطانهما، يسملان^١ أعينكم، ويُقطّعان أيديكم وأرجلكم، ويمثلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أمثالكم وقراءكم، أمثال حجر بن عدي وأصحابه، وهاني بن عروة وأشباهه.

فسبّوه، وأنثوا على عبيد الله بن زياد، ودعوا له، وقالوا: لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه، أو نبعث به وبأصحابه إلى عبيد الله بن زياد سلباً.

فقال زهير: عباد الله، إنَّ ولد فاطمة عليها السلام أحقُّ بالودّ والنصر من ابن سميّة، فإن لم تنصروهم فأعيذكُم بالله أن تقتلوهم، فخلّوا بين هذا الرجل وبين يزيد، فلعمري إنّه ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين عليه السلام.

فرماه الشمر بسهم، وقال: أسكت أسكت الله نأمتك^٢، أبرمتنا^٣ بكثرة كلامك.

فقال زهير: يا بن البوال على عقيبه، ما إياك أخاطب، إنّما أنت بهيمة، والله ما أظنك تحكم من كتاب الله آيتين، فأبشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم.

فقال الشمر: إنَّ الله قاتلك وصاحبك عن ساعة.

فقال زهير: أقبال الموت تخوّفني؟ فوالله للموت معه أحبُّ إليّ من الخلد معكم.

ثمّ أقبل على القوم رافعاً صوته، وقال:

١. سئل يسأل سئلاً عنه أي فقاه، المنجد.

٢. النأمة: بمعنى النعمة والصوت، ويقال «أسكت الله نأتمه» أي أماته، المنجد.

٣. أبرمه أي أمّله وأضجّره، المنجد.

عباد الله، لا يفرّتكم عن دينكم هذا الجلف^١ الجافي وأشباهه، فوالله لا تنال شفاعة محمد ﷺ قوماً هرقوا دماء ذُرّيته وأهل بيته، وقتلوا من نصرهم وذبّ عن حريمهم. فناداه رجل من أصحابه: إنّ أبا عبد الله يقول لك: أقبل: فلمعري لئن كان مؤمن آل فرعون نصّح لقومه وأبلغ في الدعاء، فلقد نصحت لهؤلاء وأبلغت لو نفع النصّح والإبلاغ.^٢

خطبة بُرير بن خضير

واستأذن الحسين بُرير بن خضير في أن يكلم القوم، فأذن له، وكان شيخاً تابعياً ناسكاً قارناً للقرآن، ومن شيوخ القراء في جامع الكوفة، وله في الهمدانيّين شرفٌ وقدّر.

فوقف قريباً منهم، ونادى: يا معشر الناس إنّ الله بعث محمداً بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله وسراجاً منيراً، وهذا ماء الفرات تقع فيه خنازير السواد،^٣ وقد حيل بينه وبين ابن بنت رسول الله ﷺ، أفجزاء محمدٍ هذا؟ فقالوا: يا بُرير قد أكثرت الكلام، فاكفّ عنا، فوالله ليعطش الحسين كما عطش من كان قبله.

قال: يا قوم إنّ ثقل محمدٍ قد أصبح بين أظهركم، وهؤلاء ذُرّيته وعترته وبناته وحُرّمه، فهاتوا ما عندكم، وما الذي تريدون أن تصنعوه بهم؟ فقالوا: نُريد أن نُمكنّ منهم الأمير عبيد الله بن زياد، فيرى فيهم رأيه. قال: أفلا تقبلون منهم أن يرجعوا إلى المكان الذي جاؤوا منه؟

١. الجلف - بكسر الجيم - الغليظ، والجافي أي الظالم، المنجد.

٢. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٢٠.

٣. يطلق «السواد» على ما بين البصرة والكوفة وعلى ما حولهما، المنجد.

ويلكم يا أهل الكوفة أنسيتم كتبكم وعهودكم التي أعطيتموها؟ وأشهدتم الله عليها وعليكم، أدعوتم أهل بيت نبيكم، وزعمتم أنكم تقتلون أنفسكم دونهم، حتّى إذا أتوكم أسلمتموهم إلى ابن زياد، وحلأتموهم^١ عن ماء الفرات بنسما خلّفتهم نبيكم في ذرّيته، مالكم لا سقاكم الله يوم القيامة، فبئس القوم أنتم؟ فقال له نفرٌ منهم: يا هذا ما ندري ما تقول؟

قال: الحمد لله الذي زادني فيكم بصيرةً، اللهمّ إني أبرأ إليك من فعال هؤلاء القوم، اللهمّ ألني بأسهم بينهم، حتّى يلقوك وأنت عليهم غضبان، فجعل القوم يرمونه بالسهم، فتقهقر^٢.

خُطبةُ الحسين عليه السلام الثانية

ثم إن الحسين عليه السلام ركب فرسه، وأخذ مصحفاً ونشره وجعله على رأسه، ووقف بإزاء القوم، وقال: يا قوم إنَّ بيني وبينكم كتاب الله وسنة جدّي رسول الله صلّى الله عليه وآله^٣. ثمّ استشهدهم عن نفسه المقدّسة، وما عليه من سيف النبي صلّى الله عليه وآله، ولامته وعمارته، فأجابوه بالتصديق، فسألهم عمّا أقدمهم على قتله، قالوا: طاعةً للأمير عبيد الله بن زياد.^٤ فقال عليه السلام :

تبّاً لكم أيّها الجماعة وترحاً، حين استصرختمونا واليهين^٥ فأصرخناكم موجّفين^٦، سلّلتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتُم علينا ناراً اقتدحناها على عدوّنا وعدوكم،

١. حلأه عن الماء أي طرده ومنعه عن وروده، المنجد.

٢. بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٥؛ نقلًا عن محمد ابن أبي طالب. وتقهقر: أي رجع إلى الوراء، المنجد.

٣. تذكرة الخواص، ص ٢٥٢.

٤. مقتل الحسين للمقرّم، ص ٢٨١ وراجع أيضاً الأُمالي للشيخ الصدوق، ص ١٣٥، مجلس ٣٠.

٥. ولّه يله ولها أي حزن شديداً حتّى كاد يذهب عقله، المنجد.

٦. أوجفّ الفرس أي جعله يعدو عدواً سريعاً، المنجد.

فأصبحتم إلباً^١ لأعدائكم على أوليائكم، بغير عدلٍ أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم، فهلاً لكم الولايات، تركتمونا والسيف مشيم^٢ طامين^٣، والرأي لما يُستحصف^٤، ولكن أسرعتم إليها كطيرة الذبا^٥، وتداعيتم إليها كتهافت الفراش^٦، ثم نقضتموها. فسحقاً^٧ لكم يا عبيد الأمة^٨، وشذاذ^٩ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ومحرّفي الكلم، وعصبة الإنم، ونفثة^{١٠} الشيطان، ومطفيء السنن. ويحكم أهؤلاء تعضدون، وعنا تتخاذلون؟ أجل والله غدُرُ فيكم قديم، وشجبت^{١١} إليه أصولكم، وتأزّرت^{١٢} عليه فروعكم، فكنتم أخبثَ ثمٍ شجاً^{١٣} للناظر، وأكلّة للغاصب.

١. الإلب - بكسر الهمزة - القوم تجمعهم عداوة واحدة، «يقال هم عليّ إلب واحد»، المنجد.

٢. مشيم - بفتح الميم - أي مُفْعَد، من شام السيف بمعنى أغمده، راجع أبصار العين، ص ١٩.

٣. الجأش جمعه جؤوش بمعنى القلب والصدر، وطامن بمعنى ساكن، المنجد.

٤. استحصف الشيء أي استحكم، والحصيف كلّ محكم لا خلل فيه، المنجد.

٥. الطيرة - بفتح الطاء وسكون الياء - والطيرة بمعنى الطيش والخفة، والذبا - بفتح الدال وتخفيف الباء - الواحدة ذبابة؛ أصغر الجراد والنمل، المنجد.

٦. الفراش - بفتح الفاء - طير معروف، المفردات للراغب. وفي أبصار العين: الفراشة جمعه قرّاش حشرة تتساقط على الضوء ليلاً.

٧. سحقاً له أي أبعد الله عن رحمته، المنجد.

٨. الأمة - بتخفيف الميم - بمعنى الجارية، كناية عن الذلّ، مأخوذ من قوله ﷺ: ذلّ قوم تملكهم أمة، ويجري على الألسن بتشديد الميم وهو وإن كان له ضرب من التأويل لكنّه غير بليغ، راجع أبصار العين، ص ١٩.

٩. شذاذ - بضم الشين وتشديد الذال المعجمتين - جمع شاذّ، وهم المتفرّقون من الجمع، ويعبّر عنهم بالفارطة والفوغاء، أبصار العين، ص ١٩.

١٠. النفث: قذف الريق القليل وهو أقلّ من التفل، مفردات الراغب.

١١. وشجّ يشجّ وشجاً، وشجبت الأغصان أي اشتبكت، المنجد.

١٢. أزّز يأزّر، وأزّر فلاناً أي قوّاه، المنجد.

١٣. الشجا - بفتح الشين - أي الهم والحزن، المنجد. ومعناه أنّ الناظر إليكم يحزن.

أَلَا وَإِنَّ الدَّعِيَّ ابْنَ الدَّعْيِ قَدْ رَكَزَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ بَيْنَ السَّلَّةِ^١ وَالذِّلَّةِ، وَهِيَهَاتَ مَتَا الذِّلَّةِ،
يَأْبَى اللَّهُ لَنَا ذَلِكَ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ، وَحُجُورٌ طَابَتْ وَطُهِرَتْ، وَأُنُوفٌ حَمِيَّةٌ، وَنَفُوسٌ
أَبِيَّةٌ، مَنْ أَنْ نُؤَيِّرَ طَاعَةَ اللَّثَامِ عَلَى مُصَارِعِ الْكَرَامِ.
أَلَا وَإِنِّي زَاخِفٌ بِهَذِهِ الْأُسْرَةِ، مَعَ قَلَّةِ الْعَدَدِ وَخِذْلَانِ النَّاصِرِ.
ثُمَّ أَنْشُدُ أَبْيَاتَ فُرُوقِ بْنِ مُسَيْكٍ الْمَرَادِيِّ:

فَإِنْ نَهَزْمُ فَهَزَامُونَ قِدَمًا	وَإِنْ نُهَزَمَ فَغَيْرُ مَهْزَمِينَا
وَمَا إِنْ طَبْنَا ^٢ جَبِنٌ وَلَكِنْ	مَنَايَانَا وَدَوْلَةٌ آخِرِينَا
فَقُلْ لِلشَّامَتَيْنِ بِنَا أَفِيَقُوا	سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا
إِذَا مَا الْمَوْتُ رُفِعَ عَنْ أَنْاسٍ	بِكُلِّكُلِهِ ^٣ أَنْأَخَ بِآخِرِينَا

أَمَّا وَاللَّهِ لَا تَلْبِتُونَ بَعْدَهَا إِلَّا كَرِيْمًا^٤ يَرْكَبُ الْفَرَسَ، حَتَّى تَدُورَ بِكُمْ دُورَ الرَّحَى،
وَتَقْلَقَ بِكُمْ قَلَقَ الْمَحُورِ، عَهْدُ عَهْدِهِ إِلَيَّ أَبِي عَنْ جَدِّي رَسُولَ اللَّهِ، ﴿فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ
وَشُرَكَاءَكُمُ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ عُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُون﴾^٥ ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ
عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبَّكُمْ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^٦
ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ نَحْوَ السَّمَاءِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ احْبِسْ عَنْهُمْ قَطْرَ السَّمَاءِ، وَابْعَثْ عَلَيْهِمْ سَنِينَ
كَسَنِيَّ يَوْسُفَ، وَسَلِّطْ عَلَيْهِمْ غِلَامَ ثَقِيفٍ، يَسْقِيهِمْ كَأْسًا مُصَبَّرَةً^٧، فَإِنَّهُمْ كَذَّبُونَا وَخَذَلُونَا،

١. السِّلَّةُ - بكسر السين وتشديد اللام - بمعنى استلال السيوف، وكناية عن الحرب والقتال.

٢. الطَّبُّ - بكسر الطاء - بمعنى الشأن والعادة، المنجد.

٣. الكَلْكُلُ جمعه كلاكِل بمعنى الصدر أو ما بين الترقوتين، المنجد.

٤. الرِّيث: مقدار المهلة من الزمن.

٥. يونس / ٧١.

٦. هود / ٥٦.

٧. صَبَّرَ الكَأْسُ أي ملاها إلى رأسها، والصبرة بمعنى المرة، المنجد. والمعنى يسقيهم كأساً مرة.

وَأَنْتَ رُبُّنَا، عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ، وَإِلَيْكَ أُنَبِّئَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ.^١
 وَاللَّهُ لَا يَدْعُ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا اتَّقَمَ لِي مِنْهُ، قَتْلَةً بِقَتْلَةٍ، وَضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ، وَإِنَّهُ لَيَنْتَصِرُ لِي
 وَلِأَهْلِ بَيْتِي وَأَشْيَاعِي.^٢
 وَاسْتَدْعَى الْحُسَيْنَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَمْرُ بْنُ سَعْدٍ فَدْعَى لَهُ، وَكَانَ كَارِهًا لَا يَحِبُّ أَنْ يَأْتِيَهُ،
 فَقَالَ: أَيُّ عَمْرٍ أَتَزَعُمُ أَنَّكَ تَقْتُلَنِي، وَيُوَلِّيكَ الدَّعْيُ بِلَادَ الرِّيِّ^٣ وَجُرْجَانَ،^٤ وَاللَّهُ لَا تَهْنَأُ
 بِذَلِكَ، عَهْدٌ مَعَهُودٌ، فَاصْنَعْ مَا أَنْتَ صَانِعٌ، فَإِنَّكَ لَا تَفْرَحُ بَعْدِي بِدُنْيَا وَلَا آخِرَةٍ، وَكَأَنِّي
 بِرَأْسِكَ عَلَى قَصَبَةٍ، يَتَرَامَاهُ الصَّبِيَّانُ بِالْكَوْفَةِ، وَيَتَّخِذُونَهُ غَرَضًا بَيْنَهُمْ، فَصَرَفَ بِوَجْهِهِ
 عَنْهُ مُغَضِبًا.^٥

توبة الحرّ بن يزيد الرياحي

وَلَمَّا سَمِعَ الْحَرُّ بْنُ يَزِيدَ الرِّيحِي كَلَامَهُ وَاسْتَفَاتَتْهُ، أَقْبَلَ عَلَى عَمْرِ بْنِ سَعْدٍ، وَقَالَ
 لَهُ: أَمْقَاتِلْ أَنْتَ هَذَا الرَّجُلَ؟ قَالَ: إِي وَاللَّهِ قِتَالًا أَيْسَرُهُ أَنْ تَسْقُطَ فِيهِ الرُّؤُوسُ، وَتَطِيحَ
 الْأَيْدِي، قَالَ: مَا لَكُمْ فِيمَا عَرْضَهُ عَلَيْكُمْ مِنَ الْخِصَالِ؟ فَقَالَ: لَوْ كَانَ الْأَمْرُ إِلَيَّ لَقَبِلْتُ،
 وَلَكِنْ أَمِيرُكَ أَبِي ذَلِكَ، فَتَرَكَهُ وَوَقَفَ مَعَ النَّاسِ، وَكَانَ إِلَى جَنْبِهِ قُرَّةُ بْنُ قَيْسٍ، فَقَالَ لِقُرَّةَ:
 هَلْ سَقَيْتَ فَرَسَكَ الْيَوْمَ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَهَلْ تُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَهُ؟، فَظَنَّ قُرَّةُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يَرِيدُ

١. اللهوف على قتلى الطفوف، ص ٩٦-١٠٠ والمقتل الخوارزمي، ج ٢، ص ٦.

٢. المقتل للمقرم، ص ٢٨٣؛ نقلاً عن مقتل العوالم، ص ٨٤.

٣. الرِّيِّ - بفتح الراء وتشديد الياء - مدينة إيرانية بالقرب من طهران دفن فيها عبد العظيم بن عبد الله الحسني،
 وذكر ياقوت إنَّ طهران كانت تُعدُّ من قرى «الرِّيِّ» بينهما نحو فرسخ، راجع طهران من معجم البلدان، ج ٤،
 ص ٥١.

٤. جُرْجَان - بضم الجيم وسكون الراء - مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان قاله ياقوت في معجم
 البلدان، ج ٣، ص ١١٩.

٥. المقتل للمقرم، ص ٢٨٤؛ نقلاً عن تظلم الزهراء، ص ١١٠ ومقتل العوالم، ص ٨٤ ومقتل الخوارزمي، ج ٢،

الاعتزال، ويكره أن يشاهده، فتركه.

فأخذ الحرّ يدنو من الحسين عليه السلام قليلاً قليلاً، فقال له المهاجر بن أوس: أتريد أن تحبل؟ فسكت، وأخذته الرعدة،^١ فارتاب المهاجر من هذا الحال، وقال له: لو قيل لي: من أشجع أهل الكوفة؟ لما عدوتك، فما هذا الذي أراه منك؟ فقال الحرّ: إني أخير نفسي بين الجنة والنار، والله لا أختار على الجنة شيئاً، ولو أحرقت، ثم ضرب جواده نحو الحسين عليه السلام^٢ منكساً رحمه، قابلاً ترسه،^٣ وقد طأطأ برأسه حياءً من آل الرسول، بما أتى إليهم، وجعجع^٤ بهم في هذا المكان على غير ماء ولا كلاء،^٥ رافعاً صوته^٦: «اللهم إليك أنيب، فتب عليّ، فقد أرعبت قلوب أوليائك، وأولاد نبيك، يا أبا عبد الله، إني تائب، فهل لي من توبة؟».

فقال الحسين عليه السلام: نعم، يتوب الله عليك.^٧

فسره قوله، وتيقن الحياة الأبدية، والنعيم الدائم، ووضح له قول الهاتِف لما خرج من الكوفة، فحدّث الحسين عليه السلام بحديث قال فيه: لما خرجت من الكوفة نوديت: أبشر يا حرّاً بالجنة، فقلت: ويل للحرّ يبشّر بالجنة وهو يسير إلى حرب ابن بنت رسول الله.^٨ فقال له الحسين عليه السلام: لقد أصبت خيراً وأجراً،^٩ وكان معه غلام تركي.^{١٠}

١. الرعدة - بكسر الراء وسكون العين - الإضطراب يكون من الفزع وغيره، المنجد.

٢. تأريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٢٠.

٣. الثرس - بضم التاء - جمعه أتراس وتراس وتروس وترسة: صفحة من الفولاذ تحمل للوقاية من السيف ونحوه، المنجد.

٤. جمعع بالفرم أي طالبه وضيق عليه، المنجد.

٥. الكلاء جمعه أكلاء بمعنى العشب رطبه وياسبه، المنجد.

٦. المقتل للمقرم، ص ٢٨٤.

٧. اللهوف على قتل الطفوف، ص ١٠٣ والأما لي للصدوق، ص ١٣٦، مجلس ٣٠.

٨. المقتل للمقرم، ص ٢٨٥ وراجع مثير الأحران لابن نما، ص ٥٩.

٩. مثير الأحران لابن نما، ص ٦٠.

نصيحة الحر لأهل الكوفة

ثُمَّ اسْتَأْذَنَ الْحُسَيْنَ فِي أَنْ يُكَلِّمَ الْقَوْمَ، فَأْذِنَ لَهُ، فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ لَا مُكُّمَ الْهَيْلَ وَالْعَبْرَ،^{١١} إِذْ دَعَوْتُمُوهُ وَأَخَذْتُمْ بِكَظْمِهِ، وَأَحْطَطْتُمْ بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَمَنْعْتُمُوهُ التَّوَجُّهَ إِلَى بِلَادِ اللَّهِ الْعَرِيضَةِ، حَتَّى يَأْمَنَ أَهْلُ بَيْتِهِ، وَأَصْبَحَ كَالْأَسِيرِ فِي أَيْدِيكُمْ، لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، وَحَلَّاتُمُوهُ وَنِسَاءَهُ وَصَبِيَّتَهُ وَصَحْبَهُ عَنْ مَاءِ الْفَرَاتِ الْجَارِي الَّذِي يَشْرَبُهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسُ، وَتَمَرَّغُ فِيهِ خَنَازِيرُ السَّوَادِ وَكِلَابُهُ،^{١٢} وَهَاهُمْ قَدْ صَرَعَهُمُ الْعَطَشُ، بِنِسْمَا خَلَفْتُمُ مُحَمَّدًا فِي دُرِّيَّتِهِ، لَا سَقَاكُمْ اللَّهُ يَوْمَ الظَّمَا. فَحَمَلْتُ عَلَيْهِ رَجَالًا تَرْمِيهِ بِالْنبِيلِ، فَتَقَهَّقُوا، حَتَّى وَقَفَ أَمَامَ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.^{١٣}

١٠. المقتل للغوارزمي، ج ٢، ص ٩.

١١. الهَيْلُ، بالتحريك: التكل. والعَبْرُ، بفتح العين وسكون الباء: الحزن.

١٢. يطلق «السواد» على ما بين البصرة والكوفة وعلى ما حولهما، المنجد.

١٣. الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٦٥.

الناص

❑ في صبيحة يوم العاشر من المحرم - وحينما تقابل الجيشان على أرض كربلاء - عبأ الإمام الحسين عليه السلام أصحابه للقتال دفاعاً عن النفس، وعن المقدسات ومبادئ الرسالة الإسلامية، وحينما اشتدَّ الكلام بين الفريقين تجزأ أصحاب عمر بكلام غير مؤدب؛ فأراد أصحاب الإمام الحسين أن يرموهم بسهامهم فمنعهم من ذلك كارهاً أن يبدأهم بقتال.

❑ وقد وعظ الإمام القوم أكثر من مرة لعلهم يرجعون عن غيهم، ولكن رغم ذلك لم يقدد معهم أي وعظ من هذا القبيل، بل صمّموا على قتاله، وإلا ينزل على حكم أميرهم. ولكن يأبى الله ورسوله والمؤمنون ذلك، فاختار الحرب دفاعاً عن شريعة جدّه صلّى الله عليه وآله.

❑ وقد تكلم بعض صحابة الإمام مع جيش عمر بن سعد لعلهم يفيتون، ولكن القوم قد استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله العظيم.

❑ هذا وقد وقف الإمام الحسين بأهل بيته وأصحابه أمام مخيمهم، وأشعلوا ناراً في خندق خلفهم لئلا يكون هجوم القوم عليهم من ورائهم، وتقدّم بعض أصحاب ابن سعد نحو مخيم الحسين عليه السلام فنادى: تعجلت يا حسين بنار الدنيا قبل نار الآخرة ولكن دعوة الإمام عليه لم تمهله فأقحمت به فرسه ورمته في النار وذهب إلى لعنة الله وعذابه.

❑ ولما رأى الحرّ بن يزيد الرياحي عزم القوم على قتال الحسين عليه السلام؛ خيّر نفسه بين الجنة والنار، فاختار الجنة وضرب بفرسه نحو مخيم الإمام وقد وضع يده على رأسه منكساً رمحه قالباً ترسه مطأطأ رأسه حياءً من رسول الله صلّى الله عليه وآله رافعاً صوته قائلاً: سيدي أبا عبد الله! أنا نائب، فهل لي من

توبة؟

اللَّهُمَّ إِلَيْكَ تَبَتِ فِتْنَةُ عَلِيٍّ، فَقَدْ أَرَعَيْتَ قُلُوبَ أَوْلِيَائِكَ وَأَوْلَادَ نَبِيِّكَ فَأُجَابِهِ
 الْإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: إِنْ تَبَتِ تَابَ اللَّهُ عَلَيْكَ. وَكَانَ مَعَهُ غُلَامٌ تَرْكِي، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ
 الْإِمَامُ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ بِأَنَّهُ يَكَلِّمُ النَّاسَ فَأُذِنَ لَهُ، فَذَكَرَ الْقَوْمَ وَوَعظَهُمْ، وَلَكِنَّ
 الْقَوْمَ رَمَوْهُ بِالْثَبَلِ فَتَقَهَّقَهُ حَتَّى وَقَفَ أَمَامَ الْحُسَيْنِ.

الأسئلة

١. لقد منع الحسين بن علي أصحابه أن يرموا جيش ابن سعدٍ بالسهم، لماذا؟
٢. ما هو رأيك في حفر الإمام الحسين بن علي خندق نار خلف الخيام؟
٣. ماذا كان موقف الحر بن يزيد حينما علم بأن ابن سعد قد صمم على قتال الحسين بن علي؟
٤. وماذا كان موقف الحسين بن علي من الحر؟ ولماذا؟
٥. ما هي أهم النقاط التي تضمنتها خطبة الحسين بن علي الأولى؟
٦. من هو ابن حوزة وماذا حدث له؟
٧. قارن بين الخطبة الأولى والثانية للإمام الحسين بن علي يوم عاشوراء؟

بطولة أصحاب الحسين عليه السلام واستشهادهم

الحملة الأولى

تقدّم عمر بن سعد نحو جيش الحسين عليه السلام، ورَمَى بسهم، وقال: اشهدوا لي عند الأمير أَنِّي أَوَّلُ مَنْ رَمَى، ثُمَّ رَمَى النَّاسُ،^١ فلم يَبْقَ من أصحاب الحسين أَحَدٌ إِلَّا أَصَابَهُ مِنْ سَهَامِهِمْ^٢ فقال عليه السلام لأَصْحَابِهِ: قوموا رحمكم الله إلى الموت الَّذِي لَا بَدَّ مِنْهُ، فَإِنَّ هَذِهِ السَّهَامُ رُسُلُ الْقَوْمِ إِلَيْكُمْ، فَحَمَلْ أَصْحَابُهُ حِمْلَةً وَاحِدَةً،^٣ واقتتلوا ساعةً، فما انْجَلَتْ الْغُبَرَةُ إِلَّا عَنْ خَمْسِينَ صَرِيحاً.^٤

وخرج يسارٌ مولى زياد وسالم مولى عبيدالله بن زياد، فطلبوا البرازَ، فوثبَ حبيب وبرير، فلم يَأْذَن لهما الحسين عليه السلام.

فقام عبدالله بن عمير الكلبي من «بني عَلَيم» وكنيته أبوهوب، وكان طويلاً شديداً الساعدين، بعيداً ما بين المنكبين، شريفاً في قومه، شجاعاً مُجَرَّباً، فأذن له، وقال : أَحْسِبْهُ لِلْأَقْرَانِ قِتَالاً.

١. المقتل للمقرم، ص ٢٨٦؛ نقلاً عن الخط المقيزيّة، ج ٢، ص ٢٨٧.

٢. المقتل للمقرم، ص ٢٨٦؛ نقلاً عن مقتل العوالم، ص ٨٤.

٣. اللهوف على قتل الطفوف، ص ١٠١.

٤. بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ١٢؛ نقلاً عن محمّد ابن أبي طالب.

فقالا له: مَنْ أَنْتَ؟ فانتسب لهما، فقالا: لا نعرفك، ليخرج إلينا زهير أو حبيب أو برير، وكان يسأُر قريباً منه، فقال له يا ابن الزانية أو بك رغبةٌ عن مبارزتي؟ ثمَّ شَدَّ عليه بسيفه يضربه، وبينما هو مشتغل به، إذ شَدَّ عليه سالمٌ، فصاح أصحابه: قد رَهَقَكَ العبد، فلم يعبأ به، فضربه سالم بالسيف، فاتقاها عبدالله بيده اليسرى، فأطار أصابعه، ومال عليه عبدالله فقتله، وأقبل إلى الحسين يرتجز، وقد قتلها.

وأخذت زوجته أمُّ وهب بنت عبدالله - من النُمرِ بن قاسِطٍ - عموداً وأقبلت نحوه، تقول له: فذاك أبي وأمي، قاتِل دون الطيِّبين، ذُرِّيَّة محمدٍ صَلَّى الله عليه وآله، فأراد أن يردَّها إلى الخيمة فلم تطاوعه، وأخذت تجاذبه ثوبه، وتقول: لن أدعَكَ دون أن أموت معك، فناداها الحسين: جُزَيْتُمْ عن أهل بيت نبيِّكم خيراً، إرجعي إلى الخيمة، فإنَّه ليس على النساء قتالٌ، فرجعت.^١

مبارزة الاثنين والأربعة

ولمَّا نظر مَنْ بقي من أصحاب الحسين عليه السلام إلى كثرة من قُتِلَ منهم، أخذ الرجلان والثلاثة والأربعة يستأذنون الحسين عليه السلام في الدَّبِّ عنه، والدفع عن حُرْمِهِ، وكلُّ يحمي الآخرَ من كيِّدِ عدوِّه.

فخرجَ الجابريَّان وهما: سيفُ بن الحارث بن سريع ومالك بن عبد بن سريع، وهما ابنا عمِّ وأخوان لأمِّ، وهما يبيكيان.

قال الحسين: ما يبيكيكما؟ إني لأرجو أن تكونا بعد ساعةٍ قريري العين، قالوا: جعلنا الله فداك ما على أنفسنا نبكي، ولكن نبكي عليك، نراك قد أحيط بك، ولا نقدرُ أن ننفكَكَ، فجزاهما الحسين خيراً، فقاتلا قريباً منه حتَّى قُتلا.^٢

١. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٢٢ والكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٦٦.

٢. الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٧٢ و ٧٣.

ولمّا نظر الحسين عليه السلام إلى كثرة من قُتل من أصحابه، قَبَضَ على شيبته المُقدَّسة، وقال:

اشتدَّ غضبُ الله على اليهود إذ جعلوا له ولداً، واشتدَّ غضبه على النصارى إذ جعلوه ثالثَ ثلاثة، واشتدَّ غضبه على المجوس إذ عبدوا الشمس والقمر دونه، واشتدَّ غضبه على قوم اتَّفقت كلمتهم على قتل ابن بنت نبيِّهم، أما والله لا أُجيبهم إلى شيءٍ ممّا يُريدون، حتّى ألقى الله وأنا مُخضَّبٌ بدمي. ثُمَّ صاح:

أما مِن مُغيثٍ يُغيثُنَا؟ أما مِن ذابٍّ عن حُرِّمِ رسولِ الله؟^١ فَبَكَتِ النساءُ، وكثُرَ صراخهنَّ.

وسمع الأنصارى: سعد بن الحارث وأخوه أبو الحتوف استنصارَ الحسين عليه السلام واستغاثته وبكاء عياله، وكانا مع ابن سعد، فعالا بسيفيهما على أعداء الحسين، وقاتلا، حتّى قُتلا.^٢

وأخذ أصحاب الحسين عليه السلام بعد أن قلَّ عددهم، وبان النقص فيهم، يبرِّزُ الرجلُ بعد الرجل، فأكثرُوا القتل في أهل الكوفة.

فصاح عمرو بن الحجاج بأصحابه: أتدرون من تُقاتلون؟ تقاتلون فرسانَ مصر وأهلَ البصائر، وقوماً مستميتين، لا يبرِّزُ إليهم أحدٌ منكم إلّا قتلوه على قِلتهم، والله لو لم ترموهم إلّا بالحجارة لتقتلتموهم.

فقال عمر بن سعد: صدقت، الرأي ما رأيته، أرسل في الناس من يعزِّم عليهم أن لا يبارزهم رجل منهم، ولو خرجتم إليهم وحداناً^٣ لأتوا عليكم.^٤

١. اللهوف على قتلى الطفوف، ص ١١٦.

٢. المقتل للمقرّم، ص ٢٨٩؛ نقلاً عن الحدايق الوردية مخطوط.

٣. الوجداني - بكسر الواو - المنفرد بنفسه، المنجد.

٤. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٢٤.

ثُمَّ حَمَلَ عَمْرُو بْنُ الْحَبَّاجِ عَلَى مِيمَنَةِ الْحُسَيْنِ، فَثَبَّتُوا لَهُ، وَجَثُوا^١ عَلَى الرُّكْبِ، وَأَشْرَعُوا^٢ الرِّمَاحَ، فَلَمْ تَقْدِمِ الْخَيْلُ، فَلَمَّا ذَهَبَتِ الْخَيْلُ لَتَرَجَعَ رَشَقُهُمْ أَصْحَابُ الْحُسَيْنِ بِالنَّبِيلِ، فَصَرَعُوا رِجَالًا وَجَرَحُوا آخَرِينَ.

وَكَانَ عَمْرُو بْنُ الْحَبَّاجِ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ: قَاتِلُوا مَنْ مَرَّقَ^٣ عَنِ الدِّينِ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ.

فَصَاحَ الْحُسَيْنُ: وَيْحَكَ يَا حَبَّاجُ أَعَلَيْي تُحَرِّضُ النَّاسَ؟ أَنْحَنُ مَرَقْنَا عَنِ الدِّينِ وَأَنْتَ تُقِيمُ عَلَيْهِ؟ سَتَعْلَمُونَ إِذَا فَارَقْتَ أَرْوَاحَنَا أَجْسَادَنَا مَنْ أُولَى بِصُلِيِّ النَّارِ.^٤ ثُمَّ حَمَلَ عَمْرُو بْنُ الْحَبَّاجِ مِنْ نَحْوِ الْفَرَاتِ، فَاقْتَتَلُوا سَاعَةً، وَفِيهَا قَاتَلَ مُسْلِمُ ابْنِ عَوْسَجَةَ، فَشَدَّ عَلَيْهِ مُسْلِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الضُّبَّايِي وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ خُشْكَارَةَ الْبَجَلِي، وَثَارَتْ لِشِدَّةِ الْجِلَادِ^٥ عُبْرَةٌ شَدِيدَةٌ، وَمَا انْجَلَتِ الْغُبْرَةُ إِلَّا وَمُسْلِمٌ صَرِيعٌ، وَبِهِ رَمَقٌ، فَمَشَى إِلَيْهِ الْحُسَيْنُ وَمَعَهُ حَبِيبُ بْنُ مَظَاهِرٍ فَقَالَ لَهُ الْحُسَيْنُ عليه السلام: رَحِمَكَ اللَّهُ يَا مُسْلِمَ، «فَعَيْنُهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا».^٦

وَدَنَا مِنْهُ حَبِيبٌ وَقَالَ: عَزَّ عَلَيَّ مَصْرَعُكَ يَا مُسْلِمَ إِبْشِرْ بِالْجَنَّةِ.

فَقَالَ بِصَوْتٍ ضَعِيفٍ: بَشْرَكَ اللَّهُ بِخَيْرٍ.

قَالَ حَبِيبٌ: لَوْ لَمْ أَعْلَمْ أَنِّي فِي الْأَثَرِ لِأَحْبَبْتُ أَنْ تُوصِيَنِي إِلَيَّ بِمَا أَهَمَّكَ.

فَقَالَ مُسْلِمٌ: أَوْصِيكَ بِهَذَا - وَأَشَارَ إِلَى الْحُسَيْنِ عليه السلام - أَنْ تَمُوتَ دُونَهُ.

قَالَ: أَفْعَلُ وَرَبَّ الْكَعْبَةِ، وَفَاضَتْ رُوحُهُ بَيْنَهُمَا.

١. جثا أي جلس على ركبتيه، المنجد.

٢. أشرع الشيء أي رفعه جدًا، المنجد.

٣. مرق عن الدين أي خرج منه بضلالة أو بدعة، المنجد.

٤. المقتل للمقرم، ص ٢٩٠: نقلًا عن الكامل لابن كثير، ج ٨، ص ١٨٢.

٥. الجِلَاد - بكسر الجيم - المضاربة بالسيف، المنجد.

٦. الأحراب / ٢٣.

وصاحت جاريةً له: وامسلماه! يا ابن عوسجته!

فتنادى أصحاب الحجاج: قَتَلْنَا مُسْلِمًا.

فقال شيب بن ربيعي لمن حوله: ثكلتكم أمهاتكم، أَيْقَتَلْ مِثْلُ مُسْلِمٍ وَتَفْرَحُونَ؟ لَرُبَّ مَوْقِفٍ لَهُ كَرِيمٌ فِي الْمُسْلِمِينَ رَأَيْتَهُ يَوْمَ «آذْرِيَايَجان»^١ وَقَدْ قَتَلَ سِتَّةَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَبْلَ تَنَامٍ^٢ خِيُولِ الْمُسْلِمِينَ.^٣

وَحَمَلَ الشَّعْرَ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَلَى مَيْسِرَةِ الْحُسَيْنِ، فَشَبَّتُوا لَهُمْ حَتَّى كَشَفُوهُمْ، وَفِيهَا قَاتَلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَمِيرِ الْكَلْبِيِّ، فَقَتَلَ تِسْعَةَ عَشَرَ فَارِسًا وَإِثْنَيْ عَشَرَ رَاجِلًا، وَشَدَّ عَلَيْهِ هَانِي بْنُ ثُبَيْتِ الْحَضْرَمِيِّ، فَقَطَعَ يَدَهُ الْيَمْنَى^٤ وَقَطَعَ بَكَرَ بْنَ حَيٍّ سَاقَهُ.^٥

فَأَخَذَ أُسِيرًا، وَقُتِلَ صَبْرًا.^٦

فَمَشَتْ إِلَيْهِ زَوْجَتُهُ أُمُّ وَهَبٍ، وَجَلَسَتْ عِنْدَ رَأْسِهِ، تَمَسُّحُ الدَّمِ عَنْهُ وَتَقُولُ: هَنِيئًا لَكَ الْجَنَّةُ، أَسْأَلُ اللَّهَ الَّذِي رَزَقَكَ الْجَنَّةَ أَنْ يُصَحِّبَنِي مَعَكَ.

فَقَالَ الشَّعْرُ لِفَلَامِهِ رَسْتَمٍ: اضْرِبْ رَأْسَهَا بِالْعُمُودِ، فَشَدَّخَهُ وَمَاتَتْ مَكَانَهَا، وَهِيَ أَوَّلُ إِمْرَأَةٍ قُتِلَتْ مِنْ أَصْحَابِ الْحُسَيْنِ.^٧

١. كلمة آذريايان - بمد الهزمة وفتح الذال وسكون الراء ثم الباء والألف وسكون الياء ثم الجيم الألف والنون - مركبة من «آذر» بمعنى النار بالفارسية، و«بايگان» - معربها: بايجان - بمعنى الحافظ، وفسرهما ياقوت بمعنى «بيته النار» أو «خازن النار»، وأضاف: وهذا أشبه بالحق وأخرى به، لأن بيوت النار في هذه الناحية كثيرة جداً.

معجم البلدان، ج ١، ص ١٢٨.

٢. تنام القوم أي جاؤوا كلهم، المنجد.

٣. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٢٥.

٤. مناقب ابن شهر آشوب، ج ٤، ص ١٠١.

٥. المقتل للمقرم، ص ٢٩١.

٦. في مقتل الخوارزمي، ج ٢، ص ١٣ أن شماله قطعت بعد أن قطعت يمينه.

٧. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٢٩.

وقطع رأسه ورمي به إلى جهة الحسين عليه السلام ، فأخذت أمُّه ومسحت الدم عنه، ثم أخذت عمود خيمة وبرزت إلى الأعداء، فردَّها الحسين عليه السلام ، وقال: ارجعي رحمك الله، فقد وُضِعَ عنك الجهاد، فرجعت، وهي تقول: اللَّهُمَّ لا تقطع رجائي، فقال الحسين: لا يقطع الله رجاءك.^١

وحَمَلَ الشَّمْرُ حَتَّى طَعَنَ فِسطاط الحسين بالرمح، وقال: عليَّ بالنار لأحرقه على أهله، فتصايحت النساء، وخرجن من الفِسطاط، وناداه الحسين: يا ابن ذي الجوشن أنت تدعو بالنار لتحرق بيتي على أهلي أحرقتك الله بالنار، وقال له شُبْتُ بن ربيعي: أُمْرَعِباً للنساء صِرت؟ ما رأيت مقالاً أسوأ من مقالِكَ، ومَوْقِفاً أَقْبَحَ من مَوْقِفِكَ، فاستحى وانصرف.

وحَمَلَ على جماعته زهير بن القين في عشرةٍ من أصحابه، حَتَّى كشفوهم عن البيوت.^٢

عَزْرَةُ يَسْتَمِدُّ الرِّجَالَ

ولَمَّا رَأَى عَزْرَةُ بن قيس - وهو على الخيل - الوهنَ في أصحابه والفشلَ كُلِّمًا يحملون، بعث إلى عُمَر بن سعدٍ يَسْتَمِدُّهُ الرِّجَالَ، فقال ابن سعدٍ لشيث بن ربيعي: أَلَا تَقْدِمُ إِلَيْهِمْ؟ قال: يا سبحان الله تُكَلِّفُ شيخَ المِصرِ وعندَكَ مَنْ يجزي عنه؟

ولم يزل شُبْتُ بن ربيعي كَارِهاً لِقِتَالِ الحسين، وقد سَمِعَ يقول: قَاتَلْنَا مع عليٍّ بن أبي طالبٍ ومع ابنه من بعده آلَ أبي سفيان خمس سنين، ثُمَّ عدونا على وَلَدِهِ، وهو خيرُ أهل الأرض، تُقَاتِلُهُ مع آل معاوية وابن سميَّة الزانية، ضلالاً يالَكَ من ضلالٍ، والله لا

١. المقتل للمقرم، ص ٢٩٢: نقلًا عن تظلم الزهراء، ص ١١٣.

٢. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٢٦ والمقتل للخوارزمي، ج ٢، ص ١٦.

يعطي الله أهل هذا العصر خيراً أبداً، ولا يسدّدهم لرُشد.^١

فمّده بالحصين بن تميم في خمسمائة من الرّماة، واشتدّ القتال، وأكثر أصحاب الحسين فيهم الجراح، حتّى عقروا خيولهم وأرجلهم،^٢ ولم يقدّروا أن يأتوهم من وجهٍ واحدٍ، لتقارب أنبيتهم، فأرسل ابن سعدٍ الرجال ليقوّضوها^٣ عن أيمانهم وعن شمائلهم ليحيطوا بهم، فأخذ الثلاثة والأربعة من أصحاب الحسين يتخلّلون البيوت فيشدّون على الرجل وهو ينهب فيقتلونه، ويرمونه من قريبٍ فيعقرونه.

فقال ابن سعدٍ: أحرقوها بالنّار، فأضرموا فيها النار، فصاحت النساء ودّهشت الأطفال، فقال الحسين: دعوهم يحرقونها فإنّهم إذا فعلوا ذلك لم يجوزوا إليكم، فكان كما قال.^٤

أبو الشعثاء

وكان أبو الشعثاء الكندي وهو - يزيد بن زياد - مع ابن سعدٍ فلما ردّوا الشروط على الحسين صار معه، وكان رامياً، فجثا على رُكبته بين يدي الحسين عليه السلام ورمى بمائة سهمٍ، والحسين يقول: اللهمّ سدّد رميته، واجعل ثوابه الجنة، فلما نفذت سهامه قام وهو يقول: لقد تبين لي أنّي قتلْتُ منهم خمسة،^٥ ثمّ حمل على القوم، فقتل تسعة نفرٍ وقُتل.^٦

والتفت أبو ثمامة الصائدي إلى الشمس قد زالت، فقال للحسين: نفسي لك الفداء،

١. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٢٥.

٢. إعلام الورى، ص ٢٤٥ والكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٦٩.

٣. قوّض البناء أي هذمه، المنجد.

٤. الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٦٩.

٥. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٣٠.

٦. الأمالي للصدوق، ص ١٣٧، مجلس ٣٠.

إِنِّي أرى هؤلاء قد اقتربوا مِنكَ، لا وَاللَّهِ لَا تُقَتِّلْ حَتَّى أَقْتُلَ دُونَكَ، وَأَحَبُّ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَقَدْ صَلَّيْتُ هَذِهِ الصَّلَاةَ الَّتِي دَنَا وَقْتُهَا، فَرَفَعَ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: ذَكَرْتُ الصَّلَاةَ جَعَلَكَ اللَّهُ مِنَ الْمُصَلِّينَ الذَّاكِرِينَ، نَعَمْ هَذَا أَوَّلُ وَقْتُهَا، سَلَوْهُمْ أَنْ يَكْفُوا عَنَّا حَتَّى نُصَلِّيَ، فَقَالَ الْحَصِينُ بْنُ تَمِيمٍ: إِنَّهَا لَا تُقْبَلُ.

حبيب بن مظاهر الأسدي

فَقَالَ حَبِيبُ بْنُ مَظَاهِرٍ: زَعَمْتُ أَنَّهَا لَا تُقْبَلُ مِنْ آلِ الرَّسُولِ وَتُقْبَلُ مِنْكَ يَا جِمَارُ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ الْحَصِينُ بْنُ تَمِيمٍ فَضْرَبَ حَبِيبٌ وَجْهَ فَرَسِهِ بِالسَّيْفِ، فَشَبَّتْ بِهِ، وَوَقَعَ عَنْهُ، وَاسْتَنْقَذَهُ أَصْحَابُهُ، فَحَمَلُوهُ.

وَقَاتَلَهُمْ حَبِيبٌ قِتَالًا شَدِيدًا، فَقَتَلَ عَلَى كَبِيرِهِ اثْنَيْنِ وَسِتِّينَ رَجُلًا، وَحَمَلَ عَلَيْهِ بُدَيْلُ بْنُ صَرِيمٍ فَضْرَبَهُ بِسَيْفِهِ، وَطَعَنَهُ آخَرُ مِنْ تَمِيمٍ بِرُمَحِهِ، فَسَقَطَ إِلَى الْأَرْضِ، فَذَهَبَ لِيَقُومَ وَإِذَا الْحَصِينُ بْنُ تَمِيمٍ يَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ عَلَى رَأْسِهِ، فَسَقَطَ لَوَجْهِهِ، وَنَزَلَ إِلَيْهِ التَّمِيمِيُّ وَاحْتَزَّ رَأْسَهُ.

فَهَذَا مَقْتَلُهُ الْحُسَيْنِ، فَقَالَ: عِنْدَ اللَّهِ أَحْتَسِبُ نَفْسِي وَحُمَاةَ أَصْحَابِي،^١ وَاسْتَرْجَعَ كَثِيرًا.

الحُرُّ الرِّياحي

وَخَرَجَ مِنْ بَعْدِهِ الْحَرُّ بْنُ يَزِيدَ الرِّياحي وَمَعَهُ زَهَيْرُ بْنُ الْقَيْنِ يَحْمِي ظَهْرَهُ، فَكَانَ إِذَا شَدَّ أَحَدُهُمَا وَأَسْتَلَحِمَ،^٢ شَدَّ الْآخَرَ وَاسْتَنْقَذَهُ، فَفَعَلَا سَاعَةً،^٣ وَإِنْ فَرَسَ الْحُرُّ لِمَضْرُوبٍ

١. الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٧٠ و ٧١ وتاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٢٧.

٢. استلحم الزرع التف. المنجد.

٣. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٢٧ والبداية، ج ٨، ص ١٨٣.

على أذنيه وحاجبيه والدماء تسيلُ منه، وهو يتمثل بقول عنتره:

ما زِلْتُ أرميهم بِشَفْرَةٍ نَحَرِه
ولبائِه حَتَّى تسربل بالدمِ

فقال الحصين بن تميم ليزيد بن سفيان: هذا الحرُّ الَّذي كنت تتمنئُ قتله، قال: نعم، وخرجَ إليه يطلبُ المبارزة، فما أسرع أن قتله الحرُّ، ثم رمى أيوبُ بن مُشرَح الخيواني فرس الحرِّ بسهمٍ ففقره، وشبَّ به الفرس فوثبَ عنه كأنه ليث،^١ وبيده السيف، وجعل يقاتل راجلاً حَتَّى قتل نيفاً وأربعين،^٢ ثُمَّ شَدَّت عليه الرِّجَالَة فصرعته، وحمله أصحاب الحسين عليه السلام، ووضعوه أمام الفِسطاط الَّذي يقاتلونَ دونه.

وهكذا يوتئى بكلِّ قتيلٍ إلى هذا الفِسطاط، والحسين يقول: قتلةٌ مثلُ قتلةِ النبيين وآل النبيين،^٣ ثُمَّ التفت إلى الحرِّ، وكان به رَمَقٌ، فقال لَهُ وَهُوَ يمسح الدمَ عنه: أنت الحرُّ كما سَمَّكَ أُمُّك، وأنت الحرُّ في الدنيا والآخرة.

أداء الصلاة

وقام الحسين عليه السلام إلى الصلاة، فقليلَ إِنَّه صَلَّى بِمَنْ بَقِيَ من أصحابه صلاةَ الخوف، وتقدَّم أمامه زهير بن القين وسعيد بن عبدالله الحنفي في نصفٍ من أصحابه،^٤ ويقال إِنَّه صَلَّى وأصحابه فرادى بالإيماء.^٥

ولمَّا أُنْخِنَ سعيدٌ بالجراح سقطَ إلى الأرض، وهو يقول: اللهمَّ الْعَنَّهُمْ لَعَنَ عَادٍ وثمود وأبلغَ نبيك مِنِّي السلام، وأبلغه ما لقيتُ من آلمِ الجراح، فَإِنِّي أردتُ بذلك نوابك في

١. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٢٤ و ٣٢٥.

٢. مناقب ابن شهر آشوب، ج ٤، ص ١٠٠.

٣. المقتل للمقرم، ص ٢٩٦؛ تَقْلَأُ عن تظلم الزهراء، ص ١١٨.

٤. المقتل للمقرم، ص ٢٩٦؛ تَقْلَأُ عن مقتل العوالم، ص ٨٨ ومقتل الخوارزمي، ج ٢، ص ١٧.

٥. مشير الأحزان لابن نما، ص ٦٥.

نُصْرَةٍ دُرِّيَّةٍ نَبِيِّكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.^١

والتفت إلى الحسين قائلاً: أوفيتُ يا ابن رسول الله؟

قال: نعم أنت أُمّامي في الجنة، وقضى نحبه، فوجدَ فيه ثلاثة عشر سهماً غير الضرب والطعن.

ولما فرغ الحسين عليه السلام من الصلاة، قال لأصحابه: يا كرامُ هذه الجنة قد فُتِحَتْ أبوابها، واتصلت أنهارها، وأُنبعت ثمارها، وهذا رسول الله والشهداء الذين قُتلوا في سبيل الله يتوقعون قدومكم، ويتباشرون بكم، فحاموا عن دين الله ودين نبيّه، ودُثِّبوا عن حرم الرسول.

فقالوا: نفوسنا لنفسيك الفداء، ودمائنا لدميك الوقاء، فوالله لا يصلُ إليك وإلى حريمك سوءٌ وفينا عِرْقٌ يُضْرَبُ.^٢

عَقِيرُ الْخَيْلِ

ثم إنَّ عمر بن سعدٍ وجّه عمرو بن سعيدٍ في جماعةٍ من الرُّماة، فرموا أصحاب الحسين وعقروا خيولهم،^٣ ولم يبقَ مع الحسين عليه السلام فارسٌ إلا الضحّاك بن عبد الله المشرقي، يقول: لما رأيت خيل أصحابنا تُعَقَّرُ أقبلت بفَرَسِي وأدخلتها فسطاطاً لأصحابنا.^٤

واقْتتلوا أشدَّ القتال،^٥ وكان كلُّ من أراد الخروج ودّع الحسين بقوله: السلام عليك يا

١. المقتل للمقرم، ص ٢٩٧؛ نقلاً عن مقتل العوالم، ص ٨٨.

٢. أسرار الشهادة، ص ٢٨٣.

٣. مثير الأحران لابن نما، ص ٦٦.

٤. عَقَر الإبل أي قطع قوائمها بالسيف، المنجد.

٥. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٣٠.

٦. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٣٠.

ابن رسول الله، فيُجيبه الحسين: وعليك السلام، ونحن خلقك، ثم يقرأ: «وَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا»^١.

أبو ثمامة الصائدي

وخرج أبو ثمامة الصائدي فقاتل حتى أُتخِنَ بالجراح، وكان مع عمر بن سعد ابن عم له يقال له قيس بن عبد الله، بينهما عداوة، فشذ عليه وقتله.

زهير وابن مضارب

وخرج سلمان بن مضارب البجلي وكان ابن عم زهير بن القين، فقاتل حتى قُتل، وخرج بعده زهير بن القين فوضع يده على منكب الحسين، وقال مستأذناً:

أَقْدِمْ هَدِيَّتَ هَادِيًّا مَهْدِيًّا فاليوم ألقى جدك النسيًّا
وَحَسَنًا وَالْمَرْتَضَىٰ عَلِيًّا وَذَا الْجَنَاحَيْنِ الْفَتَى الْكَمِيًّا^٢

وَأَسَدَ اللَّهِ الشَّهِيدَ الْحَيًّا

فقال الحسين عليه السلام: وأنا ألقاهما على أتركي، وفي حملاته يقول:

أَنَا زُهَيْرٌ وَأَنَا ابْنُ الْقَيْنِ أَذُودُكُمْ بِالسَّيْفِ عَنْ حُسَيْنِ

فقتل مائة وعشرين، ثم عطف عليه كثير بن عبد الله الصَّعْبِي والمهاجر بن أوس فقتلاه،^٣ فوقف الحسين وقال: لَا يُبْعِدُنْكَ اللَّهُ يَا زُهَيْرُ، وَلَعَنَ قَاتِلِيكَ لَعْنُ الَّذِينَ مُسِيحُوا قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ.^٤

١. المقتل للمقرم، ص ٢٩٨؛ نقلًا عن مقتل الموالم، ص ٨٥ ومقتل الخوارزمي، ج ٢، ص ٢٥ والآية ٢٣ من سورة الأحزاب.

٢. الكمي بفتح الكاف - الشجاع أو لايس السلاح، لأنه يكمي نفسه أي يسترها بالدرع والبيضة، المنجد.

٣. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٢٧ و ٣٢٨.

٤. مقتل الخوارزمي، ج ٢، ص ٢٠.

عَمْرُو بْنُ قَرْظَةَ الْأَنْصَارِيِّ

وجاء عَمْرُو بْنُ قَرْظَةَ الْأَنْصَارِيِّ ووقفَ أمامَ الحَسينِ يَقيهِ مِنَ العَدُوِّ وَيَتَلَقَّى السَّهَامَ بِصَدْرِهِ وَجَبْهَتِهِ، فَلَمْ يَصِلْ إِلَى الحَسينِ سُوءٌ، وَلَمَّا كَثُرَ فِيهِ الجِرَاحُ التَفَتَ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ وَقَالَ: أَوْفَيْتُ يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ أَنْتَ أَمَامِي فِي الجَنَّةِ، فَأَقْرَأْ رَسُولَ اللَّهِ مِنِّي السَّلَامَ وَأَعْلِمِهِ أَنِّي فِي الْأَنْزَرِ، وَخَرَّ مَيِّتاً.^١

فنادى أخوه عليّ وكان مع ابن سعد: يا حسين يا كذاب غررت أخى حتى قتلتته، فقال عليه السلام: إني لم أغرأ أحاك، ولكن الله هداه وأضلّك.

فقال: قتلتني الله إن لم أقتلك، ثمّ حمّل على الحسين ليطعنه، فاعترضه نافع بن هلال الجملي قطعنه حتى صرعه، فحمّله أصحابه وعالجوه، وبرأ.^٢

نافع الجملي

ورمى نافع بن هلال الجملي المذحجي بنىال مسمومة، كتب اسمه عليها،^٣ وهو يقول:^٤

أرمي بها مُعْلِمَةً أَفْوَاقُهَا^٥ مسمومة تجري بها إخفاؤها^٦
ليملأن أرضها رِشاقُها والنَّفْسُ لَا يَنْفَعُهَا إِشْفَاؤها
فَقَتَلَ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا سِوَى مَنْ جَرَحَ، وَلَمَّا قُنِيتَ نِبَالُهُ، جَرَدَ سَيْفُهُ يَضْرِبُ فِيهِمْ،

١. المقتل للمقرم، ص ٢٩٩؛ نقلاً عن مقتل العوالم، ص ٨٨.

٢. الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٦٧.

٣. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٢٨ والكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٢٩ والبداية لابن كثير، ج ٨، ص ١٨٤.

٤. المقتل للمقرم، ص ٣٠٠؛ نقلاً عن العوالم، ص ٩٠.

٥. أفواق جمع الفوق بمعنى شق رأس السهم حيث يقع الوتر، المنجد.

٦. اخفاق بمعنى الصرع، يقال أخفق زيد عمرواً في الحرب أي صرعه، فكان النبل يجري بها الصرع، إحصار العين.

فأحاطوا به يرمونه بالحجارة والنّصال، حتّى كسروا عضديه، وأخذوه أسيراً،^١ فأمسكه الشمر ومعه أصحابه يسوقونه، فقال له ابن سعد: ما حَمَلَكَ على ما صنعتَ بنفسِكَ؟ قال: إِنَّ رَبِّي يَعْلَمُ ما أَرَدْتُ، فقال له رجلٌ وقد نظر إلى الدماء تسيل على وجهه ولحيته: أما ترى ما بك؟ فقال: واللّٰه لقد قتلْتُ منكم اثني عشر رجلاً سوى مَنْ جرحْتُ، وما أُلِمْ نفسي على الجهدِ، ولو بقيْتُ لي عضدٌ ما أَسْرَتموني^٢ وجردَ الشمر سيفه، فقال له نافعٌ واللّٰه يا شمر لو كنت من المسلمين لَعَظَمَ عليك أن تلقى اللّٰه بدمائنا، فالحمدُ للّٰه الَّذي جعلَ منايانا على يدي شرارِ خلقه، ثُمَّ قَدَّمَهُ الشمرُ وَضَرَبَ عُنُقَهُ.^٣

واضحٌ وأسلمٌ

ولمّا صُرع واضح التركي مولى الحرثِ المِذْحَجي، استغاثَ بالحسين فأُتاه أبو عبد اللّٰه واعتنقه، فقال: مَنْ مِثْلِي وابن رسول اللّٰه واضعُ خَدِّه على خَدِّي، ثُمَّ فاضت نفسه الطاهرة.^٤

ومشى الحسين إلى أسلم مولاه واعتنقه، وكان به رَمَقٌ، فتبسّمَ وافتخرَ بذلك ومات.^٥

برير بن خضير

ونادى يزيدُ بن مَعْقِلٍ^٦: يا برير كيف ترى اللّٰه صنع بك؟ فقال صنع اللّٰه بي خيراً

١. مقتل الخوارزمي، ج ٢، ص ٢١.

٢. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٢٨.

٣. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٢٨ و البداية لابن كثير، ج ٨، ص ٨٤.

٤. المقتل للمقرم، ص ٣٠٠: نقلًا عن مقتل العوالم، ص ٩١ وأبصار العين، ص ٨٥.

٥. المقتل للمقرم، ص ٢٩٧: نقلًا عن ذخيرة الدارين، ص ٣٦٦.

٦. جاء في تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٢٢: أنّه من بني عميرة بن ربيعة، وهو حليف لبني سليمة من عبد القيس.

وصنع بك شراً، فقال يزيد: كذبت وقبل اليوم ما كنت كذاباً، أتذكر يوم كنتُ أماشيكَ في «بني لوزان»^١ وأنت تقول: كان معاوية ضالاً وإنَّ إمام الهدى عليّ بن أبي طالب؟ قال بُرير: بلى أشهدُ أنَّ هذا رأيي فقال يزيد: وأنا أشهدُ أنَّكَ من الضالِّين فدعاه برير إلى المباهلة، فرفعا أيديهما إلى الله سبحانه يدعوانه أن يلعن الكاذب ويقتله، ثم تضاربا فضربه برير على رأسه قَدَّتِ المِغْفَرُ^٢ والدِّماغُ، فخرَّ كأنما هوَى من شَاهِقِي، وسيفُ برير ثابت في رأسه، وبينما هو يريد أن يُخرجه إذ حملَ عليه رضيُّ بن منقذِ العبدي واعتنق بريراً، واعتركا، فصرعه برير، وجلس على صدره، فاستغاث رضيُّ بأصحابه، فذهب كعب بن جابر بن عمرو الأزدي ليحمل على برير، فصاح به عفيف بن زهير بن أبي الأخنس: هذا بريرُ بن خُضيرِ القاري الذي كان يَقْرئُنا القرآن في جامع الكوفة، فلم يلتفت إليه وطعن بريراً في ظهره، فبرَّكَ بُرير على رضيٍّ وعضَّ وجهه، وقطع طرفَ أنفه، وألقاه كعب بِرِمَجِهِ عنه، وضربه بسيفه فقتله.

وقام العبدي ينفذ التراب عن قبائه، وقال: لقد أنعمت عليَّ يا أخا الأزْد نعمةً لا أنساها أبداً.^٣

حنظلة الشبامي

ونادى حَنْظَلَةُ بن سعدِ الشَّبامي: «يا قوم إني أخاف عليكم مثلَ يومِ الأحزاب، مثلَ دَأْبِ قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودٍ والَّذين من بعدهم، وما الله يريدُ ظُلماً للعباد، ويا قوم إني أخافُ عليكم يومَ النَّادِ، يومَ تُؤوَّلونَ مُدْبِرِينَ ما لكم من الله من عاصمٍ، ومن يَضِلُّ اللهَ فما لَهُ من هادٍ»،^٤ يا قوم لا تقتلوا حسيناً فَيُسْحِتَكُمُ اللهُ بعذابٍ، وقد خابَ مَنْ أَفْتَرَى.

١. جاء في تاج العروس بمادة «لوز»: لوزان ابن عبد ود بن الحرث بن زيد بن جشم بن حاسد.

٢. المِغْفَر - بكسر الميم وسكون الغين وفتح الفاء - : زَرَد يلبسه المحارب تحت القَلَنْشُوَّة، المنجد.

٣. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٢٢ و ٣٢٣.

٤. المؤمن / ٣٠ - ٣٣.

فجزّاه الحسين عليه السلام خيراً، وقال: رَحِمَكَ اللَّهُ إِنَّهُمْ قَدْ اسْتَوْجَبُوا الْعَذَابَ حِينَ رُدُّوا عَلَيْكَ مَا دَعَوْتَهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ، وَنَهَضُوا إِلَيْكَ لِيَسْتَبِيحُوكَ وَأَصْحَابُكَ، فَكَيْفَ بِهِمُ الْآنَ وَقَدْ قَتَلُوا إِخْوَانَكَ الصَّالِحِينَ.

قال: صدقت يا ابن رسول الله أفلا نروحُ إلى الآخرة؟ فأذِنَ لَهُ، فَسَلَّمَ عَلَى الْحُسَيْنِ، وَتَقَدَّمَ يِقَاتِلُ حَتَّى قُتِلَ.^١

عابِسُ بْنُ شُعَيْبٍ

وَأَقْبَلَ عَابِسُ بْنُ شُعَيْبٍ الشَّاكِرِيُّ عَلَى شَوْذَبَ مَوْلَى شَاكِرٍ، وَكَانَ شَوْذَبُ مِنَ الرِّجَالِ الْمُخْلِصِينَ، وَدَارَهُ مَأْلَفٌ لِلشَّيْعَةِ، يَتَحَدَّثُونَ فِيهَا فَضْلَ أَهْلِ الْبَيْتِ. فَقَالَ: يَا شَوْذَبُ مَا فِي نَفْسِكَ أَنْ تَصْنَعَ؟ قَالَ: أَقَاتِلْ مَعَكَ حَتَّى أَقْتَلَ، فَجَزَّاهُ خَيْرًا، وَقَالَ لَهُ: تَقَدَّمْ بَيْنَ يَدَيَّ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام حَتَّى يَحْتَسِبَكَ كَمَا احْتَسَبَ غَيْرُكَ، وَحَتَّى احْتَسَبَكَ فَإِنَّ هَذَا يَوْمٌ نَطْلُبُ فِيهِ الْأَجَرَ بِكُلِّ مَا نَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَسَلَّمَ شَوْذَبُ عَلَى الْحُسَيْنِ، وَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ.

فَوَقَفَ عَابِسُ أَمَامَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام، وَقَالَ: مَا أَمْسَى عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ قَرِيبٌ وَلَا بَعِيدٌ أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْكَ، وَلَوْ قَدِرْتُ أَنْ أَدْفَعَ الضَّيْمَ عَنْكَ بِشَيْءٍ أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْ نَفْسِي لَفَعَلْتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ، أَشْهَدُ أَنِّي عَلَى هَذَاكَ وَهْدَى أَبْيَكِ، وَمَشَى نَحْوَ الْقَوْمِ، مُصْلَتاً سَيْفَهُ، وَبِهِ ضَرْبَةٌ عَلَى جَبِينِهِ فَنَادَى: أَلَا رَجُلٌ؟ فَأَحْجَمُوا عَنْهُ، لِأَنَّهُمْ عَرَفُوهُ أَشْجَعَ النَّاسِ، فَصَاحَ عَمْرُ بْنُ سَعْدٍ: إِرْصَخُوهُ بِالْحِجَارَةِ، فَرُمِيَ بِهَا، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ أَلْقَى دَرْعَهُ وَمَغْفَرَهُ، وَشَدَّ عَلَى النَّاسِ، وَأَنَّهُ لِيُطْرَدُ أَكْثَرُ مِنْ مَائَتِينَ، ثُمَّ تَعَطَّفُوا عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ فَقُتِلَ. فَتَنَازَعَ ذَوُوا عَدَدٍ فِي رَأْسِهِ، فَقَالَ ابْنُ سَعْدٍ: هَذَا لَمْ يَقْتُلْهُ وَاحِدٌ، فَفَرَّقَ بَيْنَهُمْ بِذَلِكَ.^٢

١. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٢٩.

٢. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٢٩.

جَوْنُ مولى أَبِي ذَرٍّ

ووقف جَوْنُ مولى أَبِي ذَرٍّ الغفاري أمام الحسين يستأذنه فقال عليه السلام: يا جون إنما تبعتنا طلباً للعافية، فأنت في إذنِ مِنِّي، فوقع على قدميه يُقَبِّلُهُمَا، ويقول: أنا في الرِّخَاءِ الْحَسِّ قِصَاعُكُمْ، وفي الشَّدَّةِ أَخْذُكُمْ، إِنَّ رِيحِي لَتَتِنُّ، وحسبي لِلثَّيْمِ، ولوني لأَسْوَدَ، فتَنَفَّسَ عَلَيَّ بِالْجَنَّةِ، ليطيبَ ريحي، ويشرف حسبي، ويبيضَ لوني، لا والله لا أفارقكم حتَّى يختلط هذا الدم الأسود مع دمائكم.^٢

فأذن له الحسين عليه السلام، فقتل خمسةً وعشرين، وقُتل.

فوقفَ عليه الحسين عليه السلام، وقال: اللَّهُمَّ بَيِّضْ وَجْهَهُ، وَطَيِّبْ رِيحَهُ، واخْشُرْهُ مع مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَعَرِّفْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ آلِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. فكان من يَمُرُّ بِالْمَعْرَكَةِ يَشُمُّ مِنْهُ رَائِحَةً طَيِّبَةً أَذْكَى مِنَ الْمِسْكِ.^٣

أَنَسُ الْكَاهِلِي

وكان أنس بن الحارث بن نبيه الكاهلي شيخاً كبيراً رأى النبيَ وسمعَ حديثه، وشهدَ معه بدرأً وحُنيناً، فاستأذن الحسين، وبرَزَ شاذّاً وسطه بالعمامة، رافعاً حاجبيه بالعصابة، ولَمَّا نظر إليه الحسين بهذه الهيئة بكى وقال: شَكَرَ اللَّهُ لَكَ يَا شَيْخُ، فقتل على كِبَرِهِ ثمانية عشر رجلاً وقُتل.^٤

عَمْرُو بْنُ جُنَادَةَ

وجاء عمرو بن جنادة الأنصاري بعد أن قُتل أبوه وهو ابن إحدى عشرة سنة،

١. لَحَسَ الْقِصْعَةَ أَي لَعَقَهَا وَأَخَذَ مَا عَلِقَ بِجَوَانِبِهَا بِلِسَانِهِ أَوْ بِإِبْصَعِهِ، الْمُنْجِد.

٢. اللُّهُوفُ عَلَى قَتْلِ الطُّفُوفِ، ص ٤٧.

٣. الْمُقْتَلُ لِلْمَقْرَمِ، ص ٣٠٥؛ نَقْلًا عَنْ مُقْتَلِ الْعَوَالِمِ، ص ٨٨.

٤. الْمُقْتَلُ لِلْمَقْرَمِ، ص ٣٠٥؛ نَقْلًا عَنْ ذَخِيرَةِ الدَّارِينِ، ص ٢٠٨ وَذَكَرَ ابْنَ نَمَاءٍ فِي مَثِيرِ الْأَحْزَانِ، ص ٦٣ مِبَارَزَتَهُ

يَسْتَأْذِنُ الْحُسَيْنَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَبَى، وَقَالَ: هَذَا غُلَامٌ قُتِلَ أَبُوهُ فِي الْحَمَلَةِ الْأُولَى وَلَعَلَّ أُمَّهُ تَكَرَّهُ ذَلِكَ، قَالَ الْغُلَامُ: إِنَّ أُمِّي أَمَرْتَنِي. فَأَذِنَ لَهُ، فَمَا أَسْرَعَ أَنْ قُتِلَ، وَرُمِيَ بِرَأْسِهِ إِلَى جِهَةِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَخَذَتْهُ أُمُّهُ، وَمَسَحَتْ الدَّمَ عَنْهُ، وَضَرَبَتْ بِهِ رَجُلًا قَرِيبًا مِنْهَا، فَمَاتَ^١ وَعَادَتْ إِلَى الْمَخِيْمِ فَأَخَذَتْ عَمُودًا، وَقِيلَ سَيْفًا، وَأَنْشَأَتْ:

إِنِّي عَجُوزٌ فِي النِّسَاءِ ضَعِيفَةٌ خَاوِيَةٌ بِالْيَةِ نَحِيفَةٌ
أَضْرِبُكُمْ بِضَرْبَةٍ عَنِيفَةٍ دُونَ بَنِي فَاطِمَةَ الشَّرِيفَةِ
فَرَدَّهَا الْحُسَيْنُ إِلَى الْخِيْمَةِ بَعْدَ أَنْ أَصَابَتْ بِالْعُمُودِ رَجُلَيْنِ.^٢

الْحَبَّاجُ الْجُعْفِيُّ

وَقَاتَلَ الْحَبَّاجُ بْنُ مَسْرُوقٍ الْجُعْفِيُّ حَتَّى خُضِبَ بِالدِّمَاءِ، فَرَجَعَ إِلَى الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ:

الْيَوْمَ أَلْقَى جَدَّكَ النَّبِيَّ ثُمَّ أَبَاكَ ذَا النَّدَى عَلِيًّا
ذَلِكَ الَّذِي نَعْرِفُهُ الْوَصِيًّا

فَقَالَ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَأَنَا أَلْقَاهُمَا عَلَى أَثَرِكَ، فَرَجَعَ يَقَاتِلُ حَتَّى قُتِلَ.^٣

سَوَّارُ الْفَهْمِيِّ

وَقَاتَلَ سَوَّارُ بْنُ أَبِي جَمِيلٍ مِنْ وَلَدِ فَهْمِ بْنِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَادِمِ الْفَهْمِيِّ الْهَمْدَانِي قِتَالًا شَدِيدًا، حَتَّى ارْتَثَتْ^٤ بِالْجِرَاحِ،^٥ وَأُخِذَ أَسِيرًا، فَأَرَادَ ابْنُ سَعْدٍ قَتْلَهُ وَتَشَفَّعَ قَوْمُهُ،

١. مناقب ابن شهر آشوب، ج ٤، ص ١٠٤ ومقتل الخوارزمي، ج ٢، ص ٢٢.

٢. بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٢٨ ومقتل الخوارزمي، ج ٢، ص ٢٢.

٣. بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٢٥.

٤. الرثيث أي الجريح فيه رمق، المنجد.

٥. المقتل للمقرم، ص ٣٠٦؛ نقلًا عن الإكليل للهمداني، ج ١٠، ص ١٠٣.

وبقي عندهم جريحاً إلى أن تُوفِّي على رأس ستّة أشهر.^١
وفي زيارة مأثورة للشهداء: «السلام على الجريح المأسور سوار بن أبي جيمير
الفهمي الهمداني وعلى المُرْتَضُ معهُ عمرو بن عبد الله الجندعي».^٢

سُويد بن عمرو

ولمّا أُتِخِنَ بالجراح سُويد بن عمرو بن أبي المطاع سقط لوجهه، وظنَّ أنّه قُتِلَ، فلَمّا
قُتِلَ الحسين، وسمعهم يقولون قُتِلَ الحسين، أخرج سكينته كانت معه، فقاتل بها،
وتعطفوا عليه فقتلوه، وكان آخر من قُتِلَ من الأصحاب بعد الحسين عليه السلام.^٣

١. المقتل للمقرم، ص ٣٠٧؛ نقلاً عن الحقائق الوردية - مخطوط -.

٢. بحار الأنوار، ج ١٠١، ص ٢٧٣.

٣. تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٣٤ و ٣٣٥.

الناص

□ كان عمر بن سعد حريصاً على كسب رضى ابن زياد وقد تمثّل حرصه في مبادرته لقتال الحسين عليه السلام. بينما كان أصحاب الحسين عليه السلام حريصين على كسب رضى ربهم المتمثل في الدفاع عن ابن بنت نبيهم وإمامهم وسيدهم المنصوب للقيادة من قبل خالقهم.

□ و من هنا نلاحظ اختلاف المواقف بين المعسكرين تبعاً لاختلاف الرؤى والأهداف والمقاصد، كما نستطيع أن نفسر مدى التباين والتنافر بين الخطيئتين في الخطب والشعارات التي عبّرت عن ولاءين متميزين إذ كان لكلّ ولاء مواقف المنسجمة مع طبيعته وأصوله.

□ و حينما نقارن بين أخلاقيّة شخصيّات المعسكرين ومنفردات سلوكهم نجد farkاً واضحاً وامتيازاً واسعاً باتّساع الهوة الحقيقيّة بين الحق والباطل، أو باتّساع الهوة بين الهدى والضلال.

الأسئلة

- ١ . كيف نشب القتال بين معسكر الحسين عليه السلام ومعسكر ابن سعد؟
- ٢ . من هي أمّ وهب وما هو موقفها يوم عاشوراء؟
- ٣ . ما هي وصيّة مسلم بن عوسجة إلى حبيب؟
- ٤ . لماذا كان شيث بن ربعي كارهاً لقتال الحسين عليه السلام؟
- ٥ . من هو أبو الشعثاء الكندي وماذا كان موقفه؟
- ٦ . من هو أبو ثمامة الصائدي؟ وماذا قال للحسين عليه السلام وقت الزوال؟
- ٧ . كيف استشهد سعيد بن عبد الله الحنفي؟
- ٨ . اذكر الصور البطوليّة لبعض أصحاب الحسين عليه السلام يوم عاشوراء.

جهاد بني هاشم واستشهادهم

شِبْلُ الْحُسَيْنِ الْأَكْبَرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

ولمّا لم يَبْقَ مع الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا أَهْلُ بَيْتِهِ، عَزَمُوا عَلَى مَلَاقَاةِ الْحُتُوفِ، بِبَاسٍ شَدِيدٍ، وَحِفَاطٍ مُرٍّ، وَنَفُوسٍ أَبْيَّةٍ، وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ يُوَدِّعُ بَعْضًا.^١
وَأَوَّلُ مَنْ تَقَدَّمَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ الْأَكْبَرِ، وَعَمْرُهُ سَبْعٌ وَعَشْرُونَ سَنَةً،^٢ وَكَانَ مَرَاةَ الْجَمَالِ النَّبَوِيِّ، وَمِثَالِ خُلُقِهِ السَّامِيِّ، فَاسْتَأْذَنَ أَبَاهُ، وَبَرَزَ مُرْتَجِزاً مَعْرِفَاً بِنَفْسِهِ الْقُدْسِيَّةِ وَغَايَتِهِ السَّامِيَّةِ قَائِلاً:

أَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ نَحْنُ وَرَبُّ الْبَيْتِ أَوْلَى بِالنَّبِيِّ
تَاللَّهِ لَا يَحْكُمُ فِينَا ابْنُ الدَّعْيِ أَضْرِبُ بِالسَّيْفِ أَحَامِي عَنْ أَبِي
ضَرَبَ غُلَامٍ هَاشِمِيٍّ قُرْشِيٍّ^٣

ولم يَتِمَّاكَ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ دُونَ أَنْ أَزْخَى عَيْنِيهِ بِالْذَّمِّوعِ،^٤ وَصَاحَ بِعَمْرِ بْنِ سَعْدٍ:

١. مقتل الخوارج، ج ٢، ص ٢٦؛ ومثير الأحرار لابن نما، ص ٦٨.

٢. ولد علي الأكبر في الحادي عشر من شعبان سنة ثلاث وثلاثين من الهجرة، ذكره المقرئ في مقتل، ص ٣٠٩؛ نقلاً عن أنيس الشيعة - مخطوط -.

٣. الإرشاد للمفيد، ص ٢٣٨.

٤. مثير الأحرار لابن نما، ص ٦٨.

مَالِك؟ قَطَعَ اللَّهُ رَحِمَكَ كَمَا قَطَعْتَ رَحِمِي، وَلَمْ تَحْفَظْ قَرَابَتِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَسَلَّطَ عَلَيْكَ مَنْ يَذْبَحُكَ عَلَى فِرَاشِكَ.^١

ثُمَّ رَفَعَ شَيْبَتَهُ الْمَقْدَسَةَ نَحْوَ السَّمَاءِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيَّ هَؤُلَاءِ، فَقَدْ بَرَزَ إِلَيْهِمْ أَشْبَهُ النَّاسِ بِرَسُولِكَ مُحَمَّدٍ خَلْقًا وَمَنْطِقًا،^٢ وَكُنَّا إِذَا اشْتَقْنَا إِلَى رُؤْيَةِ نَبِيِّكَ نَظَرْنَا إِلَيْهِ، اللَّهُمَّ فَاثْمَنَهُمْ بِرَكَاتِ الْأَرْضِ، وَفَرَّقَهُمْ تَفْرِيقًا، وَمَزَقَهُمْ تَمْزِيقًا، وَاجْعَلْهُمْ طَرَائِقَ قِدَادًا،^٣ وَلَا تُرْضِ الْوَلَاةَ عَنْهُمْ أَبَدًا، فَإِنَّهُمْ دَعَوْنَا لِيَنْصُرُونَا ثُمَّ عَدَاوَا عَلَيْنَا يَقَاتِلُونَنَا، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ، ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».^٤

فَلَمْ يَزَلْ يَقَاتِلُ حَتَّى ضَجَّ أَهْلُ الْكُوفَةِ لِكثْرَةِ مَنْ قَتَلَ مِنْهُمْ،^٥ فَلَمْ يَقَابِلْهُ جَحْفَلٌ إِلَّا رَدَّهُ، وَلَا بَرَزَ إِلَيْهِ شَجَاعٌ إِلَّا قَتَلَهُ.

فَقَتَلَ مِائَةَ وَعِشْرِينَ فَارِسًا، وَقَدْ اشْتَدَّ بِهِ الْعَطَشُ، فَرَجَعَ إِلَى أَبِيهِ يَسْتَرِيحُ، وَيَذْكُرُ مَا أَجْهَدَهُ مِنَ الْعَطَشِ، فَبَكَى الْحُسَيْنَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالَ: وَاعُوْنَاهُ! مَا أَسْرَعَ الْمُلتَقَى بِجَدِّكَ، فَيَسْقِيكَ بِكَأْسِهِ شَرِبَةً لَا تَظْمَأُ بَعْدَهَا! وَأَخَذَ لِسَانَهُ فَمَضَّه، وَدَفَعَ إِلَيْهِ خَاتَمَهُ لِيَضَعَهُ فِيهِ.^٦

وَرَجَعَ «عَلِيٌّ» إِلَى الْمِيدَانِ مُبْتَهَجًا بِالْبِشَارَةِ الصَادِرَةِ مِنَ الْإِمَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمِلَاقَاةِ جَدِّهِ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَزَحَفَ فِيهِمْ رَحْفَةً الْعُلُويِّ السَّابِقِ، وَعَبَّرَ وَجْهَهُ الْقَوْمِ، وَلَمْ يَشْعُرُوا أَنَّهُ «الْأَكْبَرُ» يَطْرُدُ الْجَمَاهِيرَ مِنْ أَعْدَائِهِ أَمْ أَنَّ «الْوَصِيَّ» عَلَيْهِ السَّلَامُ يَزَارُ^٧

١. مقتل الخوارزمي، ج ٢، ص ٣٠.

٢. مثير الأحران لابن نما، ص ٦٨؛ واللّهوف على قتلى الطفوف، ص ٤٩ ومقتل الخوارزمي، ج ٢، ص ٣٠.

٣. طرائق قِداد أي فرقا مختلفة الأهواء، المنجد.

٤. آل عمران / ٣٣ و ٣٤.

٥. مقتل الخوارزمي، ج ٢، ص ٣٠.

٦. مقتل الخوارزمي، ج ٢، ص ٣١؛ ومقتل العوالم، ص ٩٥.

٧. زار الأسد أي صات من صدره، المنجد.

في الميدان؟، أم أن الصَّوَاعِقَ تَتْرَى في يريقي سَيْفِهِ؟^١
 فأكثرَ القتلى في أهل الكوفة حتَّى أَكْمَلَ الماتنين،^٢ فقال مُرَّةُ بْنُ مُنْقِذِ الْعَبْدِي^٣ عليَّ
 أَنَاُمُ العرب إن لَمْ أَتُكَلَّ أَبَاهُ بِهِ،^٤ فَطَعَنَهُ بِالرُّمَحِ فِي ظَهْرِهِ،^٥ وَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ عَلَى رَأْسِهِ،
 فَفَلَقَ هَامَتَهُ، وَاعْتَنَقَ فَرْسَهُ فَاحْتَمَلَهُ إِلَى مَعْسَكَرِ الْأَعْدَاءِ، وَأَحَاطُوا بِهِ حَتَّى قَطَعُوهُ
 بِسُيُوفِهِمْ إِرْبَاءً إِرْبَاءً.^٦

ونادى رافعاً صوته: عليك مِنِّي السَّلامُ أبا عبد الله،^٧ هذا جَدِّي قد سَقَانِي بِكَأْسِهِ
 شَرِبَةً لَا أَظْمَأُ بَعْدَهَا، وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّ لَكَ كَأْساً مَذْخُورَةً.^٨
 فَأَتَاهُ الْحُسَيْنُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وَانْكَبَّ عَلَيْهِ وَاضِعاً خَدَّهُ عَلَى خَدِّهِ،^٩ وَهُوَ يَقُولُ: عَلَى الدُّنْيَا
 بَعْدُكَ الْعَفَا،^{١٠} مَا أَجْرَاهُمْ عَلَى الرَّحْمَنِ وَعَلَى انْتِهَاكِ حُرْمَةِ الرَّسُولِ، يَعْزُّ عَلَى جَدِّكَ
 وَأَبِيكَ أَنْ تَدْعُوهُمْ فَلَا يُجِيبُونَكَ، وَتَسْتَغِيثُ بِهِمْ فَلَا يَغِيثُونَكَ.^{١١}
 وَأَمْرُ فَتْيَانِهِ أَنْ يَحْمِلُوهُ إِلَى الْخِيْمَةِ، فَجَاؤُوا بِهِ إِلَى الْفَسْطَاطِ الَّذِي يَقَاتِلُونَ أَمَامَهُ.^{١٢}

١. المقتل للمقرم، ص ٣١٣.

٢. مقتل الخوارزمي، ج ٢، ص ٣١.

٣. الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٧٤ والأخبار الطوال، ص ٢٥٦.

٤. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٣١ ومناقب ابن شهر آشوب، ج ٤، ص ١٠٩.

٥. مقتل الخوارزمي، ج ٢، ص ٣١ ومقتل العوالم، ص ٩٥.

٦. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٣١.

٧. المقتل للمقرم، ص ٣١٤؛ تَقْلَأُ عَنْ رِيَاضِ الْمَصَانِبِ.

٨. مقتل الخوارزمي، ج ٢، ص ٣١ ومقتل العوالم، ص ٩٥.

٩. اللهوف على قتلى الطفوف، ص ٤٩.

١٠. الغفاء مصدر بمعنى التراب، المطر، دروس الديار، الهلاك، المنجد.

١١. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٣١.

١٢. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٣١ والإرشاد للمفيد، ص ٢٣٩ والمقتل للخوارزمي، ج ٢، ص ٣١.

عبدالله بن مسلم بن عقيل

وخرج من بعده عبدالله بن مسلم بن عقيل بن أبي طالب، وأمه رقية الكبرى بنت أمير المؤمنين عليه السلام^١ وهو يقول:

اليوم ألقى مسلماً وهو أبي وعصبة بادوا على دين النبي
فقتل جماعةً بثلاث حملات^٢، ورماء يزيد بن الرقاد الجهني، فاتقاه بيده فسرها
إلى جبهته^٣ فما استطاع أن يزيلها عن جبهته^٤، فقال: اللهم إنهم استقلونا واستذلونا،
فاقتلهم كما قتلونا، وبيننا هو على هذا إذ حمل عليه رجلٌ برمحه فطعنهُ في قلبه،
ومات^٥.

فجاء إليه يزيد بن الرقاد وأخرج سهمه من جبهته، وبقي النصل^٦ فيها وهو ميت^٧.

حملة آل أبي طالب

ولما قُتل عبدالله بن مسلم حمل آل أبي طالب حنلة واحدة، فصاح بهم
الحسين عليه السلام: صبراً على الموت يا بني عموتي، والله لا رأيتم هواناً بعد هذا اليوم^٨،
فوقع فيهم عون بن عبدالله بن جعفر الطيار، وأمه العقيلة زينب، وأخوه محمد، وأمه
الخصاء، وعبد الرحمن بن عقيل بن أبي طالب، وأخوه جعفر بن عقيل، ومحمد بن

١. المقتل للمقرم، ص ٣١٧؛ نقلاً عن نسب قريش لمصعب الزبيري، ص ٤٥.

٢. مناقب ابن شهر آشوب، ج ٤، ص ١٠٥.

٣. سر الباب وغيره أي شذه بالمسمار، المنجد. والمعنى ألصق يده بجبهته.

٤. مقاتل الطالبين، ص ٦٢.

٥. الإرشاد للمفيد، ص ٢٣٩ وجاء في تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٣١؛ أن غرو بن صبيح الصدائي رماه بسهم ورماء بآخر ففلق قلبه.

٦. النصل: حديدة الرمح والسهم والسكين، المنجد.

٧. المقتل للمقرم، ص ٣١٨؛ نقلاً عن تاريخ الطبري.

٨. المقتل للخوارزمي، ج ٢، ص ٢٨.

مسلم بن عقيل.

وأصابته الحسنة المثنى ابن الإمام الحسن السبط عليه السلام ثمانى عشرة جراحة، وقطعت يده اليمنى، ولم يستشهد.

وخرج أبو بكر بن أمير المؤمنين عليه السلام، واسمه محمد، قتله زحر بن بدر النخعي.^١
وخرج عبدالله بن عقيل، فما زال يضرب فيهم حتى أُنخن بالجراح، وسقط إلى الأرض، فجاء إليه عثمان بن خالد التميمي فقتله.^٢
وخرج أبو بكر بن الحسن بن أمير المؤمنين عليه السلام، وهو عبدالله الأكبر، وأمّه أم ولد يقال لها رملّة، فقاتل حتى قُتل.^٣

القاسم بن الحسن المجتبى عليه السلام

وخرج من بعده أخوه لأُمّه وأبيه القاسم، وهو غلام لم يبلغ الحلم، فلما نظر إليه الحسين عليه السلام اعتنقه وبكى،^٤ ثم أذن له، فبرز كأن وجهه شقّة قمري، وبيده السيف، وعليه قميص وإزار، وفي رجله نعلان، فمشى يضرب بسيفه، فانقطع شنع^٥ نعله اليسرى، فوقف يشدّ شنع نعله.

وبينا هو على هذا إذ شدّ عليه عمرو بن سعد بن نفيل الأزدي، فقال له حميد ابن مسلم: وما تريد من هذا الغلام؟ يكفيك هؤلاء الذين تراهم احتوشوه،^٦ فقال: واللّه لأشدنّ عليه، فما ولّى حتى ضرب رأسه بالسيف، فوقع الغلام لوجهه، فقال: يا عمّاه،

١. مناقب ابن شهر آشوب، ج ٤، ص ١٠٧ ومقتل الخوارزمي، ج ٢، ص ٢٨.

٢. مناقب ابن شهر آشوب، ج ٤، ص ١٠٦.

٣. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٤٣ وفيه أن قاتله هو عبدالله بن عقبة الغنوي.

٤. مقتل الخوارزمي، ج ٢، ص ٢٧.

٥. الشيع - بكسر الشين المعجمة وسكون السين المهملة - زمام للنمل بين الإصبع الوسطى والّتي تليها، المنجد.

٦. احتوش القوم الرجل أي أحذقوا به وجعلوه في وسطهم، المنجد.

فأتاه الحسين كالليث الغضبان، فضرب عمرواً بالسيف فاتّاه بالسّاعد فأطنّها من اليرفق، فصاح صيحةً عظيمةً سمعها العسكر، فَحَمَلَتْ خيلُ ابنِ سعدٍ لتستنقذه فاستقبلته بصدورها، ووطأته بحوافرها، فمات.

وانجلت الغبرة وإذا الحسين عليه السلام قائمٌ على رأس الغلام، وهو يفحصُ برجلَيْه، والحسين يقول: بعداً لقومٍ قتلوك، خصمهم يوم القيامة جدّك.

ثم قال: عزّ والله على عمّك أن تدعوه فلا يُجيبك، أو يُجيبك ثم لا ينفعك، صوتٌ والله كثرَ وإتره، وقلّ ناصره، ثم احتمله وكان صدره على صدر الحسين عليه السلام، ورجلاه يخطآن في الأرض، فألقاه مع عليّ الأكبر وقتلنِ حوله من أهل بيته،^١ ورفع طرّفه إلى السماء وقال: اللهم أحصهم عدداً، ولا تُغادر منهم أحداً، ولا تُغفر لهم أبداً، صبراً يا بني عموتي، صبراً يا أهل بيتي، لا رأيتم هواناً بعد هذا اليوم أبداً.^٢

أخوة العباس

ولمّا رأى العباس عليه السلام كثرةَ القتلِ من أهله؛ قال لإخوانه من أمّه وأبيه عبد الله وعثمان وجعفر: تقدّموا يا بني أمي حتّى أراكم نصّحتم لله ولرسوله، والتفت إلى عبد الله، وكان أكبر من عثمان وجعفر، وقال: تقدّم يا أخي حتّى أراك قتيلاً وأحتسبك،^٣ فقاتلوا بين يدي أبي الفضل حتّى قُتلوا بأجمعهم.

العباس بن أمير المؤمنين عليه السلام

ولم يستطع العباس صبراً على البقاء، بعد أن فنى صحبه وأهل بيته، وهو يرى

١. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٣١ ومقتل الخوارزمي، ج ٢، ص ٢٧ والإرشاد للمفيد، ص ٢٣٩.

٢. مقتل الخوارزمي، ج ٢، ص ٢٨.

٣. مقاتل الطالبين، ص ٥٤.

«حجّة الوقت» مكثوراً^١ قد انقطع عنه المدد، وملأ مسامعَه عويلُ النساء، وصراخُ الأطفال من العطش، فطلّب من أخيه الرخصة.

ولما كان العباس عليه السلام أنفَسَ الذخائر عند السبّط الشهيد عليه السلام لأنّ الأعداء تحذّروا صولته وترهب إقدامه، والحرّم مطمئنّة بوجوده مهما تنظّر اللّواء مرفوعاً، فلم تسمح نفس «أبيّ الضيم» القدسيّة بمفارقته،^٢ فقال له الحسين عليه السلام: يا أخي «أنت صاحب لوائي».

فقال العباس عليه السلام: قد ضاق صدري من هؤلاء المنافقين، وأريد أن آخذ ثأري منهم،^٣ فأمره الحسين عليه السلام أن يطلب الماء للأطفال، فذهب العباس إلى القوم، ووعظهم وحذّره غضب الجبار، فلم ينفع، فنادى بصوت عالٍ: يا عمر بن سعد! هذا الحسين ابن بنت رسول الله قتلتم أصحابه وأهل بيته، وهؤلاء عياله وأولاده عطاشى، فاسقوهم من الماء، قد أحرقت الظمأ قلوبهم، وهو مع ذلك يقول: دعوني أذهب إلى الرّوم أو الهند، وأخلي لكم الحجاز والعراق.

فأثر كلامه في نفوس القوم، حتّى بكى بعضهم، ولكنّ الشّرّ صاح بأعلى صوته: يا ابن أبي تراب لو كان وجه الأرض كلّ ماء وهو تحت أيدينا لما سقيناكم منه قطرة، إلّا أن تدخلوا في بيعة يزيد.

فرجع إلى أخيه يخبره، فسمع الأطفال يتصارخون من العطش.^٤ ثمّ ركب جواده وأخذ القربة، فأحاط به أربعة آلاف، ورموه بالتبال،^٥ فلم تزعجه كثرتهم، وأخذ يطرد أولئك الجماهير وحده، ولواء الحمد يرفّ على رأسه، ولم يشعر

١. المكثور أي المغلوب، وهو الذي كثر عليه الناس فقهره، المنجد.

٢. المقتل للمقرم، ص ٣٢٤.

٣. بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٤١.

٤. المقتل للمقرم، ص ٣٢٤؛ تقيلاً عن ظلم الزهراء، ص ١١٨.

٥. بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٤١.

القوم أهو العباس يجدلُّ الأبطال؟ أم أن الوصي يزأُر في الميدان؟ فلم تثبت له الرجال ونزل إلى الفرات مطمئناً غير مبالٍ بذلك الجمع.^١

ولمّا اغترف من الماء ليشرب تذكّر عطش الحسين ومن معه، فرمى الماء وقال:

يا نفس من بعد الحسين هوني وبعده لا كنت أن تكوني
هذا الحسين واردُ المنون وتشربين بارداً الميعين

تالله ما هذا فعلاً ديني^٢

ثمّ ملأ القربة، وركب جواده، وتوجّه نحو المخيم، فقطع عليه الطريق، وجعل يضرب، حتّى أكثر القتل فيهم، وكشفهم عن الطريق وهو يقول:

لا أرهب الموت إذا الموت رَقَا^٣ حتّى أوارى في المصاليث^٤ لِقَى
نفسي لِسِبْطِ المصطفى الطهرِ وقى إنّي أنا العباس أغدوا بالسقا

ولا أخاف الشرّ يوم الملتقى

فكمن له زيد بن الرقاد الجهني من وراء نخلة، وعاونوه حكيم بن الطفيل السبسي فضربه على يمينه فبرأها، فقال **عائلاً** :

والله إن قطعتُ يميني إنّي أحامي أبداً عن ديني

وعن إمام صادق اليقين نجل النبي الطاهر الأمين^٥

فلم يعبأ بيمينه بعد أن كان همّه إيصال الماء إلى أطفال الحسين وعياله،^٦ ولكنّ

١. المقتل للمقرم، ص ٣٢٥.

٢. المقتل للمقرم، ص ٢٢٥؛ نقلاً عن رياض المصائب، ص ١١٩.

٣. رَقَا بمعنى صاح، المنجد.

٤. يقال «هو من مصاليت الرجال» أي من شجعانهم الماضين في الحوارج، المنجد.

٥. المناقب لابن شهر آشوب، ج ٤، ص ١٠٨.

٦. المقتل للمقرم، ص ٣٢٧.

حكيم بن الطفيل كَمَنَ له من وراء نخلة، فلَمَّا مرَّ به ضربَه على شماله فقطعها،^١ وتكاثروا عليه، وأتته السهام كالطر، فأصاب القربة سهمٌ وأريق ماؤها، وسهمٌ أصاب صدره،^٢ وضربه رجلٌ بالعمود على رأسه، ففلَقَ هامَتَه.^٣

وسقطَ على الأرض ينادي: عليك مِنِّي السلام أبا عبد الله، فأناه الحسين عليه السلام، فرآه على تلك الحالة، نادى: الآن انكسر ظهري وقُلْتُ حيلتي.^٤

ورجعَ الحسين عليه السلام إلى المخيم منكِسراً حزيناً باكياً، يُكَفِّفُ دُمُوعَهُ بِكُمِّهِ،^٥ فأتته سكينَةٌ وسألته عن عَمِّها فأخبرها بقتله، وسمعته زينب فصاحت: وأخاه، وعباساه، واضعيتنا بعدك! وبكينَ النسوة وبكى الحسين معهنَّ، وقال: واضيعتنا بعدك!^٦

ولمَّا قُتِلَ العباس عليه السلام التفت الحسين عليه السلام فلم يرَ أحداً ينصره، ونظر إلى أهله وصحبه مجزَّرين كالأضاحي، وهو إذ ذاك يسمعُ عويلَ الأيامي وصُراخَ الأطفالِ، صاح بأعلا صوته: هل من ذابٍّ عن حُرْمِ رسولِ الله؟ هل من موحِدٍ يخافُ اللهَ فينا؟ هل من مُغيثٍ يرجو اللهَ في إغاثتينا؟ فارتفعت أصواتُ النساء بالبكاء.^٧

ونهض السجّاد يتوكأ على عصا ويجرُّ سيفه، لأنّه مريض لا يستطيع الحركة، فصاح الحسين بأَمِّ كلثوم: إحبسيه لئلا تخلو الأرض من نسل آلِ محمّدٍ، فأرجعته إلى فراشه.^٨ ثمّ إنّه عليه السلام أمر عياله بالسكوت وودّعهم،^٩ وكان عليه جُبَّةٌ خزٌ دكناء،^{١٠} وِعِمَامَةٌ

١. المناقب لابن شهر آشوب، ج ٤، ص ١٠٨.

٢. بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٤٢.

٣. المنتخب للطريحي، ص ٣١٤.

٤. بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٤٢ وظلم الزهراء، ص ١٢٠.

٥. الكُم - بضم الكاف - بمعنى مدخل اليد ومخرجه من الثوب، المنجد.

٦. المقتل للمقرم، ص ٢٢٨.

٧. اللهوف على قتلى الطفوف، ص ١١٦.

٨. الخصائص الحسينية، ص ١٨٨.

٩. المقتل للمقرم، ص ٣٣٠.

موردة، أرخى لها ذوابتين، والتحف ببردة رسول الله صلى الله عليه وآله، وتقلد بسيفه.^{١١}

وطلب ثوباً لا يرغب فيه أحد، يضعه تحت ثيابه، لئلا يجرد منه، فإنه مقتول مسلوب، فأتوه بتيان، فلم يرغب فيه، لأنه من لباس الذلة، وأخذ ثوباً خلقاً وخرقة، وجعله تحت ثيابه، ودعا سراويل من حبرة ففرها^{١٢} ولبسها، لئلا يسلبها.^{١٣}

مقتل عبدالله الرضيع

ودعا بولده الرضيع يودعه، فأتته زينب بابه عبدالله، وأمه الرباب، فأجلسه في حجره يقبله، ويقول: بعداً لهؤلاء القوم إذا كان جدك المصطفى خصمهم، ثم أتى به نحو القوم يطلب له الماء، فرماه حرملة بن كاهل الأسدي بسهم فذبحه، فتلقى الحسين الدم بكفه، ورمى به نحو السماء.

قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: فلم تسقط منه قطرة،^{١٤} وفيه يقول حجة آل محمد عجل الله فرجه: السلام على عبدالله الرضيع الرمي الصريع المتشحط دماً والمصد بدمه إلى السماء، المذبوح بالسهم في حجر أبيه، لعن الله راميته حرملة بن كاهل الأسدي وذويه.^{١٥}

ثم قال الحسين عليه السلام: هَوَّنَ ما نَزَلَ بي أَنَّهُ بعين الله تعالى،^{١٦} اللهم لا يكون أهونَ

١٠. فروغ الكافي، ج ٦، ص ٤٥٢ و«دكتاء» - من دَكَنَ يَدْكُنْ دَكْنًا - بمعنى مال لونه إلى السواد، المنجد.

١١. المقتل للمقرم، ص ٣٣٠؛ نقلاً عن المنتخب للطريحي، ص ٣١٥.

١٢. فَرَزَ بمعنى شقّه، المنجد. والمعنى أوجد فيها ثقباً لئلا يرغب فيها أحد.

١٣. اللهوف على قتل الطفوف، ص ١٢٣ والمناقب لابن شهر آشوب، ج ٤، ص ١٠٩.

١٤. اللهوف على قتل الطفوف، ص ١١٧.

١٥. بحار الأنوار، ج ١٠١، ص ٢٧٠.

١٦. اللهوف على قتل الطفوف، ص ١١٧.

عليك من فضيل ناقة صالح، إلهي إن كنت حَبَسْتَ عَنَّا النصر فاجعله لِمَا هو خيرٌ منه،
وانتقم لنا من الظالمين،^١ واجعل ما حلَّ بنا في العاجِلِ دَخيرَةً لنا في الآجِلِ،^٢ اللَّهُمَّ أَنْتَ
الشاهدُ على قومٍ قتلوا أشبه الناس برسولك محمدَ صَلَّى الله عليه وآله.^٣

وَسَمِعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِلًا يَقُولُ: دَعَا يَا حُسَيْنُ! فَإِنَّ لَهُ مَرَضِعًا فِي الْجَنَّةِ.^٤
ثُمَّ نَزَلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ فَرَسِهِ وَحَفَرَ لَهُ بِجَفْنِ سَيْفِهِ وَدَفَنَهُ مَرْتَلًا بِدَمِهِ، وَصَلَّى عَلَيْهِ، وَيُقَالُ
وَضَعَهُ مَعَ قَتْلَى أَهْلِ بَيْتِهِ.^٥

وَتَقَدَّمَ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَحْوَ الْقَوْمِ مُصَلِّيًا سَيْفَهُ آيِسًا مِنَ الْحَيَاةِ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْبِرَازِ،
فَلَمْ يَزَلْ يَقْتُلُ كُلَّ مَنْ بَرَزَ إِلَيْهِ، حَتَّى قَتَلَ جَمْعًا كَثِيرًا، ثُمَّ حَمَلَ عَلَى الْمِيْمَنَةِ وَهُوَ يَقُولُ:
الْمَوْتُ أَوْلَى مِنْ رُكُوبِ الْعَارِ وَالعَارُ أَوْلَى مِنْ دُخُولِ النَّارِ^٦
وَحَمَلَ عَلَى الْمَيْسِرَةِ وَهُوَ يَقُولُ:

أَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ
أَحْمِي عِيَالَاتِ أَبِي
آلَيْتُ أَنْ لَا أَتُثْنِي
أَمْضِي عَلَى دِينِ النَّبِيِّ^٧

قال عبد الله بن عمار بن يغوث: ما رأيتُ مكشوراً^٨ قطُّ قد قُتِلَ وَلَدُهُ وَأَهْلُ بَيْتِهِ
وصحبه أربط جأشاً منه، ولا أَمْضَى جَنَاناً ولا أَجْرأ مَقْدِماً، ولقد كانت الرجال تنكشِفُ
بين يديه إذا شَدَّ فيها، ولم يثبت له أحدٌ.^٩

١. مثير الأحزان لابن نما، ص ٧٠.

٢. المقتل للمقرم، ص ٣٣٣؛ تَقْلًا عَنْ ظُلْمِ الزَّهْرَاءِ، ص ١٢٢.

٣. المقتل للمقرم، ص ٣٣٣؛ تَقْلًا عَنْ الْمُتَنَجِّبِ لِلطَّرِيجِيِّ، ص ٣١٣.

٤. المقتل للمقرم، ص ٣٣٣؛ تَقْلًا عَنْ تَذَكُّرَةِ الْخَوَاصِ، ص ١٤٤ والقمقام لميرزا فراهاد، ص ٣٨٥.

٥. الإرشاد للمفيد، ص ٢٤٠ ومثير الأحزان لابن نما، ص ٧٠.

٦. مثير الأحزان لابن نما، ص ٧٢.

٧. المناقب لابن شهر آشوب، ج ٤، ص ١١٠.

٨. المكشور أي المخلوب، وهو الذي كثر عليه الناس فقهروه، المنجد.

٩. مثير الأحزان لابن نما، ص ٧٢.

فصاح عمر بن سعد بالجمع: هذا ابن الأنزع البطين، هذا ابن قتال العرب، إحملوا عليه من كل جانب^١ فأنته أربعة آلاف نَبْلَة، وحال الرجاله بينه وبين رجليه، فصاح بهم: يا شيعة آل أبي سفيان إن لم يكن لكم دين، وكنتم لاتخافون المعاد فكونوا أحراراً في دنياكم، وارجعوا إلى أحسابكم إن كُنتُم غرباً كما ترعمون. فناداه الشمر: ما تقول يا ابن فاطمة؟ قال: أنا الذي أَقَاتِلُكُمْ والنساء ليس عليهن جناح، فامنعوا عُنَاتِكُمْ عن التَّعَرُّضِ لِحُرْمِي ما دمتُ حيّاً. قال اقصدوني بنفسي واتركوا حُرْمِي قد حانَ حيني وقد لاحَت^٢ لوائحه فقال الشمر: لك ذلك.^٣

وَقَصَدَهُ القَوْمُ، واشتدَّ القتالُ، وقد اشتدَّ به العطش، فحملَ من نحو الفُرات على عمرو بن الحجاج، وكان في أربعة آلاف، فكشَفَهُم عن الماء وأقحَمَ^٤ الفرس الماء، فلما همَّ الفَرَسُ ليشرب، قال الحسين: أنت عطشانٌ وأنا عطشانٌ، فلا أشرب حتَّى تشرب، فرَفَعَ الفَرَسُ رأسه كأنه فهمَ الكلام، ولما مدَّ الحسين يده ليشرب ناداه رجل ألتذُّ بالماء وقد هَتِكْتَ حَرَمُكَ؟ فَرَمَى الماء ولم يشرب، وقَصَدَ الخيمة.^٥

الحسين السبط يودّع عياله

ثُمَّ إِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَدَّعَ عِيَالَهُ ثَانِيًا، وَأَمَرَهُم بِالصَّبْرِ وَلَبْسِ الْأَزْرِ^٦، وَقَالَ: إِسْتَعِدُّوا لِلْبَلَاءِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَامِيكُمْ وَحَافِظَكُمْ، وَسَيَنْجِيكُمْ مِنْ شَرِّ الْأَعْدَاءِ، وَيَجْعَلُ عَاقِبَةَ

١. المناقب لابن شهر آشوب، ج ٤، ص ١١٠.

٢. لاح بمعنى بدا وظهر، المنجد.

٣. مقتل الخوارزمي، ج ٢، ص ٣٣.

٤. أقحم فرسه النهر أي أدخله بنصف فيه، المنجد.

٥. بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٥١.

٦. الأزر - بضم الهمزة والزاي - بمعنى العفاف، المنجد.

أمركم إلى خيرٍ، ويعذب عدوكم بأنواع العذاب، ويعوّضكم عن هذه البليّة بأنواع النعم والكرامة، فلا تشكوا ولا تقولوا بألستكم ما ينقص من قدركم.^١

والتفت الحسين عليه السلام إلى ابنته سكينه التي يصفها الحسن المثنى: «بأنّ الإستغراق مع الله غالبٌ عليها»، فأراها منحازةً عن النساء، باكيةً ناديةً، فوقف عليها مصبراً ومُسلياً.^٢

فقال عمر بن سعد: ويحكم إهجموا عليه ما دام مشغولاً بنفسه وحُرِّمه، والله إن فرغ لكم لا تمتاز ميمنتكم عن ميسرتكم، فحملوا عليه يرمونه بالسهم حتّى تخالفت السهام بين أطناب المخيم، وشكّ سهمٌ بعض أزرّ النساء، فذهشنَ وأزعبنَ وصحَنَ ودخلن الخيمَةَ ينظرنَ إلى الحسين كيف يصنع؟ فحملَ عليهم كاللّيث الغضبان، فلا يلحقُ أحداً إلاّ بمجّه بسيفه فقتله، والسهام تأخذه من كلّ ناحية، وهو يتقيها بصدّره ونحره.^٣

ورجع إلى مركزه يكثرُ من قول: لا حول ولا قوّة إلاّ باللّهِ العليّ العظيم،^٤ وطلّب في هذا الحال ماءً، فقال الشمر: لا تذوقه حتّى ترِدَ النار.

وناداه رجلٌ: يا حسين ألا ترى الفرات كأنّه بطونُ الحيّات؟ فلا تشرب منه حتّى تموت عطشاً، فقال الحسين عليه السلام: اللّهُمّ أُمِّتْهُ عطشاً، فكان ذلك الرجل يطلبُ الماء فيؤتى به فيشربُ حتّى يخرج من فيه، وما زال كذلك إلى أن مات عطشاً.^٥

ورماه أبو الحُتوف الجعفي بسهمٍ في جبهته فنزعه، وسالت الدماء على وجهه، فقال:

١. المقتل للمقرم، ص ٣٣٧؛ نقلاً عن جلاء العيون للعلامة المجلسي بالفارسيّة.

٢. استغرق الغاية أي بمعنى جاوزها، المنجد. والمعنى أنّها منهمكة في التوجّه إلى الله ومستغرقة في عبادته.

٣. المقتل للمقرم، ص ٣٣٨.

٤. مثير الأحزان للجواهرى، ص ٨٦.

٥. اللهوف على قتلى الطفوف، ص ٧٨.

٦. مقاتل الطالبين، ص ٣٤.

اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَرَى مَا أَنَا فِيهِ مِنْ عِبَادِكَ هَؤُلَاءِ الْعُصَاةُ، اللَّهُمَّ احْصِهِمْ عِدْدًا، وَاقْتُلْهُمْ بَدَدًا، وَلَا تَذَرْ عَلَيَّ وَجْهَ الْأَرْضِ مِنْهُمْ أَحَدًا وَلَا تَغْفِرْ لَهُمْ أَبَدًا.

وصاح بصوتٍ عالٍ: يَا أُمَّةَ السُّوءِ بِسْمَا خَلَقْتُمْ مُحَمَّدًا فِي عِثْرَتِهِ، أَمَا إِنَّكُمْ لَا تَقْتُلُونَ رَجُلًا بَعْدِي فَهَابُونَ قَتْلَهُ، بَلْ يَهُونَ عَلَيْكُمْ ذَلِكَ عِنْدَ قَتْلِكُمْ إِيَّايَ، وَأَيُّمُ اللَّهُ إِنِّي لِأَرْجُو أَنْ يَكْرِِمَنِي اللَّهُ بِالشَّهَادَةِ، ثُمَّ يَنْتَقِمُ لِي مِنْكُمْ مِنْ حَيْثُ لَا تَشْعُرُونَ.

فقال الحصين بن تميم: وبماذا ينتقم لك منا يا ابن فاطمة؟ قال: يُلْقِي بِأَسْكَمَ بَيْنَكُمْ، وَيَسْفِكُ دِمَاءَكُمْ، ثُمَّ يَصُبُّ عَلَيْكُمْ الْعَذَابَ صَبًّا.^١

ولما ضَعُفَ عَنِ الْقِتَالِ، وَقَفَ يَسْتَرِيحُ، فَرَمَاهُ رَجُلٌ بِحَجَرٍ عَلَى جَبْهَتِهِ، فَسَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ، فَأَخَذَ الثَّوبَ لِيَمْسَحَ الدَّمَ عَنْ عَيْنَيْهِ، رَمَاهُ آخَرٌ بِسَهْمٍ مُحَدِّدٍ لَهُ ثَلَاثَ شُعَبٍ وَقَعَ عَلَى قَلْبِهِ.

فقال: بِسْمِ اللَّهِ وَبِاللَّهِ وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، وَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: إِلَهِي إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَ رَجُلًا لَيْسَ عَلَيَّ وَجْهَ الْأَرْضِ ابْنُ بَنْتِ نَبِيِّ غَيْرِي.

ثُمَّ أَخْرَجَ السَّهْمَ مِنْ قَفَاهُ، وَانْبَعَثَ الدَّمُ كَالْمِيزَابِ،^٢ فَوَضَعَ يَدَهُ تَحْتَ الْجُرْحِ، فَلَمَّا امْتَلَأَتْ رُمِي بِهِ نَحْوَ السَّمَاءِ، وَقَالَ: هُوَنَّ عَلَيَّ مَا نَزَلَ بِي أَنَّهُ بَعِينُ اللَّهِ، فَلَمْ يَسْقُطْ مِنْ ذَلِكَ الدَّمِ قَطْرَةٌ إِلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ وَضَعَهَا ثَانِيًا فَلَمَّا امْتَلَأَتْ لَطَّخَ بِهِ رَأْسَهُ وَوَجْهَهُ وَلَحِيَّتَهُ، وَقَالَ: هَكَذَا أَكُونُ حَتَّى أَلْقَى اللَّهَ وَجَدِّي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَأَنَا مُخَصَّبٌ بِدَمِي، وَأَقُولُ: يَا جَدَّ قَتَلَنِي فَلَانٌ وَقُلَانُ.^٣

وَأَعْيَاهُ^٤ نَزَفَ الدَّمُ، فَجَلَسَ عَلَى الْأَرْضِ يَنْوُءُ^٥ بِرَقَبَتِهِ، فَانْتَهَى إِلَيْهِ فِي هَذَا الْحَالِ

١. مقتل الخوارزمي، ج ٢، ص ٣٤.

٢. اللهوف على قتلى الطفوف، ص ١٢٠ ومقتل الخوارزمي، ج ٢، ص ٣٤.

٣. مقتل الخوارزمي، ج ٢، ص ٣٤.

٤. الإعياء بمعنى التعب دون العجز، المنجد.

٥. ينوء أي يميل، المنجد.

مالك بن النسر فشتمه، ثم ضربه بالسيف على رأسه، وكان عليه بُرْنُسٌ^١ فامتلاً البُرْنُس دماً، فقال الحسين عليه السلام: لا أكلت بيمينك ولا شربت، وحشرك الله مع الظالمين. ثم ألقى البُرْنُس واعتَمَّ على القلنسوة.^٢

مقتل محمد بن أبي سعيد بن عقيل

قال هاني بن ثابت الحضرمي: إِنِّي لَوَاقِفُ عَاشِرِ عَشْرَةٍ لَمَّا صُرِعَ الْحُسَيْنُ عليه السلام، إِذْ نَظَرْتُ إِلَى غُلَامٍ مِنْ آلِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ إِزَارٌ وَقَمِيصٌ، وَفِي أُذُنَيْهِ ذُرَّتَانِ، وَبِيَدِهِ عَمودٌ مِنْ تِلْكَ الْأَبْنِيَةِ وَهُوَ مَذْعُورٌ يَتَلَفَّتُ يَمِيناً وَشِمَالاً، فَأَقْبَلَ رَجُلٌ يَرِكَضُ حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْهُ مَالٌ عَنْ فَرَسِهِ وَعَلَاهُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ.^٣

وذلك الغلام هو: محمد بن أبي سعيد بن عقيل بن أبي طالب،^٤ وكانت أمُّه تنظر إليه وهي مدهوشة.^٥

مقتل عبدالله بن الحسن عليه السلام

ثُمَّ إِنَّهُمْ لَبَثُوا هُنَيْئَةً، وَعَادُوا إِلَى الْحُسَيْنِ، وَأَحَاطُوا بِهِ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى الْأَرْضِ، لَا يَسْتَطِيعُ النَّهْوضَ، فَنَظَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحُسَيْنِ السَّبْطُ عليه السلام وَلَهُ إِحْدَى عَشْرَةِ سَنَةٍ إِلَى عَمِّهِ، وَقَدْ أَحْدَقَ بِهِ الْقَوْمُ، فَأَقْبَلَ يَشْتَدُّ نَحْوَ عَمِّهِ، وَأَرَادَتْ زَيْنَبُ حَبْسَهُ فَأَقْلَتْ مِنْهَا، وَجَاءَ إِلَى عَمِّهِ، وَأَهْوَى بِحُرٍّ بَنِ كَعْبٍ بِالسَّيْفِ لِيَضْرِبَ الْحُسَيْنِ، فَصَاحَ الْغُلَامُ: يَا ابْنَ الْخَبِيثَةِ!

١. البُرْنُس - بضم الباء وسكون الراء - وضم النون - كلُّ ثوب يكون غطاء الرأس جزءاً منه متصلاً به، المنجد.

٢. الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٧٥ ومقتل الخوارج، ج ٢، ص ٣٤ والقلنسوة - بفتح القاف واللام معاً وسكون

النون وضم السين وفتح الواو - نوع من ملابس الرأس وهو على هيئة متعددة، المنجد.

٣. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٣٢ والبداية لابن كثير، ج ٨٩٠، ص ١٨٦.

٤. المقتل للمقرم، ص ٣٤٢.

٥. المقتل للمقرم، ص ٣٤٢؛ نقلاً عن الخصائص الحسينية، ص ١٢٩.

أُتْرِبُ عَمِي؟ فَضْرِبُهُ وَاتَّقَاهُ الْغَلَامُ بِيَدِهِ، فَأَطْنَهَا^١ إِلَى الْجِلْدِ، فَإِذَا هِيَ مُعْلَقَةٌ، فَصَاحُ الْغَلَامُ: يَا عَمَّاهُ، وَوَقَعَ فِي جِجَرِ الْحُسَيْنِ، فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، وَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي إِصْبِرْ عَلَى مَا نَزَلَ بِكَ، وَاخْتَسِبْ فِي ذَلِكَ الْخَيْرَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُلْحِقُكَ بِآبَائِكَ الصَّالِحِينَ، وَزَفَعَ يَدَيْهِ قَائِلًا: اللَّهُمَّ إِنْ مَنَعْتَهُمْ إِلَى حِينٍ، فَفَرِّقْهُمْ تَفْرِيقًا، وَاجْعَلْهُمْ طَرَائِقَ قِدْدَاءَ، وَلَا تُرْضِ الْوَلَاةَ عَنْهُمْ أَبَدًا، فَإِنَّهُمْ دَعَوْنَا لِنَنْصُرُونَ ثُمَّ عَدَاوَا عَلَيْنَا يَقَاتِلُونَنَا.^٢

وَرَمَى الْغَلَامُ حَرْمَلَةً بَنَ كَاهِلٍ بِسَهْمٍ فَذَبَحَهُ، وَهُوَ فِي جِجَرِ عَمِّهِ.^٣
وَبَقِيَ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَلِيًّا جَالِسًا، وَلَوْ شَاؤُوا أَنْ يَقْتُلُوهُ لَفَعَلُوا، إِلَّا أَنَّ كُلَّ قَبِيلَةٍ تَنَكَّلَ عَلَى غَيْرِهَا، وَتَكَرَّهَ الْإِقْدَامَ عَلَى قَتْلِهِ.^٤

فَصَاحُ الشَّعْرُ مَا وَوَقَفَكُمْ وَمَا تَنْتَظِرُونَ بِالرَّجُلِ؟ وَقَدْ أَتَخَنَتِ السِّهَامُ وَالرِّمَاحُ، احْمَلُوا عَلَيْهِ.^٥

وَضَرَبَهُ زُرْعَةُ بْنُ شَرِيكِ عَلَى كَتِفِهِ الْأَيْسَرِ، وَرَمَاهُ الْحَصِينُ بْنُ تَمِيمٍ فِي حَلْقِهِ،^٦
وَضَرَبَهُ آخَرُ عَلَى عَاتِقِهِ، وَطَعَنَهُ سَنَانُ بْنُ أَنَسٍ فِي تَرْقُوَّتِهِ^٧ ثُمَّ فِي بَوَانِي^٨ صَدْرِهِ، ثُمَّ رَمَاهُ بِسَهْمٍ فِي نَحْرِهِ،^٩ وَطَعَنَهُ صَالِحُ بْنُ وَهَبٍ فِي جَنْبِهِ.^{١٠}

١. أَطْنَهَا بِمَعْنَى قَطَعَهَا، الْمَنْجَدُ.

٢. تَارِيخُ الطَّبْرِيِّ، ج ٣، ص ٣٣٣ وَشِيرُ الْأَخْزَانِ لَابِنْ نَمَا، ص ٧٤.

٣. اللَّهَوفُ عَلَى قَتْلِ الطُّفُوفِ، ص ١٢٢.

٤. الْأَخْبَارُ الطُّوَالُ، ص ٢٥٨.

٥. مَقْتَلُ الْخَوَارِزْمِيِّ، ج ٢، ص ٣٥ وَالْمَنَاقِبُ لَابِنْ شَهْرَآشُوبِ، ج ٤، ص ١١١.

٦. الْمَقْتَلُ لِلْمَقْرَمِ، ص ٣٤٣؛ نَقْلًا عَنِ الْإِتِّحَافِ بِحُبِّ الْأَشْرَافِ، ص ١٦.

٧. التَّرْقُوتَةُ - بِفَتْحِ التَّاءِ وَسُكُونِ الرَّاءِ وَضَمِّ الْقَافِ وَفَتْحِ الْوَاوِ - بِمَعْنَى مَقْدَمِ الْحَلْقِ فِي أَعْلَى الصَّدْرِ حَيْثُ يَتَرَقَّى فِيهِ النَّفْسُ، الْمَنْجَدُ.

٨. قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: «وَالْبَوَانِي فِي الْأَصْلِ: أَضْلَاعُ الصَّدْرِ، وَقِيلَ الْأَكْتِنَاثُ وَالْقَوَائِمُ، الْوَاحِدَةُ بَانِيَّةٌ»، النِّهَايَةُ، ج ١،

ص ١٦٤.

٩. اللَّهَوفُ عَلَى قَتْلِ الطُّفُوفِ، ص ٥٣.

قال هلال بن نافع: كنت واقفاً نحو الحسين، وهو يجود بنفسه فوالله ما رأيت قتيلاً قط مضطجاً^{١١} بدمه أحسن منه وجهاً ولا أنور، ولقد شغلني نور وجهه عن الفكرة في قتله، فاستقي في هذه الحال ماءً، فأبوا أن يسقوه.

وقال له رجل: لا تذوق الماء حتى ترد الحامية فتشرب من حميمها، فقال عليه السلام: أنا أرد الحامية؟ وإنما أرد على جدي رسول الله وأسكن معه في داره، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وأشكو إليه ما ارتكبت مني وفعلتم بي، ففضبوا بأجمعهم حتى كأن الله لم يجعل في قلب أحدهم من الرحمة شيئاً.^{١٢}

دعاء الحسين عليه السلام في لحظاته الأخيرة

ولما اشتد به الحال رفع طرفه إلى السماء وقال:

اللَّهُمَّ مُتَعَالِي الْمَكَانِ، عَظِيمِ الْجَبَرُوتِ، شَدِيدِ الْمَحَالِ، غَنِيٌّ عَنِ الْخَلَائِقِ، عَرِضُ الْكِبَرِيَاءِ، قَادِرٌ عَلَى مَا تَشَاءُ، قَرِيبُ الرَّحْمَةِ، صَادِقُ الْوَعْدِ، سَابِغُ النِّعَمَةِ، حَسَنُ الْبَلَاءِ، قَرِيبٌ إِذَا دُعِيتَ، مُحِيطٌ بِمَا خُلِقَتْ، قَابِلُ التَّوْبَةِ لِمَنْ تَابَ إِلَيْكَ، قَادِرٌ عَلَى مَا أُرِدْتَ، وَمُدْرِكٌ مَا طُلِبَتْ، وَشَكُورٌ إِذَا شُكِّرْتَ، وَذَكُورٌ إِذَا ذُكِرْتَ، أَدْعُوكَ مُحْتَاجاً، وَأَرْغَبُ إِلَيْكَ فَقِيراً، أَفْزَعُ إِلَيْكَ خَائِفاً، وَأُبْكِي مَكْرُوباً، وَأُسْتَعِينُ بِكَ ضَعِيفاً، وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْكَ كَافِياً، اللَّهُمَّ احْكَمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا، فَإِنَّهُمْ غَرُّونا وَخَذَلُونَا وَغَدَرُوا بَنَا وَقَتَلُونَا، وَنَحْنُ عَتَرَةُ نَبِيِّكَ، وَوَلَدُ حَبِيبِكَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الَّذِي اصْطَفَيْتَهُ بِالرَّسَالَةِ، وَاتَّمَنْتَهُ عَلَى الْوَحْيِ، فَاجْعَلْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا فَرْجاً وَمَخْرَجاً، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.^{١٣}

١٠. مقتل الخواري، ج ٢، ص ٣٥.

١١. ضحك جسده بالطيب أي لطخه به، المنجد.

١٢. مشير الأحرار لابن نما، ص ٧٥.

١٣. بحار الأنوار، ج ١٠١، ص ٣٤٨، باب زيارته يوم ولادته عليه السلام نقلًا عن المصباح للشيخ الطوسي، ص ٧٥٩.

وأقبلَ الفرسُ يدورُ حوله ويلطخُ ناصيته بدمه،^١ فصاح ابن سعد: دونكم الفرسَ فإنه من جِياد خيل رسول الله، فأحاطت به الخيل، فجعل يرمُحُ برجله، حتى قتل أربعين رجلاً وعشرة أفراس، فقال ابن سعد: دعوه لننظر ما يصنع، فلما أَمِنَ الطَّلَبُ، أقبلَ نحو الحسين يُرمِغُ ناصيته بدمه، ويشمُّه ويصهل صهيلاً عالياً.^٢

قال أبو جعفر الباقري عليه السلام كان يقول:

«الظليمة، الظليمة، من أُمّةٍ قتلت ابن بنت نبيها».^٣

وذهب الفرس يركض إلى خيمة النساء وهو يسهلُ ويضرب برأسه الأرض عند الخيمة، فلما نظرت أخوات الحسين وبناته وأهله إلى الفرس ليس عليه أحدٌ رفعن أصواتهنَّ بالصَّراخ والعيول.^٤

ونادت أُمّ كلثوم زينب العقيلة: وامحمّداه! وأبّتاه! واعليّاه! واجعفراه! واحمزتاه! هذا حسينٌ بالعراء، صريعٌ بكرلاء،^٥ ثمّ نادت: ليت السماء أُطبقت^٦ على الأرض، وليت الجبالُ تدكّ دكّاً على السهل.^٧

وانتهت نحو الحسين، وقد دنا منه عُمرُ بن سعدٍ في جماعةٍ من أصحابه، والحسين يجرّودُ بنفسه، فصاحت: أيُّ عُمر! أيقُتَل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه؟ فصرفَ بوجهه عنها ودُمّوعه تسيلُ على لحيته.^٨

١. الأماشي للصدوق، ص ١٣٨، مجلس ٣٠ ومقتل الخوارزمي، ج ٢، ص ٣٧ وتظلم الزهراء، ص ١٢٨.

٢. بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٥٧ وتظلم الزهراء، ص ١٢٩.

٣. المقتل للمقرم، ص ٣٤٦ وراجع بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٢٦٦ و ٣٠٨.

٤. المقتل للخوارزمي، ج ٢، ص ٢٧.

٥. المقتل للخوارزمي، ج ٢، ص ٣٧ وبحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٥٨.

٦. وفي تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٣٤ تطابقت.

٧. اللهوف على قتلى الطفوف، ص ٥٤.

٨. الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٧٨ وتاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٣٤.

فَقَالَتْ: وَيَحْكُمَ أَمَّا فِيكُمْ مُسْلِمٌ؟ فَلَمْ يُجِبْهَا أَحَدٌ،^١ ثُمَّ صَاحَ ابْنُ سَعْدٍ بِالنَّاسِ: إِنزِلُوا إِلَيْهِ وَأَرِيحُوهُ، فَبَدَرَ إِلَيْهِ الشَّعْرُ فَرَفَسَهُ بِرَجْلِهِ، وَجَلَسَ عَلَى صَدْرِهِ، وَقَبَضَ عَلَى شَيْبَتِهِ الْمُقَدَّسَةِ، وَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ضَرْبَةً، وَاحْتَزَّ رَأْسَهُ الْمُقَدَّسَ.^٢

الناص

□ لم يشهد التاريخ مرحلة سجلت صفحاته بطولاتها فانحنت لها الأجيال إكباراً كتلك التي جسدتها واقعة الطف بما فيها تضحية أخوة وأبناء الحسين عليه السلام.

□ فمع قلّة العدد وخذلان الناصر، يهيمن الذعر والخوف على الصفوف الهائلة في كلّ صولة لبطل من هذه الصفوة يدخل المعركة، فيقاتل وكأنّه جمّع يشدّ بعضه بعضاً.

□ وكانت الدماء الطاهرة التي سالت على صعيد كربلاء تُسقط أقمعة الظالمين وتفجّر كلّ قطرة منها بركاناً يزعزع عروش الطغاة.

□ فالبطولة العالية والشجاعة النادرة والامتناع من شرب الماء بعدما ملكه أبو الفضل العباس لئلا يروى وهناك الحسين عليه السلام وأطفاله ونسوته عطاشى هي أبغ تعبير عن الأصالة في الحبّ والوفاء للقائد والصدق في العطاء والفداء.

١. الإرشاد للمفيد، ص ٢٤٢.

٢. المقتل للخوارزمي، ج ٢، ص ٣٦ و ٣٧ ومقتل العوالم، ص ١٠٠.

الأسئلة

- ١ . لماذا لم ينادِ أبو الفضل العباس أخاه الحسين عليه السلام طيلة حياته بكلمة أخي بينما ناداه بها في آخر لحظات حياته؟
- ٢ . بماذا أوصى الإمام الحسن عليه السلام ابنه القاسم إذا وصل كربلاء؟
- ٣ . على أي شيء يدل امتناع العباس من شرب الماء بعد أن ملك الشريعة؟
- ٤ . كيف تفسر عدم سقوط دم الطفل الرضيع حينما رمى به الإمام الحسين عليه السلام نحو السماء؟
- ٥ . ماهي الجرائم التي اقترفها جنود عمر بن سعد قبل مقتل الإمام الحسين عليه السلام؟
- ٦ . ماهي دلالات مواقف بني هاشم تجاه الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء؟

الثورة الحسينية (١)

العوامل والأهداف

١. لماذا وقت الإمام الحسين عليه السلام ثورته بموت معاوية؟

بعد استشهاد الإمام الحسن عليه السلام واغتياله من قبل معاوية ونقض معاوية لبنود الصلح تحركت الشيعة وطالبت الإمام الحسين عليه السلام بالتحرك والثورة ضد معاوية، حيث إن الحسين عليه السلام كان يملك الدليل المقبول لثورته. ولكنه لم يستجب لطلباتهم وآثر السكون ما دام معاوية حيّاً.

والسرّ - كما يبدو - كان يكمن في أمرين على الأقل:

الأول: إنّ الوفاء بالعهد خلق إسلامي رفيع يمثله الإمام المعصوم أحسن تمثيل، ولا يسوّغ الإمام لنفسه أن يهبط إلى مستوى معاوية في نقضه للعهد، بالرغم من أنّ نقض العهد من قبل معاوية مسوّغ شرعي وأخلاقي للخروج من تعهده، ولكنّ معاوية كان بإمكانه أن يستغلّ هذا النقض كورقة رابحة يستعملها ضدّ الإمام الحسين عليه السلام ويضللّ به الرأي العام.

الثاني: إن السبب الذي من أجله عقد الإمام الحسن عليه السلام الصلح مع معاوية ما دام مستمراً ونافذ المفعول، فالإمام الحسين عليه السلام لا يتحرك ولا يثور، إلّا إذا تهتأت الظروف الموضوعية التي تضمن لثورته تحقيق أهدافها.

وكان السبب في إبرام الصلح مع معاوية أنَّ الأُمَّة الاسلاميّة - ولا سيّما القطّاع الواسع من الموالين لأهل البيت (عليه السلام) - كانت قد سيطرت عليه حالة الشكّ في رساليّة خطّ أهل البيت (عليه السلام) حينما لاحظوا مرارة الصراع بين معاوية والإمام عليّ (عليه السلام)، وطلحة والزبير وعائشة مع عليّ (عليه السلام) والخوارج مع عليّ (عليه السلام) وأنزلوا عليّاً (عليه السلام) إلى مستوى معاوية الذي كان يرمي للوصول إلى الحكم بكلّ سبب، ولم يكن لهذا التصدي منه والحرص على استلام السلطة أيّ مسوّغ رسالي، وقد سرى هذا الشكّ في مدى رساليّة حروب الإمام عليّ (عليه السلام) إلى جمع من الموالين لأهل البيت (عليه السلام) حتّى أنّهم استبعدوا أن يكون مثل عائشة أو طلحة أو الزبير على باطل، فكيف يقاتلهم الإمام عليّ (عليه السلام) وكلّهم صحابة رسول الله (صلى الله عليه وآله) ؟

وحينما يستفحل هذا الشكّ ويتحوّل إلى حالة مرضيّة - كما حدث ذلك في عصر الإمام الحسن (عليه السلام) - لم يكن بالإمكان علاجها حتّى بالتضحية، بل لابدّ من الصبر والتأني ليُتضح لعامة المسلمين مدى دَجَل معاوية ومدى تظاهره بالإسلام والتزام أهل البيت (عليه السلام) بمبادئهم الرساليّة.

وقد فضح معاوية نفسه وكشف عن واقعه بعد نقضه لكلّ بنود الصلح مع الإمام الحسن (عليه السلام) وكان لابدّ للشاكّين في سلامة خطّ أهل البيت (عليه السلام) من الاكتواء بلظى النار التي سَعَرها لهم معاوية وأخذ يؤجّجها بكلّ ضراوة. وكان ترشيح يزيد وفرض البيعة له بالخلافة هو آخر الخطّ لمعاوية وقد مهّد لذلك باغتيال الإمام الحسن (عليه السلام) ليخلو له الجو، وقد ذكر له التاريخ أكثر من محاولة ومراوغة لتحقيق مأربه هذا وتحكيم الجاهليّة بثوبٍ جديد في ربوع الدولة الإسلاميّة.

٢. ما هي الدوافع الحقيقيّة للثورة الحسينيّة؟

٣. ولماذا لم يكتف الإمام بالموعظة أو المقاطعة للسلطة؟

هناك أكثر من دافع وسبب قد ذكره المؤرّخون لتعليل النهضة الحسينيّة ولكنّ هذه

الأسباب متداخلة ومرتبة فيما بينها حيث يكون بعضها سبباً أعمق أو كاشفاً عن سبب.

وهناك أسباب مقبولة لدى عامة المسلمين وقاطعة للعدو بينما لا تكون أسباباً حقيقية ونهائية.

والأسباب الحقيقية لا بد أن نستلهمها من صاحب الثورة نفسه ولا يكفي أن نستند فيها إلى تحليلات الآخرين عنها.

وقد لاحظنا نصوص الإمام الحسين عليه السلام حين أعلن في أكثر من مشهد، ومنذ بداية تحرّكه وحتى نهاية الشوط من حياته: أنّه إنّما قام لطلب الإصلاح في أمة جدّه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المتمثّل في التصديّ للحاكم الجائر المستحلّ لحرّمات الله وحيث لا يتحقّق هذا المستوى من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلّا بالتضحية والشهادة في سبيل الله، تعيّن هذا الأسلوب من الأمر بالمعروف، ولا سيّما إذا كان تركه يؤدّي إلى محقّ الشريعة وضياع الرسالة التي لا شيء أغلى منها في ميزان الله تعالى. وللوصول إلى الجواب التفصيلي - الذي كان يحتمّ على الإمام الحسين عليه السلام اختيار طريق التضحية والشهادة بالنحو الذي اختاره، فضلاً عن تنبؤات الرسول ﷺ وإخباراته التي كانت تفصح عن الأسباب الكامنة في واقع الأمة ومدى تردّيها وهبوطها - لا بدّ أن نقف على أبعاد المشكلة الحقيقية التي كانت تعانها الأمة الإسلامية في عصر الإمام الحسن عليه السلام. لتتضح لنا مدى سلامة هذا الطريق أنّه هو الطريق الوحيد الذي كان يستطيع الإمام عليه السلام أن يختاره من أجل معالجة هذه المشكلة.

لقد عرفنا أنّ الإمام الحسن عليه السلام قد عالج بصلحه مشكلة التشكيك في مدى رساليّة خطّ أهل البيت عليه السلام، ولكن بعد أن اكتوت الأمة بنار المأساة التي أججها الحكم الأموي - وقد عرفنا أساليبه التي استخدمها لتسميع شخصيّة أبناء الأمة وسلب إرادتها وإباحة كرامتها وتخديرها - حتّى أصبحت تدرك الخطر ولكنها لا تقدر على مجابهته. وكلمة الفرزدق المعروفة للإمام الحسين عليه السلام: «قلوبهم معك وسيوفهم عليك» تعبّر عن

تصوير دقيق وواقعي لهذه الحالة الاجتماعية المرضية التي انتابت المجتمع الإسلامي في عصر الحكم الأموي.

إنَّ هناك أكثر من مشهد لتصوير مدى عمق مرض فقدان الإرادة في جسم الأمة وعلى مختلف المستويات والقطاعات الاجتماعية بدءً بأقرب الناس إلى أهل البيت عليه السلام وانتهاءً بالبعداء عنهم وعن ثقافتهم.

ولابدَّ أن نستعرض بعض النماذج لرسم صورة عن هذا الواقع المؤلم الذي كان يلმسه الإمام الحسين عليه السلام بكلّ وضوح.

١ . لقد أجمعت كلمة عقلاء المسلمين على تخويله - يوم صمَّ الحسين عليه السلام أن يرفض بيعة يزيد ويثور عليه باعتباره معلناً بفسقه مستحلاً لحرمات الله - وكانوا يمتّونه السلامة ويقترحون عليه الحلول التي لا تنتهي به إلى الشهادة وكانوا لا يتصوّرون أنَّ التضحية يمكن أن تكون بديلاً للحياة. ولم يتلق الإمام عليه السلام هذه النصائح من عوام الناس بل من سادة المسلمين أمثل: محمّد بن الحنفية وعبدالله بن جعفر وعبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر. لقد كانت تعبّر هذه النصائح عن نوعٍ من الانهيار النفسي الذي شمل زعماء المسلمين فضلاً عن الجماهير التي كانت تعيش هذا الانهيار مضاعفاً في أخلاقها وسلوكها وأطماعها.

٢ . موقف عامّة زعماء البصرة الموالين لخطّ الإمام علي عليه السلام الذين كاتبهم الإمام الحسين عليه السلام واستنصرهم بعد أن أشرعهم بالخطر الذي تواجهه الأمة الإسلامية.

لقد كان ردّ الفعل لعامتهم هو عدم الاستجابة لنداء الإمام الحسين عليه السلام بل نرى أثر الانهيار التام كان بادياً على عبدالله بن مسعود النهشلي الذي سلّم الرسول والرسالة إلى ابن زياد لا حبّاً به بل حفاظاً على نفسه، ولئلاّ يكتشف ذلك ابن زياد فيجعله نقطة ضعفٍ عليه، فلكي يوفرّ كلّ ضمانات البقاء الدليل قام بهذا الردّ الخيائي وتسبّب في قتل رسول الحسين عليه السلام.

وأما الأحنف بن قيس الذي تربّى على يدي الإمام علي عليه السلام فقد أجاب الإمام عليه السلام

بآية واحدة فقط يأمره فيها بالتصبر والتريث، ونلمس في هذا الجواب أن إقدام الحسين عليه السلام كان يُعدّ عند هؤلاء نوعاً من العجلة وقلة الأناة والخفة واللاتمقل. وهذه هي أخلاقية الهزيمة النفسية التي تقع فيها الأمة بالتدريج.

٣. حينما لقي الإمام الحسين عليه السلام عبيد الله بن الحرّ الجعفي استنصره، وكان عبيد الله متّناً عرف الحسين عليه السلام وعرف خطّ الحسين عليه السلام فعزّ عليه أن يقدّم قطرة من دمه في سبيل الله لکنّه كان مستعدّاً لأن يقدّم فرسه لمولاه.

٤. ذهب حبيب بن مظاهر الأسدي ليدعو عشيرته بني أسد لنصرة سيده الحسين عليه السلام، وما كان من العشيرة إلا أن غادرت بأجمعها تلك الليلة المنطقة وخشيت أن تبقى حيادية لا إلى الحسين عليه السلام ولا إلى عدوّ الحسين عليه السلام، وهل هذه إلا الهزيمة النفسية التي مُنيت بها قطاعات الأمة بمختلف مستوياتها يومذاك؟

٥. لقد استطاع عبيد الله بن زياد خلال اسبوعين أو ثلاثة بعد مقتل مسلم بن عقيل أن يجنّد الألوف من أبناء الكوفة - متّناً كانوا يحملون الولاء لعلي عليه السلام وبنيه - ضدّ الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام وهم كانوا قد حاربوا إلى جانب أبيه عليه السلام في صفّين والجمل والنهروان.

وإذا كانت الهزيمة النفسية للأمة هي الحالة المرضية العامة التي قد تعرّضت لها الأمة المسلمة في عصر الحسين عليه السلام، فالحسين عليه السلام حين يريد معالجة هذا المرض المستشري في جسمها لابدّ له أن يقدّم الموقف النظري والعملي معاً تجاه الوضع القائم ويضع النقاط على الحروف بنحوٍ ينتهي إلى اجتثاث جذور هذا المرض الخبيث.

ومن هنا كانت الثورة المسلّحة بالشكل المثير جدّاً والذي يستنهض النفوس الميّنة ويحييها من سباتها ويبدّل جُبْنها إلى الشجاعة ووهنها إلى الإقدام هو الحلّ الوحيد للأزمة التي حلّت بالأمة المسلمة بعد رسول الله ﷺ.

وتفصيل ذلك: أنّ الحسين عليه السلام كانت أمامه عدّة حلول ممكنة بعد أن طلب يزيد منه البيعة وهدّده بالقتل إن لم يبايع:

الموقف الأول: أن يبايع يزيد كما بايع عليّ أبابكر وعمر وعثمان.

الموقف الثاني: أن يرفض البيعة ويبقى في مكّة أو المدينة.

الموقف الثالث: أن يلجأ إلى بلد من بلاد العالم الإسلامي كما اقترح عليه أخوه محمّد بن الحنفية.

الموقف الرابع: أن يتحرّك ويذهب إلى الكوفة مستجيباً للرسائل التي وردته من أهلها ثم يُستشهد بالطريقة التي وقعت.

وكان اختياره للموقف الرابع قائماً على أساس إدراكه لطبيعة الظرف الذي يعيشه، فإنّه كان عليه أن يقف موقفاً يعالج فيه عدّة أقسام من أفراد الأُمّة الإسلامية:

القسم الأول: - وكان يشكّل جزءاً كبيراً من الأُمّة - كان قد فقد خلال عهد معاوية بن أبي سفيان إرادته وقدرته على مواجهة الوضع القائم وهو يشعر الذل والاستكانة، وأنّ خسارة كبيرة تحيق بالأُمّة الإسلامية وهي تبديل الخلافة إلى كسروية وهرقلية.

القسم الثاني: - من الأُمّة - هان عليه الإسلام، فلم يعد يهتم بالرسالة بقدر اهتمامه بمصالحه الشخصية، وتضاءلت أمامه الرسالة وكبر أمامه وجوده ومصالحه واعتباراته.

القسم الثالث: كان من المغفلين الذين كان بالإمكان أن تنطلي عليهم حيلة بني أمية لو سكّت صحابة الرسول عن تحويل الخلافة إلى قيصرية وكسروية.. فإنّ الخلافة وإن انحرفت عن خطّها المستقيم منذ توفي الرسول ﷺ لكن بقي مفهومها هو مفهوم

الخلافة غاية الأمر اغتصبه أبوبكر ومن ثمّ عمر وعثمان. بينما في عهد معاوية ابن

أبي سفيان طرأ على نفس المفهوم تغيير أساسي إذ لم تعد الخلافة حكماً للأُمّة وإنما

حوّلها معاوية إلى حكم كسرى وقيصر، وهو تحويل خطير في المفهوم أراد معاوية أن

يلبسه ثوب الشرعية ولو كان هذا التحويل يواجه بسكوت من قبل الصحابة لأمكن أن

تنطلي حيلة معاوية على الكثير من السذج والبسطاء إذ يرون في سكوت الصحابة

إمضاء له...

القسم الرابع: - وهو ما يرتبط بتنازل الإمام عليّ عن المعركة مع معاوية وإعلانه الهدنة

باعتباره هو الأسلوب الوحيد الذي كان يحتّمه على الإمام الحسن عليه السلام موقعه ومركزه كأمين على الإسلام والمسلمين - فإنّ هذا الواقع لم يكن مكشوفاً - بالدرجة الواضحة إلا داخل دائرة الجماهير التي كانت تعيش المأساة عن قرب كالعراق بشكل عامّ دون من كان يعيش في أطراف العالم الإسلامي كأقاصي خراسان حيث لم يعيش المحنة يوماً بعد يوم ولم يكتب بالنار التي اكتوى بها الإمام الحسن عليه السلام في الكوفة من قواعده وأعدائه، وإنّما كانت تصله الأخبار عبر المسافات الشاسعة بين الكوفة وأطراف خراسان مثلاً.. فهو لم يميّز أنّ هذا التنازل هل هو اعتراف بشرعية الأطروحة الأموية أو هو تصرف اقتضته الضرورة والظروف الموضوعية التي كان يعيشها الإمام الحسن عليه السلام ؟

فكان لابدّ للإمام الحسين عليه السلام أن يختار موقفاً يعالج فيه مشكلة كلّ واحد من هذه الأقسام الأربعة من الأمة، وليس هذا تقسيماً حدياً بحيث لا يمكن أن ينطبق قسمان منهما على فرد واحد، بل يمكن أن يتصادق عنوانان منها على فرد أو أفراد من الأمة الإسلامية.

فكان لابدّ أن يختار الموقف الذي يرجع فيه للقسم الأول إرادته التي فقدتها بالتميّع الأموي، وإلى القسم الثاني إيمانه بالرسالة وشعوره بأهمية الإسلام، وأن يسلب الدليل عن معاوية على تحويل الخلافة إلى كسروية وقيصريّة، وذلك عن طريق معارضة الصحابة - المتمثلة فيه وفي البقية الباقية من الصحابة والتابعين - لعملية التحويل هذه.. وأن يختار الموقف الذي يشرح فيه - حتّى لمن كان بعيداً عن الأحداث - أنّ تنازل الإمام الحسن عليه السلام لم يكن إمضاءً لعملية التحويل.

وتقويم المواقف الأربعة من حيث قدرة كلّ منها على تحقيق الأهداف المُشار إليها كما يلي:

أما الموقف الأول: - وهو أن يبائع يزيد بن معاوية - فهو لا يحقق مكسباً على مستوى معالجة تلك الأقسام من الأمة... لأنّه لم تكن قصّة يزيد قصّة أبي بكر وعمر

وعثمان، لأنَّ التحويل هنا على مستوى المفهوم، ولم يكن بالإمكان أن تمضي دون أن يقف أهل البيت الَّذِينَ هم القادة الحقيقيون للأمة الموقف الديني الواضح المحدد من عملية التغيير هذه..

وأما الموقف الثاني: فهو لا يحقق ذلك المكسب الذي يريده الحسين عليه السلام أيضاً، وذلك لأنَّ الإمام الحسين عليه السلام كان يؤكد - والظروف الموضوعية كانت تشهد على طبق تأكيده - أنه لو بقي في المدينة أو في مكة رافضاً للبيعة لقتل من قبل بني أمية حتَّى ولو كان متعلّقاً بأستار الكعبة.. وهذا القتل ليس كالقتل الذي استطاع أن يحرك البقية الباقية من عواطف المسلمين تجاه رسالتهم ودينهم.. فأرجاع الناس إلى عقيدتهم باستغلال المتبقي من عواطفهم ومشاعرهم لا يمكن خلال قتلٍ عابرٍ سهلٍ من هذا القبيل، بل لابدّ من أن تحشد له كلّ المثيرات والمحرّكات.

وأما الموقف الثالث: فهو وإن كان أسلم من الأوّل والثاني على الخطّ القصير لأنّه يمكنه أن يعتصم بشيعته في اليمن مثلاً إلى برهة معيّنة لكنّه سوف ينعزل ويحيط نفسه بإطار منغلق عن مسرح الأحداث بينما لابدّ أن يباشر عمله التغييري على مسرح الأحداث الذي كان وقتئذٍ هو الشام والعراق ومكة والمدينة كي يمكن لهذا العملي أن يؤثّر تربوياً وروحياً وأخلاقياً في كلّ العالم الإسلامي.

وعليه كان لابدّ أن يختار الموقف الرابع الذي استطاع أن يهزّ به ضمير الأمة من ناحية، ويشعرها بأهميّة الإسلام وكرامة هذا الدين من ناحية ثانية. وأن يدحض عملية تحويل الخلافة إلى كسروية وقيصريّة من ناحية ثالثة، وأن يوضّح لكلّ المسلمين مفهوم التنازل عند الإمام الحسن عليه السلام وأنّه لم يكن موقفاً إمضائياً وإنّما كان اسلوباً تمهيدياً لموقف الإمام الحسين عليه السلام (٢).

الخاص

❑ لم يتحرك الإمام الحسين عليه السلام - بعد موت معاوية لأن الحسين عليه السلام لم يكن مستعداً لنقض بنود الصلح الموقعة في زمن الإمام الحسن عليه السلام بحالٍ من الأحوال وهو كان ينتظر توفّر كلّ الشروط اللازمة للثورة التي لم تكن متوفّرة على استشهاد الإمام الحسن عليه السلام .

❑ و يعود الدافع الحقيقي للثورة بهذا الشكل الذي تحقّق - وإن لم يكن فيها أي مكسب آتٍ من حيث الوصول إلى الحكم - إلى أنّ إرادة الأمة كانت قد أصبحت ميّنة بعد أن عرفت حقيقة خطّ أهل البيت عليهم السلام .

❑ ولم يكن أيّ إجراء بقادر على تحريك ضميرها إلّا الشهادة والتضحية التي تغرس في أعماق وجودها عظمة الدين ورخص النفس والحياة المادّية بالنسبة إلى دين الله الذي جاء بكرامة الإنسان واستهدف إيصاله إلى الكمال اللاتقّ به .

الأسئلة

- ١ . ما هي الأسباب المباشرة وغير المباشرة التي منعت الإمام الحسين عليه السلام من الثورة على معاوية؟
- ٢ . إلى أي مدى وصلت حالة الشك لدى الأمة بعد سيطرة معاوية على الحكم؟
- ٣ . لماذا مَرَّق معاوية وثيقة الصلح التي أبرمها مع الإمام الحسن عليه السلام؟
- ٤ . ما هو رأيك في اعتراضات بعض الأطراف على الإمام الحسين عليه السلام عندما أعلن الخروج إلى العراق؟
- ٥ . كيف كانت الأمة تنتظر إلى الدين في عصر الحسين عليه السلام؟
- ٦ . ما هو واجب المسلم إذا واجه منكرًا، أو رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله؟

الثورة الحسينية (٢)

المقومات، الخصائص، النتائج

المقومات والخصائص

نستطيع أن نحدّد الموقف العملي للحسين عليه السلام بأنّه موقف مبني على ضوء النظرة الإسلامية للحكم؛ لأنّ النظرية الإسلامية في الحكم تبني على أساس الأطروحة المنفذة في الواقع والمتجسدة في الخطوات العملية للسلطة، فإن كانت تلك الأطروحة إسلامية فهي وإلا فلا قيمة لإسلامية الحاكم. وصلاته وتعبده، لأنّ المعنى العبادي الحقيقي لا يذ أن ينعكس على سلوك الفرد ومشاعره وأعماله.

ومن هنا فلا قيمة لإسلامية يزيد أو غيره من حكام الجور ولا معنى للشعائر التي يؤدونها.

وإذا كان الأمر كذلك، والحكام الأمويون لا يطبقون شريعة السماء، فعلى الحسين عليه السلام باعتباره أفضل إنسان يجسّد الإسلام يومذاك وعلى المسلمين جميعاً الوقوف بوجه هؤلاء الطغاة والتصدّي لهم لأنهم يريدون حكم الجاهلية ويحاربون شريعة السماء.

ولكنّ هذه الجاهلية ارتدت ثوباً جديداً هذه المرّة يخفي حقيقتها عن الأنظار، ولقد ثار الحسين عليه السلام ليكشف للأمة اختفاء الحكام خلف اسم الدين، وليفضح أمام

المسلمين حقيقة الطواغيت الذين حكموا الناس باسم خلافة الرسول ﷺ .

لم تكن واقعة الطف قضيةً مأساويةً عابرة حدثت في مرحلة معينة من التاريخ فحسب؛ بل هي صورة متكاملة لتجسيد الصراع بين الحق والباطل، هي مسرحية واقعية تنبض بالحياة، أدى أدوارها كل صنف من أصناف البشر وبمختلف الأعمار والأجناس، فيها المعصوم الذي لا يُخطئ ساهياً، والمجرم الذي لا يتورع عن فعل أدنى الأفعال وأبشعها، فيها المرأة والطفل الرضيع والصبي والشيخ العجوز، فيها التائب والعاصي، فيها السمو والرفعة، وفيها أيضاً الدناءة والخسة.

وهي وإن لم تعبر عن مرحلة تاريخية لكنها عبّرت عن حالة أمة، انحرف بها الحكماء عن جادة الصواب وأبعدوها عن رسالتها وعقيدتها، حتى أصبحت أمة ميّنة، لا تفكر إلا بهذا المقدار من النفس الصاعد النازل، هذه الأمة التي بلغ بها الخوف حدّاً لا يوصف، فهي تعرف أنّ الحق لا يعمل به والمنكر لا يتناهى عنه، تدرك ذلك ولا تحرك ساكناً، إنّ هذه الأمة جاءت أجلها فماتت، وإن كانت الأجساد متحركة.

وجاءت واقعة الطف كقضية مأساوية مثيرة، لتحرك في الأمة ضميرها وتعيدها نحو رسالتها وتبعث شخصيتها العقائدية من جديد، وكان من اللازم أن يقوم بهذا الدور مجموعة من الناس قادرة بما تمتلك من قدرات ومقومات تجعل دورها فاعلاً ومؤثراً في حياة هذه الأمة الميّنة؟ كما صور ذلك الفرزدق بقوله للإمام الحسين عليه السلام : الناس سيوفهم عليك وقلوبهم معك.

وكانت أهم هذه المقومات - (التي اجتمعت في ثورة الحسين عليه السلام الفريدة) - ما

يلي:

١. المقومات الشخصية للثائر: إنّ الثائر الذي يقود جبهة الحق كان إماماً معصوماً يمتلك كلّ المواصفات القدسية بنصّ حديث الرسول ﷺ : (الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا)، فهذه الصفة القدسية التي يمتلكها الحسين عليه السلام تدركها الأمة، خصوصاً مع

وجود عدد غير قليل من الصحابة الذين عاصروا الرسول ﷺ وسمعوا منه تلك الأحاديث بشأن هذا الإمام عليه السلام.

وبالإضافة إلى ذلك فالإمام عليه السلام يمتلك عنصر النسب الذي لا تشوبه شائبة ولا يناله شك: أبوه علي عليه السلام وأمه فاطمة عليها السلام وجدّه الرسول ﷺ ، والصحابة يتذكرون حديث الرسول ﷺ بشأنه: حسين منّي وأنا من حسين، يدركون هذا التمازج الروحي والتمازج النسبي، والحسين عليه السلام يمتلك الجاه والشرف، كيف لا؟! وهو محطّ أنظار المسلمين وكهف المستغيثين واللاجئين، ويمتلك الإمام المال الثروة. أتذكرون يوم عاشوراء حينما خاطب - سلام الله عليه - أخته الحوراء قائلاً: ناوليني ملابس استبدل بها ملابسها هذه لئلا يطعم القوم فيها فيسلبوننيها فلما أعطته ملابس رديئة بالية قال لها مستنكراً (أو يلبس ابن أبيك مثل هذا؟) فلو كان لباسه الأوّل عادياً لقبل تلك الخرق البالية، فلا بدّ أن يكون لباسه في أوّل الأمر من أفخر الألبسة وأثمنها، والروايات تذكر أنّ القافلة الهاشمية كانت محمّلة بالأموال الكثيرة، فالحسين عليه السلام كان يمتلك كلّ المقوّمات الشخصية للقداسة، والشرف والجاه، الغنى والثروة، والعصمة.

٢. الحجّة: ولكي لا تكون الثورة هامشيّة، فلا تعطي ثمرتها المرجوة، فقد كان الشائر يمتلك الوثائق الكفيلة بإضفاء المشروعية على هذه الثورة وأنها الحلّ الوحيد والخيار الذي لا بديل له. فقد كانت الرسائل الواردة من زعماء العراق ومن الكوفة خاصّة تطلب من الإمام عليه السلام بالحاح القدوم إلى العراق، وكان مضمون هذه الرسائل - كما تنقل الروايات - : أقدم على جند لك مجتّدة، فقد طاب الجنان واخضرّ المقام.

ولاشكّ أنّ عدم تلبية الإمام لهذه الطلبات - التي تقدّر على أقلّ الروايات بإثني عشر ألف رسالة - سيلزم الإمام عليه السلام الحجّة في تفويته للفرصة، وبالعكس فإنّ المجيء سيلزم الأئمة الحجّة إن هي خانت.

والأمر الآخر أنّ الإمام عليه السلام كان أمامه التهديد الأموي إن هو لم يبايع، ولو بايع فإنّه

سيمطي في مثل هذه الحالة الوثيقة الشرعية للحكام الأمويين الظلمة وسيطفي بالتالي بصيص الأمل الذي ترصده الأمة في تلك الشخصية المعارضة، أعني شخصية الإمام علي عليه السلام .

وفي حالة رفضه فإنه أمام خيارين، إما الموت الذي قرره الأمويون له - ولو كان متعلّقاً بأستار الكعبة - وإما الرحيل إلى إحدى المناطق التي يمتلك فيها شعبية وشيعة، ولا تتعدّى هذه المناطق اليمن، الكوفة والبصرة، ومن المعلوم أنّ الطلب الأموي سوف يلاحقه في هذه المناطق بلا فرق، وما دامت الكوفة تحتوي أكثر القواعد الشعبية المؤيدة له - سلام الله عليه - بالإضافة إلى الطلب الشديد من قبل أهلها، فإنّ الخيار الصحيح لا بدّ أن يكون بالرحيل إلى الكوفة عاصمة أبيه أمير المؤمنين عليه السلام . ولهذا رفض الإمام علي عليه السلام إلحاح أخيه محمد بن الحنفية وممانعته من الذهاب إلى الكوفة، كما رفض طلب ابن عباس عليه السلام الذي أشار على الإمام علي عليه السلام بالذهاب إلى اليمن.

٣. الشعار: ولكي لا تشوّه هذه الثورة، خصوصاً وأنّ الإمام علي عليه السلام قد علم بخيانة أهل الكوفة، وكيف أنّهم قتلوا رسوله مسلم بن عقيل عليه السلام وصاحبه هانيء بن عروة، وشرّدوا بقيّة الأنصار واعتقلوا قسماً منهم. إنّ هذه الصورة جعلت الحسين عليه السلام أمام مواجهة عسكريّة لا مناص له منها، ولكي لا تشوّه هذه الثورة فقد أعلن الحسين عن أهدافها وطرح شعاراتها ابتداءً من المدينة حتّى يوم المجزرة الكربلائيّة، فهو يقول (والله إنّني ما خرجت أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي لآمر بالمعروف ونهْي عن المنكر) ثمّ أنّه وضع الأمة أمام الخيارات التي لا مناص منها لجعل من ثورته الأسلوب الوحيد أمام التحديّات الكافرة، فبعد أن التقى الحرّ بن يزيد الرياحي عليه السلام قال عليه السلام : هذه أرض الله واسعة فدعوني أذهب وشأني، أو ما يقارب هذه العبارة، وفي هذه الكلمة - في أقلّ تقدير - أن يُترك الإمام علي عليه السلام يختار حياة العزلة، ولكنّ جيش الحرّ رفض التخلّي عن أوامر السلطنة

الجائرة فجمعوا به إلى كربلاء، وهناك أيضاً وضع أصحابه أمام الخيار فلم يرد إقحامهم في معركة خاسرة من الناحية العسكرية، لذا جمعهم ليلة العاشر من المحرم ثم خطبهم وقال:

إنّ هذا الليل قد أرخى سدوله فاتخذوه جملاً، ليس عليكم منّي ذمام. ولقد رفض هؤلاء الأخيار هذا الطلب، حينما قام زهير بن القين، فقال: ماذا نقول للعرب - أو: لجذك - أيقتل ابن بنت رسول الله ونظلاً أحياء؟! لا والله لا نفعل ذلك أبداً. وقال غيره مثل قوله.

ولما كانت المواجهة حتمية وأنّ السيف هو الحكم الفصل؛ أصرّ الحسين عليه السلام على خوض هذه الحرب قائلاً: إن كان دين محمد لم يستقم إلّا بقتلي فيا سيوف خذيني.

وعلى كلّ حال فقد وضع الإمام الحسين عليه السلام أهداف الثورة أمام عينيه منذ حركته من المدينة حتّى مصرعه في الطفّ، بل واصلت أخته الحوراء عليها السلام حمل تلك الرسالة فكانت الوسيلة الإعلامية التي تذيب أخبار الثورة، والمفعول الهدّام في العرش الأموي الحاكم.

٤. المقوم العاطفي: وهي عملية إثارة المشاعر في نفوس المسلمين الذين لم تحرك الأفكار المنطقية عقولهم.

ويلاحظ المقوم العاطفي في الثورة الحسينية من خلال أسلوبيين:
أولهما: إشراك العقائل من الهاشميات في الثورة بالإضافة إلى إشراك الأطفال بالدرجة التي يساهم فيها رضيع وُلد في اليوم العاشر من المحرم أثناء المعركة؛ فإنّ وجود نساء البيت العلوي ومخدرات الهاشميين في خضمّ هذه المحنة لابدّ أن يثير في النفوس العطف وفي القلوب الإنكسار مهما كانت تلك النفوس متوحّشة والقلوب قاسية. أمّا الأطفال فقد قدّمتهم الثورة كدليل على أنّ هؤلاء القوم يحاربون خوفاً

وطمعاً قد بلغ بهم الأمر حينما نسوا الله فأنساهم ذكر أنفسهم، بلغ بهم الأمر حدّاً لا يوصف من الدناءة والوضاعة واللؤم، فلهذا خاطبهم الحسين عليه السلام بقوله: (إن كان الذنب ذنب الكبار فما هو ذنب هؤلاء الأطفال؟) وبهذه المشاركة أضاف للثورة رصيذاً عاطفياً ضخماً جعلها تحتلّ مركز القمّة بين الفواجع على طول التاريخ وتحرك مشاعر المسلمين وعواطفهم وأحاسيسهم إلى يومنا هذا.

والأسلوب الثاني: هو أسلوب التذكير والوعظ الذي استخدمه الإمام عليه السلام وصحبه (رضوان الله عليهم) فلقد ذكّر الإمام القوم بقوله: إنسيوني من أنا، ألسنت ابن بنت نبيكم؟ ثم يقول لِمَ تحاربونني، ألسنتي غيرتها أم لبدعة ابتدعتها؟ وفي موضع آخر يقول: إن لم يكن لكم دين وكنتم عُرَباً - كما تزعمون -، فكونوا أحراراً في دنياكم، كان ذلك في إشارة منه للقوم حينما هجموا على بيوت عقائل الرسالة، إلا أنهم وصلوا حدّاً لم ينسوا دينهم فحسب، بل نسوا حتّى أعرافهم العربيّة التي تعودوها وتسالموا عليها، ولهذا أيضاً نجد الإمام عليه السلام يصف حال الناس بقوله: والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درّت معاشهم فإذا مُحِصُوا بالبلاء قلّ الديّانون.

وعلى ضوء ما سبق نكون قد رسمنا صورة موجزة لمقومات الثورة من جهة ولحالة الأمة أيضاً، فالأمة - كما قلنا - بلغت حالة الاحتضار أو الموت، بحيث لا تقوى على المعارضة إذ كانت تعيش أزمة معقّدة من الخوف في الوقت الذي كان يحاول الحكّام جرّ الأمة إلى الهاوية، وقتل روح العزّة والكرامة لديها، وتفتيت كيائها الحضاري وإبعادها عن رسالتها رسالة السمحاء.^١

نتائج الثورة الحسينيّة

وإذا أردنا أن نعرف مدى نجاح الإمام الحسين عليه السلام في تحقيق أهدافه فإننا نلمس

انتصاره في يوم عاشوراء نفسه حيث استطاع أن يستقطب جمعاً ممتن خرج لقتاله وانضوى تحت لواء الجيش الأموي. وما التحاق الحرّ وغيره من أفراد الجيش إلى معسكر الحسين عليه السلام واستشهادهم إلا بوادر النصر الأولى التي نجدها بوضوح في قدرة الحسين عليه السلام على تحريك ضمير الأمة وإحياء روح البسالة والشهادة فيها.

وقد توالى الاستجابة لنداء الحسين عليه السلام بعد عاشوراء واستمرت في الأنعام التي زرعهما الحسين عليه السلام بين جوانح الأمة تتفجر باستمرار وحتى يومنا هذا، واستطاعت هذه النهضة وروح الشهادة التي أحيها في أمة جدّه ﷺ أن تزلزل عروش الظالمين بما فيها الحكم الأموي وتسقط عنه كلّ الأقنعة أولاً ثم تؤدي به إلى الإنبهار والزوال. ولم يستطع الحكم العباسي الغاشم أيضاً أن يتخلص من شرر هذه الثورة المقدسة، وأصبحت الثورة على الظلم هي الشعار الأول لأهل البيت عليه السلام وأتباعهم ومحبيهم، بل قد تأثر من سواهم بهذه الروح العالية، واستطاع المسلمون أن يصمدوا بوجه الاستعمار الصليبي الذي عمّ العالم الإسلامي بعد سقوط الخلافة العثمانية، وما الثورة الإسلامية في إيران اليوم إلا أثر واحد من آثار تلك النهضة المقدسة المباركة.

إذن لقد أفلح الحسين عليه السلام في ثورته حيث استطاع أن يحقق مكاسبها ويجني ثمارها على مدى القرون محققاً النبوءة التاريخية الفريدة التي صدرت من جدّه ﷺ: حسين منّي وأنا من حسين، بعد أن استجاب هو لله ولرسوله ملبياً دعوة الحق إلى الشهادة في سبيل الله متخذاً منها وسامه الخالد الذي به خلدت ثورته وستبقى مشعلاً متوهجاً ينير الدرب في الظلمات ويكتسح كلّ العقبات أمام دين الله حتى يظهره الله على الدين كلّ ولو كره المشركون، ويتحقق الوعد الإلهي القاطع بانتصار الحق بشكل تامّ وزهوق الباطل وزواله من على وجه الأرض ببركة دماء الشهداء من أبناء وأنصار الحسين عليه السلام ومحبيه وشيعته ومن هذا حذوهم تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله عليّ وليّ الله .

اللهم اجعلنا من الآخذين بثأره تحت راية وليك الإمام المنصور المهدي المنتظر من

أبناء وليك الحسين عليه السلام الذي وعدت به الأمم أن تجمع به الكلم وتقسم به جبايرة الكفر ورؤوس الضلال.

وسبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً ولن يخلف الله وعده وهو العزيز الحكيم.

الخاص

□ تقوم ثورة الإمام الحسين عليه السلام بقائد كالحسين السبط عليه السلام الذي نصبه الله إماماً للمسلمين بنص من الرسول الكريم صلى الله عليه وآله و كان يمتلك كلّ الوثائق الكفيلة بإثبات مشروعية ثورته.

□ وكانت الشعارات التي رفعها الإمام منذ بداية حركته صريحة واضحة بحيث لا تقبل التشويه والتزييف مدى العصور.

□ كما أنّ الحسين بن علي عليه السلام قد جمع في ثورته كلّ عناصر التحريك العاطفي والتي أعطت لحركته رصيذاً عاطفياً ضخماً بحيث جعلها تحتل مركز القمة بين الفواجع على طول التاريخ.

□ وقد آتت هذه الثورة ثمارها منذ اليوم الأوّل الذي التحق فيه مجموعة من جنود ابن سعد بمعسكر الحسين عليه السلام، وآثروا الآخرة على الدنيا.

□ واقعة الطفّ مثلت كلّ هذه القيم والمبادئ على صعيد الواقع، من حبّ المجاهدين لقائدهم وحبّ القائد لهم، وتلاحم والتقاء البطولات الرائعة التي سجّلوها على ساحة كربلاء لتصبّ في خندق واحد، ولتؤدّي دوراً بطولياً متعدّد الوجوه جمع صنوفاً وأعماراً شتى من البشر، دافعت عن حقّ مقابل خندق وقف فيه الباطل، متمثلاً في انحراف أمير وشذوذ حاكم وطمع شرير ومبادئ جاهليّة بائدة، ومصالح دنيويّة زائفة، وكلّها أدّت دوراً حاقداً تجلّت فيه خسة القوم والكفر الصريح.

□ وكان من نتائج هذه الثورة التي كان رائدها الحقّ وعدل السماء أن سجّلت دفاعاً عن المقدّسات، وإزهاق الباطل، ودحر الشيطان وتبديد الوهام، وكشف الزيف وفشل الطماع وتصحيح انحراف ساد أوساطاً في ظلّ حاكم جائر كيزيد بن معاوية.

□ وظلّت واقعة الطف بعد ذلك منطلقاً للحقّ ومسرحاً للفكر النير، ورمزاً خالداً يُشير دائماً وأبداً إلى العزّة والكرامة والتضحية والإباء.

الأسئلة

١. ما هما الأسلوبان اللذان استخدمهما الإمام الحسين عليه السلام في إثارة مشاعر المسلمين؟
٢. هل يجب على جميع المسلمين الوقوف بوجه الطفّة والتصدّي لهم في كلّ وقت؟ ولماذا؟
٣. كيف وصف الفرزدق الناس للإمام الحسين عليه السلام حينما التقى به؟
٤. متى يستطيع الحكّام السيطرة على حياة الأُمّة؟
٥. ماهي العناصر التي أدّت أدوارها في واقعة الطف؟
٦. متى يكون القائد مؤثراً في نفوس الأُمّة؟
٧. ما هي الثمار التي تمخّضت عنها ثورة الطف؟
٨. ما هي أهم مقوّمات الثورة الحسينيّة؟ وما هي أهم صفات قائدها؟
٩. ما هو الشعار الذي رفعه الإمام الحسين عليه السلام يوم خروجه من مكّة؟ إشرحه.
١٠. لماذا رفض الإمام الحسين عليه السلام كلّ العروض التي عرضت عليه قبل خروجه إلى العراق؟

النص على إمامة

علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام

بالإضافة إلى النصوص العامة التي تظافرت عن الرسول ﷺ حول إمامة خلفائه الاثني عشر المهديين^١، والنصوص التي تضمنت ذكرهم بأسمائهم^٢، والنصوص التي وردت عن أهل البيت عليهم السلام أنفسهم حول إمامة الأئمة منهم.. نلاحظ أن كل إمام كان ينص على إمامة الذي يليه في الموضع المناسب والزمن المناسب.

وقد نص الإمام الحسين عليه السلام على إمامة زين العابدين عليه السلام في أكثر من موضع وزمان، منها ما ورد عن أم سلمة قبيل هجرته من المدينة إلى مكة فكريلاء حيث دفع إليها كتباً وقال لها: إذا أتاك أكبر ولدي فادفعي إليه ما قد دفعتُ إليك، فلما قتل الحسين عليه السلام أتى علي بن الحسين عليه السلام أم سلمة فدفعت إليه كل شيء أعطاهما الحسين عليه السلام^٣.

١. راجع كفاية الأثر ومنتخب الأثر وقادتنا وإثبات الهداة وأعلام الوري وإحقاق الحق والأصول من الكافي التي جُمعت فيها النصوص على إمامة الأئمة عليهم السلام وعيون كراماتهم الدالة على إمامتهم.

٢. راجع كفاية الأثر ومنتخب الأثر وقادتنا وإثبات الهداة وأعلام الوري وإحقاق الحق والأصول من الكافي التي جُمعت فيها النصوص على إمامة الأئمة عليهم السلام وعيون كراماتهم الدالة على إمامتهم.

٣. الغيبة للطوسي، ص ١١٨ والكافي، ج ١، ص ٢٤٢، الحديث ٣.

وقد ورد في نصٍّ آخر أنه عليه السلام قد جعل طلب ذلك منها علامة على إمامة الطالب، فطلبها زين العابدين عليه السلام.

كما نصَّ الحسين عليه السلام على إمامة ولده زين العابدين عليه السلام قبيل استشهاده حيث دفع كتاباً ملفوفاً ووصيته ظاهرة إلى ابنته فاطمة الكبرى، وكان علي بن الحسين مريضاً لا يرون أنه يبقى بعده، ولما قتل الحسين عليه السلام ورجع أهل بيته إلى المدينة دفعت فاطمة الكتاب إلى علي بن الحسين عليه السلام ثم صار الكتاب إلى ابنه الباقر عليه السلام^١.
ونصَّ الإمام زين العابدين عليه السلام على هذه الوصية حين احتجاجه مع عمه محمد ابن الحنفية عند الحجر الأسود^٢.

الإمام علي بن الحسين عليه السلام بعد استشهاده أبيه

قال حميد بن مسلم - وهو شاهد عيان - لما جرى بعد ظهر اليوم العاشر من محرم إثر استشهاد الإمام الحسين عليه السلام : لقد كنت أرى المرأة من نسائه وبناته وأهله تتنازع ثوبها من ظهرها حتى تغلب عليه فيذهب به منها ثم انتهينا إلى علي بن الحسين عليه السلام وهو منبسط على فراش وقد اشتدَّ به المرض ومع شمر جماعة من الرجال فقالوا له: ألا تقتل هذا الليل؟ فقلت: سبحان الله أبقت الصبيان؟! إنما هذا صبي وإنه لما به، فلم أزل حتى دفعته عنهم عنه.

وجاء عمر بن سعد فصاحت النساء في وجهه وبكين، فقال لأصحابه: لا يدخل أحد منكم بيوت هؤلاء النسوة ولا تتعرضوا لهذا الغلام المريض... من أخذ من متاعهن شيئاً ليرده عليهن، فوالله ما ردَّ أحد منهم شيئاً^٣.

١. إعلام الوري، ج ١، ص ٤٨٢ - ٤٨٣.

٢. راجع الاحتجاج، احتجاجات الإمام زين العابدين عليه السلام.

٣. الإرشاد، ص ٢٤٢.

«وسار ابن سعد بسبايا أهل بيت رسول الله ﷺ فلما قاربوا الكوفة اجتمع أهلها للنظر إليهن فأشرفت امرأة من الكوفيات وقالت: من أي الأسارى أنتن؟ فقلن لها: نحن أسارى آل محمد ﷺ فنزلت من سطحها فجمعت لهن ملاء وأزرأ ومقانع»^١.

وذكر المؤرخون عن شاهد عيان آخر أنه قال: قدمت الكوفة في المحرم من سنة إحدى وستين، منصرف علي بن الحسين عليه السلام بالنسوة من كربلاء ومعه الأجناد يحيطون بهم وقد خرج الناس للنظر إليهم فلما أقبل بهم على الجمال بغير وطاء جعل نساء الكوفة يبكين، ويلتدمن^٢، فسمعت علي بن الحسين وهو يقول بصوت ضئيل وقد أنهكته العلة وفي عنقه الجامعة ويده مغلولة إلى عنقه: إن هؤلاء النسوة يبكين، فمن قتلنا؟!^٣.

وعندما أدخلوا الإمام السجاد عليه السلام على ابن زياد سأله من أنت؟ فقال: أنا علي ابن الحسين.

فقال له: أليس قد قتل الله علي بن الحسين؟

قال علي عليه السلام: قد كان لي أخ يسمى علياً قتله الناس.

فقال ابن زياد: بل الله قتله.

فقال علي بن الحسين عليه السلام: الله يتوفى الأنفس حين موتها، فغضب ابن زياد وقال:

وبك جرة لجوابي وفيك بقية للرد علي؟! اذهبوا به فاضربوا عنقه^٤.

فتعلقت به عمته زينب وقالت: يا ابن زياد حسبك من دماننا واعتنقتة وقالت: لا والله لا أفارقه فإن قتلته فاقتلني معه، فقال لها علي عليه السلام: اسكتي يا عمة حتى أكلمه^٥.

١. أعيان الشيعة، ج ٤، ص ١٤٢.

٢. التدمت المرأة: ضربت صدرها في النياحة، وقيل ضربت وجهها في المأتم.

٣. الأُمالي للطوسي، ص ٩١، ط ١، ١٤١٤.

٤. الإرشاد للمفيد، ج ٢٤٤.

٥. الإرشاد للمفيد، ص ٢٤٤.

ثم أقبل عليّ علي ابن زياد قائلاً: أباقتل تهدّدي يابن زياد؟ أما علمت أنّ القتل لنا عادة وكرامتنا من الله الشهادة؟

ثم أمر ابن زياد بعليّ بن الحسين عليه السلام وأهل بيته فحملوا إلى دار بجانب المسجد الأعظم...

ولما أصبح ابن زياد أمر برأس الحسين عليه السلام فطيف به في سكك الكوفة كلّها وقبائلها، ولما فرغ القوم من الطواف به في الكوفة ردّوه إلى باب القصر.

ثم إنّ ابن زياد نصب الرؤوس كلّها بالكوفة على الخشب وهي أوّل رؤوس نصبت في الإسلام بعد رأس مسلم بن عقيل بالكوفة.

وكتب ابن زياد إلى يزيد يخبره بقتل الحسين عليه السلام وخبر أهل بيته^١.

وبعث ابن زياد إلى عمرو بن سعيد بن العاص أمير المدينة وهو من بني أميّة يخبره بقتل الحسين عليه السلام ولما وصل كتاب ابن زياد إلى الشام، أمره يزيد بحمل رأس الحسين عليه السلام ورؤوس من قتل معه إليه. فأمر ابن زياد بنساء الحسين عليه السلام وصبياناه فجهّزوا، وأمر بعليّ بن الحسين عليه السلام فغلّ بغلّ إلى عنقه، ثم سرح بهم في أثر الرؤوس مع محضر بن ثعلبة وشمر بن ذي الجوشن وحملهم على الأقتاب وساروا بهم كما يسار بسبايا الكفار حتّى لحقوا بالقوم الذين معهم الرؤوس فلم يكلم عليّ بن الحسين عليه السلام أحداً منهم في الطريق بكلمة إلى أن بلغوا الشام^٢.

الإمام عليه السلام ودائع الرسالة في الشام

خضعت الشام منذ فتحها بأيدي المسلمين لحكام مثل خالد بن الوليد ومعاوية ابن أبي سفيان. فلم يشاهد الشاميون النبي صلى الله عليه وآله ولم يسمعوا حديثه الشريف منه مباشرة

١. أعيان الشيعة، ج ٤، ص ١٤٦.

٢. راجع المصدر السابق، ص ١٤٧.

ولم يطلعوا على سيرة أصحابه عن كتب. أما النفر القليل من صحابة رسول الله ﷺ الذين انتقلوا إلى الشام وأقاموا فيها فلم يكن لهم أثر في الناس بقدر ما كان يقوم به معاوية من دور لتمثيل الإسلام ورسم معالمه لدى الشاميين.

فليس أمراً عجباً أن نقرأ أن شيخاً شامياً دنا من الإمام السجادة عليه السلام عند دخول سبایا آل محمد عليه السلام الشام وقال له: الحمد لله الذي أهلككم وأمكن الأمير منكم. فقال له الإمام عليه السلام: يا شيخ أقرأت القرآن.

فقال الشيخ: بلى.

فقال له الإمام عليه السلام: أقرأت ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾؟

فقال الشيخ: بلى.

فقال له الإمام عليه السلام: فنحن القربى يا شيخ.

ثم قال له: فهل قرأت ﴿وأت ذا القربى حقاً﴾؟

قال: قد قرأت ذلك.

قال عليه السلام: فنحن القربى يا شيخ، فهل قرأت هذه الآية: ﴿واعلموا أن ما غنمتم من

شيء فإن لله خمسهُ وللرسول ولذي القربى﴾؟

قال: نعم.

قال الإمام عليه السلام: نحن القربى يا شيخ... هل قرأت ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم

الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾؟

قال الشيخ: بلى.

قال له الإمام عليه السلام: نحن أهل البيت الذين اختصنا الله بآية الطهارة.

قال الشيخ: بالله إنكم هم.

قال الإمام عليه السلام: تالله إننا لنحن هم من غير شك، وحق جدنا رسول الله ﷺ إننا

لنحن هم.

فبكى الشيخ ورمى عمامته ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إني أبرأ إليك من

عدو آل محمد^١.

وحين استقبل إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله^٢ الإمام علي بن الحسين عليه السلام قال: يا علي بن الحسين، من غلب؟ وهو مغطي رأسه، وهو في المحمل، فقال له علي بن الحسين: إذا أردت أن تعلم من غلب، ودخل وقت الصلاة، فأذن ثم أقم^٣.

لقد كان جواب علي بن الحسين عليه السلام: إن الصراع إنما هو على الأذان وتكبير الله تعالى والإقرار بوحدانيته وليس على رئاسة بني هاشم. وأن استشهاد الإمام الحسين عليه السلام والصفوة من أهل بيته وأصحابه هو سبب بقاء الإسلام المحمدي وثباته أمام جاهليّة بني أميّة ومن هذا حذوهم ممن لم يذوقوا حلاوة الإيمان والتسليم لشريعة الله سبحانه.

الإمام السجّاد عليه السلام يتحدّى يزيد الطاغية

وأدخل رأس الحسين عليه السلام ونساؤه وأهل بيته على يزيد وهم مقرّنون في الحبال وزين العابدين عليه السلام مغلول، فلما وقفوا بين يديه على تلك الحال تحمّل يزيد بشعر حصين بن حمام المرّي قائلاً:

١. راجع حياة الإمام الحسين، ج ٣، ص ٣٧١.

٢. إبراهيم هو ابن طلحة أحد السابقين إلى الإسلام ومن أوائل المهاجرين لكنّه بعد ربع قرن من وفاة النبي صلى الله عليه وآله أعلن الحرب على الإمام علي عليه السلام!

يتبيّن بوضوح من خلال حديث ابن طلحة أن بعض أبناء كبار المهاجرين وأشراف قريش لم يحملوا من الإسلام إلا اسمه، ولعلّ آباءهم الذي أبلاؤا بلاءً حسناً مع النبي صلى الله عليه وآله في حروبه كانوا طامعين في المال والمقام. وإن كانوا من العاملين في سبيل الله حقاً فإنّ أبناءهم لم يدخل الإيمان المطلوب في قلوبهم، وإلا كيف يصحّ اعتبار حرب الجمل أو فتح مكّة وواقعة كربلاء واستشهاد الحسين عليه السلام نصراً لبني هاشم وبني أميّة؟ وكيف يفرح ابن المهاجر - هذا - مع أنّه ليس أمويّاً - لانتصار الأمويّين على الهاشميين ولقتل الإمام الحسين عليه السلام؟

٣. أمالي الطوسي، ص ٦٧٧.

يفلقن هاماً من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلماً^١
 فردّ عليه الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام بقوله تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور^٢.
 وتميّز يزيد غضباً، فتلا قوله تعالى: ﴿ما أصابتكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾^٣.

قالت فاطمة بنت الحسين عليه السلام: «فلما جلسنا بين يدي يزيد رقّ لنا فقام إليه رجل من أهل الشام أحمر فقال يا أمير المؤمنين: هب لي هذه الجارية - يعنيني - فأرعدت وظننت أنّ ذلك جائز لهم، فأخذت بثياب عمّتي زينب وكانت تعلم أنّ ذلك لا يكون فقالت عمّتي للشامي:

كذبت والله ولؤمت والله ما ذاك لك ولا له. فغضب يزيد وقال: كذبت إنّ ذلك لي ولو شئت أن أفعل لفعلت، قالت: كلّاً، والله ما جعل الله لك ذلك إلا أن تخرج من ملّتنا وتدين بغيرها، فاستطار يزيد غضباً، وقال: إيتاي تستقبلين بهذا؟ إنّما خرج من الدين أبوك وأخوك.

قالت: بدين الله ودين أبي ودين أخي اهتديت أنت وجدّك وأبوك إنّ كنت مسلماً.
 قال: كذبت يا عدوّ الله.

قالت: أنت أمير تشتم ظالماً وتقهّر بسلطانك، فكأنّه استحيى وسكت.
 فعاد الشامي فقال: هب لي هذه الجارية فقال يزيد: أعزّب. وهبّ الله لك حتفاً قاضياً^٤.

١. زندگانی علی بن الحسین عليه السلام، ص ٦٩، نقلاً عن العقد الفريد، ج ٥، ص ١٢٤.

٢. الحديد / ٢٢ - ٢٣.

٣. الشوری / ٣٠.

٤. الإرشاد، ص ٢٤٦.

ويبدو أنَّ اعتماد يزيد لهجة أقلّ قسوة وشراسة من لهجة ابن زياد في الكوفة يعود إلى أنَّ ابن زياد كان يريد أن يثبت إخلاصه لسيّده، بينما لا يخشى يزيد أحداً، ولعلّ يزيد أدرك أنّه قد ارتكب خطأ كبيراً في قتله الحسين عليه السلام وسببه أهل بيت النبوة، من هنا فإنّه أراد تخفيف مشاعر السخط تجاهه.

وفي تلك الأيام أوعز يزيد إلى خطيب دمشق أن يصعد المنبر ويبالغ في ذمّ الحسين وأبيه عليه السلام فانبرى إليه الإمام زين العابدين عليه السلام فصاح به: «ويلك أيّها الخاطب! اشتريت رضا المخلوق بسخط الخالق فتبوّأ مقعدك من النار».

واتّجه الإمام نحو يزيد فقال له: «أأذن لي أن أصعد هذه الأعواد فأتكلم بكلمات فيهنّ لله رضا، وللهؤلاء الجالسين أجرٌ وثواب...».

وبهت الحاضرون وعجبوا من هذا الفتى العليل الذي ردّ على الخطيب والأمير وهو أسير، فرفض يزيد إجابته، وألحّ عليه الجالسون بالسماح له فلم يجد بُدّاً من إجابتهم فسمح له، واعتلى الإمام أعواد المنبر، وكان من جملة ما قاله:

«أيّها الناس أعطينا ستاً، وفضّلنا بسبع: أعطينا العلم والحلم والسماحة والفصاحة والشجاعة والمحبة في قلوب المؤمنين، وفضّلنا بأنّ منّا النبيّ المختار محمد صلى الله عليه وآله ومنّا الصديق ومنّا الطيّار، ومنّا أسد الله وأسد الرسول صلى الله عليه وآله ومنّا سيّدة نساء العالمين فاطمة البتول، ومنّا سبطا هذه الأمة وسيّدا شباب أهل الجنّة».

وبعد هذه المقدّمة التعريفية لأسرته، أخذ عليه السلام في بيان فضائلهم، قائلاً:

«فمن عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي».

أنا ابن مكّة ومنى، أنا ابن زمزم والصفاء، أنا ابن من حمل الزكاة بأطراف الرداء، أنا ابن خير من اثترز وارتدى، أنا ابن خير من انتعل واحتفى، أنا ابن خير من طاف وسعى، أنا ابن خير من حجّ ولبّى، أنا ابن من حُمّل على البراق في الهواء، أنا ابن من أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فسبحان من أُسرى، أنا ابن من بلغ به جبرئيل

إلى سدرۃ المنتهى، أنا ابن من دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى، أنا ابن من صلى بملائكة السماء، أنا ابن من أوحى إليه الجليل ما أوحى، أنا ابن محمد المصطفى، أنا ابن علي المرتضى، أنا ابن من ضرب خراطيم الخلق حتى قالوا: لا إله إلا الله.

أنا ابن من ضرب بين يدي رسول الله ﷺ بسيفين، وطعن برمحين، وهاجر الهجرتين، وباع البيعتين، وقاتل بيدر وحُنين، ولم يكفر بالله طرفه عين.

أنا ابن صالح المؤمنين ووارث النبيين وقاطع الملحدين ويعسوب المسلمين ونور المجاهدين وزين العابدين وتاج البكائين وأصبر الصابرين وأفضل القائمين من آل ياسين، ورسول رب العالمين.

أنا ابن المؤيد بجبرئيل المنصور بميكائيل أنا ابن المحامي عن حرم المسلمين وقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، والمجاهد أعداء الناصبين، وأفخر من مشى من قريش أجمعين، وأول من أجاب واستجاب لله من المؤمنين وأقدم السابقين وقاصم المعتدين ومبير المشركين وسهم من مرامي الله، ويستأن حكمة الله، ... ذاك جدِّي علي بن أبي طالب.

أنا ابن فاطمة الزهراء أنا ابن سيّدة النساء، أنا ابن الطهر البتول، أنا ابن بضعة الرسول ﷺ أنا ابن المرمل بالدماء أنا ابن ذبح كربلاء أنا ابن من بكى عليه الجز في الظلماء، وناحت عليه الطير في الهواء.

ولم يزل الإمام يقول أنا: حتى ضجّ الناس بالبكاء وخشي يزيد من وقوع الفتنة وحدوث ما لا تحمد عقباه، فقد أوجد خطاب الإمام انقلاباً فكرياً إذ عرّف الإمام نفسه لأهل الشام وأحاطهم علماً بما كانوا يجهلون.

فأوعز يزيد إلى المؤدّن ليقطع على الإمام كلامه فصاح المؤدّن: «الله أكبر» فالتفت إليه الإمام فقال له: كبرت كبيراً لا يقاس، ولا يدرك بالحواس، لا شيء أكبر من الله، فلما قال المؤدّن: أشهد أن لا إله إلا الله. قال الإمام عليه السلام: شهد بها شعري وبشري ولحمي ودمي ومخي وعظمي، ولما قال المؤدّن: «أشهد أن محمداً رسول الله» التفت

الإمام إلى يزيد فقال له: يا يزيد محمد هذا جدّي أم جدك؟ فإن زعمت أنّه جدك فقد كذبت، وإن قلت أنّه جدّي فلمَ قتلت عترته»^١.

ووجم يزيد، ولم يطق جواباً وتبيّن لأهل الشام أنّ بني أميّة غارقون في الإثم، وأنّ الحكم الأموي قد جهد في إغوائهم وإضلالهم. وتبيّن بوضوح أنّ الحقد الشخصي وغياب النضج السياسي هما السببان لعدم إدراك يزيد عمق ثورة الإمام الحسين عليه السلام ممّا أدّى إلى توهّمه بأنّها لن تؤدّي إلى نتائج خطيرة على حكمه.

ولعلّ أكبر شاهد على هذا التوهّم هو رسالة يزيد في بدايات تسلّمه الحكم لواليه على المدينة والتي أمره فيها بأخذ البيعة من الحسين عليه السلام، وإنّ رفض عليه السلام البيعة فقد طلب منه أن يشدّد عليه بقتله وبعث رأسه إلى دمشق.

وفي سياق الحديث عن حسابات يزيد الخاطئة نُشير أيضاً إلى عملية نقل أسرى أهل البيت عليهم السلام إلى الكوفة ومن ثمّ إلى الشام وما تخلّل ذلك من ممارسات إرهابيّة عكست نزعته الإجراميّة. ولم يلتفت يزيد إلى خطورة الجريمة التي ارتكبها إلّا بعد أن تدقّت عليه التقارير التي تتحدّث عن ردود الفعل والاحتجاجات على قتله لريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله. ولذلك حاول أن يلقي مسؤوليّة الجريمة البشعة على ابن مرجانة، قائلاً للإمام السجّاد عليه السلام: «لئن الله ابن مرجانة، أما والله لو أنّي صاحبه ما سألني خصلة أبداً إلّا أعطيته إياها، ولدفعت الحنف عنه بكلّ ما استطعت، ولو بهلاك بعض ولدي، ولكن قضى الله ما رأيت. يا بُني كاتنبي بكلّ حاجة تكون لك»^٢.

١. حياة الإمام زين العابدين، دراسة وتحليل، ص ١٧٥-١٧٧.

٢. تاريخ الطبري، ج ١، ص ٣٧٨-٣٧٩.

الخلاصة

- بدأ الإمام علي بن الحسين عليه السلام بعد استشهاد أبيه السبط جهاده وهو في دور الأسر متحدياً طفاة عصره ومحرضاً المسلمين على قتل قتلة الإمام الحسين عليه السلام وكاشفاً عن الأقنعة التي تقنع بها نظام يزيد وفاضلاً حكام بني أمية الذين أخذوا يهدمون الإسلام باسم خلافة الرسول صلّى الله عليه وآله.
- وقد صرح الإمام عليه السلام بانتصار ثورة أبيه عليه السلام حين انفجارها مستدلاً بأن وقت الصلاة هو الذي يدل على من غلب إذا أذن المؤذن وأقام.
- وحين رأى يزيد انكشاف سؤأته التي لم يتحملها المسلمون ولم يغفروها له؛ تراجع وأعرب عن أسفه على قتل ابن زياد لسبط الرسول صلّى الله عليه وآله.
- وهذا دليل آخر على فشل خطة الأمويين لضرب المعارضة وقمع ثورة الحسين عليه السلام بوجه الظلم المستشري في بلاد الإسلام وباسم رسول الله صلّى الله عليه وآله.

الأسئلة

- ١ . متى نصّ الإمام الحسين عليه السلام على إمامة ولده علي زين العابدين عليه السلام ؟
- ٢ . كيف نجا الإمام زين العابدين من القتل يوم عاشوراء؟
- ٣ . ما هو موقف ابن زياد من زين العابدين عليه السلام حين رآه حياً أمامه؟
- ٤ . ما هو موقف الإمام زين العابدين عليه السلام من شعار المجبرة الذي حاول أن يستفيد منه ابن زياد؟
- ٥ . ما هو دور زينب الكبرى عليها السلام في الحفاظ على وريث الحسين عليه السلام وصيانة ثورته من الضياع؟
- ٦ . ما هي المواقف الإرشادية والأساليب التي اتخذها الإمام زين العابدين عليه السلام لكشف الأقنعة الكاذبة للنظام الأموي السفيفاني؟
- ٧ . كيف تحدّى الإمام زين العابدين عليه السلام طاغية زمانه يزيد بن معاوية؟
- ٨ . ما هي أسباب إخفاق المخطط الأموي لمحو الإسلام المحمدي؟

الإمام زين العابدين عليه السلام في مدينة الرسول صلى الله عليه وآله

ردود فعل الثورة الحسينية

بدأت ردود الفعل على مقتل الحسين عليه السلام بالظهور مع دخول سبايا أهل البيت عليهم السلام إلى الكوفة. فبالرغم من القمع والإرهاب اللذين مارسهما ابن زياد مع كل من كان يبيد أدنى معارضة ليزيد فإن أصواتاً بدأت ترتفع محتجة على الظلم السائد. فعندما صعد ابن زياد المنبر وأثنى على يزيد وحزبه وأساء إلى الحسين عليه السلام وأهل بيت الرسالة «قام إليه عبدالله بن عفيف الأزدي وقال له: يا عدو الله إن الكذاب أنت وأبوك والذي ولأك وأبوه يابن مرجانة، تقتل أولاد النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين؟!»

فقال ابن زياد، عليّ به، فأخذته الجلاوزة فنادى بشعار الأزدي فاجتمع منهم سبعمائة فانزعوه من الجلاوزة. فلما كان الليل أرسل إليه ابن زياد من أخرجه من بيته فضرب عنقه وصلبه^١.

ومع أن هذه المواجهة انتهت لصالح ابن زياد لكنها كانت مقدمة لاعتراضات أخرى.

وظهرت في الشام أيضاً بوادر السخط والإستياء، الأمر الذي جعل يزيداً ينحو باللائمة في قتل الحسين عليه السلام على ابن زياد.

إلا أن أشد ردود الفعل كانت تلك التي برزت في الحجاز. فلقد انتقل عبدالله ابن الزبير إلى مكة في الأيام الأولى من حكومة يزيد وأخذها قاعدة لمعارضته للشام، وقام بتوظيف فاجعة كربلاء للتنديد بنظام يزيد، وألقى خطاباً وصف فيه العراقيين بعدم الوفاء، وأثنى على الحسين بن علي عليه السلام ووصفه بالتقوى والعبادة.

وفي المدينة ألقى الإمام زين العابدين عليه السلام خطاباً في أهلها لدى عودته من الشام والعراق. يقول المؤرخون: إن الإمام عليه السلام جمع الناس خارج المدينة قبل دخوله إليها، وخطب فيهم قائلاً:

«الحمد لله رب العالمين مالك يوم الدين بارئ الخلاق أجمعين، الذي بعد فارتفع في السماوات العلى، وقرب فشهد النجوى، نحمده على عظام الأمور وفجائع الدهور، ومضاضة اللواذع، وجليل الرزء وعظيم المصائب الفاطمة الكاظمة الفادحة الجائحة. أيها القوم: إن الله - وله الحمد - ابتلانا بمصائب جليلة، في الإسلام عظيمة، قُتل أبو عبدالله الحسين عليه السلام وسُبي نساؤه وصبيته، وداروا برأسه في البلدان من فوق عالي السنان، وهذه الرزية التي لا مثلها رزية.

أيها الناس: فأني رجالات منكم يسرون بعد قتله؟! أم أي فؤاد لا يحزن من أجله؟! أم أية عين منكم تحبس دمعها وتضن عن انهماكها؟! فلقد بكت السبع الشداد لقتله، وبكت البحار بأواجها والسماوات بأركانها والأرض بأرجائها والأشجار بأغصانها والحيتان في لجج البحار والملائكة المقربون وأهل السماوات أجمعون.

أيها الناس: أي قلب لا ينصدع لقتله؟! أم أي فؤاد لا يحن إليه؟! أم أي سمع يسمع هذه الثلثة التي ثلمت في الإسلام ولا يصم؟! هذه الثلثة التي ثلمت في الإسلام ولا يصم؟!

أيها الناس أصبحنا مطرودين مشردين مذودين وشاسعين عن الأمصار، كأننا أولاد ترك وكابل، من غير جرم اجترمناء ولا مكروه ارتكبناه ولا ثلثة في الإسلام ثلمناها.

ما سمعنا بهذا في آباءنا الأولين، إن هذا إلا اختلاق.

والله لو أن النبي تقدّم إليهم في الوصاية بنا؛ لما زادوا على ما فعلوا. فإنّا لله وإنا إليه راجعون من مصيبة ما أعظمها وأوجعها وأفجعها وأكظّها وأفظعها وأمرّها وأفدحها!! فعند الله نحتسب فيما أصابنا وأبلغ بنا فإنّه عزيز ذو انتقام^١.

لقد جسّد هذا الخطاب - على قصره - واقعة كربلاء على حقيقتها مركزاً على المظلوميّة التي لحقت بأهل البيت عليهم السلام في قتل الحسين بن علي عليهما السلام من جانب، وأسر أهل بيته من جانب آخر، بالإضافة إلى المظلوميّة التي لحقتهم بعد واقعة الطف إذ نصبت رؤوس الشهداء - بما فيهم سيدهم الحسين عليه السلام - فوق الأسنة تنقل ويتباهى بها من بلدٍ إلى بلد.

وعقب الإمام زين العابدين عليه السلام واصفاً ما لقيه آل النبي من السبي والتشريد كما يُعامل الترك والروم الكافرون، وهم أهل بيت الوحي ومعدن الرسالة وهم قادة الإيمان وأبواب الخير والرحمة والهداية.

وأنهى الإمام خطابه بوصفٍ في منتهى الدقّة عن عظمة الجرائم التي ارتكبها جيش السلطة الأمويّة في حقّ أهل البيت عليهم السلام؛ فإنّ الرسول صلّى الله عليه وآله لو كان يأمر هؤلاء بالتمثيل بأهل البيت وتعذيبهم لما كانوا يزيدون على ما فعلوا، فكيف بهم وقد نهاهم عن التمثيل بالكلب العقور، وكيف يمكن توجيه كلّ ما فعلوه وقد أوصاهم النبي بحفظه في عترته، ولم يطالبهم بأجرٍ للرسالة سوى المودة في قرباه؟!

الإمام زين العابدين عليه السلام يتخذ بيئاً في البادية

روي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه قال: كان أبي عليّ بن الحسين عليهما السلام قد اتّخذ منزله - من بعد مقتل أبيه الحسين بن عليّ عليهما السلام - بيتاً من شعير، وأقام بالبادية فلبث بها

عدّة سنين، كراهية لمخالطة الناس وملاقاتهم. وكان يصير من البادية بمقامه إلى العراق زائراً لأبيه وجدّه عليه السلام ولا يشعر بذلك من فعله^١.

نعم بهذا الإجراء الفريد قد أبعد الامام الأخطار الموجهة إليه وهو ابن سيّد الشهداء النائر على الحكم القائم والكفيل لعوائل الشهداء، فإنّه يكون قد ابتعد عن البيئة الّتي تُحصى عليه أنفاسه، وسوف لا تستطيع الدولة أن تتّهمه بشيء يحدث في المدينة.

ثورة أهل المدينة

ولم تكن الأوضاع هادئة في المدينة في السنة الّتي كانت تحت إدارة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان. وأوضح شاهد على اضطراب الأوضاع في المدينة هو استبدال ثلاثة ولاّة خلال عامين^٢.

وأراد عثمان بن محمّد بن أبي سفيان أن يكسب رضا أهل المدينة فأرسل وفدًا من أبناء المهاجرين والأنصار إلى دمشق ليشاهدوا الخليفة الشابّ عن كثب وينالوا نصيبهم من هداياه.

إلا أنّ الوفد رأى في سلوك يزيد ما يشين ويقبح.

ولما رجعوا إلى المدينة أظهروا شتم يزيد وعيبه وقالوا: قدمنا من عند رجلٍ ليس له دين يشرب الخمر ويضرب بالطنابير وتعزف عنده القيان ويلعب بالكلاب ويسمر عنده الحراب - وهم اللصوص - وإنّا نشهدكم أنّا قد خلعناه.

وقال عبد الله بن حنظلة (غسيل الملائكة): لو لم أجد إلّا بنيّ هؤلاء لجاهدته بهم وقد أعطاني وأكرمني وما قبلت عطاءه إلّا لأتقوى به، مخلص الناس يزيد وباعوا عبد الله بن حنظلة وولّوه عليهم^٣.

١. فرحة الغري لابن طاووس، ص ٤٣.

٢. تاريخ الطبري، ج ٧، ص ٤٠٢.

٣. الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ١٠٣.

إِنَّ نقد الوفد المدني لزيد لم يكن هو الدليل الوحيد على انحراف يزيد وتنكّره للإسلام ، بل إِنَّ جور يزيد وعمّاله على البلدان الإسلاميّة وفسقهم وشدّة بطشهم واستهتارهم بالحرّمات الإلهيّة مثل قتل ريحانة الرسول ﷺ الحسين ابن علي بن أبي طالب عليه السلام سيّد شباب أهل الجنّة دليل قويّ على انحرافه عن الإسلام المحمّدي. هذا فضلاً عن حقد الأمويّين للأَنْصار.

ومن هنا لم يتلکّا أهل المدينة في إخراج عامل يزيد عليها. فحاصروا بني أميّة وأتباعهم، وأخرجوهم عن المدينة بشرط عدم الرجوع إليها.

ولمّا بلغ أمر الثورة إلى مسامع يزيد أرسل مسلم بن عقبة - السفّاك - ليقضي على ثورة أهل المدينة - مدينة رسول الله ﷺ ومهبط وحى الله - وزوّده بتعليمات خاصّة تجاههم قائلاً له:

أدع القوم ثلاثاً فإن أجابوك وإلا فقاتلهم، فإذا ظهرت عليهم فأبجها - أي المدينة - ثلاثاً، فما فيها من مال أو دابة أو سلاح أو طعام فهو للجند^١. وأمره أن يُجهز على جريحهم ويقتل مُدبرهم^٢.

وصل جيش يزيد إلى المدينة، وبعد قتال عنيف مع أهلها، استبسل فيه الثائرون دفاعاً عن دينهم، واستشهد أغلب المدافعين وكان فيهم عبدالله بن حنظلة ومجموعة من صحابة رسول الله ﷺ، ونفّذ قائد الجيش أوامر يزيد وأوعز إلى جنوده باستباحة المدينة فهجم الجند على البيوت وقتلوا الأطفال والنساء والشيوخ كما أسروا آخرين. قال ابن كثير: أباح مسلم بن عقبة - الذي يقول فيه السلف (مسرف بن عقبة) قبحه الله من شيوخ سوء ما أجهله - المدينة ثلاثة أيّام كما أمره يزيد - لا جزاء الله خيراً - وقتل خلقاً من أشرفها وقزائها وانتهب أموالاً كثيرة منها... وجاءته امرأة فقالت: أنا

١. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٧٢ والكامل في التاريخ، ج ٤، ص ١١٣.

٢. التنبيه والإشراف، ص ٢٦٣، ط القاهرة.

مولاتك وابني في الأسارى. فقال: عجلوه لها، ف ضرب عنقه، وقال: أعطوها رأسه. ووقعوا على النساء حتى قيل أنه حبلى ألف امرأة في تلك الأيام من غير زوج. قال المدائني، عن هشام بن حسان: ولدت ألف امرأة من أهل المدينة بعد وقعة الحرة من غير زوج، وروي عن الزهري أنه قال: كان القتلى يوم الحرة سبعمائة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار، ووجوه الموالى، ممن لا أعرف من حرّ وعبد وغيرهم، عشرة آلاف^١.

ثم نصب كرسي لمسلم بن عقبة، وجيء بالأسارى من أهل المدينة فكان يطلب إلى كل واحد منهم أن يبايع ويقول: إنني عبد مملوك ليزيد بن معاوية يتحكّم فيّ وفي دمي وفي مالي وفي أهلي ما يشاء^٢، وكلّ من امتنع ولم يبايع بالعبودية ليزيد وأصرّ على القول بأنّه عبد الله سبحانه وتعالى قتله^٣.

وأُتي بزين العابدين عليه السلام إلى مسلم بن عقبة، وهو مفتاض عليه فتبرأ منه ومن آبائه. فلما رآه وقد أشرف عليه ارتعد وقام له، وأقعده إلى جانبه، وقال له: سلني حوائجك فلم يسأله في أحد ممن قدّم إلى السيف إلّا شفّعه فيه، ثم انصرف عنه.

ف قيل لعلي عليه السلام: رأيناك تحرك شفّعتك، فما الذي قلت؟

قال: قلت: اللهم ربّ السماوات السبع وما أظللن، والأرضين السبع وما أقللن ربّ العرش العظيم، ربّ محمّد وآله الطاهرين. أعوذ بك من شرّه، وأدرك بك في نحره. أسألك أن تؤتيني خيره، وتكفيني شرّه.

قيل لمسلم: رأيناك تسبّ هذا الغلام وسلفه فلما أتى به إليك رفعت منزلته؟ فقال: ما

١. البداية والنهاية، ج ٨، ص ٢٢٠، ط دار الفكر، بيروت، سنة ١٣٩٨ وتاريخ الخلفاء، ص ٢٣٣.

٢. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٨١؛ مروج الذهب، ج ٣، ص ٧٠؛ الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ١١٨؛ البداية والنهاية، ج ٨، ص ٢٢٢ وقد جاء في تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٥١: كان الرجل من قريش يؤتى به فيقال: بايع أنّك عبد - ليزيد، فيقول لا، فيضرب عنقه.

٣. الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ١١٨؛ مروج الذهب، ج ٣، ص ٧٠.

كان ذلك لرأي مَتي، لقد مُليء قلبي منه رعباً!

ولم يبايع الإمام عليه السلام ليزيد كما لم يبايع علي بن عبد الله بن العباس. حيث امتنع بأخواله من كندة فالحصين بن نمير نائب مسلم بن عقبة قال: لا يبايع ابن اختنا إلا كبيعة علي بن الحسين^١. على أنه ابن عم أمير المؤمنين وإلا فالحرب بيننا فأعفي عن البيعة.

وذكر المؤرخون أن الإمام عليه السلام كفل في واقعة الحرّة أربعمئة أسرة من عبد مناف وظلّ ينفق عليها حتّى خرج جيش مسلم من المدينة^٢.

وبعد أن قمع مسلم بوحشية ثورة أهل المدينة وأجهض انتفاضتهم، توجّه إلى مكّة التي أعلن فيها عبد الله بن الزبير ثورته على الحكم الأموي، لكنّه لقي حتفه في الطريق. فتسلّم الحصين بن نمير قيادة الجيش الأموي بناء على أوامر يزيد. وعندما وصل أطراف مكّة فرض حصاراً عليها وضرب الكعبة بالمنجنيق وأحرقها^٣.

وفي الوقت الذي كانت فيه مكّة تحت حصار الجيش الأموي، لقي يزيد حتفه. فعقد قائد الجيش الأموي الذي لم يكن وقتذاك يعرف زعيمه الذي يقاتل معه، مفاوضات مع ابن الزبير أعرب له فيها عن استعداده لقبول بيعته شريطة أن يرافقه إلى الشام. إلا أن ابن الزبير رفض الشرط، فعاد الحصين وجيشه إلى الشام.

الإمام زين العابدين عليه السلام و ثورة أهل المدينة

قال المسعودي: كانت حركة أهل المدينة ضدّ يزيد، وكان إخراجهم لبني أميّة

١. النظرية السياسية لدى الإمام زين العابدين، محمود البغدادي، ص ٢٧٣. المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام.

الطبعة الأولى، سنة ١٤١٥هـ

٢. كشف الغمّة، ج ٢، ص ١٠٧.

٣. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٨٣، حوادث سنة ٦٤: الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٢٤.

وعامل يزيد من المدينة بإشارة من ابن الزبير^١.

فلم يكن للإمام السجادة عليه السلام ولا لأهل البيت عليه السلام موقع أو دور في تلك الحركة ويشهد لذلك ما جاء عن الإمام عليه السلام بالنسبة لتلك الفترة الزمنية قوله: «ما بمكة والمدينة عشرون رجلاً يحبّنا»^٢.

هذا فضلاً عن طبيعة الظروف التي كانت تحتم على الإمام عليه السلام الابتعاد عن المدينة في السنين الأولى من إقامته فيها بعد وقعة كربلاء، وبعد المواقف البطولية التي وقفها وهو في الأسر حيث وظّف كلّ ما لديه من طاقات لفضح الحكم القائم .

فموقف الإمام المسبق - قبل حركة أهل المدينة - وجفاء أهل المدينة لأهل البيت عليه السلام، وإسراف الدولة في إراقة دماء أهل البيت عليه السلام كانت تكفي لثلاً يتورّط يزيد مرّة أخرى في إراقة دماء البقية الباقية من أهل البيت عليه السلام، بل كان كلّ ذلك مرجحاً وداعياً للتزلف إليه وكسب وده تقيلاً أو دفعاً للنقمة التي واجهتها بعد استشهاد الحسين عليه السلام .

على أنّ هتك حرمة المدينة لم تكن مطلوبة ولم تكن مرجحاً لأن تكون مركزاً للثورة وقد يشهد لذلك رفض الحسين عليه السلام لدعوات البقاء في مكة أو المدينة حين قد عزم على الخروج على يزيد، لأنّ الحكم القائم لا يتورّع عن هتك حرمة الحرمين الشريفين.

انهيار الحكم السفيفاني وانشقاق البيت الأموي

مات يزيد في ربيع الأول من سنة ٦٤ هجرية وهو في الثامنة والثلاثين من عمره، وكانت صحيفة أعماله في مدة حكمه - الذي استمر ثلاث سنوات وبضعة أشهر سوداء

١. مروج الذهب، ج ٣، ص ٧٨.

٢. شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص ١٠٤.

بسبب قتله ابن بنت النبي ﷺ وأسر أهل بيت رسول الله ﷺ والقتل الجماعي لأهل المدينة وهدم الكعبة.

ثم بايع أهل الشام ولده معاوية إلا أنَّ حكمه لم يستمرَّ أكثر من أربعين يوماً، إذ أعلن تنازله عن العرش. ومات بعدها في ظروف غامضة حتَّى قيل إنَّه مات مسموماً^١. فانشقت القيادات المؤيَّدة لبني أميَّة على نفسها إلى كتلتين: كتلة أيدت زعامة مروان بن الحكم، وقد مثَّل هذا الاتجاه القبائل اليمانيَّة، بقيادة حسان الكلبي بينما أيدت قوى القيسيين بقيادة الضحَّاك بن القيس الفهري، عبدالله بن الزبير.

وبأن خلافة يزيد القصيرة امتدت أيدي الكلبيين تدريجياً إلى مراكز السلطة فمارسوا ضغطاً شديداً على القيسيين، الأمر الَّذي أزعج الضحَّاك كثيراً فانتَهز الفرصة بعد موت يزيد ليبايع ابن الزبير، - وهو من العرب العدنانيين - واشتبك الكلبيون والقيسيون في «مرج راهط»^٢ في معركة أسفرت عن انتصار القيسيين، فأصبح مروان بن الحكم خليفة واستقرَّت الأوضاع المضطربة في الشام نسبياً.

ثورة التوابين

صعد عبدالله بن الزبير معارضته للشام والتي كان قد بدأها بعد موت معاوية حيث كان قد دعا الحجازيين لمبايعته كخليفة للمسلمين فاستجابت له الأكثرية الساحقة منهم بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام. وشهد العراق تحرُّكاً جديداً وذلك بعد الندم الَّذي أخذ يقض مضاجع الكوفيين إذ خذلوا سيدهم الحسين عليه السلام ضدَّ الحكم الأموي. لكنَّهم لم يحقِّقوا شيئاً يذكر على صعيد إسقاط الحكم على المدى القريب. فقد قتل سليمان بن صرد قائد التوابين، ورجع من بقي من جيشه إلى الكوفة.

١. الفخري، ص ١١٨.

٢. منطقة في شرق دمشق.

ثورة المختار

وفي تلك الغضون ظهر المختار بن أبي عبيدة الثقفي على مسرح الأحداث مستنهضاً أهل العراق لأخذ الثأر من قَتَلَة أبي عبد الله الحسين عليه السلام، فبدأ بإعداد الشيعة للثورة بعد فشل ثورة التوابين. وكان يعرف جيداً أنَّ أي تحرّك شيعي يقتضي زعامة من أهل بيت الرسالة عليه السلام، وأنَّ الإنطلاق للثورة ينبغي أن يتمَّ باسمه. ومن أفضل من عليّ بن الحسين عليه السلام ؟ وإن رفض الإمام الاستجابة لذلك فليس أمامه غير محمّد بن عليّ بن أبي طالب وهو عمّ الإمام السجّاد عليه السلام.

من هنا كاتب المختار كلّاً من الإمام زين العابدين عليه السلام وعمّه محمّد. أمّا الإمام عليه السلام - الذي كان قد خَبَرَ عدم وفاء العراقيين وتذبذبهم وأنَّ الدين لعق على ألسنتهم - لم يعلن عن تأييده الصريح له، لكنّه عليه السلام أمضى عمله عندما ثار من قَتَلَة أبيه الحسين عليه السلام.

وأرسل المختار رأس عبيد الله بن زياد وعمر بن سعد إلى الإمام عليه السلام فسجد عليه السلام شكراً لله تعالى وقال: «الحمد لله الذي أدرك لي ثأري من أعدائي وجزى الله المختار خيراً»^١.

قال اليعقوبي: «ووجّه المختار بالرأس الخبيث - (أي رأس ابن زياد) - إلى الإمام علي بن الحسين، وعهد إلى رسوله بأن يضع الرأس بين يدي الإمام وقت ما يوضع الطعام على الخوان بعد الفراغ من صلاة الظهر، وجاء الرسول إلى باب الإمام، وقد دخل الناس لتناول الطعام، فرفع الرجل عقيرته ونادى: يا أهل النبوة، ومعدن الرسالة، ومهبط الملائكة، ومنزل الوحي! أنا رسول المختار بن أبي عبيدة ومعني رأس عبيد الله بن زياد... فلم تبق علويّة في دور بني هاشم إلا صرخت^٢.

١. رجال الكشي، ص ٨٤: المختار الثقفي، ص ١٢٤.

٢. حياة الإمام زين العابدين، دراسة وتحليل، ص ٦٥٨ عن تأريخ اليعقوبي.

ويقول بعض المؤرخين: إن الإمام زين العابدين عليه السلام لم يرَ ضاحكاً منذ أن استشهد أبوه إلا في اليوم الذي رأى فيه رأس ابن مرجانة^١.
وعن بعض آخر: انه لما رأى الإمام عليه السلام رأس الطاغية قال: «سبحان الله ما اغترَّ بالدنيا إلا من ليس لله في عنقه نعمة، لقد أدخل رأس أبي عبد الله على ابن زياد، وهو يتغذى»^٢.

الخامس

□ بدأت ردود فعل الثورة الحسينية قبل استشهاد الإمام الحسين عليه السلام حين التحق بمعسكره جمع من معسكر ابن زياد ورجحوا الموت معه على الحياة مع الطغاة اللئام.
□ واستمرت ردود الفعل بالظهور بعد عاشوراء فقد أدان ابن زياد في الكوفة عبد الله ابن عفيف الأزدي وفي الشام ظهرت ردود فعل أخرى، ثم تمخضت سنة ٦٢ هجرية عن ثورة أهل المدينة التي انتهك يزيد حرمتها، وبذلك أثبت للتاريخ وللعالَم الإسلامي أنه لا يحترم مسلماً ولا نبياً ولا كعبة ولا مسجد النبي صلى الله عليه وآله ولا مدينة الرسول صلى الله عليه وآله فضلاً عن أحكام الإسلام وحرماته التي يتحدّاه بانتهاكها على مرأى ومسمع من المسلمين.
□ ولم يساهم الإمام زين العابدين عليه السلام في ثورة أهل المدينة لأسباب شتى. وكانت آخر ردود فعل الثورة الحسينية هي انهيار الحكم السفلياني وانشقاق البيت الأموي الذي لم ينج من الثورات المتتالية التي تعاقبت لإسقاطه وتفنيته.

١. المصدر، ص ٦٥٩.

٢. العقد الفريد، ج ٥، ص ١٤٣.

الأسئلة

- ١ . ما هي ردود فعل الثورة الحسينية؟ ومتى ظهرت؟
- ٢ . ما هي المحاور المهمة التي تكلم عنها الإمام عليه السلام في المدينة بعد استشهاد أبيه؟
- ٣ . هل اتخذ الإمام عليه السلام بيتاً في البادية؟ ولماذا؟ وإلى متى؟
- ٤ . كيف اندلعت ثورة أهل المدينة؟ ولماذا؟
- ٥ . ما هو موقف الإمام عليه السلام من ثورة أهل المدينة؟ ولماذا؟
- ٦ . هل ساهم الإمام في ثورة أهل المدينة؟ ولماذا؟
- ٧ . لماذا انهار الحكم السفيفاني وتزعزع الحكم الأموي بعد استشهاد الحسين عليه السلام؟
- ٨ . ما هي ثورة التوابين؟ ولماذا؟ ومتى انفجرت؟

ملاح عصر الإمام زين العابدين عليه السلام

أسس وعناصر قوة الحضارة الإسلامية

فجر الإسلام في غياهب الجاهلية نوره الثقافية العملاقة وأرسى بذلك قواعد وأسس الحضارة الإسلامية العظيمة.

فكانت الدعوة القرآنية إلى استخدام العقل وطلب العلم هي الركن الأول في هذه الثورة الثقافية، والتسامي إلى الكمال الأخلاقي والمعنوي هي الركن الثاني في هذه الثورة العملاقة، وجاء الجهاد في سبيل الله وطلب الشهادة كعنصر حيوي في هذه المنظومة الثقافية والأخلاقية الإلهية التي طلع بها الإسلام على المجتمع البشري آنذاك. وكانت النتيجة أن تحوّل المجتمع العربي الجاهلي المفتت في فترة قصيرة جداً - في حساب الحضارات - إلى دولة عظمى وحضارة جديدة تنطوي على عناصر القوة والبقاء والكمال.

غير أن الاهتمام الكبير بالفتوحات الإسلامية لم يرافقه الإهتمام بالصيانة الداخلية، أو قل: أن الإهتمام بالجهاد الأصغر لم يرافقه الإهتمام بالجهاد الأكبر المتمثل بتعميق الثقافة والأخلاق السامية والتكامل المعنوي بنحو يكون متكافئاً أو بنحو يضمن صيانة الأمة الإسلامية الفاتحة من عوامل الهدم المتمثلة في الغفلة عن حقيقة عالم الدنيا والغفلة عن التوجّه لعالم الآخرة والغفلة عما جاء الإسلام من أجله وهو انتشال الإنسان

من الضياع في عالم الحسّ والمادة والارتقاء به إلى عالم السمو والكمال المعنوي. ويعود ذلك في أحد أسبابه المهمة إلى عزل القيادة الإلهية الرشيدة عن ممارسة دورها المطلوب وهي قيادة الأئمة المعصومين بعد رسول الله ﷺ .. حيث أدى ذلك إلى افتقاد المرّبي الكفوء والحارس الأمين والحريص على تحقيق أهداف الرسالة... ولم تكن الفترة القصيرة التي حكم فيها الإمامان عليّ بن أبي طالب وابنه الحسن عليهما السلام كافية لردم ما دخل الأمة الإسلامية وتجدّر فيها من عوامل الضعف والانحيار.. وأخذ الحاكمون يهتمون بالفتوح لأسباب عديدة حيث كانت تحقق لهم عدّة مآرب ماديّة وسياسيّة في آن واحد^١.

فالعقود الأولى من تأسيس الدولة الإسلاميّة وبالضبط في العقد الثاني من تأسيسها كان المسلمون قد اتجهوا نحو الشرق والغرب وأخذوا يجاهدون لتوسيع رقعة الدولة الإسلاميّة.

وقد ساعدت الظروف السيّئة المسيطرة على الأمم المغلوبة أن تدخل الإسلام بسرعة وتفتح على المسلمين وعلى الثقافة الإسلاميّة انفتاحاً ملفتاً للنظر، وبدأت تتحضّر على الإسلام وأصبحت جزءاً من الأمة الإسلاميّة الكبرى فكان الإسلام لها نوراً وهدىً ونبراساً وقنطرة إلى الكمال المنشود.

ولكن هذه الفتوحات كانت ذات نتائج سلبية على المجتمع الإسلامي الفاتح. إلى جانب النتائج الإيجابية للأمم والشعوب الداخلة إلى حضيرة الإسلام، ويمكن إيجازها في خطرين أساسيين:

١. خطر الانحيار والمسح الثقافي.

١. المآرب الماديّة هي الفنائم والثروات التي تحقّق مكسباً مادياً للحاكم وللغزاة، ومن المآرب السياسيّة اشغال المسلمين بالعدوّ الخارجي وتفويت الفرصة على عناصر التوتّر الداخليين، فإنّ المسلمين يتحدّون أمام أعدائهم الخارجيين كما تنازل الإمام عليّ عن حقّه في الخلافة من أجل تفويت الفرصة على أعداء الإسلام المحيطين بالدولة الفتية.

٢ . خطر الانهيار والمسخ الأخلاقي.

وذلك أَنَّ هذه الموجة وإن امتدّت بزخمها الروحي وحماسها العسكري والعقائدي فزلزلت عروش الأكاسرة والقيصرة وضمت شعوباً مختلفة وبلاداً واسعة إلى الدعوة الإسلامية، وأصبح المسلمون قادة الجزء الأعظم من العالم المتمدّن وقتنذٍ خلال نصف قرن فقط... ولكنّها بالرغم من العوائد التي حصلت عليها الشعوب المفتوحة على الإسلام والمسلمين، قد عرّضت المسلمين لخطرین كبيرین خارج النطاق السياسي والعسكري.

والأوّل منهما: هو الخطر الذي نجم عن انفتاح المسلمين على ثقافات متنوعة وأعراف تشريعية وأوضاع اجتماعية مختلفة بحكم تفاعلهم مع الشعوب التي دخلت في دين الله أفواجا.

وهنا كان لابدّ من عمل على الصعيد العلمي يؤكّد في المسلمين أصالتهم الفكرية وشخصيتهم التشريعية المتميزة المستمدة من الكتاب والسنة^١.

وكان لابدّ من حركة فكرية اجتهادية تفتح آفاقهم الذهنية ضمن ذلك الإطار، لكي يستطيعوا أن يحملوا مشعل الكتاب والسنة بروح المجتهد البصير والممارس الذكي الذي يستطيع أن يستنبط منها ما يفيد في كلّ ما يستجدّ له من حالات. كان لابدّ إذن من تأصيل للشخصية الإسلامية، ومن زرع بذور الاجتهاد.

والثاني منهما: هو الخطر الذي نجم عن موجة الرخاء التي سادت المجتمع الإسلامي في أعقاب ذلك الإمتداد الهائل؛ لأنّ موجات الرخاء تعرّض أيّ مجتمع إلى خطر الإنسياق مع ملذّات الدنيا والإسراف في زينة هذه الحياة المحدودة، وانطفاء الشعور الملتهب بالقيم الخلقيّة والصلة الروحية بالله واليوم الآخر وبما تضعه هذه الصلة أمام الإنسان من أهداف كبيرة.

وقد ساهم الحكّام الأمويون أيضاً بقدر كبير في تشجيع حياة اللهو والطرب والميوعة بين أبناء الأمة الإسلامية.

ولكنّ الإمام زين العابدين عليه السلام قد قاوم هذين الخطرين وقام بعلاج كليهما بعد أن استلم مسؤولياته القيادية عند استشهاد أبيه عليه السلام بالإضافة إلى كلّ ما درسناه من مواقف الجهادية الرائعة التي كانت تتطلبها ثورة الإمام الحسين عليه السلام فيما بعد استشاده لتؤتي ثمارها كاملة بعد تلك الملحمة الاستشهادية العظيمة.

لقد أسّس الإمام عليه السلام مدرسة علمية إسلامية عامرة بصنوف المعرفة الإسلامية وكانت هي المنطلق لما نشأ بعد ذلك من مدارس الفقه والمعرفة كما سنلاحظ ذلك فيما بعد.

كما أنّه عالج الخطر الثاني أيضاً بسلام الدعاء الذي اتّخذه أساساً لعلاج الأمراض الروحية الناشئة من خطر الرخاء والانسياق مع الشهوات بالإضافة إلى الموعظة والتزهد في الدنيا قولاً وعملاً، كما سنلاحظ ذلك فيما سيأتي بالتفصيل.

هذا كلّه فيما يخصّ الحضارة الإسلامية والشرعية الإلهية والأمة الإسلامية بمختلف قطاعاتها واتّجاهاتها.

وأما الأخطار والمحن التي كانت تخصّ الجهاز الحاكم في الدولة الإسلامية أو بعض قطاعات الأمة المسلمة فيمكن تلخيصها فيما يلي:

محنة انحراف الحكّام

في نظرة سريعة إلى عصر الإمام زين العابدين - بدءً باستلامه لمهام الإمامة بعد استشهاد أبيه عليه السلام في ٢٥ محرّم الحرام سنة ٩٤ / أو ٩٥ - هجرية نلاحظ معاصرته لحكومة يزيد التي انتهت بهلاكه عام ٦٤ هجرية ثمّ حكومة مروان البالغة تسعة أشهر في الشام وحكومة ابن الزبير في مكّة، حيث بويع لعبد الملك بن مروان بعد هلاك أبيه عام ٦٥ هجرية.

وقد استمرّ التنافس بين ابن الزبير وعبد الملك حتّى عام ٧٣ هجرية حيث قتل ابن الزبير وخُلا كرسيّ الحكم لعبد الملك حتّى سنة ٨٦ هجرية، ثمّ بوع للوليد بعد هلاك عبد الملك، واستمر حكمه حتّى استشهاد الإمام زين العابدين سنة ٩٤ أو ٩٥ هجرية . إذن فترة حكم عبد الملك هي أطول فترة عاصرها الإمام عليّ عليه السلام حيث تبلغ العقدين (عشرين سنة) تقريباً.

وقد اجتمعت في هذا العصر عدّة عوامل لانهايار الحزب الأموي الحاكم ولكنّا نلاحظ استمرار الأمويّين في الحكم حتّى عام ١٣٢ هجرية فما هي الأسباب التي أدّت إلى دوام هذا الحكم الجاهلي المنحرف بالرغم من توفّر عناصر الهدم والانهايار؟ إذن لا بدّ أن ندرس كلّاً من عوامل الهدم إلى جانب عوامل الدوام، ثمّ نقارن بين المجموعتين لنرى الأسباب الواقعيّة التي وقفت وراء استمرار الحكم الأموي لمُدّة تناهز سبعة عقود بعد ثورة الإمام الحسين عليه السلام . ومن خلالها نقف على طبيعة الظروف الدينيّة والثقافيّة والسياسيّة والاقتصاديّة التي اتّصف بها عصر الإمام زين العابدين عليه السلام .

عوامل انهيار الحكم الأموي

١. ثورة الإمام الحسين عليه السلام

استطاعت ثورة الإمام الحسين عليه السلام أن تكشف زيف الأقنعة الدينيّة التي كان يتّجنّع بها الحكم الأموي الجاهلي حيث بدت القيم الجاهليّة التي هدمها الإسلام واضحة في سلوك الأمويّين الحاكمين، واتّضح لكلّ القطاعات زيف الشعارات الدينيّة التي يرفّها الحاكمون فإنّ الإمام الحسين عليه السلام قد قتل مظلوماً عطشاناً وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويدعو الناس إلى الإلتزام بشريعة جدّه المصطفى ﷺ ، وانكشف للمغفلين أيضاً أنّ الحسين عليه السلام لو كان طالب ملك لكان يبائع يزيد أولاً ثمّ ينتهز الفرصة ويستخدم أنواع الأساليب الملتوية للتسلّق إلى الحكم.

لقد أدان يزيد كلّ من أطّلع على أوامره بقتل الحسين بن عليّ عليه السلام قال الحافظ

السيوطي: «ولما قتل الحسين عليه السلام وبنو أبيه بعث ابن زياد برؤوسهم إلى يزيد، فسُرَّ بقتلهم أولاً ثم ندم لما مقتته المسلمون على ذلك، وأبغضه الناس، وحقَّ لهم أن يبغضوه»^١.

وقد أحييت الملحمة الحسينية في سنة ٦١ هـ روح الإباء والعزّة والكرامة لدى المسلمين، وتجلّت هذه الحقيقة في المعارضة الدموية المستمرة التي تمثّلت في الثورات المتتالية حتّى إسقاط الحكم الأموي فقد كانت ثورة أهل المدينة سنة ٦٢ هـ، ثمّ تلتها ثورة التوابين سنة ٦٤ هـ، ثمّ ثورة المختار بن أبي عبيدة الثقفي في الكوفة على الحكم الأموي سنة ٦٥ هـ ثمّ ثورة الخوارج في العراق ثمّ ثورة الأشعث ثمّ ثورة أبي مسلم الخراساني وتصفية الحكم الأموي سنة ١٣٢ هـ.

٢. حركة الإمام زين العابدين عليه السلام وعقائل الرسالة

لقد كانت خطب الإمام زين العابدين وعمّته زينب الكبرى عقيلة بني هاشم في كربلاء والكوفة والشام والمدينة أهمّ حواضر العالم الإسلامي تشكّل الدور الثاني والمكمل للثورة الحسينية العملاقة، وذلك لأنّ رسالة الثورة الحسينية لولا هذه الخطب الفاضحة لحقيقة التعامل الأموي مع أهل بيت الوحي والمفسّرة لأبعاد ومعالَم الثورة الحسينية والكاشفة عن حقيقتها؛ لكانت شعارات الأمويين المضلّلة تقضي على أهداف هذه الثورة العظيمة، فإنّ الأمويين حاولوا بكلّ جهدهم أن يصفوا الإمام الحسين عليه السلام بالخروج على شريعة جدّه، على العكس تماماً من واقع ثورته التي استهدف فيها الإطاحة بالحكم الجاهلي وإحياء شريعة جدّه صلّى الله عليه وآله.

وكان للإمام زين العابدين عليه السلام أيضاً دور آخر لإكمال المسيرة الحسينية في أشدّ الظروف حرجاً وقد استمرّ ذلك حتّى استشهاده، كما سوف نقف عليه فيما بعد إن شاء

اللّٰه تعالى^١.

٣. انهيار الحكم السفيناني وانشقاق البيت الأموي

لقد هلك يزيد سنة ٦٤هـ بعد أن ارتكب الفضائح العظام التي تمثّلت أولاً بقتله للإمام الحسين عليه السلام ثم استباحته لمدينة الرسول صلى الله عليه وآله وقتل الصحابة والتابعين فيها سنة ٦٢هـ ثم هدمه الكعبة واستباحتها سنة ٦٣هـ.

ولم يستعد ابنه معاوية أن يتحمّل وزر بني أمية في اغتصاب منصب الخلافة ولم يستخلف أحداً، بل أَدان معاوية الأوّل وأباه يزيد بن معاوية، وبهذا انهيار الحكم السفيناني لولا تدارك مروان للأمر والتخطيط لاستلام الخلافة في هذا الظرف المتخلخل والمضطرب بعد موت معاوية بن يزيد وحاول السيطرة على مصر والشام والأردن، ثم بايع لابنه عبد الملك في وقت كان قد بايع أهل الشام لعمر بن سعيد بعده. وهكذا أخذ البيت الأموي بالانشقاق والتصدّع.

عوامل استمرار الحكم الأموي

عرفنا أنّ هناك عدّة عوامل تلاحمت للقضاء على الحكم الأموي بعد موت معاوية بن أبي سفيان الذي قضى على كلّ معارضة ضده وخنقها بالقوّة وبالفظاء الديني الذي كان يلبس به حكمه بالرغم من غدره وفتكه ونقضه لبنود الصلح مع الإمام الحسن بن علي عليه السلام.

وقد انتهى الحكم السفيناني عام ٦٤هـ ثم أعقبه الحكم المرواني الذي استمرّ حتّى عام ١٣٢هـ. وإذن لم يسقط الحكم الأموي الجاهلي بالرغم من تلاحم عدّة عوامل قويّة لإبادته.

ويبدو أنّ الأمويين المروانيين قد استفادوا من تجربة يزيد الفاشلة والتي أبادت

١. لاحظ مبحث ظاهرة البكاء ودور الإمام السجّاد لإكمال المسيرة الحسينيّة.

حكومته بسبب التعرّض الفضيع لأهل بيت الرسالة عليه السلام وهتك حرّمات الشريعة والحرمين الشريفين، كما استفادوا من تجربة معاوية بن أبي سفيان الذي كان يغطّي حكمه بغطاء شرعي مزيف.

إنّ حقيقة الحكم الأموي الجاهلي قد انكشفت بشكل علني لكلّ المسلمين تقريباً بعد استشهاد الحسين عليه السلام سليل النبوة والرسالة. فروح الثورة الحسينيّة قد دبت في أوساط المجتمع الإسلامي. فكان لابدّ لهم من المقاومة أمام هذين العنصرين المؤدّيين إلى الإنهيار.

ولكننا نجد اتّجاه الحكم نحو تحقيق غطاء شرعي - وإن كان مزيفاً في الواقع - ليستند عليه الحكم ويبدو مشروعاً واجب القبول. كما نجد منهم اتّجهاً واضحاً نحو إضعاف عنصر الحماس والجهاد بين أبناء المجتمع من خلال المساهمة الجادة في عمليات المسخ الثقافي والأخلاقي وتفتيت الجبهة المعارضة بكلّ الوسائل المتاحة وعدم التعرّض المباشر لأهل البيت عليه السلام. وإليك صورة موجزة وسريعة عن كلّ واحد من هذه الأسباب:

١. الغطاء الشرعي للحكم المنحرف

يتمثّل الغطاء الشرعي في مفردتين أساسيتين:

الأولى: وعّاظ السلاطين.

الثانية: مفاهيم عقائديّة ودينيّة خاطئة.

بعد أن كشفت الثورة الحسينيّة زيف الخطّ الحاكم وجاهليّة الحكم الأموي كان لابدّ للسلطة من استخدام بعض العلماء للتعاون معها وتوجيه خطتها وسلوكها مثل محدّد بن مسلم بن شهاب (الزهري) والشعبي.

وكان لارتباط مثل هؤلاء بالسلطة دور إيجابي في إسباغ الطابع الشرعي على الحكم القائم.

كما كان لمفاهيم الجبر وحرمة الخروج على الحاكم المسلم وإسباغ طابع القدسيّة على الخلافة والخليفة وحرمة ترك الجماعة وحرمة نقض البيعة.. دور إيجابي أيضاً في التوجيه العقائدي والديني لتصرّفات الحاكمين.

٢. عدم التعرّض المباشر والصريح لأهل البيت عليه السلام

عرفنا إنّ أطول فترة حكم في عصر الإمام زين العابدين عليه السلام هي فترة حكومة عبد الملك بن مروان، وقد استفاد عبد الملك بن مروان من التجربة الخاطئة للحكم السفيفاني تجاه أهل البيت عليه السلام.

فاستعمل سياسة مرنة تجاه الإمام زين العابدين والهاشميين (بني عبد المطلب) من جهة بينما شدّد على أتباعهم من جهة أخرى وذلك امتصاصاً للنقمة ضد حكمه. ولا تعني مرونته هذه تجاه الإمام عليه السلام أنّه كان يحترم الإمام واقعاً ولا يمسه بسوء أبداً، وإنّما اجتنب مظاهر الخشونة التي تولّد بطبيعتها ردّة فعل شعبيّة عنيفة. وقد أرسل عبد الملك إلى الحجاج كتاباً جاء فيه: «أما بعد فانظر دماء بني عبد المطلب فاحتقنها واجتنبها فإنّي رأيت آل أبي سفيفان لما ولغوا فيها لم يلبثوا إلّا قليلاً». وهناك محاولات دون القتل سجّلها التاريخ عن عبد الملك تجاه الإمام عليه السلام، مثل غزوه بتزويج الإمام لمولاته التي أعتقها وتهديده للإمام بقطع رزقه من بيت المال إن لم يسلمه سلاح رسول الله ﷺ وإلقاء القبض على الإمام وتسريحه إلى دمشق^١.

٣. تفتيت جبهة المعارضة

تركّزت سياسة الحاكمين الأمويّين بشكل عامّ على قمع وتفتيت جبهة المعارضة منذ عصر معاوية، وكان ذلك من خلال عدّة وسائل وقنوات:

منها: الرقابة التامة والضغط الشديد الموجه إلى مراكز التحرك التي عرفها السفنيانيون وهي مراكز الولاء لأهل البيت عليه السلام مثل الكوفة وما والاها.

ومنها: الضغط الاقتصادي وسياسة التجويع.

لقد سَلَطَ عبد الملك الحجاج السفك للقضاء على حركة ابن الزبير ثم سَلَطَهُ على العراق حيث توجّه إلى شيعة أهل البيت عليه السلام فقتلهم شرّ قتل وأخذهم بكلّ ظنة وتهمة حتّى أن الرجل كان أحبّ إليه أن يقال له زنديق أو كافر من أن يقال له شيعة عليّ. وقد أوصى عبد الملك أبناءه بالحجاج خيراً وطلب منهم الاستعانة به لأنّه هو الذي وطأ لهم الملك بسفكه لدماء المعارضين^١.

ومن أساليب تفتيت جبهة المعارضة التأكيد على النزعة القبلية الجاهلية وسياسة التفريق بين أبناء الأمة وتشديد التناقض الطبقي الذي أكّد عليه من سبقهم من الخلفاء بدءً بعمر بن الخطّاب، ثمّ عثمان ثمّ معاوية حيث كان لهذه السياسة آثار إيجابية في تجويع العامة والأخذ بزمام الأقلية المترفة من رؤساء القبائل وأصحاب النفوذ الاجتماعي.

ونستطيع أن نضيف إلى عوامل تفتيت المعارضة سياسة الخداع والتضليل الديني حيث أنّ التضليل الديني بشتّى أشكاله يستطيع إضعاف التحرك المضادّ حيث يضعف الدواعي للخروج على الحكم القائم الذي يتصوّر السذج من الناس مشروعيتّه وحرمة الخروج عليه.

كما أنّ المسخ الأخلاقي والثقافي الذي - كان للحاكمين في تقويته دور فاعل - يساعدان على إضعاف الجبهة المعارضة لأنهما يسلبان الإنسان القدرة على المعارضة ويشلّان عزمه على الخروج والاعتراض.

وهكذا استطاع الحكّام المنحرفون بالرغم من توفّر عوامل الانهيار أن يستمرّوا في

١. راجع تاريخ الخلفاء ومروج الذهب واليعقوبي: حياة عبد الملك.

الحكم أكثر من سبعة عقود حتى تغلبت عناصر الهدم على عناصر البناء حيث أولفوا أيديهم في دماء أهل البيت عليه السلام. فالوليد بادر إلى سمّ الإمام زين العابدين عليه السلام ، وسمّ الإمام الباقر عليه السلام في سنة ١١٤ هجرية بأيدي أموية أيضاً.

واستطاع أهل البيت عليه السلام أن يزيلوا الغطاء الشرعي الذي اصطنعه الظالمون لأنفسهم من خلال تعرية الوجعظ أمام الناس والردّ على المفاهيم الدينية الخاطئة من خلال العقيف الصحيح وتوعية الأمة على مفاهيم الكتاب والسنة الصحيحة، وتقوية شيعة أهل البيت ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً من خلال بناء كتلة متضامنة ومتعاضة ومنظمة من شيعتهم وتربية علماء أفاضل يقومون بدور تثقيفي واجتماعي وسياسي فاعل.. حتى بلغ الأمر أن يتجه العباسيون لاستلام السلطة تحت شعار الدفاع عن مظلومية أهل البيت عليه السلام وكسب رضاهم، فتسلقوا إلى السلطة باسم أهل البيت عليه السلام فحسب.

وفي هذا دلالة واضحة على عظمة الدور الذي قام به أهل البيت عليه السلام وشيعتهم لتعرية الباطل وتبيان الحق وتعرية الحكم الظالم من كلّ عناصر القوة خلال عقود معدودة.

الناص

- اتسم عصر الإمام زين العابدين عليه السلام - والذي أعقب موجة الفتوح الأولى - بانفتاح الأمة الإسلامية على سائر الشعوب مما أدى إلى أن تواجه خطرين كبيرين: خطر المسخ الثقافي وخطر الانهيار الأخلاقي.
- وكانت نشاطات الإمام عليه السلام متجهة إلى معالجة هذين الخطرين من خلال التأصيل العلمي والثقافي والتربية الأخلاقية عن طريق ربط الإنسان بربه في عالم المادة من خلال الدعاء والتفاني في المعبود الحق.
- وكان على الإمام عليه السلام أن يواجه انحراف الحكام بنحو لا تتضرر بذلك الدولة الإسلامية ككيان سياسي إسلامي، ولا يستغل الحكام ذلك لتثبيت حكمهم المنحرف. وقد جمع الحكام مجموعة من عوامل البقاء إلى جانب عوامل الهدم التي كانت قد اجتمعت لانهيار الحكم الأموي الظالم، وتمثلت هذه العوامل بالغطاء الشرعي للحكم المنحرف وعدم التعرض الصريح والمباشر لأهل البيت عليه السلام وتفتيت جبهة المعارضة، وكان على الإمام عليه السلام أن يستجيب لمتطلبات هذه المرحلة بشكل خاص إلى جانب اهتمامه بمتطلبات المسلمين على المدى البعيد بشكل عام أيضاً.

الأسئلة

- ١ . ما هي عناصر القوة في الحضارة الإسلامية؟
- ٢ . لماذا دخلت الأمم بشكل سريع في الإسلام؟
- ٣ . ما هي الأخطار التي تعرّضت لها الأمة الإسلامية بعد موجة الفتوح الأولى؟
- ٤ . ما هي عوامل انهيار الحكم الأموي بعد منتصف القرن الأوّل؟
- ٥ . لماذا لم ينته الحكم الأموي بالرغم من توفر عناصر انهياره؟
- ٦ . ما هي الأساليب التي استخدمها الأمويون لتفتيت جبهة المعارضة؟
- ٧ . ما هي متطلبات عصر الإمام زين العابدين عليه السلام بشكل خاص؟

ملاحح التخطيط

في سيرة الإمام زين العابدين عليه السلام

إذا عرفنا أولاً المهام الأساسية التي اختار الله لتحقيقها أهل بيت الرسالة بعد الرسول ﷺ - هي صيانة الرسالة والأمة والدولة الإسلامية من الضياع - حيث جاهد الرسول ﷺ والصفوة الخيرة من صحابته من أجل تبليغ وتطبيق النظام الإسلامي وإرساء قواعده على وجه الأرض .

وعرفنا ثانياً التخطيط الماكر الذي قام به أعداء الإسلام لمحو الإسلام المحمدي المتمثل في خط أهل بيت الوحي، وذلك من خلال عزل أهل بيت الرسالة عليه السلام عن مزاوله مهامهم الرسالية في الميدان السياسي والاجتماعي بالإضافة إلى الميدان التشريعي والتربوي والتثقيفي.

وعرفنا ثالثاً الأساليب والأطر والقنوات التي تمّ هذا العزل من خلالها، وعرفنا النتائج التي كان يتوقّع حصولها بعد هذا العزل الذي اقترن بالتزام أهل البيت عليه السلام بالأصول الأخلاقية والمنهج القيمي الذي دعا إليه الإسلام وأرسى قواعده الرسول ﷺ إلى جانب معرفة الأعداء بالتزام أهل البيت عليه السلام بأصول الشريعة والرسالة وعدم تخطيهم عن قيمها، وعدم الالتواء في التعامل حتى مع أعدائهم، حينئذ نكون قادرين على فهم عظمة الدور الذي قام به أهل البيت عليه السلام في الظروف الحرجة التي

كان ينبغي من خلالها أن يُحفظ تراث الرسول ﷺ وثمره جهاده من الضياع ويقاوم الانحراف العميق الذي بدأ بالظهور والتطور بسرعة فائقة والنفوذ في جسم الأمة والدولة وأخذ يتسرّب إلى الرسالة والشرعة بشكل تدريجي.

ولولا صبر أهل البيت عليهم السلام وأناة وحلمهم، ولولا تخطيطهم الحكيم الذي كان يجمع الأصالة والدقة والعمق والمشروعية؛ لما كان يندحر الباطل القابع تحت ستار الشعارات الإسلامية البراقة، ولما كان الباطل المختبئ تحت أطرومفاهيم دينية ينكشف لعامة المسلمين ولما كان التاريخ يخلدهم كأبطال حملوا لواء التضحية والفداء من أجل العقيدة الإلهية والشرعة الربانية.

المرحلية والتدرج في العلاج

لقد تدرّج أهل البيت عليهم السلام في تخطيطهم الحكيم - والذي نعتقد أنه كان بإشارة وتنسيق من الرسول ﷺ لعلاج حالات الطوارئ التي كان يترقبها وهو يعيش كلّ تناقضات ذلك المجتمع الجاهلي في أفق الواقع المنظور ويرى آفاق المستقبل المُقبل بسرعة فائقة.

ولا مانع من أن يكون هذا التخطيط ربّانياً وفي نفس الوقت واقعياً وموضوعياً يمكن اكتشافه والاهتداء به والسير على هديه، كما هو منهج القرآن الكريم في التعامل مع كلّ وقائع التاريخ وحقائقه.

وكان تدرّج أهل البيت عليهم السلام في تخطيطهم منسجماً مع عمق الانحراف وتدرّجه ومتناسقاً مع مجموعة الآثار السلبية التي كان يولدها الانحراف في القيادة على شتى المستويات ومختلف الجوانب، تشريعية كانت أو سياسية واجتماعية وثقافية ودينية وأخلاقية.

وإذا استطعنا أن نصنّف سلوك أهل البيت عليهم السلام لمعالجة الانحراف الذي أصاب المجتمع والدولة والشرعة فإننا سوف نلاحظ نوعاً من المرحلية في العلاج إلى جانب

نوع من العلاج المشترك الذي التزم به كل الأئمة عليهم السلام وعلى طول الخطّ الجهادي الذي قطعوه خلال ثلاثة قرون تقريباً^١.

معالم المرحلة الأولى

وكانت المرحلة الأولى من العلاج - حين كان الانحراف طافياً على السطح ولم يأخذ طريقه باتجاه الأعماق والجذور على صعيد المجتمع والدولة والشرعية. وتتمثل هذه المرحلة في كشف الانحراف وبيان مصاديقه، وكان يكفي إعلان الحقيقة الضائعة وهي أحقية أهل البيت عليهم السلام بالخلافة وكشف زيف المتربّعين على منبر الخلافة وعدم شرعية خلافتهم بنحو لا يزعزع أركان النظام الإسلامي ولا يؤدي إلى ارتداد المسلمين وهم في بداية الطريق الشائك الذي سلكه الأنبياء والصالحاء. وتجسّد هذا العلاج في سيرة الأئمة الأربعة: عليّ بن أبي طالب عليه السلام والحسن والحسين والمقطع الأوّل من حياة الإمام زين العابدين عليه السلام حيث كانت درجة الانحراف تتطلب هذا المقدار من العلاج.

معالم المرحلة الثانية

ولكن بعد تجذّر الانحراف وتطوّر آثاره واتساع دائرته كما لاحظنا ذلك من قبل، حيث رأينا بوضوح كيف استطاع الحكم المنحرف أن يستمرّ حضوره في الساحة وهو يحمل في طياته عناصر الانهيار، وكيف تسلّح الحاكمون بغطاء شرعي لحكوماتهم، وكيف استدعى ذلك تسرّب الانحراف إلى جوانب خطيرة تكاد تمسّ الشريعة والأمناء

١. فللأئمة عليهم السلام اهتمام بالغ ومستمرّ بتربية الجماعة الصالحة (شيعة أهل البيت وحملة الإسلام النقي) على طول الخطّ ولهم اهتمام عامّ بشؤون المسلمين عامة، تعليماً وتربية وتوعية سياسية. بالإضافة إلى المعالجة الخاصة لأهمّ الظواهر السلبية والانحرافية في كلّ عصر.

عليها وهم العلماء بالشريعة الَّذِينَ يتوقع منهم صيانتها والحفاظ عليها، هنا كان لابد لأهل البيت عليهم السلام من تخطيط يتناسب مع هذه المرحلة من تطوّر الداء وتجدّد الانحراف.

وبداية هذه المرحلة هي العقود الثلاثة والأخيرة من حياة الإمام زين العابدين عليه السلام والتي كانت بعد زوال الحكم السفياني وبداية استفحال الحكم المرواني. إنّ انكشاف زيف الخطّ الأموي الحاكم وانحراف الحكّام لدى قطاع واسع من المسلمين استدعى إيجاد غطاء شرعي يقبع تحته الحاكمون، وهنا قام بعض أهل العلم من رواة وفقهاء - ومتمّن عرفوا فيما بعد بوعاظ السلاطين - بدور مهمّ لإيجاد هذا الغطاء الشرعي في نظر عامة المسلمين، وحققوا بذلك غرضين كبيرين:

الأول: منح الشرعيّة للحاكمين.

والثاني: محاولة عزل أبناء الأمة الاسلاميّة عن مدرسة أهل البيت عليهم السلام، إذ كان هؤلاء الرواة والفقهاء يشكّلون وجهاً علمياً وثقافياً معترفاً به لدى الحكّام والسلاطين، باعتبارهم امتداداً لمدرسة الصحابة التي استهدفوا منها إيجاد بديل مقبول لأهل البيت بعد أن يتمّ عزلهم عن الساحة الثقافيّة والدينيّة بالرغم من أنهم هم الأمانة على الرسالة والشريعة.

وقد كان لمنع تدوين السُنّة النبويّة من قبل أبي بكر وعمر دور فاعل في تنشيط هذه المدرسة وإبراز الصحابة على أنهم حملة علم النبي صلّى الله عليه وآله، وفسح وجال إبداء الرأي لهم بعد ضمور مصادر العلم الإلهي وإلغاء التميّز العلمي لأهل البيت عليهم السلام في مجال حفظ واستيعاب وتبليغ تراث الرسول صلّى الله عليه وآله.

إذن كان هذا الغطاء يعبر عن خطرين كبيرين على مستقبل الأمة والرسالة والدولة والحضارة الإسلاميّة بشكل عام، وهما:

١. خطر استمرار الخطّ المنحرف في الحكم.
٢. خطر عزل الأمة عن معين أهل البيت الرسالي وذلك بتقديم البديل الناقص أو

المنحرف لإشباع حاجة الأمة المتنامية إلى استيعاب سنة الرسول صلى الله عليه وآله الصحيحة.

متطلبات المرحلة الثانية

١. إن هذه المرحلة الجديدة كانت تتطلب من أهل البيت عليهم السلام - الأمناء على الرسالة وعلى صيانة الأمة الإسلامية من الانهيار - إحباط هذه المؤامرة.

ومن هنا نفهم أنه لماذا تركّزت جهود أهل البيت عليهم السلام بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام على بناء جامعة أهل البيت عليهم السلام العلميّة وتخريج علماء وفقهاء أتقياء يكونون أمناء على الشريعة لا يهادنون السلطة ولا يسرون في ركابها ويشكّلون تياراً علمياً وزخماً ثقافياً ومدرسة ذات أصول ومناهج ورموز في شتى ميادين المعرفة الإسلامية يقومون باكتساح الساحة العلميّة والدينيّة في المجتمع الإسلامي .

إن مراجعة سريعة لكتاب تأسيس الشيعة لعلم الإسلام وكذلك كتاب الشيعة وفنون الإسلام وموسوعة أعيان الشيعة... تكشف لنا عظمة المجهود الذي قدّمه أهل البيت عليهم السلام لمعالجة هذا الخطر الذي قد أهدق بالأمة الإسلامية وبالشريعة بعد منتصف القرن الأوّل الهجري واستمرّ على مدى قرنين أو أكثر.

وكانت أوّل نتائج هذا الجهد المشكور: صيانة الشريعة الإسلامية من أنواع التحريف الذي بدأ يتسرّب إليها، وذلك من خلال تربية العلماء الأمناء عليها والسهر على حراستها متّخذين من معين أهل البيت عليهم السلام الرسالي كلّ عناصر القوة والأصالة والإبداع والحيوية.

قال الشهيد الصدر رحمته الله: «كان لابدّ من عمل على الصعيد العلمي يؤكّد في المسلمين أصالتهم الفكرية وشخصيتهم التشريعية المتميّزة المستمدة من الكتاب والسنة، وكان لابدّ من حركة فكرية اجتهادية تفتح آفاقهم الذهنية ضمن ذلك الإطار لكي يستطيعوا أن يحملوا مشعل الكتاب والسنة بروح المجتهد البصير والممارس الذكي الذي يستطيع أن يستنبط منها ما يفيد في كلّ ما يستجدّ له من حالات، كان لابدّ إذن من تأصيل

للشخصية الإسلامية، ومن زرع بذور الاجتهاد.

وهذا ما قام به الإمام علي بن الحسين عليه السلام فقد بدأ حلقة من البحث والدرس في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله يحدث الناس بصنوف المعرفة الإسلامية، من تفسير وحديث وفقه، ويفيض عليهم من علوم آبائه الطاهرين، ويحرّز النابيين منهم على التفقه والاستنباط.

وقد تخرّج من هذه الحلقة عدد مهمّ من فقهاء المسلمين، وكانت هذه الحلقة هي المنطلق لما نشأ بعد ذلك من مدارس الفقه والأساس لحركته الناشطة^١.

وهكذا زيّف أهل البيت عليهم السلام هذا الغطاء الذي تلبّس به الحكم المنحرف من قبل الخلفاء المتمثّل بترية العلماء.

٢. ولم يكتف أهل البيت عليهم السلام بالعمل الإيجابي وطرح البديل الصحيح لفضح الخطّ المنحرف وإنّما قاموا بمناظرات جادة تكشف مدى انحراف العلماء المنتمين إلى السلطة والذين حقّقوا باتمتاعهم إليها غطاءً مشروعاً لها لدى عامّة المسلمين.

٣. وحارب أهل البيت عليهم السلام كلّ الأفكار والعقائد الخاطئة في عصرهم، والتي كان الحكم يتذرّعون بها أو كان يروّجها لهم علماء البلاط إسناداً لهم ودفاعاً عن حكمهم.

٤. واستطاع أهل البيت عليهم السلام أن يحققوا نجاحاً باهراً في توجّه أنظار المسلمين إليهم باعتبارهم حملة مشعل الوحي والرسالة بعد الرسول صلى الله عليه وآله، لارتباطهم بالرسول، ولفضلهم الذي كان يفوق فضل من سواهم بالرغم من كلّ التحذيرات التي مورست والتضييب على فضلهم وكماالاتهم من قبل السلطة وعمّالها.

٥. وساهم طلاب مدرسة أهل البيت عليهم السلام في نشر فضلهم العلمي وتمييزهم الديني والمعرفي على من سواهم. وهكذا بدأ المسلمون - بالرغم من كلّ الظروف المعاكسة لحركة أهل البيت عليهم السلام - يشعرون بضرورة الارتباط بأهل البيت عليهم السلام، وأصبح الولاء

القلبي لأهل البيت عليه السلام مُعلماً واضحاً لدى عامة العلماء وبالتدرّج لدى قطاعات كبيرة من المسلمين.. وبلغ الأمر حدّاً جعل الخلفاء وعلماء البلاط يشعرون بالخطر المهدّد بهم من حضور ذكر أهل البيت عليه السلام في الساحة الإسلاميّة وتجلّى ذلك بوضوح في عصر الإمامين الباقر والصادق عليه السلام ثمّ الكاظم والرضا عليه السلام... واستمرّ بالتألق حتّى عصر الإمام العسكري عليه السلام. وبدل على ذلك مدى التضييق عليهم وشدّة الرقابة المفروضة على نشاطاتهم الاجتماعيّة والفرديّة وحتّى العائليّة، وشؤونهم الداخليّة الخاصّة.

فتشديد النقمة على الحكم الأموي ثمّ على الحكم العبّاسي وتعميم المواجهة واستمرارها هي من آثار هذا النشاط الثقافي الذي مارسه الأئمّة عليه السلام في هذه المرحلة واستمرّ حتّى مراحل متأخّرة من حياتهم في القرن الثالث الهجري.

أهل البيت والدولة الإسلاميّة

وأما موقف أهل البيت عليه السلام في هذه المرحلة من الحكم ومن الدولة الإسلاميّة بشكل خاصّ فكان يتمثّل في ما يلي:

إنّ الحاكم كشخص يختلف عن الدولة والنظام الإسلامي؛ لأنّ انحراف الحاكم وإن كان له تأثير سلبي على الدولة والمجتمع الإسلامي؛ لكنّ الحفاظ على الدولة الإسلاميّة - ككيان سياسي إسلامي أسسه الرسول ﷺ - واجب على كلّ مسلم ولا يجوز التفرّط به، وقد لاحظنا تنازل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام عن الخلافة لأجل حفظ هذا الكيان من التصدّع ولأحفظنا كذلك سيرة الإمام الحسن المجتبي عليه السلام، وكانت ثورة الإمام الحسين عليه السلام ضدّ يزيد الفاسق المعلن بفسقه وضدّ حزيه وجلالوته للإطاحة به كحاكم مستهتر بالحرّات ولم يكن ذلك منه في زمن حكم معاوية بالرغم من انحرافه.

ومن هنا كان الأئمّة بعد الإمام الحسين عليه السلام يقدّمون الخدمات التي تتطلّبها كلّ

مرحلة لحفظ كيان المسلمين المعبر عن شخصيتهم ووجودهم السياسي في العالم، ويشهد لذلك دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام، لأهل الثغور، وتقديم الحل المناسب لمشكلة النقد التي واجهها عبد الملك بن مروان^١ ويشهد لذلك أيضاً ما جاء في رسالة الحقوق المأثورة عن الإمام زين العابدين عليه السلام والتي تضمنت بشكل كامل حقوق واحد من الراعي والرعية أي حقوق الحاكم والأمة معاً^٢.

أهل البيت عليهم السلام و الحكام المنحرفون

لخص الإمام زين العابدين عليه السلام موقفه من الحكام المنحرفين في الفقرة التالية من دعائه في يوم الجمعة:

«اللهم إن هذا المقام لخلفائك وأصفيائك ومواضع أمانتك في الدرجة الرفيعة التي اختصصتهم بها، قد ابتزوها حتى عاد صفوتك وخلفاؤك مغلوبين مقهورين مبتزين يرون حكمك مبدلاً وكتابك منبواً وفرائضك محرقة عن جهات أشرا عك وسنن نبيك متروكة. اللهم العن أعداءهم من الأولين والآخرين ومن رضي بفعالهم وأشياهم وأتباعهم...»^٣.

وما كان الإمام يجاري الحكام في شيء مما يتوقعونه منه حتى أنه لم يستجب لتهديد عبد الملك حين طلب من الإمام تسليمه سيف رسول الله صلى الله عليه وآله^٤. كما أنه رد على عبد الملك إذ انتقصه حين بلغه نبأ تزوج الإمام عليه السلام بمملوكته التي كان قد أعتقها^٥.

١. أنظر بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ١٠٤ ومقدمة الصحيفة السجادية للشهيد الصدر.

٢. راجع دعاء أهل الثغور في الصحيفة السجادية ورسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام في تحف العقول.

٣. راجع الصحيفة السجادية، دعاؤه يوم الجمعة.

٤. راجع محاسن البرقي.

٥. بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ١٦٤.

وإن إدانة الإمام عليه السلام لسلوك مثل الزهري الموالي للبلاط هي إدانة للحاكم الذي وظف العلماء والمحدثين لإضفاء الشرعية على سلطته^١.

الإمام زين العابدين و المسخ الثقافي و الأخلاقي

وتميّز عصر الإمام زين العابدين عليه السلام بما قلناه من الانفتاح على الحضارات الأخرى ودخول الأقواج الكبيرة في رحاب الدولة الإسلامية المترامية الأطراف والفتوحات ذات الغنائم والمكاسب المادّية الكثيرة المؤدّية إلى المسخ الثقافي والأخلاقي بالتدريج. فكانت المرحلة تتطلّب من الإمام عليه السلام أن يقف أمام هذا المسخ الخطير. وكانت جهوده العلميّة والتربويّة هي الحصن المنيع أمام المسخ الثقافي.

وأما المسخ الأخلاقي فكان يتطلّب جهداً من نوع آخر توجه إليه الإمام عليه السلام ووجه إليه الأمة بشكل عامّ، والجماعة الصالحة بشكل خاصّ. ومن هنا برزت في مدرسة أهل البيت عليه السلام ظاهرة الدعاة التي ميّزتها عن سائر المدارس الإسلاميّة.

قال الشهيد الصدر رحمه الله: «إن موجات الرخاء تعرّض أيّ مجتمع إلى خطر الانسياق مع ملذّات الدنيا والإسراف في زينة الحياة المحدودة وانطفاء الشعور الملتهب بالقيم الخلقيّة والصلة الروحيّة باللّه واليوم الآخر وبما تصنعه هذه الصلة أمام الإنسان من أهداف كثيرة، وهذا ما وقع فعلاً. وتكفي نظرة واحدة في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ليتضح الحال.

وقد شعر الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام بهذا الخطر وبدأ بعلاجه واتّخذ من الدعاة أساساً لهذا العلاج وكانت الصحيفة السجاديّة .. من نتائج ذلك. فقد استطاع هذا الإمام العظيم بما أوتي من بلاغة فريدة وقدرة فائقة على أساليب التعبير العربي وذهنيّة ربّانيّة تتفكّق عن أروع المعاني وأدقّها في تصوير صلة الإنسان بربه ووجده بخالقه وتعلّقه

بمبدئه ومعاده، وتجسيد ما يعبر عن ذلك من قيم خلقية وحقوق وواجبات... لقد استطاع الإمام عليّ ابن الحسين عليه السلام بما أُوتي من هذه المواهب أن ينشر من خلال الدعاء جوّاً روحياً في المجتمع الإسلامي يساهم في تثبيت الإنسان المسلم عندما تعصف به المغريات وشده إلى ربّه حينما تجرّه الأرض إليها وتأكيد ما نشأ عليه من قيم روحية لكي يظلّ أميناً عليها في عصر الغنى والثروة، كما كان أميناً عليها وهو يشدّ حجر المجاعة على بطنه.

وقد جاء في سيرة الإمام عليه السلام أنّه كان يخطب الناس في كلّ جمعة ويعظهم ويزهدهم في الدنيا ويرغبهم في أعمال الآخرة ويقرع أسماعهم بتلك القطع الفنية من ألوان الدعاء والحمد والثناء التي تمثل العبودية المخلصة لله سبحانه وحده لا شريك له.

وهكذا تعرف أنّ الصحيفة السجادية تعبّر عن عمل اجتماعي عظيم كانت ضرورة المرحلة تفرضه على الإمام إضافة إلى كونها تراثاً رباتياً فريداً يظلّ على مدى الدهور مصدر عطاء ومشعل هداية ومدرسة أخلاق وتهذيب وتظلّ الإنسانية بحاجة إلى هذا التراث المحمّدي العلويّ وتزداد حاجة كلّما ازداد الشيطان إغراءً والدنيا فتنة^١.

الإمام زين العابدين عليه السلام والجماعة الصالحة

إنّ أهل البيت عليهم السلام الأمناء على صيانة الإسلام من الزيغ والأهواء كان عليهم أن يبيّنوا الحقّ كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إذا ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالم علمه فمن لم يفعل فعليه لعنة الله.^٢

فكلّما كان الانحراف يتّسع ويتمتّق؛ كان على الأئمة المعصومين أن يوضّحوا

١. راجع مقدّمة الصحيفة السجادية للشهيد الصدر.

٢. راجع بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٦١ و ٢٨٣، باب البدعة والسنة وباب البدع والرأي.

معالم الإنحراف ومعالم الحق ويرشدوا طلاب الحقيقة إليها. وهكذا أخذت تتضح المعالم التفصيلية للإسلام النقي بالتدريج في الوسط المنحرف الذي كان يعيش فيه الأئمة المعصومون وأتباعهم الصالحون.

وكان على الأئمة عليهم السلام أن يهتموا بهؤلاء الأتباع الذين اتبعوا أهل البيت لأنهم يمثلون خط الإسلام النبوي ولأنهم يحملون راية الحق. وكان هذا الاهتمام شاملاً لكل جانب تحتاجه الجماعة الصالحة.

وهكذا أخذت بالتدريج تتضح معالم التشيع وخصائص الإنسان المسلم المشايخ لأهل البيت عليهم السلام، وكان عصر الإمام زين العابدين عليه السلام بشكل بداية اتضاح هذه المعالم.

ووصايا الإمام عليه السلام لشييعته وأتباعه هي خير مرشد لمدى هذا الإهتمام من الإمام عليه السلام.

الناص

□ كل من يقف على خصائص عصر الإمام زين العابدين عليه السلام ويلاحظ سلوك الإمام عليه السلام يجد انسجاماً كبيراً بين سلوكه وسيرته وبين متطلبات عصره، فكان تخطيطاً واقعياً كان يتحكم في سيرته وسلوكه عليه السلام.

□ و يتلخص نشاطه عليه السلام في كشف الأقنعة المزيفة التي قبع الحاكمون تحتها مستغلين غطاءً دينياً يتمثل في توجيه الحكم المنحرف وإعطائه صبغة دينية إسلامية لمفاهيم خاطئة كان يروجها هؤلاء المرتبطون بالبلاط كمفهوم الجبر وحرمة الخروج على الحاكم المسلم وإن كان ظالماً. وكان بناء جامعة أهل البيت عليهم السلام بشكل تفصيلي هو العلاج الأساسي للقضاء على هذه المشكلة الجديدة التي أتجهت الحكومات للتسلح بها.

□ وكانت لأهل البيت عليهم السلام مواقف إيجابية مع الدولة الإسلامية إلى جانب مواقف السلبية من الحكام المنحرفين.

□ وكان اتجاه الإمام عليه السلام إلى حقل الدعاء كعلاج ضروري تتطلبه ظروف عصره وما تلاه من العصور.

الأسئلة

- ١ . هل تدرّج أهل البيت عليهم السلام في معالجة الانحراف الذي حصل بعد السقيفة؟ ولماذا؟
- ٢ . ما هي معالم المرحلة الأولى؟ وما هو العلاج الذي قدّمه الأئمة عليهم السلام لها؟
- ٣ . ما هي معالم المرحلة الثانية؟
- ٤ . ما هي الخطوات التي كانت تتطلبها المرحلة الثانية؟
- ٥ . ما هو علاج مشكلة (المسخ) الثقافي؟
- ٦ . ما هو علاج مشكلة الإنهيار الأخلاقي؟
- ٧ . ما هو موقف أهل البيت عليهم السلام من الدولة الإسلامية؟
- ٨ . ما هو موقف أهل البيت عليهم السلام من الحكّام المنحرفين؟
- ٩ . ما هو دور الإمام زين العابدين عليه السلام في بناء الجماعة الصالحة؟

متطلبات عصر الإمام زين العابدين عليه السلام (١)

تميّزت حياة الإمام زين العابدين عليه السلام بشكل خاصّ بمجموعة ظواهر ملفتة للنظر ذات علاقة بالمرحلة التي عاشها من مراحل حياة الرسالة الإسلامية، وهي: الزهد، العبادة، الدعاء، البكاء، الإنفاق، الاعتاق، التربية، التعليم. وهي بمجموعها كانت علاجاً فريداً وملتبياً لمتطلبات عصره التي عرفناها فيما مرّ.

١. ظاهرة الزهد

ظاهرة الزهد - بمعنى عدم الإعتناء بمباهج الدنيا وزينتها - قد عُرِفَ بها الإمام زين العابدين عليه السلام وشهد له بها غير واحد من معاصريه إذا اعتبروه أزهد الناس في عصره^١، وقد اعتبره المتصوّفة أحد كبار أعلامهم^٢.

وإذا عرفنا أنّ حقيقة الزهد قد جمعت في آية من كتاب الله: ﴿لَٰكِي لَا تَأْسُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾^٣ وأنّ الزهد ليس هو أن لا تملك شيئاً، وإنّما الزهد أن

١. بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٦٢.

٢. حلية الأولياء، ج ٣، ص ١٣٣.

٣. تحف العقول، ص ٢٧٨ - ٢٧٩.

لا يملكك شيء»^١. فالإمام زين العابدين هو سيّد الزاهدين، فإنّه حين رأى سائلاً يبكي فتأثر منه وقال: لو أنّ الدنيا كانت في كفّ هذا ثم سقطت منه؛ لما كان ينبغي له أن يبكي عليها^٢.

ومناجاة الزاهدين التي أثرت عنه هي خير دليل على رؤيته العميقة التي صاغت منه شخصيّة مثلى في هذا الحقل متأسية برسول الله (صلى الله عليه وآله) وجده أمير المؤمنين (عليه السلام) وهو مع هذا يرى نفسه عاجزاً عن الوصول إلى مرتبتهما السامية^٣.

قال (عليه السلام): «إلهي أسكنتنا داراً حفرث لنا حفر مكرها وعلّقنا بأيدي المنايا في حبال غدرها، فإليك نلتجئ عن مكائد خدعها وبك نعتصم من الاغترار بزخارف زينتها فإنّها المهلكة طلابها المتلفة خلأها، المحشوة بالآفات المشحونة بالنكبات إلهي فزهدنا فيها وسلّمنا منها بتوفيقك وعصمتك وانزع عنا جلايب مخالفتك... واخرج حبّ الدنيا من قلوبنا كما فعلت بالصالحين من صفوتك والأبرار من خاصّتك»^٤.

ولم يكن زهد الإمام (عليه السلام) سبباً لانعزاله عن الحياة الاجتماعيّة المليئة بالمتناقضات كما كان يتصوّر المتصوّفة من أنّ ترك الساحة الاجتماعيّة للمنحرفين هي الزهد في الدنيا، وقد كان يجرّهم خطوهم في فهم حقيقة الزهد إلى مداراة الظلمة والخضوع لهم أيضاً.

واستطاع الإمام (عليه السلام) بتقديم النموذج الصحيح للزهد أن يحقق عدّة مكاسب تربويّة واجتماعيّة وسياسيّة وعقائديّة تتلخّص في ما يلي:

١. إنارة الطريق الصحيح للصالحين.

١. نهج البلاغة، قصار الحكم.

٢. الفصول المهمة، ص ١٩٢.

٣. الكافي (الروضة)، ج ٨، ص ١٦٣.

٤. مفاتيح الجنان المناجاة الخمسة عشر له (عليه السلام) وراجع أيضاً تحف العقول، ص ٢٧٢ - ٢٧٤ لتري شدة اهتمامه

بتعريف الزهد وبيان حدوده وعلله وآثاره.

٢. إدانة دعاة التصوف المنحرفين.

٣. قطع الطريق على الحكام المنحرفين لاستغلال ارتباطهم بالمتصوفة واستثماره لتوجيه سلوكهم.

٤. كسب الولاء الحقيقي من المسلمين حيث يتضح لهم أن أهل البيت عليهم السلام لزهدهم في الدنيا لا يريدون أي مكسب مادي في الحياة، فمقارعتهم للظالمين وتوجيههم لإقامة حكم الله في الأرض له دافع إلهي غير مادي ولا يقاس بحرص الحكام على حفظ مناصبهم السياسية التي اغتصبوها.

٥. لقد كان لإمام عليه السلام - بالرغم من زهده - في هذه الحياة الدنيا مصدر رعب للظالمين^١.

ويعود السر في ذلك إلى أن هذا الزهد كان يكشف عن عظمة شخصية الإمام عليه السلام وأنه لا يمكن أن يتنازل عن دينه وآخرته للدنيا وملذاتها، ولا يمكن لأحد أن يتعامل معه على شيء من حطام الدنيا وزينتها وبهذا يكون مصدر رعب يهدد عروش الطغاة الظالمين.

٦. وحينما يكون الإمام مثلاً أعلى للزهد في الحياة الدنيا يكون قادراً على موازنة عامة الناس المعدمين ومرشداً لكل الذين تجرهم ملاذ الحياة المادية للركون إلى الدنيا، ويكون قادراً على ترهيدهم فيها بالعلم والعمل كي يقدم لهم مثلاً عملياً واضحاً على ذلك.

٢. ظاهرة العبادة

«سيد العابدين» و«زين العابدين» و«ذو الثفنتان» و«السجاد» هي ألقاب ذات دلالة واضحة على هذه الظاهرة التي اتفق عليها المؤرخون حيث أجمعوا على أنه كان أعبد

أهل زمانه وأكثرهم طاعةً لله تعالى إذ لم ير الناس مثله في عظيم إنابته وعبادته. والعبادة في حياة الإمام ذات معنى عميق وذات أبعاد شتى، وقد شغلت مساحة كبيرة من حياته الفردية والاجتماعية بل كانت كلّ حالاته حالات عبادة وتوجّه وانقطاع إلى الله تعالى، فبكاؤه على أبيه عبادة، وإنفاقه بالليل والنهار عبادة، وعنته لأفواج العبيد عبادة، وتعليمه وتربيته عبادة.

ولكنّ العبادة بمعناها الخاصّ هو التفرّغ إلى الصلاة والصيام والحج وكلّ أوجه النشاط العبادي المعروف لدى الناس كانت ظاهرة ملفتة للنظر في حياته (عليه السلام). كما كانت عبادته لا تنفكّ عن الدعاء والمناجاة بحالٍ من الأحوال وكان يتألّق بتفانيه في معبوده، وكان حين يصلي كأنه ساق شجرة لا يتحرّك منه شيء إلا ما حرّكت الريح منه^١.

وبلغ من شدّة تفانيه أن وقع له ابنٌ في البئر وهو قائم يصلي ولم يشعر بذلك، فلمّا انتهى من صلاته قيل له في ذلك فقال: ما شعرت، أنّي كنت أناجي ربّاً عظيماً^٢. كما وقع حريق في بيته - وكان مشغولاً في صلاته - فلم يعتن به، ولمّا فرغ من صلاته قيل له في ذلك فقال: ألهمتني عنها النار الكبرى^٣.

وذكروا أنّه كان يصلي في اليوم واللييلة ألف ركعة، وكان كثير السجود وطويله، كما كان كثير التسبيح ملازماً لصلاة الليل وبتلك الأدعية التي اختصّ بها... وذبل الإمام من كثرة العبادة وأجهده أيّ إجهاد، وقد بلغ به الضعف حتّى أشفق عليه أهله ومحّبوه من كثرة عبادته فكلموه لكنّه أصرّ على ما كان عليه حتّى يلحق بآبائه الكرام^٤.

١. وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٦٨٥.

٢. أخبار الدول، ص ١٠٠ وبحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٩٩.

٣. صفوة الصفوة، ج ٢، ص ٥٢.

٤. حياة الإمام زين العابدين، ج ١، ص ٢٠١.

وقضى الإمام معظم حياته صائماً حتى قالت جاريته: ما قدّمت له طعاماً في نهار قط إلا في يوم العيدين أو في غيرهما ممّا كان له عذر.

وما كان يترك في شهر رمضان نوعاً من البرّ إلا أتى به، وكان لا يتكلّم إلا بالتسبيح والاستغفار والتكبير. وكان يستقبل شهر رمضان أشدّ استقبال ويودّعه أحرّ توديع^١.

وكان لحجّ الإمام عليه السلام شأن خاصّ واهتمام عجيب في الإتيان به وتشجيع الآخرين على القيام به، وكان يحتف به القراء والعلماء إذ يتزوّدون من معارفه وآدابه حتى قال سعيد بن المسيّب: إنّ القراء كانوا لا يخرجون حتى يخرج عليّ بن الحسين. فيخرج ويخرج معه ألف راكب^٢.

وكان إذا لبّى غشي عليه من شدّة خوفه من الله تعالى وكأنّه سقط من راحلته ولا يزال يعتريه ذلك حتى يقضي حجّه^٣.

وكان لحجّ الإمام عليه السلام عالم خاصّ به وظواهر يتفرد بها في التوجّه والإقبال على الله والمناجاة في البيت الحرام وفي المشاعر المقدّسة ويوم عرفة ويوم الأضحى كما تفصح عن ذلك أدعيته الشريفة^٤.

٣. ظاهرة الدعاء

والدعاء في قاموس حياة الإمام عليه السلام مدرسة بتمام معنى الكلمة كما كانت عبادته مدرسة متكاملة شكلاً ومضموناً.

والصحيفة السجادية أكبر دليل على عظمة الدعاء وأهميته ومدى ضرورته عند الإمام عليه السلام. ولك أن تتصوّر جانباً من ذلك من خلال قوله عليه السلام في مناجاته التي

١. راجع أدعيته في استقبال شهر رمضان وتوديعه.

٢. حياة الإمام زين العابدين، ج ١، ص ٢٢٧.

٣. تهذيب التهذيب، ج ٧، ص ٣٠٦.

٤. راجعها في الصحيفة السجادية.

عُرِفَ بمناجاة الذاكرين:

«إلهي فألهمنا ذكرك في الخلأ والملا والليل والنهار والإعلان والإسرار وفي السراء والضراء . وآنسنا بالذكر الخفيّ واستعملنا بالعمل الزكي والسعي المرضي... أنت المُسَبِّح في كلّ مكان والمعبود في كلّ زمان والموجود في كلّ أوان والمدعوّ بكلّ لسان والمعظم في كلّ جنّان. واستغفرك من كلّ لَذّةٍ بغير ذكرك ومن كلّ راحةٍ بغير أنسك ومن كلّ سرورٍ بغير قربك ومن كلّ شغلٍ بغير طاعتك...».

لقد عرفنا الأبعاد التربويّة والاجتماعيّة في ظاهرة الدعاء والعبادة للإمام عليه السلام، ولكنّ صحيفته قد تميّزت بمميّزات تكاد تنفرد بها، وهي تطيع مدرسة أهل البيت التربويّة والتثقيفيّة بطابعها الخاصّ بها. حيث فتحت آفاقاً جديدة للوعي الديني والعبادي، كما أنّها يَسَّرَت السبيل لسالكي الطريق إلى الله. وقد اهتم بها العلماء والعبّاد والعارفون أيّما اهتمام وتداولوها وحافظوا عليها أشدّ الحفاظ في كلّ الظروف القاسية خوفاً من إضاعتها وإتلافها من قبل الظالمين .

وإليك بعض ما تميّزت به هذه الصحيفة القيّمة من خصائص ومميّزات:

١ . إنّها تمثّل التجرّد التام من عالم المادّة والإنقطاع الكامل إلى الله تعالى والإعتماد به والذي هو أئمن ما في الحياة.

٢ . إنّها تكشف عن كمال معرفة الإمام عليه السلام بالله تعالى وعميق إيمانه به.

٣ . وامتازت عن أدعية باقي المعصومين بما فيها من أفانين التضرّعات وإظهار التذلل والمسكنة لله تعالى مما ليس في غيرها.

٤ . فتحت الصحيفة للإنسان المسلم أبواب الأمل والرجاء برحمة الله الواسعة.

٥ . فتحت للمناظرات البديعة مع الله تعالى باباً مهماً يتضمّن أنواع الحجج البالغة لاستجلاب غفو الله وغفرانه مثل قوله عليه السلام: «إلهي إن كنت لا تغفر إلّا لأوليائك وأهل طاعتك فإلى من يفزع المذنبون؟! وإن كنت لا تُكْرِم إلّا أهل الوفاء لك فِمَنْ يستغيث المسيئون?!»

وهكذا قوله عليه السلام : «إلهي إني امرؤ حقير وخطري يسير وليس عذابي ممّا يزيد في ملكك مثقال ذرة...».

٦. تضمّنت الصحيفة برامج أخلاقية روحية وسلوكية مهمّة لتربية الإنسان ورسمت له أصول الفضائل النفسية والكمالات المعنوية.

٧. احتوت على حقائق علمية لم تكن معروفة في عصره عليه السلام.

٨. تضمّنت الصحيفة بركاناً نائراً على الفساد الفردي والاجتماعي والسياسي في عصرٍ أشاعت فيه السياسة الأموية الفساد الأخلاقي والخلاعة والمجون بين المسلمين، فكانت الصحيفة خير وسيلة للإصلاح في أحلك الظروف التي اتبع فيها الأمويون سياسة القمع والإرهاب.

٩. والصحيفة بعد هذا هي منجم من مناجم البلاغة والفصاحة وينبوع ثرّ للأدب الإسلامي الهادف والبلاغة الفريدة البناء، فهي لا تفتقر عن نهج البلاغة في هذا المضمار.

١٠. وقد ضمّن الإمام زين العابدين عليه السلام أدعيته - التي تمثّلت في الصحيفة الكاملة وسائر الأدعية التي وصلت إلينا عنه - منهاجاً كاملاً للحياة الإنسانية الفريدة، فلم يترك الإمام جانباً من ما تحتاجه الأمة الإسلامية إلّا وتعرّض له وعالجه بأسلوبه الفذّ وبلاغته البديعة.

إنّ هذه الروح التي نطقّت بأدعية الصحيفة السجادية وبالمناجاة المأثورة عنه^١ هي الروح التي تحدّث الطغاة، وكانت مستعدة للشهادة والقتل في سبيل الله، وفي هذا خير شاهد على اجتماع روح الحماسة وروح الدعاء والمناجاة والعبادة.

وهذه الحقيقة أدّت بدورها إلى أن تحمل أدعية الإمام عليه السلام جوانب سياسية وجهادية واجتماعية وأخلاقية إلى جوار جوانبها العقائدية والمعرفية والعبادية فكانت

ذات أهداف تغييرية شاملة.

لقد كانت للأدعية السجّادية «أبعاد فكرية واسعة المدى، بالنصوص الحاسمة لقضايا عقائدية إسلامية، كانت بحاجة إلى البتّ فيها بنصّ قاطع، بعد أن عصفت بالعقيدة تيارات الإلحاد، كالتشبيه والجبر والإرجاء، وغيرها ممّا كان الأمويّون وراء بعثها وإثارتها وترويجها، بهدف تحريف مسيرة التوحيد والعدل، تمهيداً للردة عن الإسلام، والرجوع إلى الجاهلية الأولى.

وفي حالة القمع والإبادة، ومطاردة كلّ المناضلين الأحرار، وتتبّع آثارهم وخنق أصواتهم؛ كان قرار الإمام زين العابدين عليه السلام باتّباع سياسة الدعاء، باعتباره أنجح وسيلة لبثّ الحقائق وتخليدها، وأمن طريقة وأبعدها من إثارة السلطة الفاشية وأقوى أداة اتّصال سرّية مكتوبة هادئة موثوقة»^١.

٤. ظاهرة البكاء على سيّد الشهداء عليه السلام

إنّ إكثار الإمام زين العابدين عليه السلام من البكاء على أبيه الحسين سيّد الشهداء عليه السلام طيلة حياته لم يكن لمحض الرقة والعاطفة ... بل إنّه عليه السلام قد لاحظ به غاية سامية وهي تعريف الأجيال المتعاقبة الواعية بهذا النبا ظلّامة أهل البيت عليه السلام، وما اتصف به الأمويّون من القساوة والفظاعة وخروجهم عن حريم الدين والشريعة وتنمّرهم تجاه العدل المروءة والإنسانية...

لقد بكى عليه السلام على أبيه المدة التي عاش فيها حتّى قال له مولاه: «إني أخاف عليك أن تكون من الهالكين فقال: إنّما أشكو بئي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون، إني لم أذكر مصرع بني فاطمة إلّا خنقني العبرة.

وقال له آخر: أما أنّ لحزنك أن ينقضي؟ فقال: ويلك لقد شكّا يعقوب إلى ربّه في

أَقْلَ مِمَّا رَأَيْتَ حِينَ قَالَ: ﴿يَا أَسْفَى﴾ وَلَمْ يَفْقَدْ إِلَّا ابْنًا وَاحِدًا وَهُوَ حَيٌّ فِي الدُّنْيَا - وَأَنَا رَأَيْتُ أَبِي وَجَمَاعَةً مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَذْبَحُونَ حَوْلِي.

وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا أَخَذَ الْإِنَاءَ لِيَشْرَبَ الْمَاءَ؛ تَذَكَّرَ عَطَشَ أَبِيهِ وَمِنْ مَعِهِ فَيَبْكِي حَتَّى يَمِزْجُهُ مِنْ دُمُوعِهِ فَإِذَا قِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، يَقُولُ: كَيْفَ لَا أَبْكِي وَقَدْ مَنَعَ أَبِي مِنَ الْمَاءِ الَّذِي هُوَ مَبَاحٌ لِلْوُحُوشِ وَالسَّبَاعِ..

وَكثِيرًا مَا كَانَ يَحْدُثُ أَصْحَابُهُ بِفَوَائِدِ الْحُزَنِ لِأَجْلِ مَصَابِهِمُ وَالْبَكَاءِ عَلَى مَا أَتَابَهُمْ مِنَ الْمُحَنِّ فَيَقُولُ: أَيْمًا مُؤْمِنٌ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ لِقَتْلِ الْحُسَيْنِ حَتَّى تَسِيلَ عَلَى خَدِّهِ؛ بَوَّاهُ اللَّهُ فِي الْجَنَّةِ غَرْفًا... فَكَانَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِإِدَامَتِهِ الْبَكَاءَ عَلَى أَبِيهِ مُصِرًّا عَلَى إِحْيَاءِ شِعَارِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَجَاهَ الدِّينِ وَتَجَاهَ الظُّلْمِ وَالظَّالِمِينَ.

وَحَيْثُ لَمْ تَسْعَ الْمَجَاهِرَةُ بِمُوبِقَاتٍ مِنْ اغْتَصَابِهِمُ الْخِلَافَةَ الْإِلَهِيَّةَ وَجَرَّ إِلَيْهِمُ الْوِيلَاتِ وَنَكَّلَ بِهِمْ، اتَّخَذَ الْبَكَاءَ طَرِيقًا لَتَنْبِيهِ النَّاسِ إِلَى تِلْكَ الْجَرَائِمِ، وَهَذَا مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَكْبَرُ جِهَادٍ نَاجِعٍ فِي تَحْطِيمِ عَرْشِ مَنْ أَهْلَكَ الْحَرِثَ وَالنَّسْلَ وَنَشَرَ الْعُبْثَ وَالْفُسَادَ فِي الْبِلَادِ فَكَانَ بِكَأْوِهِ مَتَمًّا لِلنَّهْضَةِ الْمُقَدَّسَةِ...

إِذِنْ لَقَدْ كَانَ الْبَكَاءُ وَاحِدًا مِنَ الْأَسَالِيبِ الَّتِي جَعَلَهَا الْإِمَامُ السَّجَّادُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَسِيلَةً لِإِحْيَاءِ ذِكْرِ كَرِيهِ كَرِيْلَاءَ، كَمَا اسْتَعْمَلَ أُسَالِيبَ أُخْرَى، مِثْلَ: زِيَارَةِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْحَثِّ عَلَيْهَا.

قَالَ أَبُو حَمْزَةَ الثَّمَالِيُّ: سَأَلْتُ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ، عَنْ زِيَارَةِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ. فَقَالَ: رُزُّهُ كُلَّ يَوْمٍ، فَإِنْ لَمْ تَقْدِرْ فَكُلَّ جُمُعَةٍ، فَإِنْ لَمْ تَقْدِرْ فَكُلَّ شَهْرٍ، فَمَنْ لَمْ يَزُرْهُ فَقَدْ اسْتَخَفَّ بِحَقِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ!

وَمِنْهَا: الْإِحْتِفَاطُ بِتَرَابِ قَبْرِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْسُّجُودِ عَلَيْهِ.^٢

١. جهاد الإمام السَّجَّاد، ص ٢٢٠.

٢. بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٧٩، باب ٥، ح ٧٥.

ومنها: أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَتَخَتَّمُ بِخَاتَمِ أَبِيهِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.^١

٥. ظاهرة الإعتراف

العتق ظاهرة فريدة جاءت بها الشريعة الإسلامية وقد اعتنيت بها الأئمة الأطهار عليهم السلام اعتناء تاماً إلا أن تحرير الرقيق كان يشكل ظاهراً بارزاً في حياة الإمام زين العابدين عليه السلام بشكل خاص لا مثيل له في تاريخ الإمامة، فهو أمر يسترعي الانتباه والملاحظة الفاحصة.

وإذا دققنا في الظروف والملابسات التي عاشها الإمام عليه السلام وقمنا ببعض المقارنات بين أعمال الإمام عليه السلام والظروف التي اكتنفت عملية الإعتراف الواسعة التي تبناها الإمام عليه السلام؛ اتضحت الصورة الحقيقية لأهدافه عليه السلام من ذلك.

فيلاحظ أولاً: أن الأعداد الهائلة من الرقيق والعبيد كانت تتواتر على البلاد الإسلامية، فكان الموالي في ازدياد بالغ مذهل على أثر توالي الفتوحات وسرعتها. ثانياً: كان الأمويون ينتهجون سياسة التمييز العنصري إذ كانوا يعتبرون الموالي عبيداً.^٢

ثالثاً: إن الجهاز الحاكم في الدولة الإسلامية ابتداءً من الخليفة نفسه وانتهاءً بموظفي الدولة ومروراً بالأمرأ، كانوا لا يمثلون الإسلام، وإنما كانوا ضدّ معنوياته وأخلاقه وإن حملوا من الإسلام اسمه.

رابعاً: إن انتشار العبيد والموالي وبالكثرة الكثيرة ومن دون أيّ تحصين أخلاقي أو تربية إسلامية لأمرٍ يؤدي إلى شيوع البطالة والفساد وهو ما ترمي إليه الدولة الظالمة. ويلاحظ فيما يتصل بعمل الإمام عليه السلام:

١. نقش الخواتيم، للسيد جعفر مرتضى، ص ١١.

٢. تاريخ دمشق ومختصره لابن منظور، ج ١٧، ص ٢٨٤.

١. أَنَّ الإمام عليه السلام كان يشتري العبيد والإماء ولكن لا يُبقي أحدهم عنده أكثر من سنة واحدة وهذا يعني أَنَّهُ كان مستغنياً عن خدمتهم، فكان يعتقهم بحجج متعدّدة وفي مناسبات مختلفة.

٢. أَنَّ الإمام عليه السلام كان يعامل الموالى، لا كعبيد أو إماء، بل يعاملهم معاملة إنسانية فذّة ممّا يعزز في نفوسهم الأخلاق الكريمة ويحبّب إليهم الإسلام وأهل البيت عليهم السلام.

٣. أَنَّ الإمام عليه السلام كان يعلم الرقيق أحكام الدين ويغذّيهم بالمعارف الإسلامية.

٤. كان الإمام عليه السلام يزود من يعتقه بما يغيّنه، فيدخل المجتمع ليزال الأعمال الحرّة، كأي فرد من الأمة المسلمة، ولا يكون عالة على المجتمع.

إذن كان الإمام عليه السلام بعمله - الذي لم يكن مشيراً للجهاز الحاكم - مستهدفاً ضرب السياسة التي انتجها الأمويون مع الموالى، وقد حقّق عدّة أهداف سياسيّة وتربويّة وثقافيّة واجتماعيّة واقتصاديّة بهذه العبادة في آني واحدٍ فإنّ الرقيق المعتقدين أصبحوا يشكّلون جيلاً من التلامذة الذين كانوا قد تربّوا في بيت الإمام وعلى يديه وعاشوا مع سيرته الإلهيّة العطرة، ومن الطبيعي أن ينقلوا انطباعاتهم إلى أبنائهم وأبناء أبنائهم. ولو كان الإمام يريد فتح مدرسة للتعليم بغير هذا الأسلوب لكان يواجه منعاً من الجهاز الحاكم بينما كان حرّاً ويعيداً عن الرقابة الحكوميّة وهو يزاول عمليّة شراء الرقيق وعتقهم.

كما استقطب الإمام عليه السلام ولاء هذه الأعداد الكبيرة من الموالى المحرّرين وأبنائهم وأحفادهم وهم يرتبطون به برباط ولاء العتق الذي قرّره الإسلام وألّفته النفوس البشريّة التي جبلت على مجازاة الإحسان بالإحسان وشكر النعمة وتقدير المعروف، حتّى قيل: إنهم أصبحوا يشكّلون قوّة ضاغطة على الجهاز الحاكم فيما بعد.

الناص

□ إن الظواهر التي تميّزت بها حياة الإمام زين العابدين عليه السلام وأعطتها طابعاً خاصاً كشفت لنا عن متطلبات عصره عليه السلام.

□ وهذا الظواهر هي الزهد والعبادة والدعاء والبكاء على سيد الشهداء والإعتاق والإنفاق والتربية والتعليم.

□ وهي ظواهر مترابطة ذات أهداف متنوعة وهي حلول لمشاكل آنية ومستقبلية، وقد أرسى عليه السلام قواعدها وأعطى للأمة وللجماعة الصالحة تفصيلاتها بما جسّد فيها من قيم ومثُل عليا بسلوكه وسيرته العطرة.

□ وقد كشفت لنا هذه الظواهر عن سمو أهل البيت عليهم السلام وعدم امكان مقايستهم بمن عاصروهم وتحلّى ببعض صفاتهم. وحققت هذه الظواهر مكسباً عقائدياً وتربوياً وسياسياً في آنٍ واحد.

□ وكانت تعبّر عن حلول أساسية لمشاكل اجتماعية كان يعاني منها المجتمع الإسلامي بعد عصر الفتوحات الأولى.

الأسئلة

١. ما هي الظواهر الملفتة للنظر في سيرة الإمام زين العابدين عليه السلام؟
٢. ما هو الزهد الذي اتصفت به حياة الإمام عليه السلام وما هي دلالاته؟
٣. صوّر عبادة الإمام عليه السلام واذكر أبعادها ومدى ليلها.
٤. لماذا تميّزت سيرة الإمام عليه السلام بظاهرة الدعاء وما هي أبعادها في حياته؟
٥. لماذا كان البكاء والحزن مسيطرًا على حياة الإمام عليه السلام؟
٦. ما هي آثار اهتمام الإمام بعزاء سيّد الشهداء عليه السلام؟
٧. تكلم عن الآثار الإيجابية لظاهرة الاعتناق في حياة الإمام عليه السلام.

متطلبات عصر الإمام زين العابدين عليه السلام (٢)

٦. ظاهرة الإنفاق

«كان عليّ بن الحسين عليه السلام في اليوم الذي يصوم فيه يأمر بشاة فتذبح وتقطع أعضاؤها وتطبخ، فإذا كان المساء انكبّ على القدور حتّى يجد ريح المرق - وهو صائم - ثمّ يقول: هاتوا القصاع، اغرفوا لآل فلان، ولآل فلان، حتّى يأتي على آخر القدور ثمّ يؤتى بخبز وتمر فيكون عشاء»^١.

وهذا النصّ يبيّن لنا أنّه عليه السلام كان يذبح في شهر رمضان ثلاثين شاة على الأقلّ. و كان يخرج في الليلة الظلماء فيحمل الجراب فيه الصّرار والدنانير والدرهم حتّى يأتي الدور باباً باباً فيقرع كلّ باب ثمّ يناول من يخرج إليه فلمّا مات عليه السلام فقدوا ذلك، فعلموا أنّ عليّ بن الحسين كان هو الذي يفعل ذلك^٢.

ولقد كان يعول مائة أهل بيت من فقراء المدينة^٣، وقيل كان في كلّ بيت جماعة من الناس^٤.

١. بحار الأنوار، ج ٤٦، ب ٥، ص ٥٣.

٢. بحار الأنوار، ج ٤٦، ب ٥، ص ٢٨.

٣. بحار الأنوار، ج ٤٦، ب ٥، ص ١٩.

٤. بحار الأنوار، ج ٤٦، ب ٥، ص ٧٧.

وَحَلَّ الصدقات حَتَّى أَثَّرَ ذلك في ظَهره وَسَمِيَ صاحب الجراب^١.

وكان يقول لمولاه: لا يعبر على بابي سائل إِلَّا أَطْعَمْتُمُوهُ، فَإِنَّ اليوم يوم جمعة^٢ وكان الفقراء يتباشرون حينما يرونه قد أَقْبَلَ إِلَيْهِمْ وكانوا ينتظرونه على أبوابهم ليلاً من كثرة اعتيادهم عليه. وكان لا يأكل الطعام حَتَّى يَتَصَدَّقَ بِمِثْلِهِ.

ولم يكتف الإمام بأَخْلَاقِيَّةِ الْإِنْفَاقِ فقط بل ضَمَّ إلى ذلك حِكْمَتَهُ في التأثير بهذا الْإِنْفَاقِ وتركيزه بالنفوس، فكان يرفض أن يبيع ملابسه، وَإِنَّمَا كان يَتَصَدَّقُ بِهَا وكان يشتري الكسوة الفاخرة من الْخَزَائِنِ التي تَقَدَّرُ بِخَمْسِينَ دِينَاراً لِيَتَصَدَّقَ بِهَا عند انقضاء الشتاء، واستهدف الإمام من ذلك أن يكون هذا الْإِنْفَاقُ مؤثراً في نفوس الناس وتأكيداً لارتباط الفقراء والمساكين به، لِأَنَّهُمْ سِيرَتِدُونَ ملابسه من بعده ويذكرونه على الدوام. فقد أصبحت ثُلَّةٌ كبيرة من الناس ترتدي ملابس الإمام وتتعاطف معه نتيجة تَصَدَّقَهُ بالكسوة الثمينة الَّتِي كان يرغب فيها كُلُّ الناس، فكان إذا انقضى الشتاء تَصَدَّقَ بِكِسْوَتِهِ وإذا انقضى الصيف تَصَدَّقَ بِكِسْوَتِهِ، كذلك وكان يلبس من خَزَنِ اللباسِ قليل له: تعطى من لا يعرف قيمتها ولا يليق به لبسها، فلو بعثها فَتَصَدَّقَتْ بِثَمَنِهَا، فقال: إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أُبِيعَ ثَوْباً صَلَّيْتُ فِيهِ^٣.

وهذا النَّصُّ يدلُّ على أَنَّ الْإِمَامَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يعطيها إلى الفقراء والمساكين الَّذِينَ لم يلبسوا مثل هذا اللباس، فَيَسْرُونَ أَشَدَّ السُّرُورِ، ومن المؤكَّد أَنَّ هذا النوع من الْإِنْفَاقِ كان معروفاً ومعتمداً عليه الإمام حَتَّى عَوْتُبَ فِيهِ.

فَأَخْلَاقِيَّةِ الْإِنْفَاقِ كانت عملاً تربوياً لِلأُمَّةِ وتوعية على ضرورة التكامل الاجتماعي، وكانت تلك الروح الَّتِي تصاحب إنفاق الإمام - من احترامه للفقراء

١. بلاغة الإمام زين العابدين، ص ٢٢٦.

٢. بحار الأنوار، ج ٤٦، ب ٥، ص ٧٧.

٣. بحار الأنوار، ج ٤٦، ب ٥، ص ٧٧.

والمحتاجين وتقبيله الفقير، وحبه أن يحضر طعامه اليتامى ومن لا حيلة له، ومناولته الطعام لهم، وحمله لبيوتهم، إذا كان لهم عيال^١ - تمثل صورة عملية مثالية لمبادئ الإسلام الاجتماعية.

إن الإمام بعمله هذا كان يدفع العجب الذي قد ينتاب الباذل والمنفق شعوراً منه بفضلته وإحسانه، ويبدّد الإمام بالتأكيد على أن الفقير هو صاحب الفضل وأن اليد الآخذة للصدقة هي المحسنة لأنها سبب للثواب، إذ كان يرحب بالسائل ويقول له: مرحباً بمن يحمل زادي للآخرة^٢.

ومن أهم تلك الدروس التي أعطاها للأمة نفقة السرّ التي اشتهر بها، فقد عرفت المدينة بعد موته أنه هو صاحب ذلك الإنفاق الليلي، وهو المتلثم الذي كان يحمل الجراب على ظهره ويفرق الطعام والدنانير على بيوت الفقراء والمساكين^٣.

٧. مدرسة الإمام زين العابدين (عليه السلام)

أشرنا إلى أن انفتاح المسلمين - في عصر الإمام زين العابدين (عليه السلام) - على ثقافات متنوعة وأعراف مختلفة للشعوب التي دخلت في الإسلام أدى إلى خطر كبير هو الذوبان في هذه الأعراف وافتقاد الأصالة الفكرية التي جاء بها الإسلام وحققتها للمسلمين بشكل تدريجي.

كما أن الحكومة الأموية من أجل إحكام سيطرتها على رقاب المسلمين سارت في خطأ إماتة الوعي ومحاربة العلم وإنشاء مذاهب أو تيارات عقيدية تنتهي إلى الجمود الفكري والركود العلمي بالتدريج.

١. بحار الأنوار، ج ٤٦، ب ٥، ص ١٩.

٢. بحار الأنوار، ج ٤٦، ب ٥، ص ٨٦.

٣. بحار الأنوار، ج ٤٦، ب ٥، ص ٨٦.

٤. بحار الأنوار، ج ٤٦، ب ٥، ص ٧٧.

ومن هنا كان لا بدّ من حركة فكرية اجتهادية تفتح الآفاق الذهنية للمسلمين كي يستطيعوا أن يحملوا مشعل الكتاب والسنة بروح المجتهد البصير، وهذا ما قام به الإمام زين العابدين عليه السلام إذ انبرى إلى تأسيس مدرسة علمية وإيجاد حركة فكرية بما بدأه من حلقات البحث والتدريس في مسجد الرسول صلّى الله عليه وآله وبما كان يثيره في خطبه في صلوات الجمع اسبوعياً.

أخذ الإمام عليه السلام يحدث الناس بصنوف المعرفة الإسلامية من تفسير وحديث وفقه وعقائد وأخلاق... ويفيض عليهم من علوم آبائه الطاهرين ويمرّن النابهين منهم على التفقّه والاستنباط.

وقد تخرّج من هذه الحلقة عدد غضير من فقهاء المسلمين، يحمل وعي الإمام وروحه وعلمه وكانت هذه الحلقة هي المنطلق لما نشأ بعد ذلك من مدارس فقهية وشخصيات علمية^١.

ونلمس من خلال ما ورد عن الإمام عليه السلام من أحاديث تربط بالعلم والعلماء أنّه قد خطّط لهذه الحركة العلمية تخطيطاً بارعاً، فهو بالإضافة إلى تفرّغه للتعليم - وعلى الرغم من جميع الهموم والآلام التي تركتها واقعة الطف الأليمة في نفسه وما تلاها من حوادث مؤلمة في العالم الإسلامي - نجده يشيد بفضل العلم ويحثّ المستعدين للتعلّم حتّى أكيداً قولاً وعملاً، كما نجده يرسم للمتعلّمين آداب التعلّم والتعليم بحيث استطاع أن يجمع عدداً كبيراً من طلاب المعرفة الذين عُرفوا بالقراء باعتبار أنّ قراءة القرآن وحفظه وتعليم تفسيره كانت هي المحور في التعلّم والتعليم حينذاك ولم يكن للحديث أو السيرة أو الفقه تدوين وتأليف بسبب الحظر الذي أوجدته السلطة بعد غياب الرسول صلّى الله عليه وآله، فلم يكن الخطّ العام في الدولة الإسلامية في صالح هذه الحركة الفكرية. ومع كلّ هذا نلاحظ احتفاف القراء والفقهاء والعلماء بالإمام عليه السلام بنحو لا نجد له

نظيراً في غيره من العصور، فإنّ القراء كانوا لا يفارقونه في حضر أو سفر حتّى قال سعيد بن المسيّب: «إنّ القراء كانوا لا يخرجون إلى مكّة حتّى يخرج عليّ بن الحسين فخرج وخرجنا معه ألف راكب»^١.

لقد قال الإمام عليه السلام - في فضل العلم وثوابه وأهمّيّته -: «لو يعلم الناس ما في طلب العلم لطلبوه ولو بسفك المهبّ وخوض اللجج»^٢.

وكان عليه السلام يكرم طلاب العلوم ويرفع منزلتهم ويرحب بهم قائلاً: مرحباً بوصيّة رسول الله ﷺ. وكان إذا نظر إلى الشباب - وهم يطلبون العلم - أدناهم إليه وقال: مرحباً بكم أنتم ودائع العلم، ويوشك إذ أنتم صغار قوم أن تكونوا كبار آخرين»^٣.

وقد لاحظنا ما جاء في رسالة الحقوق من الإشادة بفضل العالم وحقوقه على المتعلّمين، من التعظيم له والتوقير لمجلسه وحسن الإستماع إليه والإقبال عليه وعدم رفع الصوت عليه والدفاع عنه وستر عيوبه وإظهار مناقبه وعدم مجالسته أعدائه وعدم معاداة أوليائه.

كما نلاحظ تأكيده على عدم كتمان العلم وعدم التكبر بالنسبة للمتعلّمين وحسن الإنقائ في فنّ التعليم وعدم ابتغاء الأجر الماديّ على التعليم.

وقد قام الإمام السجّاد عليه السلام بأداء دور مهمّ في ميدان الإصلاح الثقافي أيضاً فتصدّى لنشر حديث الرسول ﷺ تحدياً لحظر السلطة ودعا إلى العمل بالسنة الشريفة واهتمّ بتدريس القرآن وتفسيره وحفظه وإكرام حملته، وأشاد قواعد التوحيد الإلهي وأجاب على الشبهات التي كان يثيرها دعاة الجبر والتجسيم والتشبيه والإرجاء.

١. من مقدّمة السيّد الشهيد محمّد باقر الصدر للصحيفة السجّادية.

٢. راجع أصول الكافي كتاب العلم.

٣. أصول الكافي، ص ٣٥.

كلّ هذا يشير إلى تخطيط واضح في سلوك الإمام عليه السلام لايجاد حركة ثقافية واسعة وتأسيس تيار ثقافي يتسنى له أن يقف أمام التيارات المنحرفة والتخطيط الأموي الذي لم يرق له تفتح الوعي الإسلامي عند أبناء المسلمين.

فعلى صعيد الإمامة والولاية، أعلن الإمام عليه السلام عن إمامة نفسه بكلّ وضوح وصراحة ومن دون أيّة تقيّة وخفاء. وقد تعددت الأحاديث الناقلة لهذا الإعلان منها قوله عليه السلام: نحن أئمة المسلمين، وحجج الله على العالمين، وسادة المؤمنين وقادة الغرّ المحجلين وموالي المؤمنين ونحن أمان أهل الأرض، كما أنّ النجوم أمان لأهل السماء... ولو ما في الأرض منّا لساخت بأهلها، ولم تخل الأرض منذ خلق الله آدم من حجة الله فيها، ظاهر مشهور أو غائب مستور، ولا تخلو إلى أن تقوم الساعة من حجة الله فيها، ولو لا ذلك لم يُعبد الله^١.

وقال أبو المنهال نصر بن أوس الطائي: قال لي عليّ بن الحسين عليه السلام: إلى من يذهب الناس؟ قال: قلت: يذهبون هاهنا وهنا هنا. قال: قل لهم: يجيئون إليّ^٢.

وقال له أبو خالد الكابلي: يا مولاي! أخبرني كم يكون الأئمة بعدك؟ قال: ثمانية لأنّ الأئمة بعد رسول الله إثنا عشر إماماً، عدد الأسباط، ثلاثة من الماضين، وأنا الرابع، وثمانية من ولدي...»^٣.

والإنحراف الذي حصل عن خطّ أئمة أهل البيت عليهم السلام لم يكن في إقصائهم عن الحكم والولاية فقط بل انتهى إلى الجهل بأحكام الشريعة التي كان الأئمة هم المرجع الواقعي والصحيح للتعرف عليها.

فالإمام ليس وليّاً للأمر وحاكماً على البلاد والعباد فحسب، وإنّما هو مصدر يرجع

١. أمالي الصدوق، ص ١١٢؛ الاحتجاج، ص ٣١٧.

٢. تاريخ دمشق الحديث، ص ٢١.

٣. كفاية الأثر، ص ٢٣٦ - ٢٣٧.

إليه لفهم الشريعة وتبيين أحكامها باعتبار معرفته التامة بالشريعة الخاتمة وارتباطه الوثيق بمصادرها الحقيقية.

وكما أقصى الحكام أئمة أهل البيت عليهم السلام عن الحكم والولاية حاولوا كذلك نفي مرجعيتهم الدينية والعلمية وإبعاد الناس عنهم، لذلك اهتم الأئمة وأتباعهم بإرشاد الناس إلى هذا المعين الصافي للشريعة الإسلامية كي ينهلوا من غيره الصافي. وكان اهتمام الإمام السجاد عليه السلام بليغاً بهذا الأمر حتى قال عليه السلام لرجل شاجره في مسأله شرعية فقهية:

يا هذا! لو صرت إلى منازلنا، لأريناك آثار جبرئيل في رحالنا، أيكون أحد أعلم بالسنة منا^١.

وقال عليه السلام: إن دين الله لا يُصاب بالعقول الناقصة، والآراء الباطلة، والمقاييس الفاسدة، لا يُصاب إلا بالتسليم.

فمن سلم لنا سلم ومن اقتدى بنا هدى، ومن كان يعمل بالقياس والرأي هلك، ومن وجد في نفسه -مما نقوله أو نقضي به- خرجاً كفر بالدين والذي أنزل والسبع المثاني والقرآن العظيم وهو لا يعلم^٢.

وقد خرجت مدرسة الإمام السجاد عليه السلام كوكبة من العلماء الكبار منهم الفقهاء والمفسرون الذين سطعت أسماؤهم في العالم الإسلامي إليهم يعود الفضل في دفع عجلة الإحياء العلمي في ذلك العصر الرهيب وما تلاه من عصور. ونشير في ما يلي إلى الإسماء الالامعة في هذا الصدد:

١. وفي مقدمتهم الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام وأخوه زيد والحسين إنا علي بن الحسين بن علي عليه السلام.

١. نزهة الناظر، ص ٤٥.

٢. اكمال الدين، ص ٣٢٤، ب ٣١، ح ٩.

٢. أبان بن تغلب بن رباح، أبوسعيد البكري الجريري، كوفي المولد والنشأة، وكان نابهاً ومقدماً في كل فن: من قرآن وحديث وأدب ولغة ونحو.

وتتلمذ عند الأئمة الثلاثة السجّاد والباقر والصادق عليهم السلام، وكان يقول له الإمام الباقر عليه السلام: «إجلس في مسجد المدينة وافت الناس فإني أحب أن يرى في شيعتي مثلك». وآلف أبان في تفسير غريب القرآن وفي فضائل أهل البيت كما روى ما يناهز ثلاثين ألف حديث عن أئمتهم عليهم السلام^١.

٣. إسماعيل بن عبد الخالق: وجه من وجوه أصحاب الأئمة وفاقه من فقهاءهم وأدرك الإمام الصادق عليه السلام وروى عنه وعن الإمام الباقر والسجّاد أيضاً^٢.

٤. ثابت بن أبي صفية: وهو أبو حمزة الثمالي عالم جليل ورع تقى تربى بآداب أهل البيت عليهم السلام وحمل علومهم ومعارفهم، وأجمع المترجمون على وثاقته وأنه كسلمان الفارسي في زمانه وكانت الشيعة ترجع إليه في الكوفة لإحاطته بفقهِ أهل البيت عليهم السلام.

٥. رشيد الهجري: من أبطال الإسلام وأعلام الجهاد وقد صلبه الأمويون من أجل عقيدته وولائه لأهل البيت عليهم السلام.

٦. يحيى بن أمّ طویل المطعمي: كان باب الإمام وموضع سرّه وحلقة الوصل بينه وبين الناس وقد أمر الحجاج بقطع يديه ورجليه وقتله.

٧. أبو خالد الكابلي: كان من خواصّ الإمام ومتمنّ خدم الإمام دهرأ من عمره وكان باب الإمام وموضع سرّه.

٨. محمّد بن جبیر بن مطعم: وكان من ضمن المجموعة التي ثبتت على الإمامة ولم تعصف بها العواصف.

١. راجع ترجمته بالتفصيل في حياة الإمام زين العابدين، ص ٥٢٢-٥٢٧.

٢. المصدر، ص ٥٢٩.

٩. المنهال بن عمرو الأسدي.

١٠. سعيد بن المسيّب.

وقد ذكر المؤرّخون مجموعة أخرى من أصحاب الإمام إضافة إلى هؤلاء الرجال. وقد صحبه واستفاد منه مجموعة من أصحاب آيائه الكرام منهم: جابر بن عبد الله الأنصاري وعامر بن وائلة وقنبر مولى أمير المؤمنين وكميل بن زياد وسليم بن قيس. وحقق النشاط العلمي للإمام عليه السلام غاياته المتوخاة، فالمسجد النبوي الشريف ودار الإمام عليه السلام شهدا طوال خمسة وثلاثين عاماً - وهي فترة إمامته عليه السلام - نشاطاً فكرياً من الطراز الأوّل، حيث استقطب الإمام عليه السلام طلاب المعرفة الإسلامية في جميع حقولها، لا في المدينة المنورة ومكة المكرمة وحدهما، وإنما في الساحة الإسلامية بأكملها، حتّى استطاع عليه السلام أن يخلق نواة مدرسة فكرية، لها طابعها ومعالها المميّزة. تخرّجت منها قمم فكرية وقادة رأي ورواة ومحدثون وفقهاء.

إنّ انقراط أمر الشيعة بعد استشهاد الحسين عليه السلام وتشتّت قواهم، كان من أعظم الأخطار التي واجهها الإمام السجّاد عليه السلام لاستجماع القوى وتكميل الإعداد من جديد، وهذا كان بحاجة إلى إعداد نفسي وعقدي وإحياء الأمل في القلوب وبثّ العزم في النفوس.

وقد تمكّن الإمام عليه السلام بعمله الهادئ من الإشراف على تكميل هذه الاستعادة، وعلى هذا الإعداد والتمهيد، بكلّ قوّة وبحكمه وبسلامة وجدّ.

استشهاد الإمام عليه السلام

كان الإمام السجّاد عليه السلام يتمتع بشعبية كبيرة، فقد تحدّث الناس بإعجاب عن علمه وفقهه وعبادته، وعجّت الأنديّة بالتحدّث عن صبره وسائر ملكاته، وقد احتلّ قلوب الناس وعواطفهم فكان السعيد من يحظى برؤيته والسعيد من يتشرف بمقابلته والاستماع إلى حديثه، وقد شقّ ذلك على الأمويّين، عامّة وأقضى مضاجعهم، وكان من

أعظم الحاقدين عليه الوليد ابن عبد الملك^١.

روى الزهري أن الوليد قال: «لا راحة لي وعليّ بن الحسين موجود في دار الدنيا»^٢. فاجمع رأييه على اغتيال الإمام حينما آل إليه الملك، فبعث سماً قاتلاً إلى عامله على يثرب، وأمره أن يدسه للإمام^٣ ونفذ عامله ذلك، فسَمَت روح الإمام عليه السلام العظيمة إلى خالقها بعد أن أضاعت آفاق هذه الدنيا بعلومها وعباداتها وجهادها وتجردّها من الهوى.

وبعد أن أوصى إلى ولده الإمام محمّد الباقر عليه السلام في مرضه الذي توفّي فيه ولم يترك الأمة بلا ضياء تستنير به.

وقام الإمام أبو جعفر محمّد الباقر عليه السلام بتجهيز جثمان أبيه عليه السلام. وبعد تشييع حافل لم تشهد يثرب له نظيراً، وجيء بجثمانه الطاهر إلى بقيع الفرقد، فحفروا قبراً بجوار قبر عمّه الزكي الإمام الحسن المجتبيّ سيّد شباب أهل الجنة عليه السلام وريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنزل الإمام الباقر عليه السلام جثمان أبيه السجّاد عليه السلام فواراه في مقبره الأخير. فسلام عليه يوم ولد ويوم جاهد ويوم استشهد ويوم يبعث حيّاً.

١. هناك من المؤرخين من يعتبر أن هشام بن عبد الملك أمر درس اسم الإمام عليه السلام وليس الوليد. راجع المصدر

السابق، ص ٢٠١ - ٢٠٢

٢. راجع حياة الإمام زين العابدين، ص ٦٧٨

٣. منتهى الآمال، ج ٢، ص ٥٧

الناص

□ شكّلت ظاهرة الإنفاق حقلاً مهماً من حياة الإمام زين العابدين عليه السلام ورسمت لنا بعداً مميزاً من شخصيته ولم يكن انفاقه محدوداً بحدود خاصّة غير أنّه كان حكيماً في أسلوب الإنفاق كما كان هادفاً في أساليبه تربية الأُمّة ولم يكن مختصّاً بشيعته. والإنفاق والإعتاق إلى جانب الزهد له دلالة كبيرة على سموّ أهل البيت وعظمتهم و تميّزهم عنّ سواهم.

□ وكانت أنشطة الإمام التثقيفيّة والعلميّة تشكّل مدرسة حقيقة حتّى أصبحت الأساس الأوّل لمدرسة أهل البيت و جامعهم العلميّة على مدى القرون حتّى يومنا هذا.

□ و كان خريجو مدرسة الإمام عليه السلام وصحابته وخاصّته دليلاً آخر على عظمة النشاط الذي مارسه الإمام إلى جانب سائر الأنشطة العباديّة والاجتماعيّة ذات الآثار السياسيّة الحقيقيّة والأصيلة في المجتمع الإسلامي.

الأسئلة

١. كيف تصوّر ظاهرة الإنفاق في حياة الإمام زين العابدين عليه السلام؟
٢. ما هي الأخلاقية التي كان الإمام يحملها مع الإنفاق ويريد زرعها في المجتمع الإسلامي؟
٣. كيف تفسّر النصوص التي وردت حول ضرورة العلم وأسلوب طلبه في أحاديث الإمام عليه السلام؟
٤. ما هي المجالات الثقافية التي تناولتها مدرسة الإمام عليه السلام؟
٥. من هم أهمّ طلاب مدرسة الإمام عليه السلام؟
٦. ما هي آثار اهتمام الإمام بعزاء سيّد الشهداء عليه السلام؟
٧. تكلم عن الآثار الايجابية لظاهرة الإعناق في حياة الإمام عليه السلام.

ملاحع عصر الإمام محمّد الباقر عليه السلام

بعد استشهاد الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام بالسّم الذي دسّه إليه الحاكم الأموي الوليد بن عبد الملك حاول الوليد أن يمتصّ النعمة، ودبّ الخلاف بين الوليد وأخيه سليمان، حيث أراد الوليد خلعه ومبايعة ابنه عبدالعزيز، فأبى عليه سليمان، ولم يجبه للبيعة جميع الولاة باستثناء الحجاج وقتيبة بن مسلم وبعض الخواص، فعزم الوليد على السير إليه ليخلعه بالقوّة فمات قبل ذلك^١.

وانشغل سليمان سنة ١٩٦هـ بمتابعة ولاه الوليد وعزلهم عن مناصبهم^٢، كما حاول إصلاح بعض الأوضاع المتردّية تقريباً إلى الناس، فأطلق المعتقلين وفكّ الأسرى^٣. وكانت الأخطار الخارجيّة والداخلية تحيط بالدولة الإسلاميّة والحاكم الأموي^٤. فانشغلت السلطة عن ملاحقة الإمام الباقر عليه السلام فتصدّى الإمام الباقر عليه السلام للإمامة، بعيداً عن المواجهة السياسيّة العلنيّة للحكم القائم، ولم تظهر من قبل الحاكم وواليه على المدينة أي معارضة للإمام عليه السلام حينذاك.

١. المنتظم، ج ٧، ص ١٢.

٢. الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ١١.

٣. المنتظم، ج ٧، ص ١٢.

٤. الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ١٣ وما بعدها.

مظاهر الانحراف في عصر الإمام عليّ

كان الانحراف قد تغلغل في جميع الميادين: ميدان النفس، وميدان الحياة الاجتماعية، وأصبح الإنسان المسلم فريسة للأهواء والمطامع، وانحسر تفكيره إلى أفق ضيق، ورؤية محدودة، وتأرجحت مواقفه إلى اليمين والشمال، وهو لا يلوذ إلى ركن ركين لابتعاده عن منهج أهل البيت عليّ، وانسياقه وراء التيارات والأفكار الهدامة التي شجع عليها حكام بني أمية.

وتتلخص أهم مظاهر الانحراف في عهد الإمام الباقر عليّ فيما يلي:

أولاً: الانحراف الفكري والعقائدي

لقد ازداد الانحراف في عهد الحكم الرواني، وكان للأفكار والعقائد نصيبها الأكبر من هذا الانحراف، ولم يكثر الحكام بهذا الانحراف، لأنه كان يخدم مصالح حكمهم، ويُسغل المسلمين عن همومهم الأساسية، وعن أهدافهم الحقيقية بتغيير الأوضاع وإعادتها إلى ما كانت عليه في عهد رسول الله ﷺ وعهد أمير المؤمنين عليّ عليه السلام.

ففي الفترة الواقعة بين سنة ٩٥هـ إلى ١١٤هـ تعددت التيارات الفكرية والعقائدية المنحرفة، وأصبحت ذات أتباع وأنصار، وتحولت إلى كيانات ذات إفرازات سياسية خالف الكثير منها الأسس الواضحة في العقيدة الإسلامية، فانتشرت أفكار الجبر والتفويض والإرجاء، كما انتشرت أفكار التجسيم وتشبيه الله تعالى بخلقه، وإثبات الحركة والمكان والزمان والانتقال لله تعالى، وكثرت الشبهات حول ثوابت العقيدة، وكثر الحديث حول ماهية الله تعالى وذاته، وتعددت تيارات الغلو وتنوعت فادعت حلول الذات الإلهية في قوم من الصالحين، وقالوا بالتناسخ، وراجت الزندقة، فجحدوا البعث والنشور، وأسقطوا الثواب والعقاب وراج تزوير الحديث واختلقت كثير من الروايات إحصاءاً للتسلط الأموي، واستمرت عملية عزل أهل البيت عليّ عن الساحة السياسية والاجتماعية وازداد الاهتمام بالصحابة كبديل لهم، ومن هنا حاولوا توسيع

دائرة الصحة والصحابة ليدخل في هذا العنوان كل من عاصر الرسول ﷺ بشكل من الأشكال وإن لم يتأثر بثقافته وروحه. وهكذا استمرت عملية طمس فضائل أهل البيت عليه السلام من خلال التعتيم الإعلامي عليها.

وكان للحكام دور كبير في عملية تزوير الحديث، وقد وصف الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام ذلك قائلاً: إن مخالفتنا وضعوا أخباراً في فضائلنا وجعلوها على ثلاثة أقسام:

أحدها: الغلو.

وثانيها: التقصير في أمرنا.

وثالثها: التصريح بمثالب أعدائنا^١.

وفي عهد الأمويين كثر الإفتاء بالرأي، وتفسير القرآن بالرأي وانتشر القياس، وأفكار التصوف والاعتزال عن الحياة، وذلك بتحجيم دور الدين في الحياة وفصله عن السياسة بشكل وآخر.

ثانياً: الانحراف السياسي

اتبع الحكام الأمويون سياسة من سبقهم في تحويل الخلافة إلى ملك يتوارثه الأبناء عن الآباء دون سابقة علم أو تقوى، ووزعوا المناصب الحساسة في الدولة على أبنائهم وأقربائهم والمتملقين لهم، واستبدوا بالأمر فلا شورى ولا استشارة إلا للمنحرفين والفاسق من بطانتهم، واستمرروا في اتخاذ الإرهاب والتنكيل وسيلة لتثبيت سلطانهم، فحينما وجد الوليد بن عبد الملك أن ولاية عمر بن عبد العزيز على مكة والمدينة قد أصبحت ملجأً للهاربين من ظلم بقية الولاة عزله^٢ تنكيلاً منه بالمعارضين وغلقاً لمنافذ السلامة أمامهم.

١. عيون أخبار الرضا، ج ١، ص ٣٠٤.

٢. الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٥٧٧.

وكان الوليد - كما يصفه المؤرخون - جبّاراً عنيداً ظلوماً غشوماً^١. وحاول سليمان بن عبد الملك من بعده أن يصلح الأوضاع تقريباً إلى الناس فأطلق السجناء، فكان في بداية عهده انقراج نسبي لانشغاله بتغيير ولاية الوليد وعزلهم، إلا أن السياسة العامة لم تتغير، لأن كثيراً من البلدان كان يتولاها القساة الظلمة من أمثال والي العراق خالد بن عبد الله القسري^٢.

وكان سليمان محاطاً بثلة من الرجال المعروفين بفسقهم وسوء سيرتهم وقد وصفهم أعرابي له - بعد أن أخذ منه الأمان - فقال له: يا أمير المؤمنين، إنه قد تكتفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم، وابتاعوا دنياهم بدينهم، ورضاك بسخط ربهم، خافوك في الله، ولم يخافوا الله فيك، حرب للأخرة وسلم للدنيا، فلا تأمنهم على ما يأمنك الله عليه، فإنهم لم يأتوا إلا ما فيه تضييع للأمة خسف وعسف، وأنت مسؤول عما اجترموا، وليسوا مسؤولين عما اجترمت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك^٣.

وأتبع (الوليد وسليمان ابنا عبد الملك) سيرة أبيهما، والتزما بوصيته - في قتل الرافضين للبيعة لهما - وألتي جاء فيها: وادع الناس إلى البيعة، فمن قال برأسه هكذا فقل بسيفك هكذا^٤.

وأقر كثير من الفقهاء سياسة الحكام خوفاً أو طمعاً أو استسلاماً للأمر الواقع، ومن تلك المبتدعات التي أقرّوها العهد إلى اثنين أو أكثر، حيث عهد سليمان بالحكم إلى عمر بن عبد العزيز ومن بعده ليزيد بن عبد الملك، فأقرّ كثير من الفقهاء ذلك، حتى أصبحت نظرية من نظريات تولي الحكم^٥.

١. مروج الذهب، ج ٣، ص ١٥٧.

٢. مروج الذهب، ج ٣، ص ١٧٩.

٣. مروج الذهب، ج ٣، ص ١٧٨.

٤. البداية والنهاية، ج ٩، ص ١٦١.

٥. الأحكام السلطانية للماوردي، ص ١٣.

وحينما تولّى عمر بن عبدالعزيز الحكم اتخذ سياسة جديدة تخالف من سبقه من الأمويين، فقام ببعض الإصلاحات كمنح الحرّية للمعارضين ليعتبروا عن آرائهم، وألغى سنّة سب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام من على منابر المسلمين، وردّ فدكاً إلى أهل البيت عليه السلام، واعترف بالممارسات الخاطئة لأسلافه من الحكّام، وأمر برّد المظالم، فامتدحه الإمام الباقر عليه السلام على ذلك^١، ولكنّ حكمه لم يدم أكثر من سنتين وخمسة أشهر، فعاد الوضع إلى ما كان عليه سابقاً.

وامتازت هذه المرحلة بقصر مدّة حكم الخلفاء المتحكّمين في رقاب المسلمين، فحكم سليمان ثلاث سنين، وحكم عمر بن عبدالعزيز أقلّ من ثلاث سنين، وحكم يزيد بن عبد الملك أربع سنين، وكان كلّ حاكم ينشغل بتغيير ولاية من سبقه، وكثرت اختلافات البيت الأموي تنافساً على الحكم، كما كثرت الفتن الداخلية، فقام قتيبة بن مسلم بخلع سليمان والاستقلال بالحكم في خراسان، فجّهز إليه من قام بقتله ومعه أحد عشر رجلاً من أهل بيته^٢، وقام يزيد بن المهلب في سنة ١٠١ هـ بخلع يزيد بن عبد الملك وجّهز إليه الأخير من قتله وقتل أتباعه.

وقد أفتى بعض المتملّقين إلى الأمويين أنّه ليس على الخلفاء حساب^٣. وكانت الأمة الإسلاميّة محاطة بمخاطر شتّى، ففي سنة ١٠٤ هـ ظفر الخزر بالمسلمين وانتصروا عليهم في بعض الثغور، وفي عهد هشام بن عبد الملك ازداد الإرهاب والتنكيل بأهل البيت عليه السلام وأتباعهم وسائر المعارضين، فقد أقدم هشام على سجن الإمام الباقر عليه السلام ثمّ أخرجه لتأثر السجّانين به^٤، وأصدر أوامره بقتل بعض أتباع الإمام الباقر عليه السلام إلا أنّ الإمام عليه السلام استطاع أن ينقذهم من القتل حيث استفادوا من

١. الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ٦٢ وتاريخ مختصر الدول، ص ١١٤.

٢. تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ١٥١.

٣. البداية والنهاية، ج ٩، ص ٢٣٢.

٤. مناقب آل أبي طالب، ج ٤، ص ٢٠٦.

اسلوب التقية الذي أرشدهم إليه الإمام عليه السلام ^١.

والتجأ المخالفون إلى العمل السري للإطاحة بالحكم الأموي، فكان العبّاسيون يعدّون العدة ويثبّون دعائهم في الأقاليم البعيدة عن مركز الحكومة وخصوصاً في خراسان، وبدأ زيد بن علي بن الحسين عليه السلام يعدّ العدة للثورة على هشام الذي لم يتأثر من سب النبي صلى الله عليه وآله عنده.

ثالثاً: الانحراف الاجتماعي والأخلاقي

حوّل الأمويون الأنظار إلى الغزوات، وحشدوا جميع الطاقات والإمكانات البشرية والمادية لفتح البلاد طلباً للغنائم وتوسّعاً في أرض المملكة الإسلامية التي سيطروا على ثرواتها. وأدّى التوسّع في غزو البلاد إلى خلق أنواع الإضطراب في المجتمع الإسلامي مثل تشتيت الأسر بغياب المعيل أو فقدانه، وكثر العبيد المأسورون (الجواري والغلمان) ممّا أدّى إلى التشجيع على اقتناء الجواري والمغنيات والمغنين وتملّك المختشين، وانتقل هذا الانحراف من البلاط إلى الأئمة، وانشغل الحكّام باللهو وانشاقوا وراء الشهوات دون حدود. ومن هنا تطوّرت ظاهرة الغزل والتشبيب بالنساء في العهد الأموي كما يفصح عن ذلك تأريخ الأدب العربي ^٢.

وكانت همّة سليمان بن عبد الملك تنصبّ على انشغاله بالنساء، وانعكس ذلك على أوساط المجتمع فكان الرجل يلقي صاحبه فيقول: كم تزوجت؟ وماذا عندك من السراي ^٣؟

ووصف أبو حازم الأعرج الوضع الاجتماعي والأخلاقي في جوابه على سؤال

١. بعار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢٨٣.

٢. الأغاني، ج ٦، ص ٢١٩.

٣. البداية والنهاية، ج ٩، ص ١٦٥.

سليمان بن عبد الملك (ما لنا نكره الموت؟) قائلاً: (لأنكم عَمرَتم دنياكم وأخبرتم آخرتكم، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب).^١

وكان سليمان يسابق بين المغنّين ويمنح السابقين الجوائز الثمينة^٢، ويجزل العطاء على المغنّيات وازداد عدد المختّنين في عهده^٣.

وأقبل يزيد بن عبد الملك على شرب الخمر واللّهو^٤، ولم يتب من الشراب إلا أسبوعاً إذ عاد إليه بتأثير من جاريته حبّابة^٥.

وكان يقول: ما يقرّ عيني ما أوتيت من أمر الخلافة حتّى أشتري سلامة... وحبّابة، فأرسل من يشتريهما له^٦.

وأصبح اللّهو والمجون مقدّماً على كلّ هموم الدولة، ولقد طرب يوماً وقال: دَعُونِي أَطِير، فقالت له جاريته حبّابة: على مَنْ تَدَعِ الأُمّة؟ قال: عليك.

ولما ماتت تركها ثلاثة أيام دون دفن حتّى تنتت، وبقي سبعة أيّام لا يظهر للنّاس^٧.

رابعاً: الانهيار الاقتصادي

خالف الأمويون الأسس الثابتة للنظام الاقتصادي الإسلامي التي تنص على أنّ الأموال هي وديعة عند الحاكم، وليست ملكاً شخصياً له، وأنّ إنفاقها يجب أن يكون مقيداً بقيود حدّدها الشريعة، إلّا أنّ الحكّام الأمويّين تصرفوا بالأموال وكأنّها ملكٌ

١. مروج الذهب، ج ٣، ص ١٧٧.

٢. الأغاني، ج ١، ص ٣١٧.

٣. الأغاني، ج ٤، ص ٢٧٢.

٤. مروج الذهب، ج ٣، ص ١٩٦.

٥. الأغاني، ج ١٥، ص ٢٩٥.

٦. الأغاني، ج ٨، ص ٣٤٦.

٧. الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ١٢١.

شخصي لهم، فكانوا ينفقونها حسب رغباتهم وأهواتهم، إذ كانوا ينفقونها على ملذاتهم، وكان للجواري والمغنيين نصيب كبير في بيت المال، كما كانوا ينفقون الأموال لشراء الذمم والضمان، ويمنحونها لمن يشترك في تثبيت سلطانهم أو مدحهم والثناء عليهم، فقد مدح النابغة الشيباني يزيد بن عبد الملك فأمر له بمائة ناقة، وكساه وأجزل صلته^١. فتنافس الشعراء فيما بينهم للحصول على مزيد من الأموال وتنافس المغنون لنيل الهدايا من الحكّام أو ولايتهم.

وكان الحكّام يعيشون أعلى مراتب الترف والبدخ، ويبدّرون أموال المسلمين على شهواتهم، وعلى المقربين لهم، في وقت كان يعيش فيه كثير من الناس حياة الفقر والجوع والحرمان.

وازداد التناقض الطبقي وضوحاً حينما عطلّ مفهوم التكافل الاجتماعي، ولم تكثر الدولة لمعانة الناس وهمومهم المعيشية.

وقد ضاعف الحكّام الضرائب، فأضافوا ضرائب جديدة على الصناعات والحرف وخصوصاً في عهد هشام بن عبد الملك الذي كان ينفق ما تجمع لديه على الشعراء المادحين له^٢.

وقد وصف سليمان بن عبد الملك حالات الترف التي وصلوا إليها قائلاً: قد أكلنا الطيب، ولبسنا اللين، وركبنا الفارة، ولم يبق لي لذة إلا صديق أطرح معه فيما بيني وبينه مؤونة التحفظ^٣.

وانساق الناس وراء شهواتهم ورغباتهم خصوصاً أتباع الأمويين، وهكذا أخذ الناس يسعون للحصول على المال بأيّ وجه ما دام الحكّام لا همّ لهم إلا كسب الأموال

١. الأغاني، ج ٧، ص ١٠٩.

٢. الأغاني، ج ١، ص ٣٣٩.

٣. مروج الذهب، ج ٣، ص ٧٦.

والترف في هذه الحياة الدنيا، ولزم من ذلك غياب كثير من مشاعر الرحمة والتعاطف والإيثار فيما إذا قيس وضع الأمة إلى عصر الرسول ﷺ والعصر الذي تلاه مباشرة.

الخلاصة

□ زخر عصر الإمام الباقر عليه السلام بالاضطرابات السياسية الحادة والصراعات الفكرية العميقة، نتيجة السياسة الأموية المنحرفة.

□ وأحدثت بالوطن الإسلامي أخطار خارجية وداخلية فانشغل الحكام بها عن ملاحقة الإمام عليه السلام ومطاردته فلم تشل نشاطاته الفكرية وحركته العلمية الواسعة التي أسسها وأرسى قواعدها. فتصدى لأمر الإمامة بعيداً عن المواجهة السياسية العلنية للنظام القائم المهزوز، فلم تظهر أية معارضة للإمام من قبل الحاكم وواليه حينذاك، ويمكن تلخيص أبرز مظاهر الانحراف في عهد الإمام بما يلي:

□ ١. الانحراف الفكري والعقائدي: وتمثل هذا الانحراف بشقيه في تزوير الحديث والتلاعب بآيات الكتاب، وظهرت حركة الزندقة لطمس معالم الرسالة الإسلامية وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وفضائل أهل البيت عليهم السلام وانتشرت أفكار التفويض والجبر والتجسيم والتشبيه لله بخلقه.

□ ٢. الانحراف السياسي: وتمثل ذلك في تحويل الخلافة إلى ملك يتوارثه الأبناء عن الآباء دون سابقة علم أو تقوى.

□ ٣. الانحراف الاجتماعي والأخلاقي: وتمثل في تمزيق وحدة المسلمين، وضياع مكارم الأخلاق وإشاعة الفساد الخلقي وشغل الأمة بحروب طعنات الرجال وبقية الأسر لا كافل لها فلجأت إلى الانحراف والشذوذ الخلقي.

□ ٤. الانحراف الاقتصادي: فقد تحولت الأموال في ظل الحكم الأموي إلى ملك شخصي، وشاع مفهوم أن الأموال وديعة عند الحاكم يتصرف بها ما يشاء وينفقها لشراء الضمائر التي تشيد بالحاكم وتدعو إلى إطاعته فضعفت

مشاعر الرحمة والتعاطف والإيثار.

□ وخلال هذه الأوساط المسمّنة كان الإمام عليه السلام يتصل بقطاعات الأُمّة يوجّهها نحو معالم الإسلام ومعارف القرآن وأحكام السُنّة النبويّة المطهّرة ليربّي مشاعرها ويوقظ وجدانها ويحرّك وعيها ضدّ انحراف الحكّام، ويفضح ألاعيب السياسة الأمويّة وظلم الولاة، فأنشأ مدرسة أهل البيت وحوّل الأنظار إليها، فوجدت الأُمّة فيه قائداً ورائداً وإماماً تتطلّع إليه لبناء مستقبلها الديني والفكري والثقافي.

الأسئلة

١. يَمّ كان يزخر عصر الإمام الباقر عليه السلام وماذا كان أثر ذلك على حياة الأُمّة؟
٢. ما هي أبرز معالم الانحراف في عصر الإمام عليه السلام؟
٣. ما هي المدارس الفكرية التي ظهرت في عهد الإمام الباقر عليه السلام؟
٤. لماذا لم يظهر الحكّام الأمويون معارضة جادة للإمام عليه السلام؟
٥. عرّف حركة الزندقة.
٦. تكلم باختصار عن مظاهر الترف المادي الذي عاشه الحكّام ومن سار في ركبهم.

متطلبات عصر الإمام محمد الباقر عليه السلام (١)

كان نشاط الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام لإصلاح الواقع الفاسد يدور حول محورين أساسيين: محور الأمة الإسلامية وهو محور النشاط العام، ومحور الجماعة الصالحة وهم أتباع أهل البيت عليهم السلام وهو محور النشاط الخاص.

محور النشاط العام

الإصلاح الفكري والعقائدي

بعد مرور قرن تقريباً على الأفكار والمفاهيم الإسلامية الناصعة أخذت التيارات السياسية المنحرفة تستغلّ عقائد وأفكار المسلمين لتصوغ منها وسيلة لتثبيت قواعدها بإسباغ طابع فكري وديني أو فلسفي على الواقع المنحرف. ومن هنا كان هذا العصر الزاخر بالانحرافات الفكرية يتطلب إصلاحاً فكرياً وعقائدياً يتراوح بين: ردّ الشبهات والأفكار المنحرفة من جهة، وتبيان البديل الصحيح والفكر السليم من جهة أخرى، وتم ذلك بأساليب شتى:

١. المواجهة العلنية للحركات المنحرفة

حركة الغلاة وموقف الإمام عليه السلام منها: نشطت حركة الغلاة بقيادة المغيرة بن سعيد

العجلي، مولى خالد بن عبد الله القسري أحد أقطاب النظام الأموي،
وأخذ الإمام عليه السلام في محاصرة المغيرة والتحذير منه وكان يلغنه أمام الناس ويقول:
(لعن الله المغيرة بن سعيد كان يكذب علينا).^١

وكان يحذر المسلمين - وخصوصاً أنصار أهل البيت عليه السلام - من أفكار الغلو،
ويرشدهم إلى الاعتقاد السليم، وكان يقول: (لا تضعوا عليّ دون ما وضعه الله، ولا
ترفعوه فوق ما رفعه الله)^٢، وكان يخاطب أنصاره: (يا معشر الشيعة شيعة آل محمد
كونوا النمرقة الوسطى: يرجع إليكم الغالي، ويلحق بكم التالي).^٣

حركة المرجئة وحذر عليه السلام من المرجئة ولعنهم وقال: اللهم العن المرجئة فإنهم
أعداؤنا في الدنيا والآخرة.^٤

حركة المفوضة والمجبرة: وكان يحذر منهما بقوله: إياك أن تقول بالتفويض فإن الله
عز وجل لم يفوض الأمر إلى خلقه وهنا وضعفاً، ولا أجبرهم على معاصيه ظلماً.^٥
وفي عرض هذا الرد كان عليه السلام يبين الأفكار السليمة حول التوحيد لكي تعي الأمة
سلامة مفاهيم الإسلام النقي وتمييز بينه وبين الإسلام المشوّه، وكان يعتمد في ذلك
على الآيات القرآنية التي تتناول قواعد وأصول العقيدة الإسلامية ويقوم بتفسيرها
ويروي الأحاديث المسندة إلى رسول الله ﷺ.

إجراء المناظرات مع أرباب الأديان والمذاهب: قام الإمام عليه السلام بمناظرة بعض
رؤوس المخالفين دون أتباعهم.
وإليك نماذج من هذه المناظرات:

١. بحار الأنوار، ج ٢٥، ص ٢٩٧.

٢. بحار الأنوار، ج ٢٥، ص ٢٨٣.

٣. بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ١٠١.

٤. بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢٩١.

٥. بحار الأنوار، ج ٥، ص ٢٩٨.

أ - مع علماء النصارى: حينما أحضر هشام بن عبد الملك الإمام علياً من المدينة إلى الشام كان ينزل معه، وكان علياً يجلس مع أهل الشام في مجالسهم، فبينما هو جالس وعنده جماعة من الناس يسألونه، إذ نظر إلى النصارى يدخلون في جبل هناك، فسأل عن حالهم، فأخبر بأنهم يأتون عالماً في كل سنة في هذا اليوم يسألون عما يريدون وعما يكون في عامهم، وقد أدرك هذا العالم أصحاب الحواريين من أصحاب عيسى علياً، فقال الإمام علياً: فلهم نذهب إليه فذهب علياً إلى مكانهم، فقال له النصراني: أسألك وتسألني؟ قال علياً: تسألني، فسأله عن مسائل عديدة حول الوقت، وحول أهل الجنة، وحول عزة وعزير، فأجابه على أسئلته علياً.

فقال النصراني: يا معشر النصارى ما رأيتم أحداً قط أعلم من هذا الرجل لا تسألوني عن حرف وهذا بالشام ردوني فردوه إلى كهفه، ورجع النصارى مع الإمام علياً، وفي رواية أنه أسلم ومعه أصحابه على يد الإمام علياً^١.

ب - مع هشام بن عبد الملك: وناظره هشام بن عبد الملك في مسائل متنوعة تتعلق بمقامات أهل البيت عليهم السلام، وميراثهم لعلم رسول الله ﷺ، وأدعاء الإمام علي عليه السلام علم الغيب، فأجابه الإمام علياً عن مسائله المتنوعة وناظره في إثبات مقامات أهل البيت عليهم السلام مستشهداً بالآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، فلم يستطع هشام أن يرد عليه، وناظره في مواضع أخرى، فقال له هشام: أعطني عهد الله وميثاقه ألا ترفع هذا الحديث إلى أحد ما حييت، قال الإمام الصادق علياً: فأعطاه أبي من ذلك ما أراضاه^٢. وله علياً مناظرات مع محمد بن المنكدر وهو من مشاهير زهاد ذلك العصر، ومع نافع بن الأزرق أحد رؤساء الخوارج، ومع عبد الله بن معمر الليثي، ومع قتادة بن دعامه البصري^٣.

١. بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٣١٣-٣١٥.

٢. بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٣٠٨، ٣١٦.

٣. أعيان الشيعة، ج ١، ص ٦٥٣.

٢. محاسبة الفقهاء المخالفين

جاء قتادة بن دعامة البصري إلى الإمام (عليه السلام) وقد هتأ له أربعين مسألة ليمتحنه بها، فقال له (عليه السلام) : أنت فقيه أهل البصرة؟ قال: نعم، فقال (عليه السلام) : (ويحك يا قتادة إن الله عز وجل خلق خلقاً، فجعلهم حججاً على خلقه، فهم أوتاد في أرضه، قوام بأمره، نجباء في علمه اصطفاهم قبل خلقه) فسكت قتادة طويلاً، ثم قال: أصلحك الله، والله لقد جلست بين يدي الفقهاء، وقدام ابن عباس، فما اضطرب قلبي قدام أحد منهم ما اضطرب قدامك^١.

وحاسب (عليه السلام) أباحنيفة لقوله بالقياس، وقد علّق محمد أبو زهرة على هذه المحاسبة قائلاً: (تبيّن إمامة الباقر للعلماء، بمحاسبتهم على ما يبدو منهم، وكأنه الرئيس يحاكم مرؤوسيه ليحملهم على الجادة، وهم يقبلون طائعين تلك الرئاسة)^٢.

٣. نشر حديث الرسول (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته المعصومين

افتتح الإمام (عليه السلام) مدرسته العلمية العامة، وقد وفد إليها طلاب العلم من مختلف البقاع والاتجاهات، وأخذ عنه العلم عدد كبير من المسلمين منهم: عطاء بن أبي رباح، وعمرو بن دينار، والزهري، وربيعه الرأي، وابن جريح، والأوزاعي، وبسام الصيرفي^٣، وأبوحنيفة^٤.

وفي ذلك قال عبد الله بن عطاء: (ما رأيت العلماء عند أحدٍ أصغر علماً منهم عند أبي جعفر، لقد رأيت الحكم عنده كأنه متعلّم)^٥.

١. بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٣٥٧.

٢. تاريخ المذاهب الإسلامية، ص ٦٨٩.

٣. سير أعلام النبلاء، ج ٤، ص ٤٠١.

٤. تاريخ المذاهب الإسلامية، ص ٣٦١.

٥. مختصر تاريخ دمشق، ج ٢٣، ص ٧٩.

وكانت أحاديثه مسندة عن آبائه عن رسول الله ﷺ فلا يعترها نقاش للسند من حيث التجريح والتعديل كما يحدث لأحاديث غيره، وحينما سئل عن الحديث يرسله ولا يسنده فقال: (إذا حدثت بالحديث فلم أسنده، فسندي فيه أبي زين العابدين عن أبيه الحسين الشهيد عن أبيه علي بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ عن جبرئيل عن الله عز وجل).^١

٤. الدعوة إلى أخذ العلم من مصادره النقيّة

حذر الإمام عليه السلام من الإفتاء بالرأي فقال: (من أفتى الناس بغير علم ولا هدى من الله لعنته ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، ولحقه وزر من عمل بفتياه).^٢
وكان يدعو إلى أخذ العلم من منابعه النقيّة وهم أهل بيت الوحي والرسالة، فقد قال لسلمة بن كهيل وللحكم بن عتيبة: (شرّقا وغربا فلا تجدان علما صحيحا إلا شيئا خرج من عندنا).^٣

الإصلاح السياسي

استثمر الإمام عليه السلام بعض أجواء الانفراج السياسي النسبي لبناء وتوسعة القاعدة الشعبية، وتسليحها بالفكر السياسي السليم المنسجم مع رؤية أهل البيت عليه السلام، وتعبئة الطاقات وتهيئة الإمكانات، ولهذا لم تنطلق أي ثورة علويّة في عهده، لعدم اكتمال شروطها من حيث العدة والعدد.

وتجلى دوره الإصلاحي في الممارسات التالية:

١. أعلام الوري، ص ٢٩٤.

٢. المحاسن، ص ٢٠٥.

٣. الكافي، ج ١، ص ٣٩٩.

١. الدعوة إلى تطبيق مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحترّان الإنسان والمجتمع من جميع ألوان الانحراف في الفكر والعاطفة والسلوك، ويحوّلان المفاهيم والقيم الإسلامية الثابتة إلى ممارسات سلوكية واضحة المعالم، لكي تكون الأمة والدولة بمستوى المسؤولية المناطة بهما في الحياة، وهي حمل الأمانة الإلهية وخلافة الله تعالى في الأرض.

قال عليه السلام: (إِنَّ الأَمْرَ بالمَعْرُوفِ والنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ سَبِيلُ الأنْبِيَاءِ ومنهاج الصالحين، وفريضة عظيمة بها تقام الفرائض، وتأمين المذاهب، وتحلّ المكاسب، وتردّ المظالم وتعمّر الأرض، وينتصف بها من الأعداء ويستقيم الأمر، فأذكروا بقلوبكم، والفظوا بألسنتكم، وصكّوا بها جباههم، ولا تخافوا في الله لومة لائم...)¹.

وحذّر عليه السلام من مغبة التخلّي عن المسؤولية، ومداهنة المنحرفين حكّاماً كانوا أم غير حكّام من أفراد الأمة فقال عليه السلام: (أوحى الله تعالى إلى شعيب النبي عليه السلام: إني لمعذب من قومك مائة ألف: أربعين ألفاً من شرارهم، وستين ألفاً من خيارهم، فقال: ياربّ هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار؟

فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: إنهم داهنوا أهل المعاصي، ولم يفضبوا لغضبي)².

٢. نشر المفاهيم السياسية السليمة

وجّه الإمام عليه السلام الأنظار إلى دور أهل البيت عليهم السلام في قيادة الأمة نحو الرشاد فقال: (نحن ولاة أمر الله وخزائن علم الله، وورثة وحي الله، وحملة كتاب الله، طاعتنا فريضة، وحبّتنا إيمان، وبغضنا كفر، محبّتنا في الجنة، ومبغضنا في النار)³.

١. تهذيب الأحكام، ج ٦، ص ١٨.

٢. تهذيب الأحكام، ج ٦، ص ١٨١.

٣. مناقب آل أبي طالب، ج ٤، ص ٢٢٣.

وحَدَّر الأُمَّة من الابتعاد عن نهج أهل البيت عليهم السلام : فقال عليه السلام (برأ الله مَنْ يبرأ مِنَّا، لعن الله من لعننا، أهلك الله من عادانا)^١.

وَحَثَّ عليه السلام على نصرتهم فقال عليه السلام : (من أعاننا بلسانه على عدوتنا أنطقه الله بحجته يوم موقفه بين يديه عزوجل)^٢.

وأكد أن تولي الإمام لمنصب الإمامة منحصر بالنص، ولا عبرة بما هو الشائع من البيعة والعهد والغلبة، قال عليه السلام : (كل من دان الله عزوجل بعبادة يجهد فيها نفسه ولا إمام له من الله فسعيه غير مقبول، وهو ضال متحير، والله شاني لأعماله...) ^٣.

٣. كشف الواقع الأموي

كشف الإمام عليه السلام حقيقة الحكم الأموي، ووضَّح الجرائم التي ارتكبتها سلف معاصريه بحق أهل البيت عليهم السلام وأنصارهم، فبعد أن بيَّن ملابسات الخلافة، وكيفية الاستحواذ عليها وإقصاء أهل البيت عليهم السلام عن موقعهم فيها، قال: (... وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن، فَقَتَلْتُ شِيعَتَنَا بِكُلِّ بِلْدَةٍ، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنَّة، وكان من يذكر بحبنا والانتقطاع إلينا سَجِنَ أو نُهِبَ ماله؛ أو هُدِّمَتْ داره، ثم لم يزل البلاء يشتدّ ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين، ثم جاء الحجاج فقتلهم كلَّ قتلَةٍ، وأخذهم بكلِّ ظَنٍّ وتهمة، حتَّى أن الرجل ليقال له: زنديق أو كافر، أحبُّ إليه من أن يقال : شيعة عليٍّ، وحتَّى صار الرجل الَّذي يذكر بالخير - ولعلَّه يكون ورعاً صدوقاً - يحدِّث بأحاديث عظيمة عجيبة، من تفضيل بعض من قد سَلَفَ من الولاة، ولم يخلق الله تعالى شيئاً منها، ولا كانت ولا وقعت وهو يحسب أنها حقٌّ

١. بحار الأنوار، ج ٢٧، ص ٢٢٢.

٢. بحار الأنوار، ج ٢، ص ١٣٥.

٣. الكافي، ج ١، ص ١٨٤.

لكثرة من قد رواها ممن لم يعرف بكذب، ولا بقلّة ورع).^١

٤. الدعوة إلى مقاطعة الحكم القائم

دعاء عليه السلام إلى مقاطعة الحكم الجائر ونهى عن إسناده، فقال عليه السلام - في معرض جوابه عن العمل معهم -: (ولا مدّة قلم، إنّ أحدهم لا يصيب من دنياهم شيئاً إلّا أصابوا من دينه مثله)^٢.

واستثنى عليه السلام المواقف التي تتخذ من أجل مصلحة الإسلام الكبرى، فجوّز إسنادهم بالسلاح إن كان القتال مع أعداء الإسلام، لأنهم يدفعون بالسلاح العدو المشترك، قال عليه السلام لمن كان يحمل إليهم السلاح: (إحمل إليهم، فإنّ الله يدفع بهم عدوّنا وعدوكم - يعني الروم - وبهم، فإذا كانت الحرب بيننا فلا تحملوا)^٣.

٥. مواقفه عليه السلام المباشرة من الحكّام المعاصرين

إنّ دور الإمام الحقيقي هو دور الحجّة والقُدوة، وصيانة الأُمّة والدولة من الانحراف. وهذا الدور تختلف أساليبه وبرامجه تبعاً للظروف السياسيّة المحيطة بالإمام. وتستغيّر هذه الأساليب تبعاً للمقوّمات التالية:

أ - المصلحة الإسلاميّة العامّة.

ب - المصلحة الإسلاميّة الخاصّة، والتي تتعلّق بالحفاظ على خطّ أهل البيت عليه السلام ومنهجهم ورفده بالعناصر النزيهة، لإدامة وجوده في الأُمّة.

ت - الظروف العامّة والخاصّة من حيث قوّة الحاكم، وقوّة القاعدة الشعبيّة لأهل البيت عليه السلام.

١. شرح نهج البلاغة، ج ١١، ص ٤٢، ٤٤.

٢. الكافي، ج ٥، ص ١٠٧.

٣. الكافي، ج ٥، ص ١١٢.

وكانت التقية هي الأسلوب الذي يتخذه الإمام عليه السلام في مواقفه من الحاكم، وهي تتغير من حاكم إلى حاكم، فكان عليه السلام يقول - موضحاً مظاهرها وحدودها -: (التقية في كل ضرورة)^١.

وقال عليه السلام : (إنما جعلت التقية ليحقن بها الدماء، فإذا بلغ الدم فلا تقية)^٢. واستمر الإمام عليه السلام الحرّية النسبية في عهد عمر بن عبدالعزيز، فقام بإرشاده إلى الإستقامة في التعامل مع الرعية، ولبي عليه السلام الدعوة بالقدوم إليه واجتمع معه، وأخذ ينصحه ويوجهه باتجاه القيم الإسلامية في التعامل، ومما جاء في نصائحه له قوله عليه السلام : (... فاتق الله، واجعل في قلبك اثنتين تنظر الذي تحب أن يكون معك إذا قدمت على ربك، فقدمه بين يديك، وتنظر الذي تكرهه أن يكون معك إذا قدمت على ربك، فابتغ به البذل، ولا تذهبن إلى سلعة قد بارت على من كان قبلك ترجو أن تجوز عنك، واتق الله يا عمر وافتح الأبواب وسهل الحجاب، وانصر المظلوم ورد المظالم)^٣. ولما حمل عليه السلام إلى الشام وأراد هشام أن ينتقص منه، نهض قائماً ثم قال: (أيها الناس أين تذهبون؟ وأين يراد بكم؟ بنا هدى الله أولكم، وبنا يختم آخركم، فإن يكن لكم ملك معجل، فإن لنا ملكاً مؤجلاً...)^٤.

٦. موقفه عليه السلام من الجهاد المسلح

وقف الإمام عليه السلام موقف الحياد من الثورات التي قادها الخوارج، فلم يصدر منه تأييد ولا معارضة.

وفي عهده عليه السلام لم تنطلق أي ثورة علوية يقودها أهل البيت عليه السلام أو أنصارهم، لأن

١. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٩٩.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٩٩.

٣. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٨٢.

٤. مناقب آل أبي طالب، ج ٤، ص ٢٠٦.

الإمام عليه السلام كان مشغولاً بتوسعة القاعدة الشعبية ، لكي تنطلق فيما بعد لإكمال العدة والعدد، وكان عليه السلام يوجّه الأنظار إلى ثورة أخيه زيد التي ستنتطلق في المستقبل القريب.^١

وكان عليه السلام يحذّر من خذلان زيد، فيقول: (إنّ أخي زيد بن علي خارج فمقتول على الحقّ، فالويل لمن خذله، والويل لمن حاربه، والويل لمن قاتله)^٢.

١. سفينة البحار، ج ٢، ص ٢٧٣.

٢. مقتل الخواري، ج ٢، ص ١١٣.

الخاص

□ انصبّ دور الإمام الباقر عليه السلام في هذه الفترة التي كثرت فيها أقوال الغلاة والمرجئة وأهل التفويض والجبر والتجسيم على إبطالها، إذ وقف منها موقفاً تميّز بالحزم والردع الحاسم، مسلطاً الضوء على أخطار تلك النشاطات وتأثيرها المباشر على مستقبل الأمة، فقد استخدمها الحكّام الأمويون أسلوباً لحرف الأمة عن مسار الرسالة الإسلامية المقدّسة، وإبعادها عن مبادئ وقيم وأخلاق أهل البيت عليهم السلام، فتصدّى لهذه الأفكار بالمناظرة والمواجهة مع أصحابها. وفي مقابلها كان يوضّح الأفكار السليمة بالنسبة للتوحيد وسائر أصول العقيدة لكي تعي الأمة مفاهيم رسالتها السماوية، ونظرتها للحياة، وكان عليه السلام يعتمد على تفسير آيات القرآن التي تتناول قواعد وأصول العقيدة الإسلامية، ونشر حديث الرسول صلّى الله عليه وآله وأئمة أهل البيت صلوات الله عليهم بشكل خاص.

□ وقد ركّز عليه السلام في مناظراته مع دعاة المذاهب الضالّة على أصول التوحيد بنفي التشبيه عن الله تعالى وتجسيده وتجسيمه، ناهياً عن التكلم في ذات الله مؤكداً على العبوديّة الخالصة لله وحده.

□ كانت مناظرات الإمام عليه السلام مع المخالفين وعلماء النصارى، ومع هشام بن عبد الملك والحسن البصري صاحب نظرية التفويض، وفي هذه الفترة الشائكة جدّاً أرسى الإمام عليه السلام أصول مدرسته العلميّة العامّة التي وفد إليها طلاب العلم من مختلف المذاهب والتيّارات، وأسّس على منوالها ومنهجها مدارس أخرى تبعتها في علوم الفقه والأصول والحديث والتفسير والمعارف الأخرى المتفرّعة عنها، وأثمرت علومه المختلفة في مدارس البصرة والكوفة وخراسان. وامتدّت إشعاعاتها إلى كلّ الأمصار في البلاد

الإسلامية.

□ فكانت مؤسسته العلمية التي بناها وأشرف عليها منطلقاً للفكر النير الواعي، والتربية القرآنية، الفريدة.

ثمة

- ١ . ما هي المذاهب التي ظهرت في زمن الإمام الباقر عليه السلام؟
- ٢ . قارن بين مدرسة الجبر ومدرسة التفويض.
- ٣ . ما هي أهم المواقع الاجتماعية التي ناظرها الإمام عليه السلام وردّ عليها؟
- ٤ . لماذا شجّع الحكّام الأمويون مذهبي الجبر والتفويض على الخصوص؟
- ٥ . هل تستطيع تفسير ظهور المذاهب المخالفة لمذهب أهل البيت عليهم السلام؟
- ٦ . ما هو مردّ الإشتباه عند من يجسّمون الله تعالى؟
- ٧ . أي مائة استخدمها الإمام عليه السلام في الردّ على المذاهب المخالفة في مناظراته معهم؟

متطلبات عصر الإمام محمد الباقر عليه السلام (٢)

الإصلاح الاجتماعي من خلال التغيير الأخلاقي

لقد بذل الإمام محمد الباقر عليه السلام عناية خاصة لإصلاح أخلاق أبناء المجتمع الإسلامي بدءاً بالمقربين منه، ثم سائر الأوساط الاجتماعية والمؤسسات الحكومية. وكان يستثمر جميع الفرص الممكنة لإيجاد التغيير المطلوب، ولهذا تعددت الأساليب التي كان يتبعها لتحقيق هذا التغيير.

توظيف السنة النبوية الشريفة لإيجاد التغيير

تضمنت السنة النبوية الشريفة التي كان يتلقاها المسلمون بالقبول والتقدير عناصر التغيير الأخلاقي والإصلاح الاجتماعي. ومن هنا أخذ الإمام عليه السلام يهتم بنشر الحديث الشريف والتحديث به محققاً بذلك هدفين مهمين:

الأول: كسر طوق الحظر الذي كان قد فرضه الحكام المنحرفون على أبناء الأمة الإسلامية لإبعادها عن أحد مصدري عزتها وكمالها وهو سنة النبي العظيم وسيرته الشريفة.

الثاني: إيجاد عامل للتغيير الأخلاقي معتمداً على أساس تقديس الأمة الإسلامية لنبيها العظيم والتأسي به وبخلقه القويم.

ومن هنا انصبَّ الجهد الكبير على تداول أحاديث النبي ﷺ بشكل عام وأحاديث تخص سيرته بشكل خاص.

فمن أصول التغيير الاجتماعي هو تغيير العناصر المؤثرة في بناء المجتمع. قال عليه السلام: «صنفان من أمتي إذا صلحا صلحت أمتي وإذا فسدا فسدت أمتي... الفقهاء والأمرأ»^١.

وأكد على إخلاص النصيحة في الممارسة الإصلاحية مستنداً إلى قوله عليه السلام: «لينصح الرجل منكم أخاه كنصيحته لنفسه»^٢.

والعفة والحياء خلقان عظيمان ومظهران من مظاهر تكامل النفس البشرية، ومن هنا روى عن رسول الله ﷺ قوله: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْحَيَّ الْحَلِيمَ الْعَفِيفَ الْمُتَعَقِّفَ)^٣. وأكد عليه السلام على اكتساب حسن الخلق والكف عن أعراض المؤمنين لقوله عليه السلام: (وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مَا أُعْطِيَ مُؤْمِنٌ قَطُّ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا بِحَسَنِ ظَنِّهِ بِاللَّهِ وَرَجَائِهِ لَهُ، وَحَسَنِ خَلْقِهِ، وَالْكَفِّ عَنِ اغْتِيَابِ الْمُؤْمِنِينَ)^٤.

وقال عليه السلام: (إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنِ الْقِيلِ وَالْقَالِ، وَفَسَادِ الْمَالِ، وَكَثْرَةِ الْأَسْوَالِ)^٥.

ودعا عليه السلام إلى إدخال السرور على المؤمن بما رواه من قول رسول الله ﷺ: (مَنْ سَرَّ مُؤْمِنًا فَقَدْ سَرَّنِي وَمَنْ سَرَّنِي فَقَدْ سَرَّ اللَّهَ)^٦.

وحث عليه السلام على صلة الرحم - وهي أعجل الخير ثواباً - لقوله عليه السلام: (إِنْ أَعْجَلَ

١. الخصال، ج ١، ص ٢٦٠.

٢. الكافي، ج ٢، ص ٢٠٨.

٣. الكافي، ج ٢، ص ١١٢.

٤. الكافي، ج ٢، ص ٧٢.

٥. الكافي، ج ١، ص ٦٠.

٦. الكافي، ج ٢، ص ١٨٨.

الخير ثواباً صلة الرحم).^١

ولصلة الرحم دور كبير في إصلاح علاقات المجتمع الإسلامي.

وقال عليه السلام: سئل رسول الله ﷺ عن خيار العباد، فقال: (الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أسأؤا استغفروا، وإذا أعطوا شكروا وإذا ابتلوا صبروا، وإذا غضبوا غفروا).^٢

ولم يكتفِ عليه السلام بنشر الأحاديث الشريفة والدعوة إلى تجسيد محتواها في الواقع؛ وإنما قام بأداء دور القدوة في ذلك. فكان عليه السلام يعالج الواقع الفاسد معالجة عملية من خلال سيرته الحسنة وتوثيق العلاقات الطيبة مع جميع الناس من الموالين وغير الموالين.

الدعوة إلى اكتساب مكارم الأخلاق

كثف الإمام عليه السلام دعوته إلى إصلاح النفوس واكتساب مكارم الأخلاق لتكون هي العلامة الفارقة لتعامل المسلمين فيما بينهم، فكان عليه السلام يدعو إلى إفشاء السلام وهو مظهر من مظاهر الإخاء والودّ والمحبة والصفاء في العلاقات الاجتماعية، قال عليه السلام: (إنّ الله يحبّ إفشاء السلام).^٣

كما دعا عليه السلام إلى تطهير اللسان وتقييده بقيود شرعية، لتحسين العلاقات بين الناس، فقال عليه السلام: (قولوا للناس أحسن ما تحبّون أن يقال لكم، فإنّ الله يبغض اللّعان السبّاب الطّقان على المؤمنين، الفاحش المتفحّش، السائل المحلف، ويحبّ الحيّ الحليم الضعيف المتعفف).^٤

ودعا عليه السلام إلى الارتباط بأهل التقوى وتعميق أواصر العلاقات معهم لما اختصّوا به

١. الكافي، ج ٢، ص ١٥٢.

٢. الخصال، ج ١، ص ٣١٧.

٣. تحف العقول، ص ٢٢٠.

٤. تحف العقول، ص ٢٢٠.

من خصائص تؤثر على المصاحبين لهم تأثيراً إيجابياً ينتهي إلى تجسيد المثل الإسلامية العليا، قال (ع): (إنَّ أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مؤونة وأكثرهم لك معونة، إن نسيت ذكرك، وإن ذكرت أعانوك، قوالين بحق الله، قوامين بأمر الله).^١

ووضح (ع) بعض حقوق المؤمن على المؤمن فقال: (إنَّ المؤمن أخو المؤمن لا يشتمه ولا يحرمه ولا يسيء به الظن).^٢

وقال (ع): من اغتیب عنده أخوه المؤمن فنصره وأعانه نصره الله في الدنيا والآخرة، ومن لم ينصره، ولم يدفع عنه وهو يقدر على نصرته وعونه خفضه الله في الدنيا والآخرة).^٣

وحذر (ع) من ظلم الآخرين أو الإعانة على ظلمهم فقال (ع): (من أعان على مسلم بشر كلمة كتب بين عينيه يوم القيامة آيس من رحمة الله).^٤

ودعا (ع) إلى مقابلة الإساءة والقطيعة بالإحسان والصلة فقال (ع): (ثلاثة من مكارم الدنيا والآخرة: أن تغفوَ عَمَّنْ ظلمك وتصلَ من قطعك، وتحلمَ إذا جهل عليك).^٥ وهكذا نلاحظ تنوع أساليب الإمام (ع) لإيجاد التغيير الأخلاقي في عامّة طبقات المجتمع.

الإصلاح الاقتصادي

لم يكن الإمام (ع) على رأس سلطة حتّى يستطيع إصلاح الأوضاع الاقتصادية إصلاحاً عملياً جذرياً، ومن هنا اقتصر (ع) على نشر المفاهيم الصحيحة الإسلامية

١. صفة الصفوة، ج ٢، ص ١٠٩.

٢. تحف العقول، ص ٢١٦.

٣. المحاسن، ص ١٠٣.

٤. المحاسن، ص ١٠٣.

٥. تحف العقول، ص ٢١٤.

المرتبطة بالحياة الاقتصادية، والنظام الاقتصادي الإسلامي، والتي تعصم مراعاتها الفرد والمجتمع من الانحراف والانسياق وراء إشباع الرغبات إشباعاً مخلاً بالتوازن الاقتصادي. وهنا نلاحظ أنَّ الإمام عليه السلام حدّد أولاً الأهداف المتوخاة من التصرف بالأموال، فهو وسيلة للتفرغ إلى عبادة الله تعالى، وقال في هذا الصدد: «نعم العون الدنيا على طلب الآخرة»^١. وذكر عليه السلام مصاديق طلب الآخرة فقال: «من طلب الرزق في الدنيا استغافاً عن الناس، وتوسيعاً على أهله، وتعطفاً على جاره؛ لقي الله عزّ وجلّ يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر»^٢.

وأكد عليه السلام على حرمة بعض التصرفات الماليّة كالتطيف في المكيال، فقال عليه السلام: «أنزل في الكيل: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾، ولم يجعل الويل لأحد حتّى يسمّيه كافراً...»^٣. وقدم عليه السلام مهمّة سدّ احتياجات المسلمين على أهمّ العبادات المستحبّة وهو الحجّ تطوعاً، فقال: «لئن أحجّ حجة أحبّ إليّ من أن أعتق رقبة ورقبة - حتّى أنتهي إلى سبعين - ولئن أعول أهل بيت من المسلمين أشبع جوعتهم وأكسو عورتهم وأكفّ وجوههم عن الناس أحبّ إليّ من أن أحجّ حجة وحجة - حتّى أنتهي إلى سبعين -»^٤.

الدعوة إلى التعالى على الحرص والطمع

روى عليه السلام عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «... لن تموت نفس حتّى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحمل أحدكم استبطاء شيء من الرزق أن يطلبه بغير حلّه، فإنّه لا يدرك ما عند الله ألا بطاعته»^٥.

١. الكافي، ج ٥، ص ٧٣.

٢. الكافي، ج ٥، ص ٧٨.

٣. تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٢٧.

٤. الكافي، ج ٤، ص ٢.

٥. الكافي، ج ٢، ص ٧٤.

ووجهه (عليه السلام) الأنظار إلى الآثار السلبية للحرص فقال (عليه السلام): «مثل الحريص على الدنيا، كمثل دودة القز، كلما ازدادت على نفسها لفاً؛ كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غمّاً»^١.

وركّز (عليه السلام) على زوال المال مادام الإنسان مخلوقاً للآخرة ومعرضاً للفناء بقوله: «ملك ينادي كل يوم: ابن آدم لذ للموت، واجمع للفناء، وابن للخراب»^٢. وحث (عليه السلام) على القناعة لأنها إحدى مقدّمات السعادة الروحية فقال (عليه السلام): «من قنع بما أوتي قرّت عينه»^٣.

ودعا (عليه السلام) إلى الاقتصاد والإعتدال في مختلف الظروف واعتبره من المنجيات، فقال: «أما المنجيات فخوف الله في السرّ والعانية، والقصد في الغنى والفقر»^٤.

التحذير من الاعتداء على أموال الآخرين

حدّد الإمام الباقر (عليه السلام) لكلّ إنسان حقّه، وحذّره من الاعتداء على أموال الآخرين فقال (عليه السلام): «من أصاب مالاً من أربع لم يقبل منه أربع: من أصاب مالاً من غلول أو ربا أو خيانة أو سرقة؛ لم يقبل منه في زكاة ولا صدقة ولا في حجّ ولا في عمرة»^٥.

الدعوة إلى الإنفاق الواجب

قال (عليه السلام): «إنّ الله تبارك وتعالى قرن الزكاة بالصلاة ... فمن أقام الصلاة، ولم يؤت الزكاة، فكأنه لم يقم الصلاة»^٦، وروى عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله: «ملعون كلّ مالٍ لا

١. الكافي، ج ٢، ص ١٣٤.

٢. الكافي، ج ٢، ص ١٣١.

٣. سفينة البحار، ج ٢، ص ٤٥٢.

٤. الخصال، ج ١، ص ٨٤.

٥. أمالي الصدوق، ص ٣٥٩.

٦. الكافي، ج ٣، ص ٥٠٦.

يزكّي^١، وبين عليه الآثار السلبيّة المترتبة على منع الزكاة فقال عليه السلام: «وجدنا في كتاب علي عليه السلام، قال رسول الله ﷺ: إذا منعت الزكاة منعت الأرض بركاتها»^٢.

الدعوة إلى الإنفاق الاستحبابي

لا يتحقق التوازن الاقتصادي ولا التكافل الاجتماعي إلا بتعاون أفراد المجتمع وتضامنهم المالي لرفع المستوى المعيشي لجميع المعوزين على أساس الإيثار وحبّ الخير والتقرب إلى الله تعالى، من هنا نفهم مغزى قوله عليه السلام: «البرّ والصدقة ينفيان الفقر ويزيدان في العمر، ويدفعان سبعين ميتة سوء»^٣. فالتأكيد على البرّ والتصدّق وبيان آثارهما الدنيويّة يشكّل حافزاً للتوجّه إليهما.

وحث عليه السلام على معونة الإخوان وقضاء حوائجهم فقال: «من بخل بمعونة أخيه المسلم والقيام في حاجته؛ ابتلي بمعونة من يأثم عليه ولا يؤجر»^٤. وحدّد عليه السلام موارد إعطاء الصدقات فقال: «إنّ الصدقة لا تحلّ لمحترف، ولا لذي مرّة سويّ قويّ...»^٥.

وكان عليه السلام يقوم بإنفاق ما يحصل عليه على الفقراء والمعوزين لتقتدي به الأمة، وفي نفس الوقت كان يدين تصرفات الحكّام التي لا تركز على أسس مشروعة مثل ما رواه عن رسول الله ﷺ حول الملعونين فذكر منهم: «المستأثر بالفيء والمستحلّ له»^٦.

١. وسائل الشيعة، ج ٩، ص ٢٩.

٢. الكافي، ج ٣، ص ٥٠٥.

٣. الخصال، ج ١، ص ٤٨.

٤. المحاسن، ص ٩٩.

٥. الكافي، ج ٢، ص ٢٩٣.

٦. وسائل الشيعة، ج ٩، ص ٢٣١.

بناء الجماعة الصالحة

إِنَّ الْإِسْلَامَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ الْأَمِينِ ﷺ وَعَيْنَ الرَّسُولِ أَهْلَ بَيْتِهِ الْأَبْرَارِ أَمْنَاءٌ عَلَى شَرِيعَتِهِ وَخُلَفَاءُ لِلَّهِ فِي أَرْضِهِ وَقَدَّمُوا دِمَاءَهُمُ الْغَالِيَةَ رَخِيسَةً لِلدِّفَاعِ عَنْهُ وَالْحِفَافِ عَلَيْهِ مِنَ التَّشْوِيهِ وَالتَّحْرِيفِ .. هُوَ الْإِسْلَامُ الْمُحَمَّدِيُّ الَّذِي حَارِبَتْهُ بَطُونُ قَرِيشَ بِقِيَادَةِ أَبِي جَهْلٍ وَأَبِي سَفْيَانَ وَأَبْنَاءَ وَأَحْفَادِ أَبِي سَفْيَانَ.

وهكذا كان عزل أهل البيت عليه السلام عن مسرح القيادة السياسيَّة ينتهي إلى عزلهم عن مسرح القيادة الدينيَّة والفكريَّة وتشويه معالم هذه الرسالة بالتدريج لولا الحضور الفاعل لأهل البيت عليه السلام ومحاولات الصَّدِّ لهذه الصدمة الَّتِي كادت أن تؤدي بحياة الرسالة المحمَّديَّة كما أودت بحياة الأُمْنَاء عليها.

وكان هذا الحضور الفاعل من أهل البيت عليه السلام منذ بداية العزل والتطويق يتمثل في نوعين من النشاط:

١. نشاط عام يحاول توجيه الأُمَّة إلى حقيقة الانحراف ومضاعفاته، وكان يتمثل في البيان الهادئ تارةً والصمت البليغ تارةً أُخرى، والحركة الهادفة وعدم المساومة على القيم الرساليَّة لأجل الوصول إلى حكمٍ عاجلٍ وبأسلوب ذي التواء مرة ثالثة، ثمَّ الحركة الهاددة والنهضة المسلَّحة ضدَّ الانحراف حين يبلغ أقصى مداه ولا يمكن تحريك ضمير الأُمَّة إلَّا بالتضحية والملحمة الثوريَّة الَّتِي تزلزل القلوب وتثير النفوس وتجثت منها جذور التعلُّق بالحياة الماديَّة الرخيصة، وكلَّ هذه الأوجه للنشاط بخطواته المتدرِّجة والخطى العظيمة في ميزان القيم الإسلاميَّة فإنَّها لا تشكِّل إلَّا حلولاً على المدى القريب الَّذِي كان يتدرَّج فيه الانحراف من السطح إلى العمق ومن العامَّة إلى الخاصَّة.

وكلَّما كانت الأجيال تبتعد عن عصر الرسول ﷺ ومصدر الإشعاع ومعين أهل البيت عليه السلام تجاهلاً أو جهلاً لم تكن مثل هذه الخطوات لتشكِّل الحلَّ الناجح وتفيد الوعي الكافي والمعتق والفهم الأصيل للرسالة المحمَّديَّة وأبعادها ومدى الانحراف عنها.

ومن هنا كان على أهل البيت عليهم السلام الأمانة على الرسالة أن يقوموا بتخطيط بعيد المدى يتضمن تحقق الأهداف الكبرى للإسلام بعد أن مُني بالانحراف على مستوى القيادة والمفاهيم الرسالية بالتدريج فأخذت القاعدة تنهار بسبب الابتعاد عن القيادة الرشيدة.

٢. النشاط الخاص: ونريد به ما قام به أهل البيت عليهم السلام من نشاط لتربية جيل أو أجيال صالحة وتوعيتهم على حقائق الرسالة واستثمانهم على أهدافها ومصالحتها وهو نشاط يختص به الأئمة ثم جمع خاص من المسلمين وهم أتباع أهل بيت الرسالة الذين عرفوا موقعهم الرباني ووعوا رسالتهم التغييرية وأهدافهم الكبرى.

وهذا النشاط يعتبر هو التخطيط البعيد المدى الذي حرص الأئمة عليهم السلام على تحقيقه لبث الوعي المطلوب في الأمة المسلمة وتربيتها على حقائق الرسالة الناصعة، فإن فرض الرقابة الحكومية على أهل البيت عليهم السلام بعد عزلهم السياسي والسعي لمصادرة موقعهم العلمي لا يسمح لهم بالحركة الحرة في أوساط المجتمع الإسلامي ليتولوا ما يشاؤون ويفعلوا ما يريدون، ومن هنا كانت عملية التربية تتطلب زمناً طويلاً عناية خاصة منهم تستدعي تكثيف النشاط في هذا الحقل الخاص لبناء اللبنة الأولى لعملية التغيير الاجتماعي وتكوين عناصر الحركة التغييرية المستمرة في الأجيال المتعاقبة وبالتالي التوسع والانتشار في أرجاء المجتمع الإسلامي من خلال هذه المجموعة الصالحة والمتراصة السائرة على هدى أهل البيت عليهم السلام.

وقد قام أهل البيت عليهم السلام بدءاً بالرسول صلوات الله عليه وآله والإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فالحسن والحسين وتحركوا على أساس هذا التخطيط المدروس ولم يكتفوا بالخطوات القصيرة المدى للوصول إلى مركز الحكم وتطبيق أحكام الله في الأرض، فقد رأينا دولة الإمام علي عليه السلام وهي الدولة النموذجية من حيث القيادة ولكنها لم تكن أحسن حالاً من دولة الرسول صلوات الله عليه وآله الفتية حيث احتوت على أنواع التيارات المضادة وأرهقتها المشاكل السياسية حتى أدت إلى استشهاد إمام الأمة عليه السلام بأيد ترفع

شعار الإسلام ديناً لها.

ومن هنا فقد كانت الركيزة الأساسية للحركة التغييرية هي العمل على المدى البعيد. إذن كان تخطيط أهل البيت عليه السلام منصّباً منذ البداية على الاهتمام بتكوين الجماعة الصالحة المؤمنة بهم وبخطّهم وبرسالتهم التغييرية وتربية رجال هذه المجموعة تربية تعتمد التوعية والتدريب على الالتزام بالخط الصحيح والاستعداد للتضحية من أجل العقيدة وترجيح الآخرة الباقية على الدنيا الزائلة.

غير أنّ ما كانت تحتاجه الجماعة الصالحة في المرحلة الأولى من نشأتها في العقود الأولى وفي النصف الأوّل من القرن الأوّل من التوجيه والإشراف والإدارة من قبل الأئمة عليه السلام لم يكن مثل ما كانت تحتاجه بعد عصر الإمام الحسين عليه السلام وهو العصر الذي بدأت فيه هذه الجماعة بالتميّز، واقتضت الظروف الموضوعية اتّضح الخطوط التفصيلية التي كانت تشكّل معالم هذه الجماعة الصالحة.

لقد بدأت تتضح معالم الجماعة الصالحة بنشاط الإمام زين العابدين عليه السلام في المدينة بعد ملحمة عاشوراء وبعد سقوط الحكم السفلياني ثم تهيب عبد الملك بن مروان من التورط بدماء العترة الطاهرة.

وقد ورث الإمام الباقر عليه السلام عدة أجيال كانت قد تربّت على يد أبيه وتطلّبت الظروف الاجتماعية والسياسية تحديد هذه الجماعة وتعيين الإطار التفصيلي لها. من هنا تصدّى الإمام الباقر عليه السلام إلى تربية هذه الجماعة الصالحة والواعية والأمنية على رسالة الله وخطّ أهل البيت عليه السلام، وعكف على تحديد معالمها وتنظيم شؤونها وتعبئتها لتقوم بالدور المطلوب منها في عملية التغيير الاجتماعي فكرياً وتربوياً وسياسياً.

واستمر الإمام الباقر عليه السلام في تشييد هذا الصرح ورفده بعناصر جديدة لتستمرّ الحركة الصاعدة في تبنيّ منهج أهل البيت عليه السلام وتطبيقه على واقع الحياة، وتمثّلت حصيلة هذه التربية في كوكبة من أصحاب الإمام الباقر عليه السلام وعلى

رأسهم: (زراوة بن أعين، ومعروف بن خربوذ، وأبوصير الأسدي، والفضيل ابن يسار، ومحمد بن مسلم الطائفي، وبرير بن معاوية المجلي). وهؤلاء الطليعة المتقدمة من أصحاب الإمام الباقر عليه السلام. وتلت هذه الطليعة الطبقة الثانية من صحابته وهم (حمران بن أعين، وإخوته، وعبدالله بن ميمون القدّاح، ومحمد بن مروان الكوفي، وإسماعيل بن الفضل الهاشمي، وأبوهارون المكفوف) وآخرون^١.

وتنوّعت توجّهات الجماعة الصالحة، فمنهم الفقهاء، ومنهم قادة الثورات، ومنهم المصلحون الذين كانوا يجوبون الأمصار لتعميق منهج أهل البيت عليهم السلام في قلوب الناس ونفوسهم.

الخاص

□ تركّز دور الإمام الباقر عليه السلام على بناء القاعدة الثابتة للجماعة الصالحة لتكون الطليعة الواعية، والقاعدة الصلبة لتوسيع القواعد الشعبية من أجل إقامة حكم الله في الأرض.

□ و قد شاركت هذه الكتلة الصالحة في عملية البناء والتغيير التي قادها الإمام على ضوء التوجيهات التي كان يرسلها إلى مواقع القيادة في تلك الجماعة، وقد ضمت هذه الجماعة الفقهاء والمعلمين وقادة الثورات والمفكرين والدعاة، وانتشروا بعد ذلك حتّى وصلوا إلى أبعد نقطة في الساحة الإسلامية وهم يحملون علوم أهل البيت عليهم السلام.

الأسئلة

- ١ . باعتبارك مؤمناً بمنهج أهل البيت عليهم السلام ، ما هو واجبك تجاه الجماعة الصالحة؟
- ٢ . لماذا يؤكّد الإمام الباقر عليه السلام على دور الجماعة الصالحة في توعية الأمة؟
- ٣ . ما هي الصورة التي رسمها القرآن الكريم لشخصية المسلم؟
- ٤ . ما خصائص الجماعة الصالحة؟
- ٥ . ما هي النشاطات التي ركّز عليها الإمام عليه السلام في توسيع القاعدة المؤمنة؟
- ٦ . من أين تستقي الجماعة الصالحة تعليماتها في بناء القاعدة المؤمنة؟

أسس بناء الجماعة الصالحة (١)

الأهداف العامة للجماعة الصالحة

عرفنا أن الأهداف الرسالية لأهل البيت عليهم السلام لم تكن لتتحقق - في الظروف التي كانت تحيط بهم بعد مؤامرة السقيفة وما استتبعها من أوضاع - إلا من خلال قاعدة أمينة وواعية ومؤمنة تقوم بدور الوسيط بين القيادة المعصومة الرشيدة والأمة الإسلامية، وكان لابد لهذه القاعدة أن يتناسب مستوى وعيها وإيمانها وإخلاصها مع مستوى الأهداف التي يراد منها تحقيقها.

وهذه الأهداف يمكن إجمالها فيما يلي:

١. حفظ الشريعة الإسلامية من التحريف

وهو أهم هدف لوجود الإمام المعصوم في المجتمع البشري على مدى الأجيال إذ التحريف ظاهرة عامة كانت تتعرض له كل شريعة بعد غياب رسولها.

وكان مبدأ مقاومة الظالمين من أهم المبادئ التي تعرضت للتحريف فوضعت لأجل ذلك أحاديث على لسان النبي صلى الله عليه وآله لتبرير الاستسلام للظالمين.

واستطاعت الجماعة الصالحة أن تلتزم بهذا المبدأ عبر القرون وتنقله لنا على مستوى النظرية والتطبيق معاً.

كما أنَّ الجماعة الصالحة استطاعت أن تحتفظ بمبدأ انفتاح باب الإجتهد والتفقه في الدين بالرغم معاذهبت اليه سائر الفرق والمذاهب الإسلامية في القرون الأولى من تأريخ الأمة الإسلامية. وقد ضمن هذا المبدأ قدرة الشريعة على معالجة المستجدات الاجتماعية ومواكبة الزمن مع الاحتفاظ بالأصالة والحدائث والحيوية للشريعة الإسلامية.

وقامت الجماعة الصالحة بدور الصيانة لمبدأ الحرية الفكرية التي جاءت بها الشريعة الإسلامية للبشرية بالرغم من محاولات التحريف الجادة لضرب هذا المبدأ المهم الذي يضمن حيوية الشريعة وصيانتها من التحريف من خلال نقد التيارات المضادة وكشف زيفها وبطلانها باستمرار.

واهتمت الجماعة الصالحة - رغم حراجه الظروف ومواجهة السلطات الحاكمة - بحفظ وتدوين وضبط تراث النبي ﷺ والأئمة الأطهار، وساهمت التقوى والعدالة التي أوجدها أهل البيت عليه السلام عند أتباعهم في الحرص على حفظها من كل تلاعب وتحريف.

٢. المحافظة على المجتمع الإسلامي

إنَّ هيمنة التيارات غير الكفوءة على مركز الحكم في الدولة الإسلامية استتبع تحريف المفاهيم الإسلامية واستحداث مفاهيم جديدة لتبرير السيطرة على الحكم، كما أنَّه استتبع إنهيار المجتمع الإسلامي بالتدريج؛ وذلك لأسباب تعود الى غياب المرابي الكفوء من الساحة السياسية والاجتماعية العامة.

فكان على الإمامة الرشيدة أن تقف أمام هذا المد المؤدي إلى إنهيار المجتمع الإسلامي وذلك بتعبئته بعوامل تصونه من التردى والاضمحلال وتحاول أن تعيد له حيويته وأصالته وقدرته بالتدريج.

والجماعة الصالحة المؤمنة بقيادة أهل البيت عليه السلام وسلامة مسيرتهم ورسالتهم هي

ذلك العامل القادر على إيجاد هذه الصيانة وإعادة الحيوية والقدرة من جديد، وذلك من خلال القيام بالأدوار والمهام التالية:

أ - الإسهام في حفظ الوحدة الإسلامية بين المذاهب المختلفة.

ب - الإسهام الجاد في الدفاع عن كيان المجتمع الإسلامي حينما يتعرض للغزو الخارجي والهدم الداخلي.

ج - إيجاد القدرة الحسنة والنموذج الصالح للإنسان المسلم الذي يريد الإسلام بناءه. وقد عرّف الإمام الباقر شيعة علي عليه السلام بأنه زين القبيلة وأقضاهم للحقوق وأصدقهم للحديث وآداهم للأمانة... تسأل عنه العشيرة فتقول: من مثل فلان؟ إنه آدانا للأمانة وأصدقنا للحديث^١.

د - الالتزام بالمثل العليا والقيم الإسلامية بالرغم من ابتعاد التيار العام عن هذه المثل، وبالرغم من تعرضهم لفقدان كثير من المكاسب المادية التي يطمع إليها الناس.

هـ - محاربة العنصرية والطائفية والإقليمية التي أحيها خطأ الخلافة.

و - الاحتفاظ بروح التضحية والشهادة - تبعاً للأئمة الأطهار - وذلك للحفاظ على القيم الربانية وتأجيج روح الرفض للظلم والطغيان، وقد تمثل ذلك في مجموعة من الثورات التحريرية والتصحيحية للأوضاع الفاسدة في المجتمع الإسلامي على مرّ القرون.

٣. المساهمة في الحكم الإسلامي

إن الحكم الصالح يحتاج إلى بطانة صالحة وقادرة على تطبيق أحكام الإسلام فتكون العين الحارسة والساعد الأيمن في إدارة الولايات وتولي القضاء و فرق الجيش وجباية الخراج وتبليغ الرسالة الإسلامية إلى عامة الخلق، وقد ساهمت الجماعة

الصالحة في الحكم الإسلامي بعد عصر الرسول ﷺ حين سنحت لهم الفرصة المؤاتية وفي دولة أمير المؤمنين عليه السلام والإمام الحسن المجتبي عليه السلام . وفي حكم الخلفاء حين كان يُسمح لهم بذلك.

وكان إعداد هذه المجموعة هدفاً من أهداف أهل البيت عليه السلام.

٤ . التمهيد للظهور

لقد تنبأ النبي ﷺ بسقوط قلاع كسرى وقيصر كما تنبأ بانحسار القيم والمفاهيم الإسلامية من الأمة الإسلامية وامتداد الأرض ظلماً وجوراً بالتدريج، وكان في هذا إيذاناً لضرورة التخطيط على المدى البعيد كي تتحقق كامل أهداف الشريعة وظهور الإسلام على الدين كله كما أخبرنا بذلك القرآن الكريم.

ولا تتحقق الأهداف السابقة - كما أشرنا - إلا من خلال قاعدة أمينة وجماعة صالحة تتولى التمهيد لهذا الهدف الكبير. وذلك من خلال حمل تفاصيل هذا الهدف وفهم كيفية تحقيقه وتبليغه على المستوى العام والعمل للوصول إليه على المستوى الخاص، في العصر الذي تسيطر فيه قوى الطاغوت لتشويه معالم الشريعة وتفكيك قوى الأمة وإبعاد القيادات الكفوءة عن تولي الحكم.

وقد حملت الجماعة الصالحة التي تربت على يدي أهل البيت هذه الفكرة الأساسية بشكلها الحيّ فاتخذت الانتظار شعاراً حياً في وجودها الثقافي ووعيتها السياسي، وحملت إرادة التغيير بشكل جاد وأخذت تساهم في عملية الظهور بمواجهتها للحضارة المادية وللتيارات المنرفة كما يدلّ على ذلك تأريخها الناصع عبر القرون^١

١ . راجع للتفصيل وللوقوف على الشواهد الكافية، دور أهل البيت، في بناء الجماعة الصالحة، الجزء الأول،

أهم خصائص الجماعة الصالحة

إن الأهداف الكبرى التي استعرضناها للجماعة الصالحة تتطلب توفر مواصفات خاصة وبمستوى عالٍ في الجماعة التي تريد تحقيقها. ويمكن أن نجمل هذه المواصفات فيما يلي:

١. العقيدة الصحيحة والثقافة السليمة

لقد حرص أهل البيت عليه السلام على بيان معالم العقيدة السليمة وإعطاء تفاصيلها إلى أتباعهم باستمرار، ونلمس ذلك في التراث الذي حفظه لنا أتباعهم وهو ثروة كبرى في هذا المضمار.^١

٢. الرجوع إلى أهل بيت الوحي

في معرفة الدين وفهم تفاصيل الشريعة وحقائق الرسالة والولاء السياسي والفكري لهم، وقد تميز أتباع أهل البيت بهذه الصفة فإنهم لا يتعدون نصوص وتراث أهل البيت عليه السلام الغني كل الغنى في هذا الجانب، فإن أهم ما عكف عليه أهل البيت إلى جانب كل نشاطاتهم الاجتماعية والفردية هو بيان ضرورة رجوع الأمة إليهم لمعرفة الدين، وقد أعلنوا ذلك ضمن احتجاجهم مع علماء سائر فرق المسلمين وأمام أعين الخلفاء وطلّاب الحقيقة ولم يخفوا من ذلك شيئاً حتى في أشد الظروف حرجاً.

روى عمر بن أبي القداح عن جابر قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: ما دعى أحد من الناس أنه جمع القرآن كله كما أنزل إلا كذاب، وما جمعه وحفظه - كما نزل الله

١. ونستطيع أن نجد بفتيتا فيما جاء في القسم العقائدي من أصول الكافي وكتاب الاحتجاج والقسم العقائدي من موسوعة بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمته الله.

تعالى - إلا علي بن أبي طالب والأئمة من بعده ^١.
وعن سورة بن كليب قال: قال أبو جعفر: واللّه أنا لخزان اللّه في سمائه وأرضه، لا على ذهب ولا على فضّة إلا على علمه ^٢.

٣. الاتّصاف بدرجة عليا من الكمالات النفسيّة والعمليّة
اهتمّ أهل البيت عليه السلام بتربية أتباعهم تربية تجعلهم في مستوى رفيع من الكمالات بحيث تجعلهم في مستوى القدوة الحسنة للآخرين حتّى عرف شيعة أهل البيت بهذه الميزة على مدى القرون والأجيال.
قال عليه السلام: إنّما شيعة عليّ الحلّماء العلماء، الذبل الشفاه، تُعرف الرهبانيّة على وجوههم ^٣.

وقال لجابر بعد بيانه لكيفيّة تقييم الإنسان الشيعي لنفسه بشكل دائم ذاكراً خصائص ومميّزات المسلم الشيعي: وما كانوا يعرفون - يا جابر - إلا بالتواضع والتخشّع والأمانة وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة والبرّ بالوالدين والتعاهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والأيتام وصدق الحديث وتلاوة القرآن وكفّ الألسن عن الناس إلاّ من خير، وكانوا أمناء عشائهم في الأشياء ^٤.

وبعد كلّ هذا فالجماعة الصالحة ذات كيان متكامل ومتراصّ داخل المجتمع الإسلامي الواسع، فهم يشكّلون حصناً منيعاً داخل المجتمع الكبير وهم يغذّون أبناء أمتهم بالمفاهيم الصحيحة والتربية العالية والثبات على الحقّ، ومن هنا تركّزت جهود أهل البيت عليه السلام على بيان تفاصيل الخطّ السياسي والثقافي والمالي والأمني للجماعة

١. الكافي، ج ١، ص ٢٢٨، الحديث ١.

٢. الكافي، ج ١، ص ١٤٨، الحديث ٢، من باب أن الأئمة مولاة أمر الله.

٣. بحار الأنوار، ج ٦٥، ص ١٨٩.

٤. الكافي، ج ٢، ص ٧٤.

الصالحة وحرصوا على تجذّر هذا الكيان في داخل المجتمع الإسلامي وأشرفوا على غرسه ونموّه وإثماره ولم يهتموا بشيء كاهتمامهم بهذا الجانب لأنه يشكل محور العمل الرسالي على المدى البعيد والقريب أيضاً، إذن فهو حصيلة قدرتهم وخلاصة جهودهم الجبارة لتحقيق أهداف الرسالة الكبرى^١.

الأسس العامة في بناء الجماعة الصالحة (١)

إنّ الأهداف والخصائص التي ذكرت للجماعة الصالحة تتطلّب تخطيطاً محكماً حادّاً لبناء مثل هذه الجماعة الصالحة داخل المجتمع الإسلامي الكبير بنحو يضمن تحقيق الأهداف الكبرى ولا ينتهي الى التعارض والتناحر بين هذه المجموعة وما يحوط بها من فرق ومذاهب وتيارات وعروض مغرية وفرص ذهبيّة لرموز هذه الجماعة إذا اكتشف الأعداء رسالة هذه الجماعة ومهمّتها الكبرى داخل الكيان الإسلامي وخارجه.

إنّ الأصالة والإحكام والشمولية والانسجام هي أهمّ معالم هذه الأسس لإيجاد بناء مرصوص قادر على القيام بدور تاريخي كبير يتمثّل في حفظ الإسلام والأمة المسلمة والدفاع عنها من خلال ضنخ الوعي الإسلامي الصحيح في الأمة وتحقيق التربية المطلوبة لأبناء الأمة وحفظ الكيان الشيعي من التفتّت والانهيّار أو الانعزال والذوبان.

أسس العقيدة السليمة

إنّ العقيدة هي أساس أيّة حركة اصوليّة سليمة، وبمقدار قوّة العقيدة ووضوحها و انسجامها مع الركائز النظريّة للإنسان يكون النجاح والثبات والاستمرار والتطوّر مضموناً لأصحابها.

وهذه الانطلاقة في المنهج لبناء الجماعة الصالحة هي انطلاقة قرآنيّة وعقلائيّة

منطقيّة نجد ملامحها بوضوح في عامّة السور المكيّة في القرآن الكريم حيث اهتمّت ببناء الكيان الفكري والعقائدي قبل الاهتمام ببناء الكيان الإخلاقي والسلوكي وقبل التصدي لبناء أيّ كيان سياسي أو نظام اجتماعي عامّ. وهذه الأسس هي:

١. مصدرية العقل والكتاب والسنة

إنّ العقل الفطري والعقل النظري اليقيني المرتكز على أسس فطريّة واضحة هو أساس الحركة المنطقيّة الصحيحة للإنسان باتّجاه الإيمان بالوحي وفهم نصوصه واستيعاب مضامينه، ومن هنا كان تركيز أهل البيت عليهم السلام على العقل والكتاب والسنة معاً تركيزاً يعطي لكلّ منهما موقعه ودوره الذي يميّز به. وتجد أدلّة ذلك في عامّة كتب الحديث الشيعي الجامعة مثل أصول الكافي وبحار الأنوار حيث يتقدم كتاب العقل والجهل على كتاب العلم والتوحيد والحجّة. وهو تقدّم منطقي أقوّه الوحي المتمثل في القرآن الكريم والسنة النبويّة الشريفة^١.

٢. مرجعية أهل البيت العلميّة والسياسيّة

ودورهم الكبير في تفسير حقائق الكتاب والسنة وترشيد حركة العقل البشري وذلك لتميّزهم على من سواهم من الأمتة بالعلم والعصمة والكمال الذي تتطلّبه أهداف الشريعة الخالدة.

فمن أبي جعفر الباقر عليه السلام: إنّ العلم الذي نزل مع آدم عليه السلام لم يرفع، والعلم يتوارث، وكان علي عليه السلام عالم هذه الأمتة وإنّه لم يهلك منّا عالم قطّ إلّا خلفه من أهله من علم مثل علمه أو ما شاء الله^٢.

١. راجع كتاب العقل والجهل من الكافي.

٢. أصول الكافي، ج ١، ص ٢٢٢، الحديث ٣ وراجع أبواب علم الأنسنة من كتاب الحجّة في أصول الكافي.

٣. سلامة المنهج

وقد اعتنى أهل البيت : سلامة المنهج كأسس لضمان سلامة العقيدة التي يريدون تربية أتباعهم عليها . وتكفي نظرة واحدة إلى أبواب العقل والعلم والتوحيد والحقّة في أصول الكافي للوقوف على النهج القويم الذي سلكه أهل البيت للتربية الفكرية والعقائدية لأتباعهم بشكل خاصّ ولعامّة المسلمين بشكل عامّ.

٤. حرّية الفكر

إنّ أهم ما اتصفت به مدرسة أهل البيت وعرف عنهم هو نفي الجبر والتفويض وحرّية الإرادة والفكر الإنساني، وقد ربّوا أتباعهم على هذا الأساس وتجلّت آثاره في انفتاح باب الاجتهاد والاستنباط بالرغم من تظافر العوامل السياسيّة والاجتماعيّة المختلفة لغلّق هذا الباب في وجه أتباع أهل البيت عليهم السلام : كما حدث ذلك لغيرهم.

٥. وضوح المفاهيم وانسجامها وشمولها

إذا قلنا بأنّ مدرسة أهل البيت هي المدرسة الفكرية الوحيدة التي اتصفت بمفاهيمها العقائدية بالوضوح والانسجام والشمول؛ فإنّا لم نتجاوز الواقع ولم نبالغ فيه، ولك أن ترجع إلى عقائد الإماميّة للشيخ محمد رضا المظفر وأصل الشيعة واصولها للشيخ محمد حسين كاشف الغطاء والجزء الأوّل من الكافي لتلمس ذلك بوضوح.

٦. قوّة المنطق

إنّ ما جاء في كتب الحديث الشيعة حول العقائد الإسلاميّة العامّة والشيعة الخاصّة قد احتوى على الأدلة المتقنة وزوّد العالم الإسلامي والمدرسة الإسلاميّة بشكل عامّ والمدرسة الشيعة بشكل خاصّ بهذه الثروة الكبيرة التي لا تعدو المنطق السليم والاستدلال القويم بحال من الأحوال.

الخلاصة

- تتلخّص الأهداف العامّة للجماعة الصالحة في حفظ الشريعة الإسلامية من التحريف و صيانة المجتمع الإسلامي من الضعف والإنهيار والمساهمة في إدارة الحكم الإسلامي حينما تساعد الظروف على ذلك والتمهيد للظهور الموعود بالعلم والعمل الإعداد والنفسي الفردي والجماعي.
- و تتلخّص أهمّ مواصفات الجماعة الصالحة في سلامة العقيدة والثقافة الإسلامية الرجوع الى أهل البيت عليه السلام لأخذ معالم الدين منهم والولاء السياسي بالإضافة الى الولاء الفكري لهم والإلتصاف بالدرجات العليا من الكمالات النفسية العملية.
- و أهمّ معالم أسس بناء الجماعة الصالحة هي: الأصالة والإحكام والشموليّة والإنسجام و تتمثّل هذه الأسس في: مصدرية العقل والكتاب والسنة ومرجعية أهل البيت العلمية والسياسية وسلامة المنهج ووضوح المفاهيم وانسجامها وقوّة المنطق وحرّيّة الفكر.

الأسئلة

١. ما هي الأهداف العامّة للجماعة الصالحة؟
٢. ما هي أهمّ مواصفات الجماعة الصالحة؟
٣. ما هي أهمّ معالم أسس بناء الجماعة الصالحة؟

أسس بناء الجماعة الصالحة (٢)

أسس التربية الصحيحة

إن تطهير النفس من الرذائل الخلقيّة وسعيها لتحصيل الملكات الفاضلة ومكارم الأخلاق التي اجتمعت في القادة الربّانيين وحظيَ بتمامها وكمالها خاتم المرسلين وعترته الميامين هو الأساس الثاني الذي يعتمد عليه بناء الجماعة الصالحة بشكل خاصّ والنظام الاجتماعي الإسلامي بشكل عامّ.

ونجد اهتمام القرآن الكريم ببناء هذا الجانب في الإنسان بشكل واضح حتّى أنّه جعل سعادة الإنسان وشقاءه يدوران مدار هذا البناء الأخلاقي. قال تعالى: ﴿و نفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها﴾^١.

والاعتدال في هذا البناء الأخلاقي والانسجام مع البناء العقائدي والمنهج العملي والسلوكي ضمن منهج واضح وتخطيط مدروس ومعقول هو السمة الأساسيّة لتربية أهل البيت عليه السلام أتباعهم على اكتساب الأخلاق والقدرة على تجسيدها بشكل صحيح في واقعهم.

وامتازت توجيهات أهل البيت عليه السلام في هذا المجال باستنادها الى الرؤية القرآنيّة

ونصوص الوحي الإلهي التي تضمنت المنهج الكامل نظريّةً وتطبيقاً، ولكنّ المسلمين لابتعادهم عن أهل بيت الوحي قد أفرطوا وفرطوا في فهمها وتطبيقها وانتهوا تارة إلى الرهبة التي ذمّها القرآن الكريم أو إلى التصوف الخاطيء الذي تسرّ المستعمرون خلفه لإحكام السيطرة على ثروات المسلمين وحكوماتهم وسلب خيرات بلادهم.

بينما بقي أتباع أهل البيت مرابطين على ثغور الفكر والعقيدة والأخلاق والعرفان وسهروا على خطّ الدفاع عن كيان الإسلام على مدى القرون والأجيال بالرغم من اهتمامهم البالغ بالتزكية الروحية والنقاء الخلقي دون تظاهر أو جلب انتباه.

وقد اعتبر أهل البيت عليه السلام بما فيهم الرسول الكريم صلى الله عليه وآله أنّ الجهاد الأكبر هو جهاد النفس وكلّ جهاد سواه يُعدّ إلى جانبه جهاداً أصغر منه لأنّه جهاد على مدى العمر، وفي كلّ زمان ومكان لا يكاد يفارق الإنسان حتّى يتسامى على كلّ الشهوات والنزوات ويسمو بروحه وفكره إلى أعلى عليّين ويضمن لنفسه الوصول إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

مقومات التزكية المطلوبة عند الإمام عليه السلام

إنّ التزكية لا تتمّ إلّا بعد أن تنطلق من القلب والضمير وتتفاعل مع الشعور بخشية مستمرة وحذر دائم وتوقّ من الرغائب والشهوات والمطامع، فلا بدّ وأن تكون شعوراً في الضمير، وحالة في الوجدان، وصولاً في المشاعر لتتهيأ النفوس والأعمال لتلقي أسسها وتقريرها في الواقع، ولهذا ركّز الإمام عليه السلام على أهمّ المقومات التي تدفع النفس للتزكية ومنها:

١. استشعار الرقابة الإلهية

لا تتمّ التزكية إلّا باستشعار الرقابة الإلهية في العقل والضمير والوجدان، والإحساس بأنّ الله تعالى محيط بالإنسان يحصي عليه حركاته وسكناته، ولهذا ركّز

الإمام عليه السلام على هذه الرقابة لتكون دافعه لإصلاح النفس وتزكيتها، ففي موعظته لجماعة من أنصاره قال لهم: (ويلك... كلما عرضت لك شهوة أو ارتكابت ذنب سارعت إليه وأقدمت بهلك عليه، فارتكبتك كأنك لست بعين الله، أو كأن الله ليس لك بالمرصاد...)^١.

٢. التوجه إلى اليوم الآخر

إن الحياة الإنسانية هي حياة ممتدة مع الإنسان في جميع مراحل النشوء والتكوين من الولادة حتى الممات، والبعث في يوم الجزاء، فهنا حياة فانية وهناك أخرى باقية خالدة، والتوجه إلى الحياة الخالدة يمنع الإنسان من الانحراف ويدفعه لتخليص النفس من ربة الشهوات وظلمة المطامع وأدناس الهوى، وقد وجه الإمام عليه السلام الجماعة الصالحة إلى ذلك اليوم ليجعلوه نصب أعينهم وليكون حافزاً لهم لإصلاح النفس وتزكيتها، ومما جاء في موعظته لجماعة منهم قوله عليه السلام: (... ياتالب الجنة ما أطول نومك وأكل مطيتك، وأوهى همّتك، فله أنت من طالب ومطلوب.

ويا هارباً من النار ما آمن مطيتك إليها وما أكسبك لما يوقعك فيها...

يا ابن الأيّام الثلاثة: يومك الذي ولدت فيه، ويومك الذي تنزل فيه قبرك، ويومك الذي تخرج فيه إلى ربك، فياله من يوم عظيم، يا ذوي الهيئة المعجبة والهيم المعطنة مالي أرى أجسامكم عامرة وقلوبكم دامرة...)^٢.

وبين الإمام عليه السلام أن الدنيا دار بلاء يتناسب مع درجة الإيمان فقال: (إنما يبتلى المؤمن في الدنيا على قدر دينه)^٣.

١. تحف العقول، ص ٢١٢.

٢. تحف العقول، ص ٢١٢، ٢١٣.

٣. جامع الأخبار، ص ٣١٣.

٣. تحكيم العقل

إنَّ الله تعالى خلق الإنسان مزوداً بعقل وشهوة، ومنحه سبل الهداية من خلال البينات والحقائق الثابتة، وهو مكلف بتهيئة القلب للتلقي والاستجابة والتطلع إلى أفق أعلى وإلى اهتمامات أرفع من الرغبات والشهوات، ولهذا ركَّز الإمام عليه السلام على تحكُّم العقل على جميع الرغبات والشهوات، ولا بدَّ أن يكون للإنسان واعظ من نفسه ليقوم بتزكيتها، فقال عليه السلام: (من لم يجعل الله له من نفسه واعظ، فإنَّ مواعظ الناس لن تنفي عنه شيئاً)^١.

٤. التطابق بين الإرادة الإنسانية والإرادة الإلهية

إنَّ تكامل النفس لا يتم إلا من خلال التطابق بين الإرادة الإنسانية والإرادة الإلهية باتباع المنهج الإلهي في الحياة، وهذا التطابق يحتاج إلى مجاهدة الهوى والهيمنة على الشهوات وتقييدها بقيود شرعية، ومجاهدة النفس تجعل الإنسان مهياً للفيض الإلهي لإكمال نفسه وتزكيتها. قال الإمام الباقر عليه السلام: (يقول الله عز وجل: وعزّتي وجلالي، لا يؤثر عبد هواي على هواه إلا جعلت غناه في قلبه، وهنّه في آخرته...)^٢.

منهج التزكية المطلوبة عند الإمام عليه السلام

رسم الإمام عليه السلام للجماعة الصالحة منهجاً واقعياً لتزكية النفس كفيلاً بتحقيقها إن روعي من قبلها، وجسّدته في الفكر والعاطفة والسلوك. وتحدّد معالم هذا المنهج بالنقاط التالية:

١. تحف العقول، ص ٢١٤.

٢. جامع الأخبار، ص ٢٧٠.

١. تقوية الارتباط بالله تعالى

إنَّ الارتباط بالله تعالى والاستسلام له والعزم على طاعته من شأنه أن يمحّص القلوب، ويظهر النفوس، لأنّه ينقل الإنسان من مرحلة التفكّر والتدبّر في خلق الله تعالى وهيمنته ورقابته إلى مرحلة العمل الإيجابي وفق هذا التدبّر، فمجرد البدء به يتبعه العون منه تعالى، ويتبعه التثبيت على المضي في طريق تزكية النفس.

والارتباط بالله تعالى يبدأ بمعرفته، وفي هذا المضمار قال الأمام الباقر عليه السلام: (ما عَرَفَ الله مَنْ عَصَاهُ) وأنشد:

تفصي الإبله وَأَنْتَ تُظْهِرُ حَبَّةُ هَذَا لَعَمْرُكَ فِي الْفِعَالِ بَدِيعُ
لو كان حَبُّكَ صادقاً لَأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ أَحَبَّ مُطِيعُ^١

والارتباط بالله تعالى يتجسّد في مصاديق عديدة منها: حسن الظنّ بالله والرجاء له والتسليم لأمره والرضا بقضائه والتوكّل عليه، فقد روى الإمام عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: (والَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مَا أُعْطِيَ مُؤْمِنٌ قَطَّ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا بِحَسَنِ ظَنِّهِ بِاللَّهِ وَرَجَائِهِ لَهُ وَحَسَنِ خُلُقِهِ وَالْكَفِّ عَنْ اغْتِيَابِ النَّاسِ)^٢.

ويتجدّد الارتباط بالله تعالى عن طريق المداومة على العبادات، وقد حثّ الإمام عليه السلام الجماعة الصالحة على العبادات، حتّى جعلها إحدى خصائصهم.

وحثّ عليه السلام على قراءة القرآن الكريم، وحثّ عليه السلام على جعل الحبّ والبغض على أساس القرب والبعد من الله تعالى، فقد أورد أحاديث لرسول الله صلى الله عليه وآله تؤكّد على ذلك ومنها قوله صلى الله عليه وآله: (وَدُ الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ فِي اللَّهِ مِنْ أَعْظَمِ شُعْبِ الْإِيمَانِ، وَمَنْ أَحَبَّ فِي اللَّهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللَّهِ، وَأَعْطَى فِي اللَّهِ، وَمَنْعَ فِي اللَّهِ، فَهُوَ مِنْ أَصْفِيَاءِ اللَّهِ)^٣.

١. تحف العقول، ص ٢١٥.

٢. الكافي، ج ٢، ص ٧٢.

٣. المحاسن، ص ٢٦٣.

٢. الإقرار بالذنب والتوبة

إنَّ منهج أهل البيت عليهم السلام يهدف إلى علاج النفوس البشرية، واستجاشة عناصر الخير فيها، وإلى مطاردة عوامل الشر والضعف والغفلة، وهو موضوع للنفس بما تحمل من أهواء ورغبات ومصالح عارضة، والطبيعة البشرية قد تستقيم مرّة وتتحرف مرّة أخرى، ولهذا فإنَّ العودة إلى الاستقامة تقتضي محاسبة النفس باستمرار، والإقرار بالأخطاء والخطايا، ثمَّ التوبة، والعزم على عدم العود، ولذا أكّد الإمام عليه السلام على هذه المقومات، وبدأ بالإقرار بالذنب كمقدّمة للنّجاة منه، فقال عليه السلام: (والله ما ينجو من الذنب إلّا من أقَرَّ به)^١، وقال عليه السلام: (كفى بالنّدَم توبة)^٢.

والإقرار يتبعه الغفران بعد طلبه من الله تعالى، قال عليه السلام: (لقد غفر الله لرجل من أهل البادية بكلمتين دعا بهما قال: اللَّهُمَّ إِنْ تُعَذِّبْنِي فَأَهْلُ ذَلِكَ أَنَا، وَإِنْ تُغْفِرْ لِي فَأَهْلُ ذَلِكَ أَنْتَ، فغفر له)^٣.

والتوبة تمحي الذنب فيعود الإنسان من خلالها إلى الاستقامة ثانية، قال عليه السلام: (التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمقيم على الذنب وهو مستغفر منه كالمستهزئ)^٤.

٣. الحذر والحيطه

الحذر والحيطه من الذنوب ضرورة ملحّة في تركية النفس، وهي تتطلّب الدقّة في تناول كلّ خالجه وكلّ حركة وكلّ موقف، وتتطلّب التحليل الشامل للأسباب والظواهر، والعوامل الفاعلة للموقف والمسيرة للحدث، والتعالي بالنفس في ميادينها الباطنيّة، ولهذا دعا الإمام عليه السلام إلى الحذر والحيطه من جميع الممارسات فقال: (إنَّ الله خبأ ثلاثة

١. الكافي، ج ٢، ص ٣١١.

٢. وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ٥٩.

٣. وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ٧٠.

٤. الكافي، ج ٢، ص ٣١٦.

أشياء في ثلاثة أشياء: خبأ رضا في طاعته، فلا تحقرن من الطاعة شيئاً فلعل رضا فيه، وخبأ سخطه في معصيته فلا تحقرن من المعصية شيئاً فلعل سخطه فيه، وخبأ أوليائه في خلقه، فلا تحقرن أحداً فلعله ذلك الولي^١.

ودعا عليه السلام إلى الاحتياط في القول في الحكم على الأشخاص والأعمال والممارسات فقال: (لا يسلم أحد من الذنوب حتى يخزن لسانه)^٢.

وقال عليه السلام: (يا فضيل بلغ من لقيت من موالينا عنا السلام، وقل لهم: إني أقول: إني لا أغني عنكم من الله شيئاً إلا بورع، فاحفظوا ألسنتكم، وكفوا أيديكم، وعليكم بالصبر والصلاة، إن الله مع الصابرين)^٣.

٤. تعميق الحياء الداخلي

إن مِوحيات التزكية كامنة في النفس ذاتها، قبل التأثر بالعوامل الخارجية، والتزكية ليست مجرد كلمات ورؤى نظرية بل هي ممارسة وسلوك عملي، يجب أن تنطلق من داخل النفس الإنسانية، ولا بد أن يتسلح الإنسان بالوعاز الذاتي الذي يصده عن فعل القبيح، ولذا أكد الإمام عليه السلام على الحياء لأنه حصن حصين يردع الأهواء والشهوات من الانطلاق اللامحدود، قال عليه السلام: (الحياء والإيمان مقرونان في قرن، فإذا ذهب أحدهما تبعه صاحبه)^٤.

٥. كسر الإلفة بين الإنسان وسلوكه الجاهلي

حينما يعتاد الإنسان على السلوك الجاهلي فإنه سيأنس به، ويألفه حتى يصبح

١. كشف الغمة، ج ٢، ص ١٤٨.

٢. تحف العقول، ص ٢١٨.

٣. تفسير العياشي، ج ١، ص ٦٨.

٤. تحف العقول، ص ٢١٧.

وكأنه جزء من كيانه، ترضاه نفسه، ويقبله قلبه، ولهذا فهو بحاجة إلى كسر هذه الإلفة إن أراد أن يزكي نفسه ويسمو بها إلى مشارف الكمال، ولذا أكد الإمام عليه السلام على بعض الخطوات التي تكسر هذه الإلفة، فقال: (إن الله يبغيض الفاحش المتفحش)^١.

وزرع في النفس كراهية الطمع والرغبات المذلة، فقال: (بئس العبد عبد يكون له طمع يقوده، وبئس العبد عبد له رغبة تدله)^٢.

ومن أجل زرع الكراهية للشّر روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: (ألا أن شرار أمتي الذين يكرمون مخافة شرهم، ألا وإن من أكرمه الناس اتقاء شره فليس مني)^٣.

٦. إزالة الحاجز النفسي بين الإنسان والسلوك السليم

قد يحدث حاجز نفسي بين الإنسان والسلوك السليم بسبب ضغط الأهواء والشهوات، أو بسبب الهواجس والوساوس المطبقة عليه، وسوء التصوّر، ورواسب الجاهلية، والضعف البشري، فلا بد من إزالة هذه العواجز أولاً ثم التمرين على ممارسة السلوك السليم ثانياً.

فقد حبيب الإمام عليه السلام إلى أصحابه السلوك الصالح، بربطه بالعبادة وطلب العون من الله تعالى، فقال: (ما من عبادة أفضل من عفة بطن أو فرج، وما من شيء أحب إلى الله من أن يسأل، وما يدفع القضاء إلا الدعاء، وأن أسرع الخير ثواباً البر...) ^٤.

وحبيب إلى النفوس حسن الخلق والرفق، فقال: (من أعطي الخلق والرفق، فقد أعطي الخير كله، والراحة، وحسن حاله في دنياه وآخرته، ومن حرّم الرفق كان ذلك له

١. الكافي، ج ٢، ص ٢٤٥.

٢. وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ٣٤.

٣. الخصال، ج ١، ص ١٥.

٤. مختصر تاريخ دمشق، ج ٢٣، ص ٨٦.

سبيلاً إلى كل شرّ وبلية إلا من عصمه الله تعالى^١.

وحبب إلى نفوس أصحابه الأدب وحسن السيرة، فقال: (ما استوى رجلان في حسبٍ ودينٍ قط إلا كان أفضلهما عند الله آديهما)^٢.

وَرَوَى عَلَيْهِ عن الإمام عليّ عليه السلام قوله: (إن من أعون الأخلاق على الدين الزهد في الدنيا)^٣.

وَحَثَّ عَلَيْهِ على أداء العبادات المندوبة لكي تتجذر في النفوس لأنها تساعد على إصلاح النفس وتركيتها، ويَبِين ثواب من عمل بها، واستمرَّ على أدائها في جميع الظروف والأحوال وحثَّ على التمرّن على الأخلاق الفاضلة والخصائص الحميدة، فقال: (عليكم بالورع والاجتهاد، وصدق الحديث، وأداء الأمانة إلى من ائتمنكم عليها بَرَأ كان أو فاجراً، فلو أن قاتل عليّ بن أبي طالب عليه السلام ائتمنني على أمانة لأدّيها إليه)^٤.

١. حلية الأولياء، ج ٣، ص ١٨٧.

٢. مختصر تاريخ دمشق، ج ٢٣، ص ٨٥.

٣. وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ١٢.

٤. تحف العقول، ص ٢١٩.

الخاص

□ تتحدّد معالم المنهج الذي رسمه الإمام الباقر عليه السلام لتزكية الجماعة الصالحة بالنقاط التالية:

□ ١ . الارتباط بالله تعالى فكراً وسلوكاً وعاطفة، ويجسّد هذا الارتباط الحبّ والوفاء لله سبحانه ويبعث فيه يقظه الضمير ليعيش النور، ويشعر الإنسان بهيمنة الله عليه، ورقابته الشاملة له، وينقله من مرحلة التفكير إلى مرحلة التطبيق.

□ ٢ . الإقرار بالذنب: يتّجه منهج أهل البيت عليهم السلام إلى علاج النفوس البشرية وتربيتها لاستجابة عناصر الخير فيها وطرده عناصر الشر في أعماقها. فلا ينحرف الإنسان ولا يتشذّب، بل يستقيم.

□ ٣ . الحذر واليقظة: وهما ضمانان روحيّة وعملية تخلق في الإنسان روح الثورة على كلّ واقع فاسد، وتعرّز موقفه لتصحيح السلوك من أجل العمل الصالح لتكون قراراته وانطباعاته منسجمة مع الأفق العقائدي الذي يتّنفّسه.

□ ٤ . تعميق الحياء الداخلي: إنّ تسليح الإنسان بالواعز الذاتي وتربيته على ممارسة المحاسبة لجمع ما يصدر منه من تصرّفات ونشاطات، وإحساسه برقابة الله له من أبرز معالم الحياء لديه، فهو يتصرف بدقّة ويزاوم أعماله بحذر لأنّه يشعر بأنّ وراءه رقابة واعية وقوّة كونية هائلة ترصد حركاته وتعدّ عليه أنفاسه. ولذا لا يمكنه الخروج عن دائرة إحساسه بهذه الرقابة.

□ ٥ . كسر الإلفة بين الإنسان وسلوكه الجاهلي: فهو يثور على كلّ سلوك وتصرف حدّر منه الإسلام، وينطلق في مسيرته لتصحيح كلّ خطأ لبناء شخصيته، فيحارب الهوى في نفسه ويتحرّر من قيود الأنا في علاقته مع

الأخرين.

٦. إزالة الحاجز النفسي بين الإنسان والسلوك السليم: تعترض مسيرة الإنسان بعض الحواجز النفسية، فتحرفه عن مسيرته بسبب ضغط الأهواء والشهوات ومثيرات الواقع، أو بسبب الهواجس وسوء التصوّر ورواسب الجاهلية والضعف البشري. فلا بدّ من إزالتها أولاً ثمّ التمرين على ممارسة السلوك السليم ثانياً.

الأسئلة

١. أذكر النقاط المهمّة التي تحدّد معالم منهج الإمام عليّ في تزكية الجماعة الصالحة.

٢. ما معنى الحياء الداخلي، وما هو تأثيره على سلوك الفرد العام؟

٣. لماذا أوجب الإمام الاتصال بينه وبين قواعده؟

٤. ما نوع العلاقة بين القيادة والقاعدة؟

أسس بناء الجماعة الصالحة (٣)

أسس التثقيف والتربية العلمية

نلاحظ تركيز الرسالة الإسلامية ولاسيما القرآن الكريم على بناء الفرد الصالح وتنميته وتطويره بشكل مستمر وصولاً إلى المجتمع الإسلامي الصالح. ويبدأ بناء الفرد الصالح ببناء عقيدته بناءً سليماً وبناء أخلاقه على القيم الإلهية العالية ولكن البناء العقدي والأخلاقي لا يكون سليماً إلا إذا كان عن طريق صحيح يكون في متناول اليد لعامة الناس وتوفر أدواته بنحو لا يكلف الفرد إلا الرغبة والجهد في سلوكه وتحصيله ويمكن تشخيص سلامته وصوابه من خطئه. وهذا هو طريق العلم والمعرفة لتحصيل البصيرة المطلوبة عن المعتقد الصحيح والخلق القديم والسلوك المستقيم.

ومن هنا ركّز أهل البيت عليهم السلام القِيَمون على مصالح الأمة المسلمة والموكول اليهم صيانة الرسالة من الضياع والأمة من الانهيار - على نظام معرفي وثقافي يضمن تحقيق هذه الأهداف للرسالة وللأمة معاً.

والتراث الذي تركه لنا أئمة أهل البيت عليهم السلام - (لاسيما الإمامان الصادقان عليهم السلام) - حافل بتفاصيل هذا النظام الثقافي والمعرفي وكاشف عن القواعد الرصينة التي أرساها هؤلاء الأئمة الأطهار (عليهم سلام الله أجمعين).

فالعلم في مدرسة أهل البيت عليه السلام - وهي الإمتداد الطبيعي لمدرسة القرآن الكريم - ليس هدفاً نهائياً للحياة كما أن الحياة ليست ذاقمة إن لم تكن على وعي وبصيرة ومعرفة. فلا بدّ من التعلّم والتعليم كمبدأ أساسي لتحقيق التربية والإصلاح الحقيقيين، ويمكن أن نسمي هذا الأصل المعرفي (بمبدأ المعرفة للحياة).

ولابدّ من تحديد مصادر اكتساب المعرفة الإسلامية ضماناً لسلامة الفكر والمعرفة. والعقل والكتاب والسنة الشاملة لسنة الرسول صلّى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام هي المصادر الأساسية للمعرفة في مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

ونلاحظ اهتمام أهل البيت عليهم السلام كالقرآن الكريم - بالمنهج العقلي الاستدلالي والاستقرائي إلى جانب المنهج التجريبي وتحديد مجال كلّ منهج وأسسها وأصوله والنتائج المترتبة عليه.

ولا يكفي أهل البيت بالمعرفة في مستوياتها العامة بل قد ركّزوا على أعلى مستويات المعرفة، ودعوا إلى الوصول إليها، وذكروا علوماً وأسراراً علمية لا يحتملها إلا نبي أو وصي نبي أو مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان.

وتوسّعوا عليهم السلام في مجالات العلم وأساليب كتابته كما عملوا على تأسيس معاهد ومؤسسات ثقافية تكفل استمرار منهجهم العلمي والمعرفي وتضمن تكامل الجماعة الصالحة على هذا الخط القديم.

التعليم والمنهج التثقيفي عند الإمام الباقر عليه السلام

العلم وسيلة لتجلية حقيقة التّصوّر الإسلامي، وحقيقة المنهج الإلهي في الحياة الإنسانية، وهو الوسيلة الطبيعية المتاحة لتوجيه الجماعة الصالحة والارتقاء بها إلى مستوى الأمانة العظيمة التي أناطها الله تعالى بالإنسان، ولذا كان أهل البيت عليهم السلام يحثون أتباعهم على تلقي العلوم والمعارف الإسلامية مأخوذة من مصادرها السليمة الصافية وهي القرآن والسنة الشريفة التي يحفظها ويسهر على حفظها أهل البيت عليهم السلام.

وحين نتابع منهج الإمام الباقر عليه السلام التثقيفي والتعليمي نلاحظ مايلي:

الأول: الحث على طلب العلم: حث الإمام عليه السلام على التفقه في الدرس قائلاً (الكمال كل الكمال: التفقه في الدين، والصبر على النائية وتقدير المعيشة) ^١.

وحث عليه السلام على السؤال باعتباره مفتاح العلم، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: (العلم خزان ومفتاحها السؤال، فاسألوا يرحمكم الله، فإنه يؤجر فيه أربعة: السائل، والمعلم، والمستمع، والمجيب لهم) ^٢.

وبين عليه السلام فضل العالم وقدمه على العابد، لأن العلم الحقيقي المطابق للواقع يجعل الإنسان على وعي كامل بالآراء والتصورات والأحداث والمواقف، فلا تختلط عليه الأمور ولا المواقف فيكون قادراً على إصابة الواقع في جميع مجالاته، قال عليه السلام: (عالم يُتَنَفَّعُ بِعِلْمِهِ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ) ^٣.

وقال عليه السلام: (والله لَمُوتُ عالمٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مَوْتِ سَبْعِينَ عَابِداً) ^٤.

الثاني: خصائص حامل العلم: وبين عليه السلام خصائص العالم فقال: (إنَّ الفقيه حقَّ الفقيه: الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، المتمسك بسنة النبي صلى الله عليه وآله) ^٥.

كما حث عليه السلام على إخلاص النية في طلب العلم، بأن يكون الهدف من طلبه هو الوصول إلى الحقيقة، وتقريرها في عقول الناس وقلوبهم تقرّباً إلى الله تعالى الذي هو الحق المطلق والمطلوب النهائي في الحياة، وتجسّداً لمنهجه في الحياة وصولاً إليه تعالى.

قال عليه السلام: (مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيَبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ يَمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يَضْرِفَ بِهِ

١. الكافي، ج ١، ص ٣٢.

٢. حلية الأولياء، ج ٣، ص ١٩٢.

٣. حلية الأولياء، ج ٣، ص ١٨٣.

٤. تذكرة الغوامض، ص ٣٠٤.

٥. الكافي، ج ١، ص ٧٠.

وجوه الناس إليه، فليتَّبُوا مقعده من النار، إِنَّ الرئاسة لاتصلح إِلَّا لأهلها)^١.
الثالث: الحثُّ على نشر العلم وتعميم المعرفة: دعا الإمام عليه السلام أتباعه إلى نشر العلم وتعليمه للناس، وإشاعته في الأوساط المختلفة، ونهى عن كتمانها تعميماً للمعرفة وضماناً لاستمرارها وتكاملها، فقال عليه السلام: (مَنْ عَلَّمَ باب هدًى فله أَجرٌ مَنْ عمل به، ولا ينقص أولئك من أجورهم شيئاً...) ^٢.

وقال عليه السلام: (رحم الله عبداً أَحْيَى العلم ثم بَيَّن طريقة إحيائه فقال: (أَنْ يذاكر به أَهل الدين وأهل الورع) ^٣.

وجعل على العلم زكاة وهي التعليم فقال: (زكاةُ الْعِلْمِ أَنْ تُعَلِّمَهُ عِبَادَ اللَّهِ) ^٤.

وجعل تذاكره صلاةً، فقال: (تذاكر العلم دراسة، والدراسة صلاةٌ حسنة) ^٥.

الرابع: العلم والمسؤولية: حثَّ الإمام عليه السلام المتعلِّمين على الاحتياط في الإجابة وحذَّره من التسرع في الإجابة لكي لا يقع المتعلِّمون في تغرير الآخرين وخصوصاً مَنْ له اطلاع محدود، قال عليه السلام: (الوقوف عند الشبهة خيرٌ من الإقتحام في الهلكة، وترك حديثاً لم تُروِه خيرٌ من روايتك حديثاً لم تُحصِه) ^٦.

وعَلَّمَ أيضاً كَيْفِيَّةَ الإجابة فقال: (ما علمتم فقولوه وما لم تعلموا فقولوا: اللَّهُ أَعْلَم، إِنَّ الرجلَ لَيَنْتَرِجُ الْآيَةَ مِنَ الْقُرْآنِ يَخْرُفُ فِيهَا أَبْعَدَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) ^٧.

وجعل هذا الاحتياط حقاً لله على العباد، فقال: (حَقُّ اللَّهِ على العباد: أَنْ يَقُولُوا

١. الكافي، ج ١، ص ٧٠.

٢. الكافي، ج ١، ص ٣٥.

٣. الكافي، ج ١، ص ٤١.

٤. الكافي، ج ١، ص ٤١.

٥. الكافي، ج ١، ص ٤١.

٦. الكافي، ج ١، ص ٥٠.

٧. الكافي، ج ١، ص ٤٢.

ما يعلمون، ويقفوا عند ما لا يعلمون).^١

الخامس: المرجعية العلمية: من الحقائق الواضحة عند المسلمين أنَّ علياً عليه السلام أعلم الصحابة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهو باب علم الرسول ﷺ، وقد علم أبناءه ماتعلمه من رسول الله ﷺ وكانوا يتوارثون العلم إماماً عن إمام، ولذا فإنَّ أهل البيت عليه السلام هم أعلم الناس بالقرآن والسنة، ولهذا أكَّد الإمام الباقر عليه السلام على مرجعية أهل البيت عليه السلام العلمية، وبين أنَّ علمهم موروث منذ آدم إلى يومنا هذا، فقال: (إنَّ العلم الذي نزل مع آدم عليه السلام لم يرفع، والعلم يتوارث، وكان علي عليه السلام عالم هذه الأمة، وأنَّه لم يهلك منَّا عالم قطَّ إلاَّ خلقه من أهله من عليم مثل علمه، أو ماشاء الله).^٢ وبين عليه السلام اختصاص أهل البيت عليه السلام من دون الناس بعلم القرآن ظاهره وباطنه بقوله عليه السلام: (ما يستطيع أحد أن يدعي أنَّ عنده جميع القرآن كله ظاهره وباطنه غير الأوصياء).^٣

وبين عليه السلام أنَّ علمهم عليه السلام هو المصيب للواقع، فقال: (ليس عند أحد من الناس حق ولا صواب ولا أحد من الناس يقضي بقضاء حق إلاَّ ماخرج منَّا أهل البيت).^٤ وقد أثبت الواقع التاريخي ذلك، فكانوا عليه السلام مقصد العلماء من جميع أقطار العالم الإسلامي.

السادس: تنوع أساليب التعليم واكتساب المعرفة: لم يقتصر أهل البيت عليه السلام على أسلوب واحد لنشر العلم والتعليم وإنما تنوعت أساليبهم بين الإلقاء المباشر والخطابة والوصايا والكتب والرسائل والأدعية والزيارات بالإضافة إلى البحث على قراءة القرآن الذي يعتبر أول مصدر معرفي وينبوع ثمر لتزويد الإنسان بالمعرفة بشكل مستمر.

١. الكافي، ج ١، ص ٤٣.

٢. الكافي، ج ١، ص ٢٢٢.

٣. الكافي، ج ١، ص ٢٢٨.

٤. الكافي، ج ١، ص ٣٩٩.

السابع: تنوع مجالات المعرفة والحث على الاختصاص العلمي: والملاحظ في مدرسة الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام بشكل واضح سعة دائرة العلوم والمعارف التي تداولوها ونشروها بين أصحابهم من جهة ودعوتهم إلى التخصص العلمي وتربية الفقهاء والمتكلمين ومفسري القرآن والمؤرخين وعلماء الأحياء والكيمياء والفلك..

فمن المتكلمين هشام بن الحكم، ومن الفقهاء زرارة بن أعين ومحمد بن مسلم، ومن المفسرين أبان بن تغلب ومن المؤرخين أبان الأحمر البجلي وسليم بن قيس ولوط بن يحيى ومن علماء الكيمياء جابر بن حيان واضع أسس هذا العلم^١.

الثامن: المستوى المعرفي: لقد رسم أهل البيت عليهم السلام ولا سيما الإمامان الصادقان عليهما السلام خطوط النهج المعرفي والثقافي بشكل تفصيلي وبيتا المستوى المعرفي المطلوب للإنسان بشكل عام وللمسلم بشكل خاص وللشيعي بشكل أخص. فنلاحظ الإمام الباقر عليه السلام يوصي ابنه الصادق عليه السلام بالاهتمام بأصحابه علمياً فيجيبه الصادق عليه السلام بأنه سوف يربيهم بنحو لا يحتاج أحدهم إلى السؤال من أحد وذلك بمعنى أن يبلغ كل منهم قمة المستوى المعرفي في عصره.

وهذا هو الذي دعا إليه القرآن الكريم حينما قال: تَبْتَئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. أو حينما قال: لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ. أَوْحَيْنَا قَالَ: إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ.

التاسع: ضمانات استمرار ونمو المعرفة وتكاملها: إن حيوية الشريعة الإسلامية هي من جانب رهينة بحيوية العلماء بها والاجتهاد في علومها كما يضمن حرّية الرأي من جهة فإنّه يطور العلماء في علمهم من جهة أخرى.

ولكن استمرار الاجتهاد وصيانة هذه الحيوية يقتضيان وجود مؤسسات علمية

١. راجع للمزيد من الإطلاع: تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام.

وراجع أيضاً الإرشاد، ص ٢٦٤ ووفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٢٧.

وتثقيفية بالمستوى المطلوب لتكون البيئة المناسبة لهذه الحياة العلمية المتطورة.

من هنا اهتم أهل البيت عليه السلام بإشادة هذه المؤسسات وحرصوا على سلامتها وصيانتها من عوامل الزوال والانحراف.

العاشر: المؤسسات الثقافية الإسلامية: وكان للإمام الباقر عليه السلام دور كبير في توسيع المؤسسات الثقافية التي تنهج نهج أهل البيت في نشر العلم والمعرفة. وقد أسس عليه السلام عدة مدارس في أهم الأمصار الإسلامية وهي:

١. مدرسة المدينة: وكان يشرف عليها مباشرة، وينتقي منها الفقهاء ليواصلوا حمل العلم ونشره.

٢. مدرسة الكوفة: وكان يشرف عليها من تتلمذ على يديه، رتخرج من مدرسته، ويكون دائم الاتصال به، وقد أثمرت هذه المدرسة في نشر علوم أهل البيت عليه السلام وإرجاع الناس إليهم، حتى اعترف الحاكم الأموي هشام بهذه الحقيقة، فقد استفسر عن الإمام عليه السلام قائلاً: (هذا المفتون به أهل العراق)؟^١

ولذا أمر الأمويون بمنع أهل العراق من الالتقاء بالإمام عليه السلام.^٢

٣. مدرسة قم: وكان يشرف عليها بعض من تتلمذ على يدي الإمام عليه السلام، وهي متفرعة من مدرسة الكوفة.

وهناك مدارس أخرى في الشرق الإسلامي، كما في الري وخراسان.^٣

وهناك مدارس جائلة كان ينشئها طلابه أينما حلّوا وهي محدودة بحدود عدد الأفراد المشرفين والاستجابة لهم من قبل الناس.

١. مختصر تاريخ دمشق، ج ٢٣، ص ٧٩.

٢. مختصر تاريخ دمشق، ج ٢٣، ص ٨٣.

٣. دور أهل البيت عليه السلام في بناء الجماعة الصالحة، ج ١، ص ١٣٣.

اسس بناء الجماعة الصالحة (٤)

إحياء الروح الثورية

كان لثورة الإمام الحسين عليه السلام دور كبير في إحياء الروح الثورية، وإلهاب الحماس في العقول والقلوب والإرادة، لمقاومة الظالمين.

ولهذا أكد الإمام الباقر عليه السلام على جعل الثورة حيّة تمنح الناس طاقة ثورية لخوض المواجهة في وقتها وظرفها المناسب.

وتجسّد إحياءه للروح الثورية في مظهرين:

الأول: إقامة الشعائر الحسينيّة

كان الإمام عليه السلام يقوم بنفسه بإحياء الشعائر الحسينيّة، فكان يقيم مجالس العزاء الحسيني في منزله، دون أن يخشى من الحكّام الأمويين وبهذا الأسلوب العملي كان يحثّ شيعة وأتباعه على إقامة مجالس العزاء فضلاً عن دعواته الصريحة أحاديثه الشريفة التي تتضمن الحثّ على ذلك.

وقد تجسّدت الشعائر الحسينيّة بالممارسات التالية:

١. البكاء: شجّع الإمام عليه السلام على البكاء لمصاب جدّه الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته الأحرار وذلك من أجل أن تتجذّر الرابطة العاطفيّة به عليه السلام فكان عليه السلام يقول: (من ذرفت عيناه على مصاب الحسين ولو مثل البعوضة غفر الله له ذنوبه)¹.
٢. الزيارة: حثّ الإمام عليه السلام على زيارة قبر الحسين عليه السلام، وتهدف الزيارة إلى تعميق الارتباط به فكراً ومنهجاً واستلھام روح الثورة منه، ومعاهدته على الإستمرار على نهجه.

وكان عليه السلام يؤكّد لمحبيه وشيعته ضرورة الزيارة، ويقول: (مُروا شيعتنا بزيارة

الحسين بن علي، وزيارته مفروضة على من أقرّ للحسين بالإمامة^١.
وأكدَ عليه السلام على اقتران حبّ أهل البيت عليه السلام بزيارة قبر الحسين عليه السلام كما جاء في قوله عليه السلام: (من كان لنا محبّاً فليرغب في زيارة قبر الحسين عليه السلام، فمن كان للحسين زوّاراً عرفناه بالحبّ لنا أهل البيت)^٢.

٣. انشاد الشعر في الحسين عليه السلام ومجالس العزاء: وكان عليه السلام يشجّع على قول الشعر في الإمام الحسين عليه السلام، وقد عرفت أنّه عليه السلام كان يقيم مجالس العزاء في داره ويدعو إلى توسعتها.

وقد أثمر هذا الإحياء في إدامة روح الثورة، وكانت الثورات اللاحقة لحياة الإمام الباقر عليه السلام تنطلق في عاشوراء، وتحمل شعارات عاشوراء وكان الثوّار يتزودون من قبره عليه السلام ثم ينطلقون بثورتهم وحركتهم المسلّحة.

الثاني: إحياء حقيقة الإمام المهدي عليه السلام

إنّ الصراع بين الإسلام والجاهليّة، وبين الحقّ والباطل لا ينتهي مادام كلّ منهما موجوداً وله كيان وقيادة وأنصار، ويستمرّ الصراع إلى أن ينتصر الحقّ على الباطل في نهاية الشوط، ويمثل ظهور الإمام المهدي عليه السلام آخر حلقة من سلسلة الصراع حيث يختفي الباطل ولا يبقى له وجود وكيان مستقل.

وانتظار الإمام عليه السلام هو حركة ايجابية تتطلّب تعبئة الأفكار والطاقات للاشتراك في عمليّة الخلاص والإنقاذ.

وقد أكّد الأئمة عليهم السلام على هذه الحقيقة ومنهم الإمام الباقر عليه السلام لكي تتعمّق في العقول والنفوس.

١. بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٢٩٣.

٢. بحار الأنوار، ج ٩٨، ص ٤.

قال عليه السلام: (إنما نجومكم كنجوم السماء كلما غاب نجم طلع نجم حتى إذا أشرتم بأصابعكم، وملتم بحواجبكم غيَّب الله عنكم نجمكم، واستوت بنو عبدالمطلب فلم يعرف أيُّ من أيِّ فإذا طلع نجمكم، فاحمدوا ربكم).^١

وجعل قيام الإمام المهدي عليه السلام من المحتوم حين قال: (من المحتوم الذي حتمه الله قيام قائمنا).^٢

وقال عليه السلام: (لا تزالون تمدّون أعناقكم إلى الرجل منّا تقولون: هو هذا، فيذهب الله به، حتى يبعث الله لهذا الأمر من لا تدرون ولد أم لم يولد، خلق أو لم يخلق).^٣

وكان يهيء الأذهان للتعبئة إلى ذلك اليوم ويقول: (إذا قام قائمنا وظهر مهدينا كان الرجل أجراً من ليث وأمضى من سنان).^٤

وبهذا كان الإمام عليه السلام يُحيي الأمل بانتصار الحق وأقول الباطل ويكون هذا الأمل عاملاً للانتظار الإيجابي البناء انتظاراً يتضمّن الاستعداد الدائم والمستمرّ للنهوض تحت راية الحق.

١. بحار الأنوار، ج ٥١، ص ١٣٨.

٢. بحار الأنوار، ج ٥١، ص ١٣٩.

٣. بحار الأنوار، ج ٥١، ص ١٤٠.

٤. حلية الأولياء، ج ٣، ص ١٨٤.

الناص

□ إنما يتحقق بناء المجتمع الصالح من خلال بناء الفرد الصالح وكلما اتسعت دائرة بناء الأفراد وتعمقت جذوره كلما كان المجتمع الصالح أقرب إلى التحقق.

□ و العلم والمعرفة أساس كلِّ بناء عقائدي وأخلاقي وسلوكي. ولا بدَّ لهذه المعرفة من نظام ومنهج كفيل بتحقيق أهدافها المطلوبة.

□ و لأهل البيت منهجهم المعرفي الخاصَّ المستلهم من القرآن الكريم. وقد ضمنوا استمرار الحياة لمنهجهم من خلال عناصر القوة التي اشتمل عليها منهجهم أولاً ومن خلال المؤسسات الثقافية التي أسسوها وعملوا على تأصيلها في الوجود الاجتماعي ثانياً.

□ و عمل الأئمة عليهم السلام على إحياء الروح الثورية لمجابهة الباطل وروح النضال ضدَّ المنكر من خلال توظيف ثورة الحسين عليه السلام لهذا الهدف الكبير أولاً وتأصيل حقيقة الإمام المهدي المنتظر في فكر وعقيدة وعاطفة أتباعهم ثانياً لأنها تشع بالأمَل الكبير والهدف العظيم الذي جاء الأسلام من أجل تحقيقه.

الأسئلة

- ١ . ما هي علاقة التعليم والتعلّم بالبناء العقيدي والأخلاقي؟
- ٢ . هل هناك نظام معرفي وتثقيفي عند أهل البيت؟ ولماذا؟
- ٣ . ما هي أهمّ الخطوط العريضة لهذا النظام التعليمي؟
- ٤ . اذكر أهمّ النقاط التي وردت في الدرس عن منهج الإمام الباقر التثقيفي.
- ٥ . ما هي ضرورة المؤسسات الثقافية في مدرسة أهل البيت عليه السلام؟
- ٦ . كيف أحيا أهل البيت الروح الثورية عند أتباعهم؟
- ٧ . ما هي العلاقة بين العقيدة بالإمام المنتظر عليه السلام وبين إحياء الروح الثورية؟

ملاحع عصر الإمام الصادق عليه السلام

(١١٤-١٣٢ هـ)

يُعتبر عهد الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام - (٩٥ - ١٤٨ هـ) حتّى بداية أيام هارون الرشيد (١٧٠ هـ) - هو عهد الانفراج للنشاط الفكري لمدرسة أهل البيت عليهما السلام إذا ما قيس إلى المهود السابقة واللاحقة.

وذلك لأنّ الحكم الأموي كان قد أخذ بالضعف والانهيّار حتّى السقوط (سنة ١٣٢ هـ) لأسباب قد نتعرض لها فيما سيأتي..

وبداية العهد العبّاسي الأوّل - كما سوف نلاحظ في كيفة نشوء الحكم العبّاسي - كانت بداية دولة فتية لاسيّما وهي ترفع شعار الرضا من آل محمد ﷺ.

فتلك النهاية وهذه البداية اجتمعتا لتشكّلا عصر ضعف الدولتين. ومن الطبيعي في هذا الظرف أن يشتغل الحكام وأتباعهم بإحكام القبضة على الحكم لئلا يفلت من أيديهم زمام الأمر.

إنّ تنامي الاضطرابات ضدّ الحكّام الأمويين من جهة والتناحر بين رموز البيت الأموي من جهة ثانية واشتداد نقمة الأمّة على الحاكمين هي من جملة أسباب هذا الانهيّار وانقراض الحكم الحديدي الأموي.

ومن هنا سُمّي هذا العصر بعصر انتشار علوم آل محمد. وكان فضلاء الشيعة

ورواتهم في تلك السنين آمنين على أنفسهم مطمئنين متجاهرين بولاء أهل البيت عليه السلام معروفين بذلك بين الناس، ولم يكن للأئمة عليهم السلام مزاحم لنشر الأحكام. فكان يحضر شيعتهم مجالسهم العامة والخاصة للاستفادة من علومهم. وفي تلك المدة القليلة كتبوا عن أنفسهم أكثر ما آفوه وبسعيهم نشرت علوم آل محمد عليه السلام ^١.

وهناك عامل آخر ساعد الإمامين الصادقين على القيام بهماهما الفكرية هو ابتعادهما عن الطموح إلى تولي السلطة؛ لعلهما بأنها لاتصل إليهما وأنهما لا يصلان إليها؛ لأسباب أدركاها من متابعتها لما جرى ويجري من أحداث، ولمعرفتهما بواقع المستويات الاجتماعية والسياسية لأبناء الأمة الإسلامية آنذاك فلم يقتربا من سلطان ولم يتصلا بسلطة ولم يتدخلا بشأن سياسي يمتد إلى النظام الأموي أو النظام العباسي بوجه من الوجوه ^٢.

وامتاز عهد الإمامين الصادقين عليهم السلام بميزة أخرى هي: غزو الحضارات الرافدة كاليونانية والهندية والفارسية والعبرية والسريانية بما تحمل من فلسفات وثقافات ونظريات لاتتقي مع وجهة النظر الإسلامية.

فلابد أن تكون للمسلمين فلسفة منبعثة من واقع النظرية الإسلامية حتى لاتتوزعهم الفلسفات الوافدة والحضارات اللا إسلامية.

ولم يكن بين المسلمين آنذاك شخصية مؤهلة علمياً بمستوى هذه المسؤولية غير الإمام الصادق عليه السلام.

لقد أدرك الإمام الصادق عليه السلام خطورة هذه المرحلة وضرورة التهيؤ لهذا العمل العسير الخطير ليؤسس للمسلمين مدرستهم الفلسفية الخاصة بهم لتحضن فكرهم الفلسفي الإسلامي وتقف أمام تحدّي الحضارات الوافدة وتحذ من تأثيرها على

١. الذريعة، ج ٢، ص ١٣١-١٣٢.

٢. عبدالهادي الفضلي، تاريخ التشريع الإسلامي، ص ٩٦.

الذهنيّة الإسلاميّة في مجال العقيدة والتشريع معاً.

قال الإمام الصادق عليه السلام: لَمَّا حضرت أبي الوفاة قال: يا جعفر أوصيك بأصحابي خيراً قلت: جعلت فداك، والله لأدعّعنهم والرجل منهم يكون في مصرٍ فلا يسألُ أحداً^{٢١}.

فالإمام الصادق عليه السلام كان قد استعدّ وخطّط لمرحلة تصديّه للإمامة وذلك بالتركيز على الإعداد العلمي والإغناء الثقافي بحيث يجعل كلّ واحد من تلامذة أبيه عليه السلام في غنى عن الأخذ من الغير.

وهذا يعني الإعداد لمرجعيّة أصحاب أهل البيت العلميّة فضلاً عن مرجعيّة أهل البيت أنفسهم.

كما أنّ الإمام الباقر عليه السلام كان قد هيأ أصحابه وشيعته لأخذ معالم الشريعة من ابنه الصادق عليه السلام عندما قال لهم: إذا افتقدتموني فافتدوا بهذا - مشيراً إلى جعفر الصادق - فإنّه الإمام والخليفة بعدي^٢.

الحالة السياسيّة في عصر الإمام الصادق عليه السلام

١. لم يكن الوضع السياسي الذي كان يريد الإمام الصادق عليه السلام أن يتحرّك فيه قد تبدّل عن عصر أبيه الباقر عليه السلام، فهشام بن عبد الملك الذي أقدم على اغتيال الإمام الباقر عليه السلام كان هو الحاكم الطاغوي، وسياسته مع الإمام الصادق عليه السلام وشيعته كانت هي السياسة الفاتحة على أساس الحقّ الجاهلي والترويع والإضطهاد.

فقد تعرّض زيد بن علي عمّ الإمام الصادق عليه السلام في زمن أخيه الإمام الباقر عليه السلام

١. الإرشاد، ج ١، ص ٤٠ وبحار الأنوار، ج ٤٧، ص ١٢ ح ١.

٢. إنبات الوصيّة: ١٧٧، وإنبات الهداة: ٣٣٠ / ٥.

٣. كفاية الأثر، ص ٢٥٤ وبحار الأنوار، ج ٤٧، ص ١٥.

للإذلال والتوهين من قبل هشام باعتباره أحد رموز أهل البيت عليه السلام، كما جعل زيداً يزداد قناعة بضرورة الثورة المسلحة ضد الحاكمين وذلك لإفساد الحكام الذين جلسوا في موقع الرسول صلى الله عليه وآله وهم يحكمون باسمه في الوقت الذي يستهينون بالنبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته وهم غير مكترئين بمن يسبه عندهم.

فحينما صمَّ زيدٌ على الثورة المسلَّحة ضد طغاة بني أمية جاء إليه جابر بن يزيد الجعفي يسأله عن سبب تصميمه على الثورة ويخبره بأنه لو خرج يقتل.

فقال زيد لجابر: يا جابر لم يَسْعَني أن أسكت وقد خولف كتاب الله وتحوكم بالجبب والطاغوت، وذلك أنني شاهدت هشاماً ورجل عنده سب رسول الله صلى الله عليه وآله فقلت للسائب: ويلك يا كافر أما أتني لو تمكَّنت منك لاخطفتُ روحك وعجلتُك إلى النار. فقال لي هشام، مه جليسنا يا زيد.

قال زيد لجابر: فوالله لولم يكن إلا أنا ويحيى إبنِي لخرجتُ عليه وجاهدته حتى أفتنى^١.

٢. زيد بن علي وإعلان الثورة على الأمويين

جمع زيد بن علي الأنصار والدعاة وأعلن ثورته والتحق به عدد غفير وأيده جمع من الفقهاء والعلماء على ذلك.

لكن المتتبع للوضع السياسي والأخلاقي لتلك المرحلة يرى أنَّ الاضطراب العقائدي والأخلاقي كان سمة من سمات ذلك العصر.

فبالرغم من وجود التذمُّر الصارخ من بني أمية وجورهم، وبالرغم من بحثهم عن بديل سياسي يتمثل في خط أهل البيت عليه السلام وهو الغلط الذي كافح الظلم وتحمل ألوان العذاب من الحكم الأموي المنحرف، نجد أن هاتين المفردتين لم تفتيا بكامل

الشروط الموضوعية لنجاح الثورة. بل نجد ظاهرة التخذيل والتشكيك في حركة زيد سمة بارزة في هذه المرحلة أيضاً.

لقد كانت الثورة على مستوى تكامل مهيبة الأمة ضرورة اجتماعية وسياسية لئلا تتنازل عن شخصيتها للظالمين ولتحافظ على هويتها الإسلامية المتمثلة في الحيوية والحساسية ضد الباطل.

من هنا فجزّ زيد ثورته وحقق نصراً حاسماً ضد الأمويين من هذه الزاوية بعد أن خاض حرباً طاحنه كادت أن تنتهي لصالح زيد لولا وقوع الفتنة في صفوف أتباعه والمقاتلين حيث تعمدت بعض العناصر الدخيلة أن تفرق جيشه وأتباعه ولكنه صمد وقاتل حتى استشهد رضوان الله عليه.

وبعد قتله أمر هشام بصلب جثمانه الطاهر على باب دمشق ثم أرسل جثمانه إلى المدينة فنصب عند قبر النبي ﷺ في سنة ١٢١ هـ

٣. موقف الإمام الصادق عليه السلام من ثورة زيد

قال مهزم الأسدي دخلت على الإمام الصادق عليه السلام فقال: يامهزم ما فعل زيد؟ قال: قلت: صلب، قال: أين؟ قلت: في كناسة بني أسد. قال أنت رأيته مصلوباً في كناسة بني أسد؟ قال: قلت: نعم، فبكى حتى بكى النساء خلف الستور^٢.

وبعد هذا المصاب نجد الإمام الصادق عليه السلام في مواقف متعددة يتبنّى الدفاع عن عمه زيد ويترحم عليه ويوضح منطلقاته وأهدافه ويرسخ في النفوس مفهوماً إسلامياً عن ثورته حيث يعتبر هذه الثورة جزءاً من حركة الإمام عليه السلام وليس حدثاً خارجاً عنها، كما نجده يردّ على الإعلام المضادّ للثورة ضمن عدة مواقف وتصريحات:

١. عمدة الطالب، ص ٢٥٨ والتزاع والتخاصم للمقريزي، ص ٢٧ وأنساب الأشراف، ج ٢٧، ص ٢٩٢.

٢. أمالي الطوسي، ج ٢، ص ٢٨٤.

منها: مانجده فيما رواه الفضيل بن يسار حيث يقول: ذهبت إلى المدينة بعد قتل زيد لألتقي بالإمام الصادق عليه السلام وأخبره بنتائج الثورة، وبعد أن التقيته وسمع مني ما دار في المعركة قال: يا فضيل شهدت مع عمي قتال أهل الشام؟ قلت: نعم. قال: فكم قتلتم منهم؟

قلت: ستة. قال: فلعلك شاك في دمائهم؟ قال: فقلت: لو كنت شاكاً ما قتلتهم. ثم قال: سمعته وهو يقول: أشركني الله في تلك الدماء، مضى والله زيد عمي وأصحابه شهداء، مثل مامضى عليه علي بن أبي طالب وأصحابه^١.

ومنها: أيضاً مارواه عبد الرحمن بن سيابة حيث يقول: دفع إلي أبو عبد الله الصادق عليه السلام ألف دينار وأمرني أن أقسمها في عيال من أصيب مع زيد بن علي عليه السلام فقسمتها فأصاب عبد الله أخا الفضيل الرسان أربعة دنانير^٢.

٤. حكومة الوليد بن يزيد

وبعد أن هلك هشام بن عبد الملك في ربيع الثاني من سنة ١٢٥ هـ استولى على الخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك وكان يسمى بالفاسق؛ إذ لم يكن في بني أمية أكثر إيماناً منه للشرب والسماع ولا أشد مجوناً وتهتكاً واستخفافاً بأمر الأمة.

حتى أنه واقع جارية له وهو سكران وجاءه المؤذنون يؤذّونونه بالصلاة فحلف أن لا يصلي إلا هي، فلبست ثيابه، وصلت بالمسلمين وهي سكرى وجنب، وكان قد اصطنع بركة من الخمر، وكان إذا طرب ألقى بنفسه فيها ويستمر بالشرب منها حتى يظهر النقص في أطرافها^٣.

١. أمالي الصدوق، ص ٢٨٦، ج ١.

٢. أمالي الصدوق، ص ٢٧٥، ج ١٣.

٣. حياة الحيوان، ج ١، ص ٧٢.

ومن مظاهر فسقه أيضاً نكاحه لأمهات أولاد أبيه. ويروى أنه تفاعل يوماً بالمصحف الكريم فخرجت الآية التالية: ﴿واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد﴾ فمزق المصحف وأنشأ يقول.

أتوعد كل جبارٍ عنيد فيها أنا ذاك جبّارٌ عنيد
إذا ماجئت ربك يوم حشر قفل ياربّ مزقني الوليد^١
ولقد تمادى في فسقه حتّى قال له هشام: ويحك والله ما أدري دين الإسلام
أنت أم لا؟!

٥. بداية الانهيار

لم تكن هذه اللحظات التاريخية من حياة الأمة التي بدأت فيها الأمة بالمطالبة بإزاحة بني أمية من مركز الحكم لتحقيق بشكل عفوي وإنما كانت قد جاءت هذه المرحلة نتيجة لفعاليات ثورية بدأت بعد ثورة الإمام الحسين عليه السلام واستمرت حتّى ثورة زيد بن علي عليه السلام التي كسرت هيبة هشام بن عبد الملك الطاغية الأموي.

وفي هذا الظرف يكتب عامل الوليد بن يزيد في خراسان الى الوليد عن تردّي الأوضاع وحدوث تمرّد عام فيجيبه الوليد بأنّي مشغول بالعريض ومغيب وابن أبي عائشة^٢، وهم المغنّون الذين كان قد أحضرهم عنده.

لقد صرح الإمام الصادق عليه السلام بعاقبة هذا الانحدار والتردي والتمرّد على حرّيات الله قائلاً: إنّ الله عزّ ذكره أذن في هلاك بني أمية بعد إحراقهم زيداً بسبعة أيّام^٣. والوليد هو الذي أمر بإنزاع جثمان زيد الشهيد وإحراقه بعد أن كان قد بقي أربع

١. مروج الذهب، ج ٣، ص ١٤٩.

٢. تاريخ الإسلام للذهبي، ج ٥، ص ١٧٨.

٣. الكافي، ج ٨، ص ١٦١، ح ١٦٥ وتفسير المياشي، ج ١، ص ٣٢٥.

سنين على أعواد المشانق، وبعد تشديد الحراسة من السلطة على جثمان زيد خشية إنزاله من قبل العلويين.

ويدل هذا الإجراء على وجود فعاليات منظمة للمعارضة ضدّ الحكم القائم. حتّى أنّ الإمام الصادق عليه السلام كان يعاتب الشيعة على عدم تصديهم لإنزال جثمان عمّه زيد الشهيد.

وحين اشتدّت المعارضة كتب الوليد إلى عامله في الكوفة يوسف بن عمر قائلاً: خذ عجل أهل العراق فأنزله وأحرقه بالنار ثم انسه في اليمّ وقد نفذ عامله كلّ ما أمره سيّده فأحرقه ورماه في نهر الفرات^١.

لقد كانت سياسة السلطة الحاكمة عندما تريد الانتقام من خصومها هي إلقاء تهم وعناوين مستهجنة في نظر العرف العام مثل: شقّ عصا المسلمين أو الخروج على الخليفة أو الارتداد لتكون مبرراً لاستباحة دمائهم وتحشيد البسطاء من الناس عليهم، فمن هذا القبيل كان ما أطلقوه على ثورة زيد بن علي عليه السلام بأنّها خروج على سلطان زمانه المفروضة طاعته من قبل الله!

أو أنّها لأهداف سياسيّة شخصيّة، لكن الإمام الصادق عليه السلام يقول في هذا الصدد: لا تقولوا خرج زيد فإنّ زيدا كان عالماً صدوقاً ولم يدعكم إلى نفسه إنّما دعاكم إلى الرضا من آل محمد صلى الله عليه وآله ولو ظفر لوفّي بما دعاكم إليه إنّما خرج إلى سلطان مجتمع لينقضه^٢.

وحاور رجل شيعي يحيى بن زيد مستفهماً عن موقف زيد فقال له: يابن رسول الله إنّ أباك قد ادعى الإمامة وخرج مجاهداً، وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله فيمن ادعى الإمامة كاذباً! فقال: مه يا عبد الله.

١. الطبري، ج ٨، ص ١٢٢ وابن الأثير، ج ٥، ص ١٢٧ وتاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٩١.

٢. الحور العين، ص ١٨٨.

إِنَّ أَبِي كَانَ أَعْقَلُ مِنْ أَنْ يَدْعِيَ مَا لَيْسَ لَهُ بِحَقٍّ، وَإِنَّمَا قَالَ أَدْعُوكُمْ إِلَى الرِّضَا مِنْ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَنِ بَذَلِكَ ابْنِ عَمِي جَعْفَرًا. قُلْتُ: فَهُوَ الْيَوْمَ صَاحِبُ الْأَمْرِ؟ قَالَ: نَعَمْ هُوَ أَفْقَهُ بَنِي هَاشِمٍ.

٦. استيلاء يزيد بن الوليد على الخلافة

وفي سنة (١٢٦) هـ قُتل الوليد بن يزيد من قبل الأمويين أنفسهم واستولوا على مركز الخلافة من بعده: يزيد بن الوليد بن عبد الملك المسمى بالناقص حيث أنقص عطاءات الناس وكانت مدة حكمه خمسة أشهر ونصفاً ولم يتعرض الإمام في عهده لأيّ ضغط فكان يزاول نشاطه العلمي بشكل حرّية.

وفي عهد يزيد الناقص وعهد أخيه إبراهيم بن الوليد الذي لم يدم عهده سوى شهرين وعشرة أيام حدثت بعد ذلك فوضى سياسية لم تشهد من قبل، فقد قتل مروان بن محمد إبراهيم بن الوليد وتقلد الحكم حين اندلعت نيران الحرب في معظم أقاليم الدولة الإسلامية وتحرك كل من كان له أدنى طمع في الحكم؛ لأنّ الأمة في هذا الظرف كانت مستعدة لأن تستجيب لأيّ لافتة ترفع شعار محاربة الظلم والانتقام من الأمويين فكانت تتقبّل هذه الدعوات بلا فحص.

وهذا الواقع السياسي لم يمكن مسكه ولا السيطرة عليه وتكريسه باتجاه واحد من قبل الإمام عليه السلام.

من هنا نجد أنّ موقفه عليه السلام من هذا الوضع كان موقف المصلح المرشد حيث نراه تارة يحذّر من الاندفاع وراء أصحاب الدعوات وتارة يدعو للموقف الثوري لكن للذي يعتمد الخط الصحيح والعقيدة الصحيحة إن وجد ذلك.

فالإمام عليه السلام محيط بتفاصيل واقعه؛ لأنه على رأس حركة لم تكن وليدة الساعة ولا

تخفى عليه حركة التيارات الطارئة في هذا الظرف ولا الإطماع التي كانت تحرك رؤساءها.

فهو يعلم جيداً ما يستتر خلف هذه الشعارات من نوايا وأهداف كشعار بني العباس الذي خدعوا به الأمة، من هنا حذر الإمام عليه السلام من الانسياق وراء تلك الدعوات كما لم يستجب هو لأي واحدٍ من العروض التي قدمت له وحذر العلويين منها مؤكداً على ضرورة الالتزام بالقيم والمبادئ المفقودة، وأعطى ملامح الخط السياسي الذي ينسجم مع هذه المرحلة^١.

وأما الحالة الدينية والثقافية العامة في هذه الظروف السياسية المضطربة فمن الطبيعي أن لا نشهد لها تطوراً إلا بمقدار ما يرتبط بالشعور بالتذمر من الظالمين وضرورة القضاء على الحكم الفاسد الذي لم ينفك عن دعوة الناس إلى الفساد الفكري والأخلاقي ويجرهم إلى الانهيار الاقتصادي والفقر والحرمان.

نعم وجد أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم منفساً في هذه الفترة مادام الحكام وأصحاب الأطماع في الحكم مشغولين فيما بينهم فاستغلوا هذه الفرصة لإرساء قواعد المذهب الحق والدعوة والتبليغ لنشر فكر أهل البيت عليهم السلام وتعميق خطهم العقيدي والسياسي في ربوع المجتمع الإسلامي والتوسع عمودياً وافقياً بغية الاقتراب من الأهداف الإسلامية العليا التي يلتزم بها خط أهل البيت عليهم السلام منذ نشأته ويحرص على تحقيقها بشكل صحيح ومبدئي حيث إنه يحمل لواء الإسلام المحمدي الذي هو دين الله للبشرية جمعاء.

الناص

عاصر الإمام الصادق عليه السلام شطراً من حكم هشام بن عبد الملك كما عاصر ثورة عمه زيد بن علي ضد الأمويين سنة ١٢١ هـ كما عاصر حكومة الوليد بن يزيد الذي استولى على الحكم سنة ١٢٥ هـ وقد بدأت الاضطرابات تزداد بعد مقتل زيد ويحيى بن زيد ولم يستطع الأمويون من ضبط الأمور داخل البلاد الإسلامية فالوليد قد قتل في سنة ١٢٦ هـ واستولى على الخلافة يزيد الناقص ثم أخوه إبراهيم بن الوليد ثم قتله مروان بن محمد الذي عرف بمروان الحمار واستمر عهده المليء بالاضطرابات حتى سنة ١٣٢ هـ حيث انتهى عمر الحكومة الأموية بشكل كامل وتأسست الدولة العباسية على أنقاضها لتبدأ عهداً جديداً من الظلم والظغيان.

وهذه الفترة (١١٤ - ١٣٢ هـ) هي الفترة التي كانت مؤاتية للإمام الصادق عليه السلام لإكمال بناء قواعده وتشجيع دعائم الصرح الفكري الإسلامي لأنها فترة انشغال الحكام عنه وعن شيعته وهي فترة الانتقال من عهد آخذٍ بالانهيار إلى عهد جديد لم يستقر بعد.

الأسئلة

- ١ . حددّ عصر انتشار علوم آل محمد ﷺ .
- ٢ . بماذا تميّز عصر الإمام الصادق عليه السلام ؟
- ٣ . ما هي ملامح الحالة السياسيّة في عصر الإمام الصادق عليه السلام ؟
- ٤ . من هم الملوك الأمويون الذين عاصروا الإمام الصادق عليه السلام ؟
- ٥ . متى ولماذا تار كلّ من زيد بن علي عليه السلام ويحيى بن زيد رضوان الله عليهما ؟
- ٦ . ما هي نتائج ثورة زيد و يحيى ؟
- ٧ . ما هو موقف الإمام الصادق عليه السلام من ثورتي زيد و يحيى ؟

متطلبات عصر الإمام الصادق عليه السلام (١)

إن طبيعة الحالة الدينية والسياسية والفكرية والأخلاقية هي التي تحدّد للقائد الرسالي نوع نشاطاته ومستوى كلّ نشاط في ضوء الأهداف الرسالية العليا والمصلحة الإسلامية المثلى.

وقد عاش الإمام الصادق عليه السلام في عهدين سياسيين متماثلين هما: نهاية العهد الأموي وبداية العهد العباسي الأول.

وطبيعة المرحلة التي عاشها الإمام الصادق عليه السلام إبان الحكم الأموي وبدء انهياره - وهي المرحلة الأولى من عصره - تطلّبت من الإمام عليه السلام نشاطاً فكرياً وعلمياً وتربوياً وسياسياً خاصاً لمعالجة مجموعة الانحرافات الفكرية والدينية والأخلاقية والسياسية التي كانت تزخر بها الساحة الإسلامية آنذاك والعلاج كان لابد أن يكون على المدى القريب والبعيد معاً.

فالانحراف السياسي كان يعود في جذوره إلى الانحراف الفكري والديني والأخلاقي بشكل خاصّ ومن هنا لم يمكن علاجه بشكل سطحي دون معالجة جذوره وأسبابه.

وكانت المرحلة تتطلّب من الإمام عليه السلام أن يقدّم علاجه لهذه الانحرافات فيها على مستويين أيضاً: على المستوى العام لمجتمع المسلمين بشتى اتجاهاته ومذاهبه

وتياراته، وعلى المستوى الخاصّ باتباع أهل البيت (وهم الجماعة الصالحة). ومن هنا نلاحظ تنوّع نشاطات الإمام الصادق عليه السلام وأساليب عمله بما يتناسب مع كلّ هذه المجالات المستويات ومراحل الإصلاح القريبة والبعيدة معاً. ثم إنّ الانحرافات الأخلاقية قد تعود هي أيضاً إلى جذور عقائدية أو فكرية وثقافية أو منهجية، ومن هنا نلاحظ تنوّع النشاط الفكري والعلمي للإمام عليه السلام وتنوّع أطراف الحوار والاحتجاج معه، فهو يناقش أصحاب التيارات الفكرية الإلحادية كالزنادقة والغلاة وفي نفس الوقت يحاجج المعتزلة وأصحاب الرأي والقياس. كما أنّه يعكف على بناء قواعد جامعته الإسلامية الكبرى، ويعتزل العمل الثوري السياسي مباشرةً بينما يرعى ثورات العلويين ويشجّع بعضها ويشجب البعض الآخر تارة أخرى، ويهتم باتباع أهل البيت عليه السلام بشكل خاصّ بحيث يرسم لهم برنامجاً كاملاً يستوعب كلّ أبعاد وجودهم الفكري والأخلاقي والديني والسياسي والاجتماعي والأمني والاقتصادي ويرسم لهم خطى حركتهم المستقبلية ويعدّهم إعداداً قوياً للتأثير في المجتمع الإسلامي وإصلاح انحرافات، كما يعدّهم لتسلّم زمام الأمور في مستقبلهم القريب أو البعيد بحسب حجم استجابتهم لقواعد وسنن التغيير والإصلاح الاجتماعي.

النشاط الفكري والعقائدي للإمام الصادق عليه السلام

إذا راجعنا حوارات واحتجاجات الإمام عليه السلام في كتب الاحتجاج أو السيرة الخاصّة به^١، لاحظنا عدّة ظواهر ملفتة للنظر:

١. إن أكبر نسبة من الاحتجاجات هي مع رموز الملاحدة والزنادقة في عصره مثل الديصاني وابن أبي العوجاء.

٢. ويأتي الاحتجاج مع أصحاب الرأي والقياس في الدرجة الثانية من مجموعة

١. راجع احتجاج الطبرسي وعوالم المعارف الجزآن المختصان بالإمام الصادق عليه السلام.

الاحتجاجات المأثورة عنه.

٣ . تنوع أطراف الحوار مع الإمام عليه السلام إلى أنواع المعتقدات بدءاً من الإنكار لوجود الله تعالى وحتى السلوك المنحرف والمغلوط والفهم الخاطيء لمسيرة الشريعة. ويمكن تقسيم مجموعة هذه الأطراف التي تكشف عن تنوع الاتجاهات والتيارات في عصره الى مايلي:

أ - التيارات التي تنكر المبدأ والرسالة ويعدّ أصحابها خارجين عن دين الإسلام وتمثل في تيار الزندقة، وتيار الغلو، وتيار المسيحية وما شاكلها.

ب - التيارات التي تشكّل انحرافات داخل المسلمين وهي تيار الاعتزال والتفويض والإرجاء والتصوّف والرأي والقياس.

وتنقسم هذه التيارات بدورها إلى تيارات عقائدية وأخرى فقهية.

٤ . ونلاحظ أيضاً أنّ الإمام عليه السلام في حوارهِ مع الزنادقة والملحدين يمثل العالم الحليم الهاديء المسيطر على كلّ أرجاء المعرفة المتعمق إلى كلّ أغوار الفكر، آخذ بزماء البحث الموضوعي النزيه، ممّا أدّى إلى رجوع بعض الملحدين وإيمانهم بالله على يديه.

بينما نجده في مواجهته لتيّار الغلو، ذلك القائد الهادر الذي لا يقرّر له قرار وهو يكيل أنواع اللعن ويتمنى الإبادة التامة لهؤلاء الغلاة بالرغم من أنّه يتبرأ منهم أشد البراءة. ولا نجده كذلك أمام سائر التيارات المنحرفة ولعل ذلك لأن الغلو ينتهي الى مسخ الدين مسخاً تاماً فلا ينبغي أن يسمح لهم بالنمو والانتشار.

وبالرغم من تصدّي الإمام عليه السلام لتيار الرأي والقياس الذي يؤدّي الى مسخ أحكام الشريعة لكنه تيار لا يرتبط بأصول الشريعة وأسسها العقائدية، ومن هنا كانت المشكلة أخف وإن كانت هي أيضاً مشكلة كبرى في نفس الوقت ومن هنا نجده مهاجماً لهذا التيار آخذاً بزماء المبادرة في كلّ حوار.

مواجهة تيار الإلحاد والغلو

١. قال هشام بن الحكم: كان زنديق بمصر يبلغه عن أبي عبد الله عليه السلام، فخرج إلى المدينة لينظره، فلم يصادفه بها، ف قيل له: هو بمكة. فخرج الزنديق إلى مكة، ونحن مع أبي عبد الله عليه السلام فقاربنا الزنديق - ونحن مع أبي عبد الله عليه السلام - في الطواف، ف ضرب كتفه كتف أبي عبد الله عليه السلام؛

فقال له جعفر عليه السلام: ما اسمك؟ قال: اسمي عبد الملك.

قال: فما كنتك؟ قال: أبو عبد الله.

قال: فمن الملك الذي أنت له عبد، أمن ملوك السماء أم من ملوك الأرض؟

وأخبرني عن ابنك، أعبد إله السماء أم عبد إله الأرض؟ فسكت.

فقال له أبو عبد الله عليه السلام: قل ماشئت تخصم.

قال هشام بن الحكم: قلت للزنديق: أما تردّ عليه؟ فقبّح قولي.

فقال له أبو عبد الله عليه السلام: إذا فرغت من الطواف فأتنا.

فلما فرغ أبو عبد الله عليه السلام أتاه الزنديق، ففقد بين يديه، ونحن مجتمعون عنده؛

فقال للزنديق: أتعلم أنّ للأرض تحت وفوق؟ قال: نعم. قال: فدخلت تحتها؟ قال:

لا.

قال: فما يدريك بما تحتها؟ قال: لأدري إلّا أنّي أظنّ أن ليس تحتها شيء.

قال أبو عبد الله عليه السلام: فالظنّ عجز مالم تستيقن؛

قال أبو عبد الله عليه السلام: فصعدت إلى السماء؟ قال: لا. قال: فتدري ما فيها؟ قال: لا.

قال: فأتييت المشرق والمغرب، فنظرت ما خلفهما؟ قال: لا.

قال: فعجباً لك! لم تبلغ المشرق، ولم تبلغ المغرب، ولم تنزل تحت الأرض، ولم

تصعد إلى السماء، ولم تخبر هنالك فتعرف ما خلفهن، وأنت جاحد ما فيهن؟!؛

وهل يجحد العاقل ما لا يعرف؟ فقال الزنديق: ما كلمني بهذا أحد غيرك.

قال أبو عبد الله عليه السلام: فأنت في شكّ من ذلك؟ ففعل هو، أو لعلّ ليس هو.

قال الزنديق: ولعلّ ذاك.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: أيّها الرجل! ليس لمن لا يعلم حجّة على من يعلم، فلا حجّة للجاهل (على العالم)، يا أخا أهل مصر! تفهم عني، فإنّا لانشك في الله أبداً؛ أما ترى الشمس والقمر، والليل والنهار يلجان (ولا يشتبهان؟ يذهبان ولا يرجعان، قد اضطرّا) ليس لهما مكان إلّا مكانهما؟ فإن كانا يقدران على أن يذهبا ولا يرجعا، فلم يرجعا؟! وإن لم يكونا مضطرين فلم لا يصير الليل نهاراً، والنهار ليلاً؟ اضطرّا - والله - يا أخا أهل مصر إلى دوامهما، والذي اضطرهما أحكم منهما، وأكبر منهما.

قال الزنديق: صدقت.

ثمّ قال أبو عبد الله عليه السلام: يا أخا أهل مصر! الذي تذهبون إليه، وتظنون بالوهم، فإن كان الدهر يذهب بهم لم لا يردّهم؟ وإن كان يردهم لم لا يذهب بهم؟ القوم مضطرون يا أخا أهل مصر، السماء مرفوعة، والأرض موضوعة، لم لا تسقط السماء على الأرض؟ ولم لا تنحدر الأرض فوق طباقها فلا يتماسكان، ولا يتماسك من عليهما؟ فقال الزنديق: أمسكهما - والله - ربهما وسيدهما، فأمن الزنديق على يدي أبي عبد الله عليه السلام، فقال له حمران بن أعين: جعلت فداك إن آمنت الزنادقة على يدك، فقد آمنت الكفّار على يدي أبيك.

فقال المؤمن الذي آمن على يدي أبي عبد الله عليه السلام: اجعلني من تلاميذك، فقال أبو عبد الله عليه السلام لهشام بن الحكم: خذ إليك فعلّمه. فعلمّه هشام، فكان معلّم أهل مصر وأهل الشام، وحسنت طهارته حتّى رضي بها أبو عبد الله عليه السلام^١.

٢. وروى أبان بن تغلب: أنّه دخل يمانى على الصادق عليه السلام فقال له: مرحباً بك

ياسعد!

فقال الرجل: بهذا الاسم سمّنتي أمّي، وقلّ من يعرفني به.

فقال: صدقت ياسعد المولى! فقال: جعلت فداك بهذا كنت ألقب.

فقال: لاخير في اللقب، إن الله يقول: ﴿ولا تنازروا بالألقاب﴾^١.

ماصناعتك ياسعد؟ قال: أنا من أهل بيت ننظر في النجوم.

فقال: كم ضوء الشمس على ضوء القمر درجة؟ قال: لا أدري.

قال: فكم ضوء القمر على ضوء الزهرة درجة؟ قال: لا أدري.

قال: فكم للمشتري من ضوء عطارد؟ قال: لا أدري.

قال: فما اسم النجوم التي إذا طلعت هاجت البقر؟ قال: لا أدري.

فقال: ياأخا أهل اليمن! عندكم علماء؟ قال: نعم؛

إن عالمهم ليزجر الطير، ويقفو الأثر في الساعة الواحدة مسيرة سير الراكب المجذ.

فقال عليه السلام: إن عالم المدينة أعلم من عالم اليمن؛ لأن عالم المدينة ينتهي إلى حيث

لا يقف الأثر. ريزجر الطير، ويعلم ما في اللحظة الواحدة مسيرة الشمس، فيقطع

اثني عشر برجاً، وإثني عشر بحراً، وإثني عشر عالماً.

قال: ماظننت أن أحداً يعلم هذا ويدري^٢.

٣. عن ابن سنان، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إنا أهل بيت صادقون لانخلو من

كذاب يكذب علينا، فيسقط صدقنا بكذبه علينا عند الناس، كان رسول الله ﷺ

أصدق البرية لهجةً، وكان مسيلمته يكذب عليه؛

وكان أمير المؤمنين عليه السلام أصدق من برأ الله من بعد رسول الله ﷺ؛ وكان الذي

يكذب عليه ويعمل في تكذيب صدقه بما يفترى عليه من الكذب عبد الله بن سبأ لعنه

الله، وكان أبو عبد الله الحسين بن علي عليه السلام قد ابتلي بالمختار.

١. الحجرات / ١١.

٢. عوالم العلوم، ج ٢٠، ص ٥٦٩ عن المناقب، ج ٣، ص ٣٧٩ ورواه الصدوق في الخصال، ص ٤٨٩، ح ٦٨.

بايسناده إلى أبان بن تغلب والطبري في دلائل الإمامة، ص ١٣٥.

ثم ذكر أبو عبد الله الحارث الشامي، وبنانا^١، فقال: كانا يكذبان على علي بن الحسين عليه السلام، ثم ذكر المغيرة بن سعيد، وبزيعاً والسري، وأبا الخطاب، ومعمراً، وبشاراً الشعيري وحمة البربري، وصائداً النهدي فقال: لعنهم الله، إنا لانخلو من كذاب أو عاجز الرأي، كفانا الله مؤونة كل كذاب وأذاقهم الله حرّ الحديد.

٤. وجاء في تاريخ جرجان بإسناده عن عيسى الجرجاني، قال: قلت لجعفر بن محمد: إن شئت أخبرتك بما سمعت القوم يقولون. قال: فهات.

قال: قلت: فإن طائفة منهم عبدوك، أتخذوك إلهاً من دون الله، وطائفة أخرى قالوا لك بالنبوة. قال: فبكي حتى ابتلت لحيتي، ثم قال: إن أمكنني الله من هؤلاء فلم أسفك دماءهم، سفك الله دم ولدي على يدي.

٥. عن زياد بن أبي الحلال، قال: اختلف أصحابنا في أحاديث جابر الجعفي؛ فقلت لهم: أسأل أبا عبد الله عليه السلام، فلما دخلت ابتدأني، فقال: رحم الله جابر الجعفي، ان يصدق علينا، لعن الله المغيرة بن سعيد، كان يكذب علينا.

قال أبو الحسن الرضا عليه السلام: كان المغيرة بن سعيد يكذب على أبي جعفر عليه السلام فأذاقه الله حرّ الحديد^٢.

٦. سمعت أبا عبد الله عليه السلام وذكر أبا الخطاب، فقال: اللهم العن أبا الخطاب، فإنه خوفني قائماً وقاعداً وعلى فراشي، اللهم أذقه حرّ الحديد^٣.

وعن عمران بن علي، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لعن الله أبا الخطاب، ولعن من قتل معه، ولعن من بقي منهم، ولعن الله من دخل قلبه رحمة لهم^٤.

٧. عن ابن أبي يعفور، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن بزيعاً يزعم أنه نبي؛

١. عوالم العلوم، ج ٢٠، ص ٢، ح ١١٤٩.

٢. عوالم العلوم، ج ٢٠، ص ٢، ح ١١٥٠.

٣. عوالم العلوم، ج ٢٠، ص ٢، ح ١١٥١ وإثبات الهداة، ج ٥، ص ٤٤٤، ح ٢٠٨.

٤. المصدر وأورد في المصدر المذكور، ص ٢٩٠-٣٠٨ (٤٧) رواية في ذمّه وذم أصحابه، فراجع.

فقال: إن سمعته يقول ذلك، فاقتله. قال: فجلست له غير مرة، فلم يمكّنني ذلك^١.
عن ابن أبي يعفور؛ قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام: فقال: ما فعل بزيغ؟ فقلت له:
قتل.

فقال: الحمد لله، أما أنه ليس لهؤلاء المغيرة شيء خير من القتل، لأنهم لا يتوبون
أبدًا^٢.

٨. عن المدائني عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قال لي: يامرازم، من بشار؟ قلت: بشار
الشعير، قال: لعن الله بشاراً.

قال: ثم قال لي: أيا مرزم، قل لهم: ويلكم! توبوا إلى الله، فإنكم كافرون مشركون^٣.

مواجهة أصحاب الشرايع

عن أبي خنيس الكوفي، قال: حضرت مجلس الصادق عليه السلام وعنده جماعة من
النصارى، فقالوا: فضل موسى وعيسى ومحمد ﷺ سواء لأنهم صلوات الله عليهم
أصحاب الشرائع والكتب.

فقال الصادق عليه السلام: إن محمداً ﷺ أفضل منهما وأعلم، ولقد أعطاه الله تبارك
وتعالى من العلم ما لم يعط غيره؛

فقالوا: آية من كتاب الله تعالى نزلت في هذا؟ قال عليه السلام: نعم، قوله تعالى: ﴿وكتبنا
له في الألواح من كل شيء﴾^٤. وقوله تعالى لعيسى: ﴿ولأبين لكم بعض الذي تختلفون

١. وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٥٥٥، ح ٢.

٢. ص ٣٠٥ ح ٥٥٠ راجع عوالم العلوم: ١١٥١/٢/٢٠.

٣. عوالم العلوم، ج ٢٠، ص ٢ ح ١١٥٢. قال في معجم رجال الحديث، ج ٣، ص ٣٠٤ ومقالة بشار هي مقالة
العلوية، يقولون: إن علياً عليه السلام رب (هرب) وظهر بالعلوية الهاشمية، وأظهر وليه من عنده ورسوله بالمحمدية.

٤. الأعراف/ ١٤٥.

فيه^١. وقوله تعالى للسيد المصطفى عليه السلام:

﴿وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾^٢. وقوله تعالى: ﴿ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً﴾^٣.

فهو - والله - أعلم منهما؛

ولو حضر موسى وعيسى بحضرتي، وسألاني، لأجبتهما وسألتهما، مأجبا^٤.

مواجهة تيّار الخوارج والمعتزلة

١. قال بعض الخوارج لهشام بن الحكم:

العجم تتزوّج في العرب؟ قال: نعم.

قال: فالعرب تتزوّج في قريش؟ قال: نعم.

قال: فقريش تتزوّج في بني هاشم؟ قال: نعم.

فجاء الخارجي إلى الصادق عليه السلام فقصّ عليه، ثمّ قال: أسمعك منك؟

فقال عليه السلام: نعم، قد قلت ذلك. قال الخارجي: فما أنا ذا قد جئتكم خاطباً.

فقال له أبو عبد الله عليه السلام: إنك لكفو في دينك وحسبك في قومك، ولكنّ الله عزّ وجلّ صاننا عن الصدقات، وهي أوساخ أيدي الناس، فنكره أن نشرك فيما فضّلنا الله به من لم يجعل الله له مثل ما جعل لنا.

فقام الخارجي وهو يقول: بالله ما رأيت رجلاً مثله، ردّني والله أقبح ردّ، وما خرج

١. الزخرف / ٦٣.

٢. النحل / ٨٩.

٣. الجنّ / ٢٨.

٤. عوالم العلوم، ج ٢٠، ص ٥٩٧ وبحار الأنوار، ج ١٠، ص ٢١٥.

من قول صاحبه^١.

٢. عن عبدالكريم بن عتبة الهاشمي، قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام بمكة إذ دخل عليه أناس من المعتزلة فيهم عمرو بن عبيد^٢، وواصل بن عطاء، وحفص ابن سالم، وأناس من رؤسائهم، وذلك حين قتل الوليد، واختلف أهل الشام بينهم؛ فتكلموا فأكثروا، وخطبوا فأطالوا، فقال لهم أبو عبدالله جعفر بن محمد عليه السلام: إنكم قد أكثرتم عليّ فأطلتم، فأسندوا أمركم إلى رجل منكم، فليتكلم بحجّكم وليوجز. فأسندوا أمرهم إلى عمرو بن عبيد، فأبلغ وأطال، فكان فيما قال، أن قال: قتل أهل الشام خليفتهم، وضرب الله بعضهم ببعض، وتشّتت أمرهم، فنظرنا فوجدنا رجلاً له دين وعقل ومروءة، ومعدن للخلافة، وهو «محمد بن عبدالله بن الحسن» فأردنا أن نجتمع معه فنبايعه، ثمّ نظرهم أمرنا معه، وندعو الناس إليه، فمن بايعه كنّا معه وكان ممّناً، ومن اعتزلنا كففنا عنه، ومن نصب لنا جاهدناه، ونصّبنا له على بغيه ونردّه إلى الحقّ وأهله، وقد أحببنا أن نعرض ذلك عليك، فإنّه لا غنى لنا عن مثلك لفضلك وكثرة شيعتك.

فلما فرغ، قال أبو عبدالله عليه السلام: أكلكم على مثل ما قال عمرو؟ قالوا: نعم.

فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبيّ ﷺ، ثمّ قال:

إنّما نسخط إذا عصي الله، فإذا أطيع (الله) رضينا.

أخبرني ياعمر، لو أنّ الأئمة قلّدتك أمرها فملكته بغير قتال ولا مؤونة، فقليل لك:

ولها من شئت: تولّي؟ قال: كنت أجعلها شوري بين المسلمين.

قال: بين كلّهم؟ قال: نعم. قال: بين فقهاءهم وخيارهم؟ قال: نعم.

١. بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٩٩ وعوالم العلوم ج ٢٠، ص ٥٦١.

٢. قال في سيرة أعلام النبلاء، ج ٦، ص ١٠٤: هو عمرو بن عبيد الزاهد العابد القدري، كبير المعتزلة وأوّلهم، أبو عثمان البصري، قال: قال الخطيب: مات بطريق مكة سنة ثلاث، وقيل: سنة أربع وأربعين ومائة، وذكر في هامشه الكتب التي ترجمت له.

قال: قريش وغيرهم؟ قال: العرب والعجم.

قال: أخبرني يا عمرو، أتتولّى أبابكر وعمر، أو تتبرأ منهما؟ قال: أتولاهما.

قال: يا عمرو! إن كنت رجلاً تتبرأ منهما، فإنه يجوز لك الخلاف عليهما، وإن كنت تتولاهما فقد خالفتهما، قد عهد عمر إلى أبي بكر فبايعه ولم يشاور أحداً، ثم ردها أبوبكر عليه ولم يشاور أحداً، ثم جعلها عمر شورى بين ستة، فأخرج منها الأنصار (والمهاجرين) غير أولئك الستة من قريش، ثم أوصى فيهم الناس بشيء ما أراك ترضى به أنت ولا أصحابك.

قال: وما صنع؟ قال: أمر صهيياً^١ أن يصلي بالناس ثلاثة أيام، وأن يتشاور أولئك الستة ليس فيهم أحد سواهم إلا ابن عمر، ويشاورونه، وليس له من الأمر شيء؛ وأوصى من (كان)، بحضرته من المهاجرين والأنصار إن مضت ثلاثة أيام ولم يفرغوا ويبايعوا أن يضرب أعناق الستة جميعاً؛

وإن اجتمع أربعة قبل أن تمضي ثلاثة أيام وخالف إثنان أن يضرب أعناق الإثنين؛ أفترضون بدا فيما تجعلون من الشورى في المسلمين؟ قالوا: لا.

قال: يا عمرو! دع ذا، أرايت لو بايعت صاحبك هذا الذي تدعو إليه، ثم اجتمعت لكم الأمة، ولم يختلف عليكم منها رجلان، فأفضيتم إلى المشركين الذين لم يسلموا ولم يؤدوا الجزية، أكان عندكم وعند صاحبكم من العلم ماتسرون فيهم بسيرة رسول الله ﷺ في المشركين في حروبه^٢؟ قالوا: نعم.

قال: فتصنعون ماذا؟

١. هو صهييب بن سنان أبو يحيى النمري، من النمر بن قاسط، ويعرف بالرومي، لآته أقام في الروم مدة، وهو من أهل الجزيرة، سبي من قرية نينوى، من أعمال الموصل، وقد كان أبوه أو عمه عاملاً لكسرى ثم إنه جلب إلى مكة فاشتره عبد الله بن جدعان القرشي التيمي... لما طعن عمر استتابه على الصلاة بالمسلمين، مات بالمدينة في سؤال سنة ثمان وثلاثين (سير أعلام النبلاء، ج ٢، ص ١٧).

قالوا: ندعوهم إلى الإسلام، فإن أبوا دعوناهم إلى الجزية.

قال: وإن كانوا مجوساً وأهل كتاب؟

قالوا: وإن كانوا مجوساً وأهل كتاب.

قال: وإن كانوا أهل الأوثان وعبدة النيران والبهائم، وليسوا بأهل كتاب؟

قالوا: سواء. قال: فأخبرني عن القرآن أتقرؤه؟ قال: نعم. قال: اقرأ:

﴿قاتلوا: الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ

وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾^١.

قال: فاستثنى الله عز وجل، واشترط من الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ منهم، وَالَّذِينَ لَمْ يُؤْتُوا

الْكِتَابَ سواء؟ قال: نعم.

قال عليه السلام: عَمَّنْ أَخَذْتَ هَذَا؟ قال: سمعت الناس يقولونه.

قال: فدع ذا، فإنهم إن أبوا الجزية فقاتلتهم فظهرت عليهم، كيف تصنع بالغنيمة؟

قال: أخرج الخمس، وأقسّم أربعة أخماس بين من قاتل عليها.

قال: تقسّمه بين جميع من قاتل عليها؟ قال: نعم^٢.

قال: فقد خالفت رسول الله ﷺ في فعله وفي سيرته، وبينك فقهاء أهل

١. التوبة / ٢٠.

٢. زاد في الكافي مالفظة «قال: أخبرني عن الخمس من تعطيه؟ قال: حيثما سُمي الله، قال: فقرأ: (واعلموا أنّما

غنمتم من شيء، فإنّ لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) (الأنفال / ٤١) الذي

للرسول من تعطيه؟ ومن ذو القربى؟

قال: قد اختلف فيه الفقهاء، فقال بعضهم: قرابة النبي ﷺ وأهل بيته، وقال بعضهم: الخليفة، وقال بعضهم: قرابة

الَّذِينَ قَاتَلُوا عَلَيْهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

قال: فأَيُّ ذَلِكَ تقول أنت؟ قال: لا أدري. قال: فأراك لا تدري، فدع ذا.

ثم قال: أرايت الأربعة أخماس تقسّمها بين جميع من قاتل عليها؟ قال: نعم.

المدينة ومشيعتهم، فإتهم لا يختلفون ولا يتنازعون في أنّ رسول الله ﷺ إنما صالح الأعراب على أن يدعمهم في ديارهم، وأن لا يهاجروا على أنه إن دهم^١ من عدوه دهم يستنفرهم^٢ فيقاتل بهم، وليس لهم من الغنيمة نصيب؛

وأنت تقول بين جميعهم، فقد خالفت رسول الله ﷺ في سيرته في المشركين.

دع ذا، ماتقول في الصدقة؟ قال: فقرأ عليه هذه الآية ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾^٣ إلى آخرها. قال: نعم، فكيف تقسم بينهم؟

قال: أقسمها على ثمانية أجزاء، فأعطي كلّ جزء من الثمانية جزءاً.

فقال عليه السلام: إن كان صنف منهم عشرة آلاف، وصنف رجلاً واحداً، أو رجلين أو ثلاثة، جعلت لهذا الواحد مثل ما جعلت للعشرة آلاف؟ قال: نعم.

قال: وكذا تصنع بين صدقات أهل الحضرة وأهل البوادي، فتجعلهم فيها سواء؟

قال: نعم. قال: فخالفت رسول الله ﷺ في كلّ ما أتى به في سيرته، كان رسول الله ﷺ يقسم صدقة البوادي في أهل البوادي، وصدقة الحضرة في أهل الحضرة؛ ولا يقسمه بينهم بالسوية، إنما يقسمه على قدر ما يحضره منهم، وعلى ما يرى^٤.

فإن كان في نفسك شيء مما قلت (لك)، فإنّ فقهاء أهل المدينة ومشيعتهم كلّهم لا يختلفون في أنّ رسول الله ﷺ كذا كان يصنع.

ثمّ أقبل على عمرو، وقال: اتق الله يا عمرو، وأنتم أيها الرهط^٥ فاتقوا الله؛

فإنّ أبي حدّثني - وكان خير أهل الأرض وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله -

أنّ رسول الله ﷺ قال: من ضرب الناس بسيفه ودعاهم إلى نفسه، وفي المسلمين

١. دهمه الأمر: غشيه، والدهم: العدد الكثير.

٢. «يستنفرهم» خ. واستنفر القوم: استنجدهم واستنصره وكلفهم أن ينفروا.

٣. التوبة / ٦٠.

٤. «وعلى قدر ما يحضره» م.

٥. الرهط: عدد يجمع من الثلاثة إلى العشرة وليس فيهم امرأة.

مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ فَهُوَ ضَالٌّ مُتَكَلِّفٌ^١.

مواجهة تَيَّار القياس والرأي

١. وروى بعض أصحاب أبي عبد الله عليه السلام قال:

كنت عند أبي عبد الله عليه السلام إذ دخل عليه غلام من كندة فاستفتاه في مسألة، فأفتاه فيها؛ فعرفت الغلام والمسألة، فقدمت الكوفة، فدخلت على أبي حنيفة، فإذا ذاك الغلام بعينه يستفتيه في تلك المسألة بعينها، فأفتاه فيها بخلاف ما أفتاه أبو عبد الله عليه السلام؛ فقممت إليه، فقلت: ويلك يا أبا حنيفة! إني كنت العام حاجاً، فأتيت أبا عبد الله عليه السلام مسلماً عليه، فوجدت هذا الغلام يستفتيه في هذه المسألة بعينها، فأفتاه بخلاف ما أفتيته.

فقال: وما يعلم جعفر بن محمد، أنا أعلم منه، أنا لقيت الرجال، وسمعت من أفواههم، وجعفر بن محمد صحفي أخذ العلم من الكتب! فقلت في نفسي: والله لأحجبن ولو حبواً.

قال: فكنت في طلب حجة، فجاءتني حجة فحججت، فأتيت أبا عبد الله عليه السلام؛

فحكيت له الكلام فضحك، ثم قال: أما في قوله إني رجل صحفي فقد صدق؛

قرأت صحف آبائي إبراهيم وموسى. فقلت: ومن له بمثل تلك الصحف؟

قال: فما لبثت أن طرق الباب طارق، وكان عنده جماعة من أصحابه؛

فقال للغلام: انظر من ذا؟ فرجع الغلام فقال: أبو حنيفة.

قال: أدخله. فدخل، فسلم على أبي عبد الله عليه السلام فردّ عليه.

ثم قال: أصلحك الله أتأذن لي في القعود؟ فأقبل على أصحابه يحدثهم، ولم يلتفت

إليه.

ثم قال الثانية والثالثة، فلم يلتفت إليه، فجلس أبوحنيفة من غير إذنه.
فلما علم أنه قد جلس التفت إليه، فقال: أين أبوحنيفة؟ فقيل: هو ذا أصلحك الله.
فقال: أنت فقيه أهل العراق؟ قال: نعم.

قال: فبم تفتيهم؟ قال: بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

قال: يا أباحنيفة! تعرف كتاب الله حق معرفته، وتعرف الناسخ والمنسوخ؟ قال: نعم.
قال: يا أباحنيفة! لقد ادّعت علماً، ويحك! ما جعل الله ذلك إلا عند أهل الكتاب
الذين أنزل عليهم، ويحك! ولا هو إلا عند الخاص من ذرية نبينا ﷺ، وما ورنك الله
من كتابه حرفاً، فإن كنت كما تقول ولست كما تقول، فأخبرني عن قول الله عز وجل:
﴿سِيرُوا فِيهَا لِيُبَيِّنَ لَكُمْ آيَاتِهِ وَأَيَّامَ آَمِنِينَ﴾^١ أين ذلك من الأرض؟ قال: أحسبه ما بين مكة
والمدينة.

فالتفت أبو عبد الله عليه السلام إلى أصحابه، فقال: تعلمون أن الناس يقطع عليهم بين
المدينة ومكة، فتؤخذ أموالهم ولا يأمنون على أنفسهم ويقتلون؟ قالوا: نعم. قال:
فسكت أبوحنيفة فقال: يا أباحنيفة! أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ
آَمِنًا﴾

أين ذلك من الأرض؟ قال: الكعبة. قال: أفتعلم أن الحجاج بن يوسف حين وضع
المنجنيق على ابن الزبير في الكعبة فقتله كان آمناً؟ قال: فسكت.

ثم قال له: يا أباحنيفة! إذا ورد عليك شيء ليس في كتاب الله، ولم تأت به الآثار
والسنة، كيف تصنع؟ فقال: أصلحك الله! أقيس، وأعمل فيه برأيي.

قال: يا أباحنيفة! إن أول من قاس إبليس الملعون، قاس على ربنا تبارك وتعالى،
فقال:

﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾^١. فسكت أبوحنيفة.

فقال: ياأباحنيفة! أيما أرجس، البول أو الجنابة؟ فقال: البول.

فقال: فما بال الناس يغتسلون من الجنابة، ولا يغتسلون من البول؟ فسكت.

فقال: ياأباحنيفة! أيما أفضل الصلاة أم الصوم؟ قال: الصلاة.

قال: فما بال الحائض تقضي صومها، ولا تقضي صلاتها؟ فسكت.

فقال: ياأباحنيفة! أخبرني عن رجل كانت له أم ولد، وله منها ابنة، وكانت له حرة

لاتلد، فزارت الصبيّة بنت أم الولد أباه، فقام الرجل بعد فراغه من صلاة الفجر، فواقع

أهله التي لاتلد وخرج إلى الحثام، فأرادت الحرة أن تكيد أم الولد وابنتها عند الرجل،

فقامت إليها بحرارة ذلك الماء، فوقعت عليها وهي نائمة، فعالجتها كما يعالج الرجل

المرأة، فعلقت؛

أي شيء عندك فيها؟ قال: لا والله ما عندي فيها شيء.

فقال: ياأباحنيفة! أخبرني عن رجل كانت له جارية، فزوّجها من مملوك له وغاب

المملوك، فولد له من أهله مولود، وولد للملوك مولود من أم ولد له، فسقط البيت على

الجارين ومات المولى، من الوارث؟ فقال: جعلت فداك: لا والله ما عندي فيها شيء.

ثم قال أبوحنيفة: أصلحك الله إن عندنا قوماً بالكوفة يزعمون أنك تأمرهم بالبراءة

من فلان وفلان (وفلان). فقال: ويلك ياأباحنيفة! لم يكن هذا، معاذ الله.

فقال: أصلحك الله، إنهم يعظمون الأمر فيهما.

قال: فما تأمرني؟ قال: تكتب إليهم. قال: بماذا؟ قال: تسألهم الكفّ عنهما.

قال: لا يطيعونني قال: بلى أصلحك الله إذا كنت أنت الكاتب وأنا الرسول

أطاعوني.

قال: ياأبا حنيفة! أبيت إلا جهلاً؛

كم بيني وبين الكوفة من الفراسخ؟ قال: أصلحك الله مالا يحصى.

فقال: كم بيني وبينك؟ قال: لا شيء.

قال: أنت دخلت عليّ في منزلي فاستأذنت في الجلوس ثلاث مرّات، فلم أذن لك؛ فجلست بغير إذني خلافاً عليّ، كيف يطيعونني أولئك وهم هناك وأنا هاهنا؟

قال: فقبّل رأسه وخرج وهو يقول: أعلم الناس، ولم نره عند عالم.

فقال أبو بكر الحضرمي: جعلت فداك الجواب في المسألتين الأوليين.

فقال: يا أبا بكر! «سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين» فقال: مع قائمنا أهل البيت.

وأما قوله ﴿ومن دخله كان آمناً﴾، فمن بايعه ودخل معه، ومسح على يده، ودخل في عقد أصحابه، كان آمناً^١.

٢. عن محمّد بن مسلم، قال: دخل أبو حنيفة على أبي عبد الله عليه السلام فقال له: إنّي رأيت ابنك موسى يصليّ والناس يمرّون بين يديه، فلا ينهاهم، وفيه ما فيه.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: ادع لي موسى، فلمّا جاءه، قال: يا بنيّ! إنّ أباحنيفة يذكر أنّك تصليّ، والناس يمرّون بين يديك فلا تنهاهم؟ قال: نعم يا أبا، إنّ الذي كنت أصليّ له كان أقرب إليّ منهم، يقول الله تعالى: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾^٢؛

قال: فضمّه أبو عبد الله عليه السلام إلى نفسه، وقال: بأبي أنت وأمي يامودع الأسرار.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: يا أباحنيفة! القتل عندكم أشدّ أم الزنا؟ فقال: بل القتل.

قال: فكيف أمر الله تعالى في القتل بالشاهدين وفي الزنا بأربعة؟ كيف يدرك هذا بالقياس؟ يا أباحنيفة! ترك الصلاة أشدّ أم ترك الصيام؟ فقال: بل ترك الصلاة.

قال: فكيف تقضي المرأة صيامها ولا تقضي صلاتها، كيف يدرك هذا بالقياس؟

ويحك يا أباحنيفة! النساء أضعف عن المكاسب أم الرجال؟ فقال: بل النساء.

١. راجع بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٩٢، الحديث ١٣ وحلّة الأبرار، ج ٢، ص ١٤٨.

قال: فكيف جعل الله تعالى للمرأة سهماً وللرجل سهمين؟ كيف يدرك هذا بالقياس؟

يأباه حنيفة! الغائط أقدر أم المني؟ قال: بل الغائط.

قال: فكيف يستنجي من الغائط، ويغتسل من المني؟ كيف يدرك هذا بالقياس؟ ويحك يا أباه حنيفة! تقول: سأنزل مثل ما أنزل الله؟

قال: أعود بالله أن أقوله. قال: بلى تقوله أنت وأصحابك من حيث لا تعلمون.

قال أبوه حنيفة: جعلت فداك حدّثني بحديث نحدّث به عنك.

قال: حدّثني أبي محمد بن عليّ، عن أبيه عليّ بن الحسين، عن أبيه الحسين بن عليّ، عن أبيه عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليهم أجمعين قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله أخذ ميثاق أهل البيت من أعلى عليّين، وأخذ طينة شيعة منا، ولو جهد أهل السماء وأهل الأرض أن يغيّروا من ذلك شيئاً ما استطاعوه». قال: فبكى أبوه حنيفة بكاءً شديداً، وبكى أصحابه، ثم خرج وخرجوا^١.

مواجهة تيار التصوّف

١ - روى محمد بن طلحة، عن سفيان الثوري، قال:

دخلت على جعفر بن محمد عليه السلام، وعليه جبّة خزّ دكاء، وكساء خزّ فجعلت أنظر إليه تعجباً، فقال لي: يا ثوري! مالك تنظر إلينا؟ لعلك تعجب ممّا ترى؟

فقلت: يا بن رسول الله! ليس هذا من لباسك ولا لباس آبائك!!

قال: يا ثوري! كان ذلك زمان إقتار^٢ وافتقار، وكانوا يعملون على قدر إقتاره

١. راجع بحار الأنوار، ج ١٠، ص ٢٠٤، ح ٨ ورواه في الكافي، ج ٣، ص ٢٩٧، ح ٤.

٢. الإقتار: التضييق على الإنسان في الرزق، يقال: أقتّر الله رزقه: أي ضيقه وقلّله.

(وافتقاره)، وهذا زمان قد أسبل كلّ شيء عزاليه^١، ثمّ حسر ردن جبّته، فإذا تحتها جبّة، فإذا تحتها جبّة صوف بيضاء، يقصر الذيل عن الذيل، والردن عن الردن.
وقال: يا ثوري! لبسنا هذا لله تعالى وهذا لكم، فما كان لله أخفينا، وما كان لكم أبديناه^٢.

للمطالعة

٢. عن مسعدة بن صدقة: دخل سفيان الثوري على أبي عبد الله عليه السلام فرأى عليه ثياباً بيضاً كأنها غرقىء البيض (القشرة الملتزمة ببياض البيض).
فقال له: إن هذا اللباس ليس من لباسك. فقال له عليه السلام: اسمع منّي وع ما أقول لك فإنّه خير لك عاجلاً وآجلاً إن أنت مُتّ على السُنّة والحقّ، ولم تمت على بدعة، أخبرك أنّ رسول الله ﷺ كان في زمان مقفر جذب، فأما إذا أقبلت الدنيا فأحق أهلها بها أبرارها لافجارها ومؤمنوها لامنافقوها ومسلموها لاكفارها فما أنكرت يا ثوري؟ فوالله إنني لمع ماترى، ما أتى عليّ مذ عقلت صباح ولا مساء ولله في مالي حق أمرني أن أضعه موضعاً إلّا وضعته.

قال: فأتاه قوم ممّن يظهرون الزهد ويدعون الناس أن يكونوا معهم على مثل الذي هم عليه من التقشّف، فقالوا له: إنّ صاحبنا حصر عن كلامك ولم تحضره حججه.
فقال لهم: فهاتوا حججكم فقالوا له: إنّ حججنا من كتاب الله.
فقال لهم: فادلو بها فإنّها أحقّ ما اتبع وعمل به.

فقالوا: يقول الله تبارك وتعالى مخبراً عن قوم من أصحاب النبي ﷺ: ويؤثرون

١. أسبل المطر والدمع إذا هطلا. يقال «أنزلت السماء عزاليها» إشارة إلى شدّة وقع المطر، فقوله: «وأسبل كلّ شيء عزاليه» يريد به وفور الخير.

٢. راجع بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٢٢١، ح ٧.

على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شَح نفسه فاولئك هم المفلحون^١. فمدح
فلهم، وقال في موضع آخر: ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً^٢ فنحن
نكتفي بهذا.

فقال رجل من الجلساء: إنا رأيناكم تزهدون في الأطعمة الطيبة، ومع ذلك تأمرون
الناس بالخروج من أموالهم حتى تمتنعوا أنتم منها!

فقال أبو عبد الله عليه السلام: دعوا عنكم مالا ينتفعون به، أخبروني أيها نفر:

ألكم علم بناسخ القرآن من منسوخه، ومحكمه من متشابهه الذي في مثله ضلّ من
ضلّ، وهلك من هلك من هذه الأمة؟ فقالوا له: بعضه، فأما كلّ فلا.

فقال لهم: فمن هاهنا أتيتم، وكذلك أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله^٣؛

فأما ما ذكرتم من إخبار الله عزّ وجلّ إيانا في كتابه عن القوم الذين أخبر عنهم
بحسن فعالهم، فقد كان مباحاً جائزاً^٤، ولم يكونوا نهوا عنه، وثوابهم منه على الله عزّ
وجلّ؛ وذلك أنّ الله جلّ وتقدّس أمر بخلاف ما عملوا به، فصار أمره ناسخاً لفعالهم،
وكان نهي الله تبارك وتعالى رحمةً منه للمؤمنين ونظراً، لكيلا يضرّوا بأنفسهم
وبعيالاتهم، منهم الضعفة الصغار، والولدان، والشيخ الفاني، والعجوزة الكبيرة، الذين
لا يصبرون على الجوع؛ فإن تصدّقت برغيفي ولا رغيف لي غيره ضاعوا وهلكوا
جوعاً.

فمن ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: خمس تمرات، أو خمسة أقراص، أو دنانير أو دراهم
يملكها الإنسان وهو يريد أن يمضيها، فأفضلها ما أنفقه الإنسان على والديه؛ ثمّ الثانية
على نفسه وعياله. ثمّ الثالثة على قرابته الفقراء؛ ثمّ الرابعة على جيرانه الفقراء. ثمّ

١. الحشر ٩.

٢. الإنسان ٨.

٣. أى فيها ناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه وأنتم لا تعرفون. مرآة العقول، ج ١٩، ص ٧.

٤. هذا لا ينافي ما ذكره عليه السلام في جواب الثوري، فإنه علّة شرعية الحكم أولاً ونسخه ثانياً (مرآة العقول).

الخامسة في سبيل الله، وهو أحسنها أجراً.

وقال عليه السلام للأَنْصَارِي - حين أعتق عند موته خمسة أو ستة من الرقيق لم يكن يملك غيرهم وله أولاد صفار -: لو أعلمتموني أمره ما تركتكم تدفونوه مع المسلمين، يترك صبية صفاراً يتكفون الناس!

ثم قال: حَدَّثَنِي أَبِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: ابدأ بمن تقول، الأدنى فالأدنى؛
ثم هذا مانطق به الكتاب ردّاً لقولكم، ونهياً عنه مفروضاً من الله العزيز الحكيم؛
قال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾^١.
أفلا ترون أَنَّ الله تبارك وتعالى قال غير ما أراكم تدعون الناس إليه من الإثرة على أنفسهم؛

وسمى من فعل ما تدعون (الناس) إليه مسرفاً،

وفي غير آية من كتاب الله يقول: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^٢.

فنهاهم عن الإسراف، ونهاهم عن التقتير، ولكن أمر بين الأمرين، لا يعطي جميع ما عنده، ثم يدعو الله أن يرزقه فلا يستجيب له؛ للحديث الذي جاء عن النبي ﷺ: إِنَّ أَصْنَافاً مِنْ أُمَّتِي لَا يَسْتَجَابُ لَهُمْ دَعَاؤُهُمْ: رَجُلٌ يَدْعُو عَلَى وَالِدَيْهِ؛ وَرَجُلٌ يَدْعُو عَلَى غَرِيمٍ ذَهَبَ لَهُ بِمَالٍ، فَلَمْ يَكْتُبْ عَلَيْهِ، وَلَمْ يُشْهَدْ عَلَيْهِ؛ وَرَجُلٌ يَدْعُو عَلَى امْرَأَتِهِ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ تَخْلِيَةَ سَبِيلِهَا بِيَدِهِ؛ وَرَجُلٌ يَقْعُدُ فِي بَيْتِهِ وَيَقُولُ: «رَبِّ ارْزُقْنِي وَلَا يَخْرُجْ، وَلَا يَطْلُبُ الرِّزْقَ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ»: «عَبْدِي أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ السَّبِيلَ إِلَى الطَّلَبِ وَالضَّرْبَ فِي الْأَرْضِ بِجَوَارِحٍ صَحِيحَةٍ، فَتَكُونُ قَدْ أَعْذَرْتَ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ فِي الطَّلَبِ لِاتِّبَاعِ أَمْرِي، وَلَكِي لَا تَكُونَ كَلًّا عَلَى أَهْلِكَ فَإِنْ شِئْتَ رِزْقَكَ، وَإِنْ شِئْتَ قَتَرْتَ عَلَيْكَ، وَأَنْتَ (غَيْر) مَعْذُورٌ عِنْدِي؛

١. الفرقان / ٦٧.

٢. الأنعام / ١٤١.

ورجل رزقه الله عز وجلّ مالاً كثيراً فأنفقه، ثم أقبل يدعو ياربّ ارزقني، فيقول الله عز وجلّ: ألم أرزقك رزقاً واسعاً؟ فهلاً اقتصدت فيه كما أمرتك، ولم تسرف وقد نهيتك عن الإسراف؛ ورجل يدعو في قطيعة رحم؛

ثم علّم الله جلّ اسمه نبيّه ﷺ كيف ينفق، وذلك أنّه كانت عنده أوقية من الذهب، فكره أن تببّ عنده، فتصدّق بها، فأصبح وليس عنده شيء، وجاء من يسأله، فلم يكن عنده ما يعطيه، فلامه السائل، واغتمّ هو حيث لم يكن عنده ما يعطيه، وكان رحيماً رقيقاً؛ فأدّب الله عز وجلّ نبيّه ﷺ بأمره، فقال:

﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط فتقعد ملوماً محسوراً﴾^١.

يقول: إنّ الناس قد يسألونك ولا يعذرونك، فإذا أعطيت جميع ما عندك من المال كنت قد حسرت^٢ من المال.

فهذه أحاديث رسول الله ﷺ يصدّقها الكتاب، والكتاب يصدّقه أهله من المؤمنين.

وقال أبو بكر عند موته حيث قيل له: أوص، فقال: أوصي بالخمس، والخمس كثير، فإنّ الله جلّ وعزّ قد رضي بالخمس، فأوصى بالخمس.

وقد جعل الله عز وجلّ له الثلث عند موته، ولو علم أنّ الثلث خير له أوصى به.

ثم «من قد علمتم بعده في فضله وزهده: سلمان رضي الله عنه، وأبوذر رضي الله عنه»:

فأمّا سلمان، فكان إذا أخذ عطاءه رفع منه قوته لسنّته، حتّى يحضر عطاؤه من قابل، فقليل له:

١. الإسراء / ٢٩.

٢. «حسرت: على بناء المجهول من الحسر بمعنى الكشف، أي مكشوفاً عارياً من المال، أو من، الحسور وهو الانقطاع، يقال: حسره السفر إذا قطع به؛ وعلى التقديرين تفسير لقوله تعالى محسوراً».

يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ! أنت في زهدك تصنع هذا؟ وأنت لاتدري لعلك تموت اليوم أو غداً؟ فكان جوابه أن قال: ما لكم لاترجون لي البقاء، كما خفتم عليّ الفناء؟ أما علمتم يا جهلة أنّ النفس قد تلتاث^١ على صاحبها إذا لم يكن (لها) من العيش ما تعتمد عليه، فإذا هي أحرزت معيشتها اطمأنت.

وأما أبو ذرٍّ عليه السلام فكانت له نويقات وشويهات يحلبها ويذبح منها إذا اشتهى أهله اللحم، أو نزل به ضيف، أو رأى بأهل الماء الذين هم معه خصاصة نحر لهم الجوزور، أو من الشياه على قدر ما يذهب عنهم بقرم^٢ اللحم، فيقسمه بينهم، ويأخذ هو كنصيب واحد منهم، لا يتفضّل عليهم؛

ومن أزهد (من) هؤلاء؟ وقد قال فيهم رسول الله ﷺ ما قال، ولم يبلغ من أمرهما أن صار ألا يملكان شيئاً البتّة، كما تأمرون الناس بالقاء أمتعتهم وشيئهم، ويؤثرون به على أنفسهم وعيالاتهم؛

واعلموا أيّها النفر أنّي سمعت أبي يروي، عن آباءه عليه السلام أنّ رسول الله ﷺ قال يوماً: ما عجبت من شيء كمجبي من المؤمن، أنّه إن قرض جسده في دار الدنيا بالمقاريض كان خيراً له، وإن ملك ما بين مشارق الأرض ومغاربها كان خيراً له، وكلّ ما يصنع الله عزّ وجلّ به فهو خير له.

فليت شعري هل يحيق فيكم ما قد شرحت لكم منذ اليوم (أم) أزيدكم؛ أما علمتم أنّ الله عزّ وجلّ قد فرض على المؤمنين في أوّل الأمر أن يقاتل الرجل منهم عشرة من المشركين^٣ ليس له أن يولّي وجهه عنهم، ومن ولّاهم يومئذ دبره فقد تبوأ مقعده من النار، ثمّ حوّلهم عن حالهم رحمة منه لهم، فصار الرجل منهم عليه أن

١. «اللتياث: الاختلاط والالتفاف والإبطاء»؛

٢. «القرم، محرّكة: شهوة اللحم» منه ره.

٣. قال تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُونَ مِائَتِينَ﴾. الأنفال / ١٥.

يقاتل رجلين من المشركين^١ تخفيفاً من الله عز وجل للمؤمنين فنسخ الرجلان العشرة.

وأخبروني أيضاً عن القضاة، أجوزة هم حيث يقضون على الرجل منكم نفقة إمرأته إذا قال: إني زاهد، وإني لاشيء لي؟

فإن قلت جورة، ظلمكم^٢ أهل الإسلام، وإن قلت بل عدول، خصمتم أنفسكم؛ وحيث يردون^٣ صدقة من تصدق على المساكين عند الموت بأكثر من الثلث؛ أخبروني - لو كان الناس كلهم كالذين تريدون زهاداً لا حاجة لهم في متاع غيرهم

فعلى من كان يتصدق بكفارات الأيمان والنذور والصدقات، من فرض الزكاة من الذهب والفضة والتمر والزبيب، وسائر ماوجب فيه الزكاة من الإبل والبقر والغنم وغير ذلك؟ إذا كان الأمر كما تقولون لا ينبغي لأحد أن يحبس شيئاً من عرض الدنيا إلا قدمه، وإن كان به خصاصة، فبئس مذهبتم فيه، وحملتكم الناس عليه:

من الجهل بكتاب الله عز وجل، وسنة نبيه ﷺ وأحاديثه التي يصدقها الكتاب المنزل، وردكم (إياها) بجهالتكم، وترككم النظر في غرائب القرآن من التفسير بالناسخ من المنسوخ، والمحكم والمتشابه، والأمر والنهي.

وأخبروني أين أنتم عن سليمان بن داود عليه السلام؟

حيث سأل الله ملكاً لا ينبغي لأحد (من) بعده؟ فأعطاه الله عز وجل اسمه ذلك، وكان يقول الحق ويعمل به، ثم لم نجد الله عز وجل عاب عليه ذلك، ولا أحداً من المؤمنين؛ وداود النبي عليه السلام قبله في ملكه وشدة سلطانه، ثم يوسف النبي عليه السلام صلوات الله

١. إشارة إلى «وعلم فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين...» الأنفال / ٦٦.

٢. «قوله ﷺ: ظلمكم، على بناء التفعيل: أي نسبوكم إلى الظلم».

٣. «قوله ﷺ: حيث يردون، معطوف على قوله حيث يقضون» منه ره.

٤. كان الترتيب بينه وبين سليمان ومن قبله داود بحسب درجة الوضوح دون الزمان، وإلا كان يوسف متقدماً على

عليه حيث قال لملك مصر:

﴿اجعلني على خزائن الأرض إني خفيظ عليكم﴾^١ فكان - من أمره الذي كان - أن اختار مملكة الملك وما حولها إلى اليمن، وكانوا يمتارون الطعام من عنده لمجاعة أصابتهم؛

وكان يقول الحقّ ويعمل به، فلم نجد أحداً عاب ذلك عليه. ثمّ ذوالقرنين عليه السلام عبد أحبّ الله فأحبّه الله (و) طوى له الأسباب، وملكه مشارق الأرض ومغاربها، وكان يقول الحقّ ويعمل به، ثمّ لم نجد أحداً عاب ذلك عليه. فتأذّبوا أنّها نفر بآداب الله عزّ وجلّ للمؤمنين، واقتصروا على أمر الله ونهيه؛ ودعوا عنكم ما اشتبه عليكم ممّا لا علم لكم به، وردّوا العلم إلى أهله، تؤجروا وتعذروا عند الله تبارك وتعالى، وكونوا في طلب علم ناسخ القرآن من منسوخه، ومحكمه من متشابهه، وما أحلّ الله فيه ممّا حرم، فإنّه أقرب لكم من الله، وأبعد لكم من الجهل؛

ودعوا الجهالة لأهلها، فإنّ أهل الجهل كثير، وأهل العلم قليل، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿وفوق كلّ ذي علم عليم﴾

الخاص

□ تنوع النشاط الفكري للإمام الصادق عليه السلام بين مواجهة التيارات الإلحادية وغير الإلحادية مما كان منتشرًا في عصره. وهذا التنوع في النشاط يشير إلى وجود حرية الرأي في عصره كما يشير إلى الانفتاح على الحضارات الأخرى فكرياً وثقافياً، ويشير أيضاً إلى وجود ردود فعل عند بعض المسلمين حيث أخذوا يبحثون عن ثقافات وأسس أخرى غريبة عن الثقافة الإسلامية. ولاحظنا أيضاً كيف اختلف المسلمون وتوزعوا إلى فرق عقائدية وغير عقائدية شتى.

□ ولاحظنا أيضاً أن أهم ظاهرتين هاجمها الإمام عليه السلام هما ظاهرة الغلو وظاهرة القياس والرأي الذي يؤدي إلى مسخ الشريعة كما يؤدي الغلو إلى مسخ أسس العقيدة.

الأسئلة

١. ما هي التيارات التي واجهها الإمام عليه السلام في عصره؟
٢. كيف تصنف هذه التيارات؟
٣. ما هي أهم التيارات التي كانت مواجهة الإمام عليه السلام لها شديدة وعنيفة؟
٤. ما هي دلالة وجود التيارات العديدة في عصر الإمام عليه السلام؟
٥. ما هي العلاقة بين الانحرافات السياسية والانحرافات العقائدية؟

متطلبات عصر الإمام الصادق عليه السلام (٢)

الإمام الصادق عليه السلام وبناء جامعة أهل البيت عليه السلام

لقد واصل الإمام الصادق عليه السلام تطويره للمدرسة التي أسسها آباؤه الطاهرون عليه السلام من قبله وانتقل بها إلى آفاقٍ أرحب فاستقطبت الجماهير من مختلف البلاد الإسلامية لأنها استطاعت أن تُلبّي رغباتهم وحاولت ملء الفراغ الذي كانت تعانيه الأمة آنذاك، حيث جاءت الجامعة ومع حضور ثقل الإمام عليه السلام فيها عاملاً أساسياً في التخلص من الاضطراب الفكري في تلك المرحلة.

مميزات جامعة الإمام الصادق عليه السلام

١ . ممّا يميّز مدرسة الإمام الصادق عليه السلام عن باقي المدارس أنّها لم تنغلق في المعرفة على خصوص العناصر الموالية فحسب؛ وإنما انفتحت لتضمّ طلاب العلم من مختلف الاتجاهات، فهذا أبوحنيفة الذي كان يخالف الإمام عليه السلام في منهجه، -باعتباره قد سلك في القياس مسلكاً استوجب شدة الإنكار عليه وعلى أصحابه وهو الذي أطلق على مؤمن الطاق (أحد أصحاب الإمام الصادق ومعتمديه) اسم شيطان الطاق- كان ممن يختلف إلى الإمام الصادق عليه السلام ويسأله عن كثير من المسائل، وقد روى عن الإمام الصادق عليه السلام وحّدث عنه واتصل به في المدينة مدّة من الزمن، كما أنّه كان قد

ناصر زيد بن علي عليه السلام وساهم في الدعوة إلى الثورة والخروج معه وكان يقول: ضاهي خروج زيد خروج رسول الله يوم بدر^١.

٢. ولم يقتصر علم الإمام عليه السلام على حقل واحد - كالفقه أو الكلام مثلاً ليكون سبباً لمخاطبة وجذب فئة محدوده من الناس - وإنما تناولت جامعته العلمية مجموعة العلوم الدينية وغير الدينية وتربى فيها كبار العلماء في مختلف فروع المعرفة الإسلامية والبشرية بحيث نجد الحضارة الإنسانية أصبحت مدينة إلى علوم الإمام ومعارفه ومنهجه التعليمي والمعرفي.

والعلوم التي تناولتها جامعة الإمام عليه السلام بالبحث والتدريس هي علم الفلك، والطب، والحيوان، والنبات، والكيمياء، والفيزياء، فضلاً عن الفقه والأصول والكلام والفلسفة وعلم النفس والتربية والأخلاق والأصول والمنطق.

٣. لم تتلوث جامعة الإمام عليه السلام بسياسة الحكومات الجائرة. فلم تكن موضع شبهة وكراهية من الناس ليتصور أن المدرسة ماهي إلا أداة لخدمة الحكام كما يلاحظ في بعض المدارس المعاصرة لها، بل قد رأت الأمة أن هذه المدرسة على رأسها وريث النبوة وعملاق الفكر المحمدي الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام المعروف بمواقفه الرسالية واستقامته على خط الشريعة الربانية المحمدية وقد لقب بالصادق لصدقه وعدم مساومته وعدم خضوعه لسياسة الحكام المنحرفين، من هنا كانت جامعة الإمام عليه السلام تعتبر حصناً سياسياً وفكرياً يلوذ به طلاب الحقيقة.

٤. كما تميّزت أيضاً جامعة الإمام عليه السلام بمنهجها العلمي السليم وعمقها الفكري واتجاهها العقائدي التربوي والإصلاحي، ولم تكف أطروحتها في الإعداد العلمي الاعتماد على حشو الذهن بالمعلومات فقط، وإنما خرجت هذه الجامعة شخصيات كبرى ونماذج مثلى عرفت بالعطاء السخي للأمة.. بحيث أصبح الانتماء إلى مدرسة

الإمام وجامعته يعدّ من المفاخر، فقد وصل عدد طلابها إلى أربعة آلاف طالب علم، واتسعت فيما بعد لتشكّل عدة فروع لها في الكوفة والبصرة، وقم، ومصر.

٥ . والجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام لم يجعل من الجامعة والجهد المبذول فيها نشاطاً منفصلاً عن حركته وأنشطته الأخرى، بل كانت جزءاً لا ينفصل عن برنامجه التغييري لأنّها بالتأكيد كانت تساهم في خلق مناخ يمهد بدوره لبناء الفرد الصالح ومن ثمّ المجتمع الصالح؛ لأنّ هذه الجامعة تشكّل امتداداً واعياً للخط الرسالي في وسط الأمة، ونشاط الإمام عليه السلام وإن تعدّد لكنه نشاط مترابط ومتداخل حيث نجد الكادر العلمي الحاضر في مدرسة الإمام عليه السلام هو الذي يحضر في نشاطات الإمام الخاصة وبعض نشاطاته العامة.

٦ . لقد حرص الإمام الصادق عليه السلام في هذه الفترة أن يحقق من خلال مدرسته إنجازاً في خصوص تدوين الحديث والحفاظ على مضمونه، بعد أن كان قد تعرّض في وقت سابق للضياع والتحريف والتوظيف السياسي، بعد المنع من تدوينه. والأئمة المعصومون عليهم السلام لم يستجيبوا لقرار المنع ضياع الحديث ونسيانه.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: إنّ عندنا ما لا نحتاج معه إلى الناس وأنّ الناس ليجتاجون إلينا وأنّ عندنا كتاباً يأملاء رسول الله ﷺ وخط علي عليه السلام صحيفة فيها كلّ حلال وحرام...).

وجاء عنه عليه السلام (أنه قال: علّمنا غابر، ومزبور ونكث في القلوب ونقر في الأسماع وإنّ عندنا الجفر الأحمر، والجفر الأبيض، ومصحف فاطمة وإنّ عندنا الجامعة فيها جميع ما يحتاج الناس إليه...)^١ والجفر كانوا يكتمونونه عن غيرهم.

٧ . وكان عليه السلام يأمر طلابه ويؤكد لهم ضرورة التدوين والكتابة كما نجد ذلك في

١ . المناقب لابن شهر آشوب. ص ٣٩٦ و بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٢٦ وفي الإرشاد، ص ٣٠٧ والاحتجاج، ج ٢.

ص ١٣٤ و زادوا فيه: فسنل عن تفسير هذا الكلام فقال أما لا قابر فالعلم بما يكون.

قوله عليه السلام: (إحتفظوا بكتبكم فإنكم سوف تحتاجون إليها).

وكان عليه السلام يشير إلى نشاط وزارة في مجالى الحديث ويقول: رحم الله وزارة بن أعين لولا وزارة لاندurst أحاديث أبي.

وقال عن وزارة وجماعة من أصحابه: لولا هؤلاء ماكان أحد يستنبط هذا الفقه، هؤلاء حقاظ الدين وأمناء أبي عليه السلام على حلاله وحرامه وهم السابقون إلينا في الدنيا والآخرة^١.

وكان يأمر طلابه أيضاً بالتدارس والمباحثة حيث يقول للمفضل بن عمر: اكتب وبث علمك في إخوانك، فإن مت فأورث كتبك بنيك، فإنه يأتي على الناس زمان حرج لا يأنسون فيه إلا بكتبهم^٢.

وعلى هذا الأساس اهتم أصحابه بكتابة الأحاديث وتدوينها حتى تألفت واجتمعت الأصول الأربعمئة المعروفة^٣. والتي شكّلت المجاميع الحديثية الاولى عند الشيعة الإمامية.

٨. اعتنى الإمام عليه السلام بالتخصّص العلمي في تلك المرحلة لأنّ للاختصاص دوراً كبيراً في إنماء الفكر الإسلامي وتطويره، بحيث يكون قادراً على استيعاب الطاقات الكثيرة الوافدة على مدرسة الإمام عليه السلام من سائر انحاء العالم الإسلامي، وبالتخصّص تنوع العطاءات، ويكون الإبداع وعمق الانتاج، لذا وجّه الإمام التخصّص العلمي، وتصدّى للإشراف على كلّ تلك التخصصات.

ففي الفلسفة وعلم الكلام ومباحث الإمامة تخصص كلّ من هشام بن الحكم وهشام بن سالم، ومؤمن الطاق، ومحمد بن عبدالله الطيار، وقيس الماهر. وغيرهم.

١. وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٥٩-٥٧.

٢. أصول الكافي، ج ١، ص ٥٢.

٣. وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٥٩-٥٧.

وفي الفقه وأصوله وتفسير القرآن الكريم تخصص كل من: زرارة بن أعين، ومحمد بن مسلم، وجميل بن دراج، وبريد بن معاوية، وإسحاق بن عمار وعبدالله الحلبي، وأبوبصير، وأبان بن تغلب والفضيل بن يسار، وأبوحنيفة، ومالك بن أنس، ومحمد بن الحسن الشيباني، وسفيان بن عيينة ويحيى بن سعيد، وسفيان الثوري.

كما تخصص في الكيمياء جابر بن حيان الكوفي.

وتخصص في حكمة الوجود المفضل بن عمر الذي أملى عليه الإمام الصادق عليه السلام كتابه الشهير المعروف (بتوحيد المفضل).

٩. ونشط طلاب الإمام عليه السلام في نتاجاتهم، كل حسب اختصاصه في التأليف والمناظرة، فقد جمع السيد حسن الصدر أسماء مؤلفات الشيعة في هذه الفترة وذكر أنها وصلت إلى ستة آلاف وستمئة كتاب^١.

كما برز في المناظرة هشام بن الحكم، وكان الإمام الصادق عليه السلام مسروراً بمناظرات هشام ويحب أن يسمع مناظراته مع زعيم المعتزلة عمرو بن عبيد الذي تغلب عليه وبعد أن قصها هشام للإمام عليه السلام قال له الإمام: «يا هشام من علمك هذا؟ قال: يا ابن رسول الله جرى على لساني.. قال الإمام هذا والله مكتوب في صحف إبراهيم وموسى^٢.

١٠. ومن الأهداف التي خطط لها الإمام عليه السلام في مدرسته هو إنشاء وتنشيط حركة الاجتهاد وتخريج الفقهاء والمجتهدين في علوم الشريعة الإسلامية.

والاجتهاد ضرورة قرآنية التزم بها أهل البيت عليه السلام وعملوا على تحقيقه لأتباعهم لنألا يكونوا أتباعاً لغيرهم وليكونوا القدوة المثلى في كل عصر.

والاجتهاد المشروع هو: طريق الاستنباط الصحيح للحكم الواقعي أو الظاهري كما

١. تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، ص ٢٨٨.

٢. راجع الاحتجاج تجد كامل المناظرة، ج ٢، ص ١٢٥-١٢٨.

رسمه أهل البيت عليهم السلام. وقد تميّزت روايات أهل البيت عن روايات غيرهم كما أفصح عن هذه الحقيقة الإمام الصادق عليه السلام في قوله: (حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث الحسين وحديث الحسين حديث الحسن وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وحديث رسول الله قول الله عز وجل) ^١ وقال عليه السلام (إنّا لو كنّا نفتي الناس برأينا وهوانا لكنّا من الهالكين ولكنّها آثار من رسول الله صلى الله عليه وآله أصل علم نتوارثها كابر عن كابر، نكتنّزها كما يكتنّز الناس ذهبهم وفضّتهم) ^٢.

وعليه فالاجتهاد في مذهب أهل البيت عليهم السلام هو اجتهاد في دائرة النص الشرعي الواصل إلينا عن طريق أهل البيت عن الرسول صلى الله عليه وآله أو النص القرآني الذي لوحظت كلّ ملابساته ومن هنا رسم الإمام عليه السلام منهج الاجتهاد في فهم النص وحارب اجتهاد الرأي المتمثل في القياس والاستحسان كما حاربه القرآن وسائر أئمة أهل البيت عليهم السلام وحاولوا إبعاده عن الشريعة وإبعاد أتباعهم عنه، ومن هنا رسموا لنا معالم هذا الاجتهاد وخطوطه العريضة وبيّنوا أسسه وأساليبه ووقّروا وسائله وأدواته وطبّقوا منهجه ودعوا أصحابهم إليه وقَدّموا نماذج حيّة للمجتمع الإسلامي في هذا الصدد وهكذا انبثقت مدرسة الفقهاء الرواة التي اعتمدت منهج أهل البيت الفقهي والتشريعي، وتميّزت بذلك عن سائر المدارس الفقهية المتحرّرة من هذا المنهج أو الجامدة على ظواهر النصوص.

النشاط السياسي للإمام الصادق عليه السلام

استهدف الإمام عليه السلام لونين من الانحراف الأول: الانحراف السياسي المتمثل في انحراف الحاكمين، والثاني: الانحراف السياسي الفكري الناشيء من فقدان الفكر

١. أصول الكافي، ص ٥٣-٥٨.

٢. بصائر الدرجات، ص ٢٩٩.

والوعي السياسي السليم.

ولهذا ركّز الإمام عليه السلام على مايلي:

أولاً: التثقيف على عدم شرعية الحكومات الجائرة والتي ليس لها رصيد شرعي ورتّب على ذلك تحريم الرجوع إليها لحلّ النزاعات والخصومات كما ورد عنه قوله عليه السلام: (إياكم أن يحاكم بعضكم بعضاً إلى أهل الجور، ولكن انظروا إلى رجل منكم يعلم شيئاً من قضايانا فاجعلوه بينكم فإنّي قد جعلته قاضياً فتحاكموا إليه)^١. وقال أيضاً: «أيما مؤمن قدّم مؤمناً في خصومة إلى قاضي أو سلطان جائر فقضى عليه بغير حكم الله فقد شركه في الإثم»^٢.

وعن عمر بن حنظله قال: سألت أبا عبد الله عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في دين أو ميراث فتحاكما إلى السلطان أو إلى القضاء أيحل ذلك؟ فقال: من تحاكم إليهم في حق أو باطل فإنما تحاكم إلى طاغوت وما يحكم له فإنما يأخذ سحتاً وإن كان حقه ثابتاً، لأنّه أخذه بحكم الطاغوت، وقد أمر الله أن يكفر به، قال الله تعالى: يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به^٣. إذن فالرجوع إليهم يعتبر نوعاً من الإقرار بشرعيتهم ولهذا لا بد من مقاطعتهم والاستغناء عنهم، ومن هنا أيضاً كان التعاون معهم محرماً بطريق أولى.

فمن توصياته بهذا الصدد قوله عليه السلام: إنّ أعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار حتّى يحكم الله بين العباد^٤.

وقال عليه السلام لا تعينهم (أي حكام الجور) على بناء مسجد^٥ وقال عليه السلام لبعض أصحابه:

١. وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٤.

٢. وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٢.

٣. النساء / ٦٠؛ وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٣.

٤. وسائل الشيعة، ج ٦، ص ١٢٩.

٥. المصدر، ج ٦، ص ١٣٠.

«ياعذافر نبئت أنك تعامل أبأيوب والربيع فما حالك إذا نودي بك في أعوان الظلمة؟!»^١.

إن تفتيت الأسس التي يعتمد عليها الظالمون في حكمهم يعتبر عملاً سياسياً مهماً لزعزعة عرشهم والقضاء على الجور من خلال زعزعة أسس قوتهم وسيطرتهم.

قال علي بن حمزة: إني كان لي صديق من كتاب بني أمية فقال لي: استأذن لي على أبي عبد الله عليه السلام فاستأذنت له، فلما دخل سلم وجلس، ثم قال: جعلت فداك إني كنت في ديوان هؤلاء القوم فأصبت من دنياهم مالا كثيراً، وأغضت في مطالبه. فقال أبو عبد الله عليه السلام لو أن بني أمية لم يجدوا من يكتب لهم ويجبي لهم الفسيء^٢ ويقاتل عنهم، ويشهد جماعتهم، لما سلبونا حقنا، ولو تركهم الناس وما في أيديهم، ما وجدوا شيئاً إلا ما وقع في أيديهم. فقال الفتى: جعلت فداك فهل لي من مخرج منه؟ قال إن قلت لك تفعل؟ قال: أفعل، قال: أخرج من جميع ما كسبت في دواوينهم، فمن عرفت منهم رددت عليه ماله، ومن لم تعرف تصدقت به،^٣.

ثانياً: مارس الإمام عليه السلام الشقيف على الصيغة السياسية السليمة من خلال تبيان موقع الولاية المنصوب، واستخدم الخطاب القرآني في هذا المجال الذي حاولت فيه المدارس الفكرية الأخرى تجسيد النص بحدود الظاهر. فقد علّق عليه السلام على قوله تعالى: وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال: إني جاعلك للناس إماماً قال: ومن ذرتي قال: لا ينال عهدي الظالمين إن الله عز وجل اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً، وأن الله اتخذ نبياً قبل أن يتخذه رسولاً وإن الله اتخذ رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً وإن

١. المصدر، ج ٦، ص ١٢٨.

٢. الفبي: الخراج.

٣. المناقب لابن شهر آشوب، ج ٣، ص ٣٦٥ عن بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ١٣٨ وفي الكافي، ج ٥، ص ١٠٦، ح ٤

والتهديب، ج ٦، ص ٣٣١، ح ٤١، وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٤٤، ح ١.

الله اتخذهُ خليلاً قبل أن يتخذهُ إماماً، فلما جمع له الأشياء قال: إني جاعلك للناس إماماً.

قال عليه السلام فمن عظمها - أي الإمامة - في عين إبراهيم عليه السلام قال: ومن ذريتي؟ قال: لا ينال عهدي الظالمين، قال: لا يكون السفیه إمام التقى.

كما فسّر عليه السلام قوله تعالى: صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون^١ بأن الصبغة هي الإسلام^٢ وفي قول آخر عنه عليه السلام بأن الصبغة هي صبغ المؤمنين بالولاية - يعني الولاية لإمام الحق. الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في الميثاق^٣.

وعلق العلامة الطباطبائي على ذلك بقوله: وهو من باطن الآية^٤ كما نجده عليه السلام يتحدث عن الإمام أمير المؤمنين ويذكر الناس بحدث الغدير ذلك الحدث السياسي الخطير في حياة الأمة، يذكرهم به لئلا يتعرّض هذا الحدث للنسيان والإلغاء حتى قال: في حق علي عليه السلام: المدعو له بالولاية المثبت له الإمامة يوم غدير خم، يقول الرسول ﷺ: ألسنت أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى قال: فمن كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من ولاء وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله وأعن من أعانه^٥.

ثالثاً: قام عليه السلام بدعم الحركات المسلّحة وتوجيهها الوجهة الصحيحة ليحافظ على الروح الثوريّة ضد الباطل وليبقى الطغاة على وجلٍ من عاقبة طغيانهم من دون أن يتدخل بشكل مباشر في هذا الحقل كما لاحظنا ذلك في مواقفه من ثورتي زيد ويحيى.

١. البقرة / ١٢٦.

٢. تفسير القمي.

٣. الكافي والمعاني.

٤. الميزان، ج ١، ص ٣١٥.

٥. المعالم، ج ٣، ص ٢٧٠ - ٢٧١.

الخامس

□ كان عصر الإمام الصادق عليه السلام عهد الانفراج النسبي لمدرسة أهل البيت عليهم السلام مما أدى إلى وجود نوع من الحرّية لحركتهم العلميّة. وقد ارتفعت نسبة طلاب المعرفة الذين كانوا يقصدون الإمام للاعتراف من علومه، كما توسّعت مواد وفروع العلوم التي أفاضها الإمام عليه السلام على طلاب الحقيقة وتنوعت إلى المعارف العقليّة والشرعيّة والعلوم الطبيعيّة والعلوم الإنسانيّة.

□ وارتفعت نسبة التآليف ومحتويات التآليف. كما برزت ظاهرة حرّية الرأي والحوار والمناقشة والنقد حول قضايا المبدأ والمعاد والشرعية وفلسفة الأحكام وفروع الدين ومفاهيم الإسلام، واتجه أسلوب التعليم إلى البحث والاستقراء والتجربة بدل الحفظ والاستظهار فضلاً عن التعقل والاستدلال المنطقي الذي طفحت به حوارات الإمام عليه السلام.

□ وحارب الإمام عليه السلام بكلّ قوّة منهج الرأي الاستحساني وأكد على منهج الاجتهاد في فهم النص كما وضع الأسس العلميّة لتقعيد القواعد الأصوليّة والفقهيّة.

□ وتأسست بذلك المدرسة الفلسفيّة والكلاميّة الإسلاميّة في الحواضر الإسلاميّة. كما برزت الكوفة مركزاً لنشر علوم آل محمد.

□ وتمثل النشاط السياسي للإمام الصادق عليه السلام في نوعين من النشاط الإيجابي والسلبي حسب متطلبات المرحلة.

المسئلة

- ١ . ما هي عوامل تأسيس جامعة الإمام الصادق عليه السلام ؟
- ٢ . ما هي أهم ملامح جامعة الإمام الصادق عليه السلام ؟
- ٣ . ما هي الفروع العلمية التي تناولتها دراسات الإمام الصادق عليه السلام وبحوثه ؟
- ٤ . من هم أصحاب الاختصاص من تلامذة الإمام الصادق عليه السلام ؟
- ٥ . ما هي أهم خصائص المدرسة الفقهية للإمام الصادق عليه السلام ؟
- ٦ . ما هو النشاط الإيجابي السياسي للإمام الصادق عليه السلام ؟
- ٧ . ما هو النشاط السياسي السلبي للإمام الصادق عليه السلام ؟

متطلبات عصر الإمام الصادق عليه السلام (٣)

النظام العام للجماعة الصالحة (تكامل البناء والتأصيل)
عرفنا أن أهم ماركز عليه أئمة أهل البيت عليهم السلام لبناء المجتمع الصالح بعد رسول الله ﷺ هو بناء الجماعة الصالحة التي تستطيع أن تقوم بمهمة التغيير الحقيقي والتدريجي والعميق في أوساط المجتمع الإسلامي. ومن هنا كان بناء الفرد الصالح والجماعة الصالحة التي تحتضن هذا الفرد وتهيء الأجواء اللازمة لتنميته وتطويره هدفاً أساسياً للقيادة الربانية التي تسهر على تحقيق أهداف الرسالة في مجتمع مليء بالتناقضات والقيم التي تحتاج إلى هدم وبناء مستمرين.

إن عملية بناء هذه الجماعة الصالحة الفاعلة في المجتمع الإسلامي قد تمت بشكل تدريجي منذ عهد الرسول ﷺ وبدأت تتسع وتأصل وتكامل كلما اتسع الفاصل المعنوي والزمني بين الأمة والرسالة.

ويعتبر عصر الإمامين الباقر والصادق عليهم السلام هو عصر التأصيل النظري والتوسع الاجتماعي وتكامل البناء وتحديد المعالم وتشخيص الهوية لهذه الجماعة المتميزة بالفكر والعقيدة والقيم والسلوك.

وقد اعتنى أهل البيت عليهم السلام ولا سيما الإمامان الصادقان عليهم السلام منهم بشكل خاص بتحديد هذه الهوية.

١. الهوية ومشخصاتها

الأول: الاسم. أطلق الإمام الباقر والصادق عليهما السلام عدة أسماء لتشخيص هوية الجماعة الصالحة وفرزها وتمييزها عن غيرها ومنها.

١. شيعة عليّ ٢. شيعة فاطمة ٣. شيعة آل محمد ٤. شيعة ولد فاطمة ولهذا الاسم جذر تاريخي وقرآني ورد في قوله تعالى: (وإنّ من شيعة لإبراهيم) ١. وروى أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: نحن أهل بيت الرحمة وبيت النعمة وبيت البركة ونحن بنيان الأرض وشيعتنا عرئ الإسلام... ٢

وأقرّ عليه السلام إسم الرافضة على الجماعة الصالحة بعد أن ستّاهم به أتباع السلطان فحينما شكّا إليه بعض أصحابه عن هذه التسمية قال له: (وأنا من الرافضة) قالها ثلاثاً ٣. وعن أبي بصير، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: جعلت فداك إسم سُمينا به، استحلّت به الولاية دماءنا وأموالنا وعذابنا قال: وما هو؟ قال: الرافضة، فقال أبو جعفر عليه السلام: إنّ سبعين رجلاً من عسكر فرعون رفضوا فرعون فأتوا موسى عليه السلام، فلم يكن في قوم موسى عليه السلام أشدّ اجتهاداً ولا أشدّ حبّاً لهارون منهم، فسّّاهم قوم موسى الرافضة، فأوحى الله إلى موسى: أن تبتّ لهم هذا الإسم في التوراة، فإنّي قد نحلّتهم، وذلك اسم قد نحلّكموه الله ٤.

الثاني: الصفات، أطلق أهل البيت عليهم السلام عدة صفات قرآنية على شيعتهم مثل الصالحون (وأولو الأبواب) وأولياء الله والمصلّون وأصحاب اليمين وخير البرية. فعن أبي بصير قال الإمام الصادق عليه السلام: قد ذكركم الله تعالى بقوله: أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصّديقين والشهداء والصّالحين... نحن الصديقون والشهداء

١. الصافات / ٨٣.

٢. بحار الأنوار، ج ٦٥، ص ٣٥، الحديث ٧٥.

٣. المحاسن، ص ١٥٧.

٤. المحاسن، ص ١٥٧.

وأنتم الصالحون أنتم والله شيعتنا^١.

وعن أبي بصير أيضاً، قال الصادق عليه السلام: لقد ذكركم الله في كتابه حيث يقول: هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب فنحن الذين نعلم وأعداؤنا الذين لا يعلمون وشيعتنا أولو الألباب^٢.

الثالث: الانتماء إلى الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليه السلام.

أكد أهل البيت عليه السلام انتماء شيعتهم إليهم وإلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهذا الانتماء الفكري والروحي والاتباع العملي هو الذي يعطيهم الرفعة والمكانة السامية في الدنيا والآخرة.

فمن عمر بن يزيد أنه قال له الإمام الصادق عليه السلام: يابن يزيد أنت والله منا أهل البيت. قلت: جعلت فداك من آل محمد؟ قال: إي والله من أنفسهم ياعمر. أما تقرأ كتاب الله عز وجل: إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين. وما تقرأ قول الله عز اسمه: فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم؟!^٣

الرابع: منزلة الجماعة الصالحة وأما المكانة السامية لأتباع أهل البيت عليه السلام في الدنيا والآخرة فقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: إن الله عز وجل أعطى للمؤمن ثلاث خصال: العز في الدنيا والدين، والفُلج (النصر والفوز) في الآخرة والمهابة في صدور العالمين^٤.

وعن أبي بصير عن الإمام الصادق عليه السلام: والله ما بعدنا غيركم، وإنكم معنا في السنام

١. بحار الأنوار، ج ٢٧، ص ١٢٤ و ٧٢ و ١٢٩، الحديث ١٤٣ وج ٦٥، ص ٢٩، ح ٥٨ و ٩٦ و ٥٩.

٢. بحار الأنوار، ج ٢٧، ص ١٢٥.

٣. بحار الأنوار، ج ٦٥، ص ٢٠، ب ١٥، ح ٣٢.

٤. المصدر السابق، ج ٦٥، ص ١٦.

الأعلى، فتنافسوا في الدرجات^١.

٢. المرجعية الدينية (الفكرية والسياسية)

إن الملاكات الأساسية التي جعلت الأنبياء والائمة عليهم السلام قادة فكريين وسياسيين وحاجة المجتمع البشري إلى القيادة الربانية على طول خط المسيرة التكاملية نحو الله سبحانه وتعالى هي التي جعلت الأئمة من أهل البيت عليهم السلام يخططون - على هدي الكتاب الألهي - لنظام المرجعية الدينية لأتباعهم وذلك بتنصيب المجتهد الجامع لشرائط الإفتاء والقضاء والحكم مرجعاً فكرياً وسياسياً يحكم فيهم على أساس شريعة الله الخالدة وقيمها الربانية، واعتباره امتداداً لإمامتهم المشروعة. وبدأوا بالعمل على طرحه وتطبيقه في حياتهم وحضورهم ليركز وتستقر دعائمه وتتضح معالمه من خلال الممارسة والتطبيق في نطاق أتباعهم، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في باب اختيار القاضي في المتخاصمين - بعد تحريم الرجوع إلى قضاة الحكومة الجائرة - أنهما: ينظران من كان منكم ممن روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا فليرضوا به حكماً^٢.

وروى الإمام الباقر عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: اللهم ارحم خلفائي - ثلاثاً. وحين سُئل عنهم قال: الذين يأتون بعدي يروون حديثي وسنتي^٣.

وبدأ الطرح النظري والتطبيق العملي لهذا الأصل المميز لنظام الجماعة الصالحة في عصر الصادقين عليه السلام. واستمر التأصيل النظري والتطبيق العملي حتى نهاية الغيبة الصغرى حتى أصبح لأتباع أهل البيت نظام متكامل ووجود مستقل ضمن المجتمع

١. المصدر السابق، ج ٦٥، ص ٢٧.

٢. وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ١٩، ح ١.

٣. المصدر السابق، حديث ٧.

الإسلامي الواسع مما جعلهم قادرين على مواجهة عمليات التصفية والتميع والإبادة على طول الخط بالرغم من غياب القيادة المعصومة المتمثلة في الإمام المهدي المنتظر عجل الله تعال فرجه الشريف.

٣. العلاقات في نظام الجماعة الصالحة

للجماعة الصالحة قاعدة وطلیعة وقيادة تتمثل في الإمام المعصوم حين حضوره أو في المرجع الديني النائب عنه عند غيابه، والطلیعة هي المجموعة المخلصة ذات البصيرة والوعي الكامل بشؤون القائد وحلقة الوصل بين القاعدة والقيادة من جهة وبين القيادة والقاعدة من جهة أخرى.

على أَنَّ الأئمة عليهم السلام لهم اتصال مباشر بقواعدهم من خلال زياراتهم العامة والخاصة.

وقد أكد الإمامان الباقر والصادق عليهما السلام على ضرورة لقاء الإمام واعتباره من تمام الحج فقد ورد عن الباقر عليه السلام أَنَّهُ قال: إِنَّمَا أمر الناس أن يأتوا هذه الأحجار فيطوفوا بها ثُمَّ يأتونا فيخبرونا بولايتهم ويعرضوا علينا نصرهم^١.

كما ورد عن الصادق عليه السلام أن تفسير قوله تعالى: (ليقضوا تفثهم) هو لقاء الإمام عليه السلام^٢.

بل نجد الإمام يترقب زيارة شيعته وينتظرها بفارغ الصبر بقوله: واللَّهِ إِنِّي لأَحِبُّ رِيحَكُمْ وَأَرْوَاحَكُمْ وَرُؤْيَيْكُمْ وَزِيَارَتَكُمْ وَأَنِّي لَعَلِّي دِينَ اللَّهِ وَدِينَ مَلَائِكَتِهِ فَأَعِينُوا عَلَى ذَلِكَ بَوْرِعَ، أَنَا فِي الْمَدِينَةِ بِمَنْزِلَةِ الشَّعْرَةِ، أَتَقَلِّقُ حَتَّى أَرَى الرَّجُلَ مِنْكُمْ فَأُسْتَرِيحُ إِلَيْهِ^٣.

وتقوم الطليعة (الوكلاء) بدور بيان الأحكام الشرعية والمواقف السياسية

١. الكافي، ج ٤، ص ٥٤٩، ح ١.

٢. المصدر نفسه.

٣. المحاسن، ج ١، ص ٢٦٤، ح ١٠.

والاجتماعية والتوجيهات والنصائح الأخلاقية أو استلام الحقوق الشرعية أو فصل النزاعات أو تولي الأوقاف وغيرها من الأمور الحسبية^١.

وقد شخّص أهل البيت عليه السلام مضمون العلاقة بين أفراد الجماعة الصالحة وبينوا حقوقها وشكلها. بعد بيان أسسها وقواعدها وتفاصيل البناء الفوقي لها. أمّا مضمون هذه العلاقة فهو الحب في الله والبغض في الله تعالى^٢.

وأما حقوق هذه العلاقة فهي التناصر والتكافل الاجتماعي بكل أبعاده ومستوياته، فقد ورد أن الصادق عليه السلام قال لسدير: لاتزال شيعتنا مرعّين محفوظين مستورين معصومين ما أحسنوا النظر لأنفسهم فيما بينهم وبين خالقهم، وصحّت نياتهم لأئمتهم وبرّوا إخوانهم فعطفوا على ضعيفهم وتصدقوا على ذوي الفاقة منهم^٣...

وأما شكل هذه العلاقة فهي التزاور وعقد الاجتماعات والتحدث في مختلف الشؤون والتي منها إحياء أمر أهل البيت عليه السلام^٤ فضلاً عن الاجتماعات الخاصة مثل تشييع الجنائز وقضاء حوائج الإخوان والتحابب والتواصل.

وقد فصل أهل البيت عليه السلام أيضاً نوع العلاقة فيما بين الجماعة الصالحة وسائر المسلمين وفيما بينهم وبين غير المسلمين أيضاً، وهي علاقة التعايش مع الانفتاح والبراءة من أعدائهم مع التقيّة والمقاطعة مع الكفّار والظالمين وأهل البدع والضلال^٥.

٤. الاتجاه السياسي للجماعة الصالحة

لا ريب أن الإسلام نظام كامل للحياة، فهو يأخذ الواقع بكل أبعاده ليعالج مشكلاته

١. راجع دور أهل البيت في بناء الجماعة الصالحة، ج ١، ص ٢٥٦-٢٥٨.

٢. المصدر، ج ١، ص ٢٥٩-٢٦١.

٣. المحاسن، ج ١، ص ٢٥٨، ح ٤٩٢.

٤. وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٢٠، ح ١.

٥. ورد أهل البيت، ج ١، ص ٢٦٩-٢٦٩ و ٤٩٥-٥١٦.

في ضوء الهدى الإلهي وذلك ليكون الانسان في كل سيرته تحت رعاية ربّانية تربي من خلالها شخصيته وتزّن دون انفصام أو ازدواجية.

ومنهج أهل البيت عليهم السلام هو منهج الإسلام الكامل، فلا بدّ للأئمة عليهم السلام أن يرسموا لأتباعهم الاتجاه السياسي الصحيح ويحدّدوا لهم المنطلقات السياسيّة والخطوط العريضة في التحرك على أرض الواقع.

وتراث أهل البيت عليهم السلام وتأريخهم يشير بوضوح إلى الاتجاه التغييري في حركتهم السياسيّة؛ إذ لم تكن حركتهم مجرد ردّة فعل للواقع الفاسد كما كانت جملة من الشخصيات الإسلاميّة تستجيب لردود الفعل دون أن تنظر إلى جميع الأهداف الرساليّة وجميع المراحل التي تنتظرهم للوصول إليها.

وقد كان أهل البيت يؤيّدون بعض الحركات الإصلاحية ولكنهم لم يختاروا هذا الاتجاه لأنفسهم لأنهم مأمورون بتغيير الواقع الفاسد من جذوره، ومن هنا كانوا يوازنون بين مصالح الإسلام العليا والمفاسد والانحرافات السائدة ويقدمون الأهم على المهم وقد يدفعون الأفسد بالصبر على الفاسد لئلا تبتعد الأئمة عن الواقع المطلوب نتيجةً لحركة انفعالية ذات آثار سلبية لا يمكن تفاديها.

وأما بالنسبة لأتباعهم فقد رسموا لهم منهج التحرك السياسي على أسس قويمة

هي:

أ. الإيمان المطلق بولاية أهل البيت عليهم السلام فالإمام منار للمهتدين وولايته سبب للنجاة وطاعته مفترضة في الحياة وعدّة بعد الممات...^١

وحب أهل البيت إيمان وبغضهم كفر^٢.

ب. والتبرؤ من أعدائهم - وهم أعداء الله - هو الأساس الآخر في التحرك. ومن

١. بحار الأنوار، ج ٢٥، ص ١٦٩ - ١٧٠، ح ٣٨.

٢. الكافي، ج ٢، ص ١٨، ح ٥.

هنا حُرِّمَ التعاون مع الأنظمة الظالمة وجبت مقاومتها.

ج . ولا بدّ من الموازنة بين المصالح والأولويات في الشريعة الإسلامية وتقديمها على المنافع والمصالح الخاصّة. وهذا هو أحد أبعاد (مبدأ التقية) كما سيأتي. ومن هذه المصالح مصلحة الحفاظ على وحدة المجتمع الإسلامي وتلاحم أجزائه.

د . والأمة لها الدور الكبير في عملية التغيير إذ لا يغير الله ما يقوم حتّى يغيروا ما بأنفسهم ومن هنا كان نشاط الأئمة عليهم السلام باتجاه تغيير الأمة اتّجاهاً واقعياً فلم يتحرّكوا لاستلام زمام الحكم بقدر ما كانوا يتحرّكون لتغيير فكر وسلوك وقيم الأمة باتجاه الواقع المطلوب.

هـ . والالتزام بأحكام الإسلام الثابتة وعدم تعديها وجعلها ميزاناً في التحرك والتورّع عن محارم الله في كلّ حال أساس ثابت لا يمكن التنازل عنه بحالٍ من الأحوال في منهج أهل البيت عليهم السلام لتغيير الواقع^١.

٥ . النظام الأمني للجماعة الصالحة

أولى الإمام عليه السلام إهتماماً خاصاً بالنظام الأمني للجماعة الصالحة، حفاظاً على سلامة أفرادها وكيانها من التصدّع وليبقى أفرادها أحراراً في حركتهم الإصلاحية والاحتياط والحذر الأمني له آثار إيجابية على سلامة العقيدة وسلامة الشريعة وسلامة القيم الإسلامية، فإنّ أيّ خلل في الوضع الأمني يؤدّي إلى سجن أو قتل أو تهجير من له تأثير إيجابي في الأمة، وبالتالي يكون خير فرصة للمنحرفين لنشر عقائدهم وخلق الاضطراب في العقول والقلوب والنفوس، بعد خلو الميدان من المصلحين.

والإهتمام بالنظام الأمني يضمن للجماعة الصالحة بقاء القيادة وهي الإمام المعصوم عليه السلام الذي يرشدهم ويوجههم ويربّيهم، ويعلمهم أحكام الدين وسبل الشريعة.

(للمطالعة)

وللنظام الأمني معالم ومظاهر يمكن تحديدها في النقاط التالية:

أ. التقية

التقية ظاهرة ذات آثار إيجابية على مسيرة الجماعة الصالحة دون عرقلة أو تحجيم.

والضرورة هي التي تحدّد استثمار التقية واستخدامها في كلّ اتجاه، حتّى لاتعرض حركة الجماعة الصالحة إلى الكشف فتكون عرضة للأعداء، والهدف من التقية هو حقن الدماء وعدم هدرها في مواقف ليست ضرورية.

قال الإمام الباقر عليه السلام: إنّما جعلت التقية ليحقن بها الدماء، فإذا بلغ الدم فلا تقية^١. والتقية هي الموقف المتوازن بين الانعزال عن المجتمع والابتعاد عن ميدان الإصلاح والتغيير، وبين المواجهة والصراع.

فالانعزال قد يؤدي إلى الوقوع في حبال الغلو، والتحوّل إلى الباطنية كما حدث للحركة الإسماعيلية.

والمواجهة قد تؤدّي إلى الضعف أمام أساليب الإرهاب والإغراء والخداع والتضليل إن كانت الجماعة الصالحة غير مهيأة لخوض غمار الصراع والمواجهة.

وقد استطاع الإمام عليه السلام أن يحافظ على أمن الجماعة الصالحة بتأكيده على التقية، حيث استطاع أن يوسّع قاعدته الشعبية، ويرفد الجماعة الصالحة بأفراد جدد، واستطاع أن ينشر علوم أهل البيت عليهم السلام، وأن يشيع الفضائل والمكارم في المجتمع، دون أن يمنح للحكّام فرصة لاغتياله أو اعتقاله أو منعه من نشاطاته العامة في التدريس، واللقاءات، والزيارات.

ب. كتمان الأسرار

إن الظروف المحيطة بالإمام عليه السلام وبالجماعة الصالحة جعلت الإمام عليه السلام يأمر بكتمان الأسرار، قال عليه السلام: «أَكْتُمُوا أَسْرَارَنَا وَلَا تَحْمِلُوا النَّاسَ عَلَى أَعْنَاقِنَا»^١. والجماعة الصالحة محاطة بجماعات وتيارات وأجهزة أمنية تتابع أقوالها وأفعالها وممارساتها العملية، وتنتهز الثغرات والفرص المتاحة لتشويه سمعتها في عقيدتها وفي أحكامها وفي سلوكها، وتحجيم دورها في الحياة؛ ولهذا فهي بحاجة إلى عناية إضافية بكتمان الأسرار.

ج. التوازن في العلاقة مع الحكام

إن مقاطعة الحاكم الجائر هي إحدى مميزات أئمة أهل البيت عليه السلام، وقد كانت إرشادات وأوامر الإمام عليه السلام إلى أفراد الجماعة الصالحة تؤكد على المقاطعة في جميع صورها، لأن العمل مع الجائر يؤدي إلى احتمالات واقعية:

الأول: تقويته وتشبيد أركان دولته المنحرفة.

الثاني: ممارسة الأعمال المنحرفة التي يتطلبها الواقع المنحرف.

الثالث: تأثر العامل معه - في بعض الأحيان - بالإغراء المتنوع، بالأموال والمناصب والجاه، وقد يؤدي هذا عن التخلي عن الانتماء إلى الجماعة الصالحة.

الرابع: تحول العامل إلى عدو في بعض الأحيان.

ولهذا أمر عليه السلام بمقاطعة الحاكم الجائر^٢.

إلا أنه راعى المصلحة الإسلامية العليا في عدة موارد عديدة، فجوز عليه السلام بيع السلاح أو حمله إلى أتباع السلطان^٣ للمساهمة في رد أعداء الكيان الإسلامي.

١. بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٢٢٥.

٢. كفاية الأثر، ص ٢٥١.

٣. الكافي، ج ٥، ص ١١٢.

٦. النشاط الاقتصادي للجماعة الصالحة

ولحماية الجماعة الصالحة من الأخطار الناشئة من الضغوط والآفات نجد أهل البيت بشكل عام والإمام الصادق عليه السلام بشكل خاص اتجهوا لتربية أتباعهم على الاجتهاد في طلب الرزق والعمل بدل الاتكال على الآخرين أو الارتباط بالدولة وأعطوا المنهج العام للنشاط الاقتصادي السليم والذي يتلخص في: التصدي لطلب الرزق والالتزام بأن يكون عن طريق الحلال والاهتمام بإصلاح الأموال وحفظ الموازنة بين الإنفاق والإسراف والتقيد والالتزام بسياسة الادخار بمقدار مؤونة السنة وترجيح التصدي المباشر والمستقل لتكون فوائد العمل له لا لغيره وتوزيع الأموال على عدة محاور اقتصادية لئلا يفاجأ الإنسان إذا أصابته آفة في محور واحد، ثم عدم ادخارها بشكل نقود بل الأفضل تداولها في السوق أو تحويلها إلى عقارات سكنية أو أراضي زراعية أو تجارية^٢.

على أن مدرسة أهل البيت عليهم السلام قد تميزت بتشريعات اقتصادية خاصة كالخمس في أرباح المكاسب سوى التشريعات العامة مثل الزكاة والخراج والأوقاف. ويمثل الخمس أهم مصدر مالي للجماعة الصالحة وهو يمثل نسبة مئوية عالية من مجمل الثروة العامة للمجتمع الإنساني وهو يجعل للإمام امكانية مالية كبيرة يستطيع توظيفها لخدمة الإسلام والمسلمين، وطريقة دفعه لا تلتفت نظر الأعداء ولا يعدّ تهديداً أمنياً للسلطة بخلاف دفع الأموال الظاهرة كالزكاة والخراج. وهو تعبير عن الولاء والحب والوفاء لأهل البيت عليهم السلام ونصرتهم بالمال والذي يعدّ إنفاقه في سبيل الله ذامدلول تربوي كبير للنفس الإنسانية^٣.

١. راجع دور أهل البيت في بناء الجماعة الصالحة. الجزء الأول: البحث على النشاط الاقتصادي.

ص ٤٣٢-٤٣٤.

٢. المصدر، ص ٤٣٢-٤٣٩.

٣. المصدر، ص ٤٠٢-٤٢٠.

٧. نظام العلاقات الاجتماعية والعبادات الإلهية

وتميّزت مدرسة أهل البيت عليه السلام بالأهتمام الخاصّ بحقلين مهمّين لتنظيم حياة الجماعة الصالحة وجعلها اسوة للمجتمع الإسلامي:

والحقل الأوّل هو حقل العلاقات الاجتماعية الذي يعطي لنا تصوراً متكاملأ عن النظام الاجتماعي الإسلامي العام.

والحقل الثاني هو حقل العبادات التي تعطي للإنسان المسلم ميزةً أساسيّة وتطبع حياته المادّيّة بطابع إلهي خاصّ.

وقد تميّزت مدرسة أهل البيت بالاهتمام بالعبادات تميّزأ ملحوظأ في سلوك أهل البيت عليه السلام وتراثهم. ونحيل الطالب الكريم إلى الدراسات الموسعة في ذلك^١.

الخاصة

□ الإسلام هو المحور الأساس للإنتماء في الجماعة الصالحة، وهو المنظم لسير العمل والحركة داخل هذه الجماعة، وتكون المصلحة الإسلامية العليا هي الحاكمة على جميع المصالح الأخرى: فالإسلام هو القاعدة للسلوك والفكر والتصرفات لأفراد تلك الجماعة الصالحة. إذ يعتبرها جزءاً من المجتمع الإسلامي الكبير وهي في نفس الوقت مسؤولة عن الحفاظ على كيان وحدة الأمة من التصدع والضياع.

□ و يعتبر الإسلام حبَّ أهل البيت عليهم السلام والإنتماء إلى مذهبهم المنطلق لكل المباديء والقيم السامية التي زخرت بها الشريعة الإسلامية المقدسة. ويعتبر الأخذ بمذهبهم مصداقاً لحبهم والإنتماء إليهم.

□ ويكون الفكر المشترك والعقيدة المشتركة بين الجماعة الصالحة وسائر الجماعات القائمة هي: الإيمان بالله تعالى ورسله وكتبه واليوم الآخر.

□ و الجماعة الصالحة لا تكون كذلك مالم تمرّ بفترة تمحيص واختبار فتتعرض حياتها لأنواع البلاء حتّى تصقل نفوس أفرادها وتربّي أرواحهم، فهم جند في ساحة الاختبار هدفهم رضی الله تعالى وغايتهم تحقيق مابه رضاه يعيشون من أجل الله ويتحركون في أفق دينه وشريعته التي يأخذونها من أهل البيت عليهم السلام.

□ و من هنا احتاجت هذه الجماعة إلى نظام أمني واقتصادي واجتماعي وعبادي وسياسي خاص بها.

الأسئلة

١. ما هي محاور الإنتماء في الجماعة الصالحة؟
٢. كيف تشخص هوية أتباع أهل البيت عليهم السلام؟
٣. ما معنى الرفض عند أهل البيت عليهم السلام؟
٤. ما هي صفات أفراد الجماعة الصالحة؟
٥. وضح العلاقة في نظام الجماعة الصالحة؟
٦. ما الفرق بين القيادة والطلبة، وما هو نوع الارتباط بينهما؟
٧. ما هي معالم وأسس العلاقة الداخلية للجماعة الصالحة؟
٨. ما هو الاتجاه السياسي للجماعة الصالحة؟ وما هي منطلقاته؟
٩. ما هي أهم محاور النظام الأمني للجماعة الصالحة؟
١٠. ما هي محاور النشاط الاقتصادي للجماعة الصالحة؟

المستجدات السياسية ونشأة الحكم العباسي

لقد استحكمت قناعة الأمة وآمنت بضرورة التخلص من الطغيان الأموي، ولم يبق بعد شيء بيد وعاظ السلاطين ليرتشوا به لتوجيه الاستبداد الأموي وليوظفوا القرآن والحديث لصالح هذا الحكم الجائر حيث تراكت في ذهن الأمة وضميرها تلك المظالم التي ارتكبت بحق ذرية رسول الله ﷺ وأهل بيته الطاهرين ولاسيما سبط الرسول وريحانته وأبنائه وأصحابه الميامين ومن حذا حذوهم طيلة العقود السبعة بعد مقتل الحسين بن علي عليه السلام.

ومن جانب آخر اتسع نفوذ أهل البيت وامتد خطهم وكثرت أنصاره واستلهمت الأمة ثقافته حيث إنه قد أثر في عقلها وقراراتها، حتى أصبح له وجود في مختلف البلاد الإسلامية وتآلق الإمام الصادق عليه السلام ودخل صيته في كل بيت وكان مرجعاً روحياً تهوى إليه القلوب من كل مكان وتلوذ به لحل مشكلاتها الفكرية والعقائدية والسياسية بكل سهولة وارتياح.

وممن كان يفتنم الفرص ليحضر عند الإمام ويستمتع منه، أبوحنيفة مؤسس المذهب الحنفي وكان يقول بحق الإمام عليه السلام: «مارأيت أفقه من جعفر بن محمد عليه السلام».

كان مالك بن أنس أيضاً ممن يحضر عند الإمام عليه السلام ليتأدب بأدابه ويهتدي بهديه فكان يقول: «مارأيت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن

محمد الصادق علماً وعبادة وورعاً».

وقال: اختلفت إلى جعفر بن محمد زماناً فما كنت أراه إلا على إحدى ثلاث خصال إما مصلياً وإما صائماً وإما يقرأ القرآن، وما رأيته قط يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة، ولا يتكلم بما لا يعبه، وكان من العلماء العبّاد والزهاد الذين يخشون الله^١. وقد شهد المنصور بحقه - وهو من الدّ أعدائه - فقال: إنّ جعفر بن محمد كان ممّن قال الله فيه: ثم أوزننا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا. وكان ممن اصطفى الله وكان من السابقين بالخيرات^٢.

ولم يكن الإمام مرجعاً للعلماء والفقهاء والمحدثين وقائداً للنهضة الفكرية والعلمية في زمانه فحسب؛ بل كان مرجعاً للساحة والثّوار أيضاً العلوي الثائر فريد بن علي الثائر الشهيد كان يرجع إليه في قراراته، وكان يقول بحق الإمام عليه السلام: (في كلّ زمان رجل ممّن أهل البيت يحتج الله به على خلقه، وحقّة زماننا ابن أخي جعفر لا يضلّ من تبعه ولا يهتدي من خالفه)^٣.

وكان الإمام عليه السلام يدعم الثورة بالمال والدعاء والتحريض والتوجيه كما مر في البحوث السابقة.

أمّا العلويون من آل الحسن - كعبدالله بن الحسن وعمر الأشرف بن الإمام زين العابدين - فهم كانوا يرجعون إليه ويستشيرونه في مسائل حياتهم، ولم يتجاوزوا أحد في الأعمال المسلحة والنشاطات الثورية.

من هنا كانت القناعة السائدة آنذاك في أوساط الأمة أنّ البديل للحكم الأموي هو الخط الذي كان يتزعمه الإمام عليه السلام، وهذه الحقيقة لم يمكن تغافلها بحال، فإن قادة

١. مالك بن أنس للخولي، ص ٩٤ وكتاب مالك لمحمد أبوزهره، ص ٢٨.

٢. تاريخ ابن واضح، ج ٣، ص ١٧.

٣. المناقب لأبن شهر آشوب، ج ٢، ص ١٤٧.

الحركة العباسية ورموزها المدبرين لها وقادتها العسكريين لم يتجاوزوا الإمام علياً عليه السلام حينما كانوا قد قرروا الثورة على الأمويين بالرغم من عدم إيمانهم بضرورة تسليم الحكم إلى شخص الإمام علياً عليه السلام كما سيتضح ذلك فيما بعد.

الحركة العباسية (النشأة والأساليب)

وكان هشام بن عبد الملك يحذر وجود أبي هاشم - وهو من رجال أهل البيت البارزين - لوجود لياقات علميه وسياسية عنده كانت تؤهله للقيادة، فحاول هشام اغتياله. ولما أحس أبو هاشم بالمكيدة ضده احتراز من ذلك فأوصى إلى محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بإدارة أتباعه في مقاومة الأمويين سنة ٩٩ هـ وكانت هذه الوصية.

هي بذرة الطمع التي حركت محمد بن علي بن عبدالله بن العباس مما جعلته يشعر بأنه القائد والخليفة مستقبلاً. وكانت الفرصة سانحة في ذلك الوقت بالتبليغ لشخصه، لذا شرع في بث الدعوة إلى خراسان سرّاً لهذا الغرض واستمر بدعوته إلى أن مات ستة ١٢٥ هـ وترك من بعده أولاده وهم: إبراهيم الإمام، والسفاح، والمنصور،^١ وإن إبراهيم الإمام هو الذي كان يخطط لقيام دولة عباسية لأنه الأكثر دهاءً وحنكة وتخطيطاً من أخويه.

فنشط إبراهيم بالدعوة وأخذ يتحدث بأهمية الثورة وإنقاذ المنكوبين، وشارك البساط من الناس آلامهم وأخذ يعطف على المظلومين ويلعن الظالمين. وانتشر دعاة إبراهيم في بلاد خراسان وكان لهم الأثر هناك وقد تعرض الدعاة العباسيون للقتل في سبيل دعوتهم ومثل ببعضهم وحبس البعض الآخر^٢ وكان في طليعة الدعاة الأكثر

١. الأدب السلطانية، ص ١٢٧.

٢. تاريخ ابن الساعي، ص ٣.

نشاطاً وقوة ودهاء أبو مسلم الخراساني...^١

وتضمن المنهج السياسي العباسي لكسب الأمة عدة أساليب كانت منسجمة مع الواقع ومقبولة عند عامة الناس، ولذا لقيت الدعوة استجابة سريعة وانضم المحرومون والمضطهدون إليها.

الأسلوب الأول: روج العباسيون أفكار الدعوة بقوة وحركوا العواطف تجاهها وحاولوا إقناع الناس بأن الهدف من دعوتهم هو الانتصار لأهل البيت عليهم السلام الذين تعرضوا للظلم والاضطهاد، وأريقتم دماؤهم في سبيل الحق.

وركز العباسيون: بين صفوف دعائهم بأن الهدف المركزي من دعوتهم هو رجوع الخلافة المفصوبة إلى أهلها، ولهذا تفاعل الناس مع شعار (الرضا لآل محمد) ووجدوا بهذا الشعار ضالتهم.

وكان يعتقد الدعاة أن هذه الدعوة تنبيء بظهور عهد جديد يضمن لهم حقوقهم كما عرفوه من عدالة علي.

وقد حقق هذا الشعار نجاحاً باهراً خصوصاً في البلاد التي كانت قد لاقت البؤس والحرمان وكانت تترقب ظهور الحق على أيدي أهل بيت النبوة عليهم السلام.

الأسلوب الثاني: ركز العباسيون على إخفاء اسم الخليفة الذي يدعون إليه وتكتموا على أمره وأوعدوا الناس بأن الخليفة لا يمكن إظهار اسمه إلا بعد زوال سلطان الأمويين وهناك يعلن اسمه الذي تعرفه القواد والنقباء.^٢

الأسلوب الثالث: كان العباسيون يلبسون السواد وكانوا يرمزون به إلى محاربة الظالمين وإظهار الحزن والتألم لأهل البيت عليهم السلام والشهداء الذين لحقوا بهم. وهكذا قامت الدعوة العباسية باسمهم للإنتقام من الأمويين.

١. الدينوري، ص ٣٦٠.

٢. راجع الإمام الصادق والمذاهب الأربعة.

وتركيزاً لهذا الشعار الذي كان له وقع بالغ في النفوس أرسل إبراهيم الإمام لواء يُدعى الظِّل أو السحاب على رمح طويل - وكان ثلاثة عشر ذراعاً، - وكتب إلى أبي مسلم: إني قد بعثت إليك براية النصر^١. وقد تأولوا الظل أو السحاب: بأنَّ السحاب يُطَبِّق الأرض، وكما أنَّ الأرض لا تخلو من الظل كذلك لا تخلو من خليفة عباسي^٢ وأنَّ ذلك يمثل لواء رسول الله ﷺ لأنهم ذكروا أنَّ لواءه في حروبه وغزواته كان أسود.

اجتماع الأبواء.

وكان الهدف من عقد هذا الاجتماع الصوري فهم خطط الإمام والعلويين من خلال اقتراح تعيين خليفة وتطلعات وهموم العلويين من جهة وتهيئة الأجواء الودّية وإشاعة روح المحبة والوئام بينهم وبين العلويين وتطميناً لخواطرمهم من جهة أخرى أو على أقل تقدير جعلهم محايدين في هذا الصراع ليتم لهم ما يهدفون إليه وبذلك يكونون قادرين على تحشيد ما استطاعوا من قوّة لصالحهم، فكان محل الاجتماع هو منطقة الأبواء (التي تقع بين مكّة والمدينة).

ودعوا إلى الاجتماع كبار العلويين والعباسيين فحضر كلُّ من إبراهيم الإمام والسفاح والمنصور وصالح بن علي وعبدالله بن الحسن وإبناه محمد ذوالنفس الزكيّة وإبراهيم وغيرهم.

وقام صالح بن علي خطيباً فقال: (قد علمتم أنّكم الذين تمّد الناس أعينهم إليهم، وقد جمعكم الله في هذا الموضع، فاعقدوا بيعةً لرجل منكم تعطونه إياها من أنفسكم، وتوافقوا على ذلك حتى يفتح الله وهو خير الفاتحين).

ثم حمد الله عبدالله بن الحسن، وأثنى عليه ثم قال: قد علمتم أنّ إبني هذا هو المهدي فهلّموا لنبايعه. وقال أبو جعفر المنصور: لأي شيء تخذعون أنفسكم، والله

١. الطبري، ج ٩، ص ٨٢.

٢. الكامل لابن الاثير، ج ٥، ص ١٧٠ والطبري، ج ٩، ص ٨٥.

لقد علمتم ما في الناس أحداً أطول أعناقاً، ولا أسرع إجابة منهم إلى هذا الفتى - يريد محمد بن عبد الله - قالوا قد - والله - صدقت إن هذا هو الذي نعلم فبايعوا جميعاً محمداً، ومسح على يده كل من إبراهيم الإمام والسفاح والمنصور وكل من حضر الاجتماع^١ وبعد أن أنهى مؤتمرهم أعماله بتعيين محمد بن عبد الله بن الحسن خليفة للمسلمين، أرسلوا على الإمام الصادق عليه السلام فجاء فقال: لماذا اجتمعتم؟ قالوا: نبايع محمد بن عبد الله فهو المهدي، فقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: لا تفعلوا فإن الأمر لم يأت بعد، وهو ليس بالمهدي، فقال عبد الله، رداً على الإمام عليه السلام: يحملك على هذا الحسد لابني! فأجابه الإمام عليه السلام بخلق الأنبياء: والله لا يحملني ذلك ولكن هذا وإخوته وأبنائهم دونكم وضرب بيده على ظهر أبي العباس، ثم قال لعبد الله: ماهي إليك ولا إلى إبنك، ولكنها لبني العباس، وأن إبنك لمقتولان، ثم نهض عليه السلام، وقال: إن صاحب الرداء الأصفر - يقصد بذلك أبا جعفر - يقتله. فقال عبد العزيز: والله ما خرجت من الدنيا حتى رأيته قتله وانفض القوم، فقال أبو جعفر المنصور للإمام جعفر عليه السلام: تتم الخلافة لي؟ فقال: نعم أقوله حقاً^٢.

تحرك العباسيين بعد اجتماع الأبناء: بعد أن حقق اجتماع الأبناء غرضه وأنس الحاضرون بقراره الكاذب نشط إبراهيم الإمام بالاتجاه الآخر ليواصل عمله بلا رجوع لأعضاء المؤتمر ولا للخليفة المرشح فأصدر عدة قرارات كعادته سراً.

منها: أنه كتب إلى شيعته في الكوفة وخراسان: إني قد أمرت أبا مسلم بأمرني فاسمعوا له وأطيعوا، قد أمرته على خراسان وما غلب عليه) وكان ذلك سنة (١٢٨) هـ وكان أبو مسلم لا يتجاوز عمره التسع عشرة سنة وكان يقظاً فاتكاً غادراً لا يعرف الرحمة ولا الرأفة وكان ماهراً في حيك الدسائس. ودهش الجميع لتعيين أبي مسلم في

١. مقاتل الطالبين، ص ٢٥٦.

٢. الخرائج والجرائع، ج ٢، ص ٧٦٥ وبحار الأنوار، ج ٤٧، ص ١٢٠ ومقاتل الطالبين، ص ٢٥٦.

هذا المنصب الخطير نظراً لحدائته سنّه وقلة تجاربه، وأبى جمع من الدعاة طاعته والانصياع لأوامره إلا أن إبراهيم الإمام ألزهم السمع والطاعة^١. وأبومسلم فيما بعد أقدم على إعدام جميع من عارض اختياره لقيادة هذه المنطقة.

أما ماهو الخط الذي سوف يتحرك بموجبه أبومسلم لإعلان ثورته هناك؟ فقد جاء هذا الخط في وصية إبراهيم الإمام له عندما قال: يا عبد الرحمن إنك متّأ أهل البيت فاحفظ وصيتي، انظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم، وحل بين ظهرانهم، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم، وانظر هذا الحي من ربيعة فأتهمهم في أمرهم، وانظر هذا الحي من مضر فأتهم العدو القريب الدار، فاقتل من شككت في أمره ومن وقع في نفسك منه شيء، وإن شئت أن لاتدع بخراسان من يتكلم العربية فافعل، فأيا غلام بلغ خمسة أشبار فاقتله^٢. وهذه الوصية تلخص السياسة العباسية مع المسلمين.

وقد أثر أبومسلم الخراساني في الناس لتعاطفه معهم إذ كان يتمتع بصفات تؤهله لهذا الموقع فهو خافض الصوت فصيح بالعربية والفارسية حلو المنطق راوية للشعر لم ير ضاحكاً ولا مازحاً إلا في وقته ولا يكاد يقطب في شيء من أحواله، تأتيه الفتوحات العظام فلا يظهر عليه أثر السرور وتنزل به الحوادث الفادحة، فلا يرى مكتئباً، وعندما سئل إبراهيم الإمام عن أهلية أبي مسلم قال: إنني قد جرّبت هذا الإصفهاني، وعرفت ظاهره وباطنه فوجدته حَجَر الارض^٣.

وفجّر الثورة هناك وكان يبذر الشقاق بين جنود الأمويين ليحصل الانقسام بينهم. وقد استفاد بذلك ونجح في مهمته، وقد انجفل الناس من هرات والطالقان، ومرو، وبلغ وتوافروا جميعاً مسوِّدين الثياب^٤.

١. تاريخ ابن الاثير، ج ٤، ص ١٩٥ وتاريخ ابن الساعي، ص ٣.

٢. تاريخ ابن الاثير، ج ٤، ص ٢٩٥.

٣. وفيات الأعيان لأبن خلكان، ج ٣، ص ١٤٥.

٤. الديثوري، ص ٣٦٠.

وباشر أبو مسلم إبادة الأبرياء فقتل - فيما ينقل المؤرخون - ستمائة ألف عربي بالسيف صبراً عدا من قتل في الحرب^١. وتقدمت جيوش أبي مسلم بعد أن هزمت ولاية الأمويين في خراسان نحو العراق - وهي كالموج - تخفق عليها الرايات السود فاحتلت العراق وبهذا أعلن الحكم العباسي على يد أبي مسلم الخراساني في الكوفة سنة ١٣٢ هـ.

الخاصة

□ في العقود الأخيرة من العهد الأموي أخذت الأمة تزداد قناعة بضرورة التخلص من الحكم الأموي الفاسد. وكان خط أهل البيت عليهم السلام قد أخذ بقلوب الناس وعقولهم. ومن هنا تحرك العباسيون مستغلين هذا التوجه لأهل البيت عليهم السلام رافعين شعار الدعوة إلى (الرضا من آل محمد عليهم السلام) واكتسحوا الساحة بهذا الشعار مستعملين عدة أساليب تبليغية كان يستتر خلفها مخططوا الثورة ضد الحكم الأموي كما استطاعوا أن يقوموا بتصفية العناصر التي تطلب الحكم من العلويين وأتباعهم من خلال ما عرفوه في اجتماع الأبواء.

□ وكان موقف الإمام الصادق عليه السلام سلبياً وصريحاً وكاشفاً عن عدم طمعه في الحكم وعدم توجهه إلى الخلافة ومخبراً بوصول الحكم إلى العباسيين أي أنه عليه السلام كان قد كشف للحاضرين نوايا العباسيين التي كانت قد استترت خلف قرارات هذا الاجتماع.

الأسئلة

- ١ . لماذا انهار الحكم الأموي في عقوده الأخيرة؟
- ٢ . لماذا انخرط الناس تحت لواء من كان يرفع شعار الرضا من آل محمد؟
- ٣ . ما هي أساليب العباسيين لاكتساح الساحة الإسلامية؟
- ٤ . ما هي الأهداف التي كانت تكمن وراء اجتماع الأئمة؟
- ٥ . ماذا كان موقف الإمام عليّ من قرارات اجتماع الأئمة؟
- ٦ . ما هي دلالات إخبار الإمام عليّ للسفاح وأخيه بوصولهم إلى الحكم؟
- ٧ . ما هي تحركات العباسيين بعد اجتماع الأئمة؟

الإمام الصادق عليه السلام والحكم العباسي

التزم الإمام الصادق عليه السلام إزاء المستجدات السياسية في هذه المرحلة موقف الحياد، لكنه من جانب آخر كان يواصل العمل على نهجه السابق، وأخذ يتحرك بقوة ويوسع من دائرة الأفراد الصالحين في المجتمع تحقيقاً لهدفه الذي كان قد خطط له قبل هذا الوقت.

ومن هذا المنطلق أصدر جملة من التوصيات لشيعة كان من شأنها أن تجنبهم الدخول في المعادلات السياسية المتغيرة التي تؤدي بنتيجتها إلى استنزاف الوجود الشيعي في نظر الإمام عليه السلام محذراً من أساليب العنف والمواجهة لهذه المرحلة. فعن أبي بصير قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: اتقوا الله وعليكم بالطاعة لأنتمكم، قولوا ما يقولون، واصمتوا عما صمتوا، فإنكم في سلطان من قال الله تعالى: (وإن كان مكرهم لتذول منه الجبال)^١ يعني بذلك ولد العباس، فأتقوا الله فإنكم في هدنة، صلّوا في عشائرهم واشهدوا جنازتهم وأدوا الأمانة اليهم^٢. ويمكن بلورة سيرة الإمام عليه السلام ومنهجه السياسي مع الأطراف الطامعة في الحكم،

١. إبراهيم / ٤٦.

٢. الكافي، ج ٨، ص ٢١٠.

أو العباسيين الذين كانوا يرون في الإمام الصادق عليه السلام وخطه خطراً حقيقياً على سلطانهم ولو على المدى البعيد من خلال المواقف التالية:

١. موقف الإمام عليه السلام من عرض أبي سلمة الخلال

كان أبو سلمة الخلال أحد الدعاة العباسيين النشطين في الكوفة، وقد لعب دوراً متميزاً في نجاح الدعوة العباسية وتكثير أنصارها في الكوفة، لما امتاز به من لباقة وعلم ودهاء وثراء حيث أنفق كثيراً من ماله الخاص على رجال الدعوة العباسية وكانت له علاقة خاصة واتصالات مستمرة بإبراهيم الإمام.

لقد أدرك هذا الرجل بعد موت إبراهيم الإمام بأن الأمور تسير على خلاف ما كان يطمح إليه أو أنه كان قد تغير هواه واستجد في نفسه شيء، فقد لاحظ مثلاً أن مستقبل الخلافة سيكون إلى أبي العباس أو المنصور وهما غير جديرين بالخلافة أو لطمعه في السلطة فكتب للعلويين وفي مقدمتهم الإمام الصادق عليه السلام بأنه يريد البيعة لهم.

لكننا لانفهم من رسالة - أبي سلمة - للإمام بأنها رسالة ندم أو اعتراض على النهج العباسي وخديعتهم للعلويين أو كشف أساليبهم في الاستيلاء على السلطة.

والذي ذكره مشهور المؤرخين^١، هو أن أبو سلمة الخلال أراد نقل الخلافة إلى العلويين ولم يوفق لذلك.

وقد احتمل البعض أن أبو سلمة فعلاً كان صادقاً في عرضه كما احتمل آخرون أن هناك عوامل أخرى كانت قد دفعته لذلك، منها: أنه أراد أن يتخلص من خصومه فاحتسب بالعلويين.

وهنا لابد أن نرجع إلى جواب الإمام عليه السلام على رسالة أبي سلمة حيث نجد فيه أن الإمام عليه السلام قد رفض العرض، لا بسبب كون الظروف قلقة وغير مؤاتية فحسب بل كان

١. الطبري، ج ٩، ص ١٢٤ وابن قتيبة، ص ١٢٨ والطفطقي، ص ١٢٧ والفرج بعد الشدة، ص ٣٤٧ وغيرهم.

الرفض يشمل أباسلمه نفسه، فقد قال عليه السلام: مالي ولأبي سلمة وهو شيعة لغيري؟!^١. وأكد الإمام عليه السلام رفضه القاطع عندما قام بحرق الرسالة جواباً لأبي سلمة. قال المسعودي: كاتَبَ أبوسلمة الخَلَّالَ ثلاثة من أعيان العلويين وهم جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وعمر الأشرف بن زين العابدين وعبدالله المحض وأرسل الكتب مع رجل من مواليهم كان يسمَّى محمد بن عبد الرحمن بن أسلم مولئى لرسول الله ﷺ. وقال أبوسلمة للرسول: العجل العجل فلا تكوننَّ كوافد عاد. وقال له: أقصد أولاً جعفر بن محمد الصادق فإنَّ أجاب فأبطل الكتابين الآخرين وإن لم يُجب فالتق عبدالله المحض فإنَّ أجاب فأبطل كتاب عمر وإن لم يجب فالتق عمر. فذهب الرسول إلى جعفر بن محمد أولاً، ودفع إليه كتاب أبي سلمة فقال الإمام عليه السلام مالي ولأبي سلمة وهو شيعة لغيري قال له الرجل: إقرأ الكتاب. فقال لخادمه إدن السراج مَنى فأدناه. فوضع الكتاب على النار حتَّى احترق، فقال الرسول ألا تجبه؟ قال عليه السلام: قد رأيت الجواب، عَرَفَ صاحبك بما رأيت^٢.

٢. موقف الإمام الصادق عليه السلام من العلويين

أما العلويون الذين خدعهم العباسيون في اجتماع الأبناء قبل انتصار العباسيين وبايعوا في حينه محمد بن عبدالله كخليفة للمسلمين، فقد استجاب عبدالله بن الحسن أيضاً للعرض الذي تقدَّم به أبوسلمة وجاء للإمام الصادق عليه السلام مسروراً يبشّره بهذا العرض. قال المسعودي: فخرج الرسول من عند الإمام الصادق وأتى عبدالله بن الحسن، ودفع إليه الكتاب وقرأه وابتهج، فلَمَّا كان غد ذلك اليوم الَّذي وصله فيه الكتاب ركب عبدالله حتَّى أتى منزل أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فلَمَّا رآه

١. مروج الذهب للمسعودي، ج ٣، ص ١٨٤ والآداب السلطانية، ص ١٣٧.

٢. مروج الذهب، ج ٣، ص ١٨٤ والآداب السلطانية، ص ١٣٧.

أبو عبد الله أكبر مجيئه، وقال يا أبا محمد (وهي كتبة عبد الله المحض) أمر مأتى بك؟ قال: نعم هو أجل من أن يوصف. فقال له: وما هو يا أبا محمد؟ قال: هذا كتاب أبي سلمة يدعوني للخلافة، وقد قدمت عليه فقال له أبو عبد الله: يا أبا محمد، ومتى كان أهل خراسان شيعة لك؟ أنت بعثت أبا مسلم إلى خراسان؟ وأنت أمرتهم يلبس السواد؟ هؤلاء الذين قدموا العراق أنت كنت سبب قدومهم أو وجهت فيهم؟ وهل تعرف منهم أحداً؟

فنازع عبد الله بن محمد لآته مهدي هذه الأمة، فقال أبو عبد الله جعفر الصادق عليه السلام: ما هو مهدي هذه الأمة ولئن شهر سيفه ليقتلن. فقال عبد الله: كان هذا الكلام منك لشيء: فقال الصادق عليه السلام: قد علم الله أنني أوجب النصيحة على نفسي لكل مسلم، فكيف أدخرها عنك فلا تمن نفسك الأباطيل، فإن هذه الدولة ستتم لهؤلاء وقد جاءني مثل الكتاب الذي جاءك^١.

٣. موقف الإمام عليه السلام من عرض أبي مسلم الخراساني

أما أبو مسلم الخراساني الذي قاد الانقلاب على الأمويين في خراسان وتم تأسيس الدولة العباسية على يديه نجده في الشهور الأولى من انتصار العباسيين وإعلان البيعة لأبي العباس السفاح بالكوفة يكتب إلى الإمام الصادق عليه السلام رسالة يريد بها البيعة للإمام عليه السلام حيث جاء فيها: (إني قد أظهرت الكلمة، ودعوت الناس عن موالاة بني أمية إلى موالاة أهل البيت فإن رغبت فلا مزيد عليك).^٢

ولاشك أن أبا مسلم الخراساني المعروف بولائه وإخلاصه للعباسيين - وهو صنيعتهم - يعتبر صدور رسالة من عنده بهذه اللمجة نوعاً من المفاجأة، ولا بد أنها

١. مروج الذهب، ج ٣، ص ١٨٤ والآداب السلطانية، ص ١٣٧.

٢. الملل والنحل للشهرستاني، ج ١، ص ٢٤١.

تكون متأثرة بعوامل طارئة كانت قد غيّرت من قناعاته سواء كانت تلك العوامل ذاتية أو موضوعية وإلا فما هي الجهة التي تربطه بالإمام عليه السلام.

لم يحدثنا التاريخ عن أية علاقة بينه وبين الإمام عليه السلام، لا عقائدية، ولا سياسية سوى لقاء واحد لم يتم فيه التعارف بينهما أو التفاهم.

نعم كان الإمام عليه السلام قد عرّفه وذكر اسمه ومستقبله السياسي قبل إعلان العباسيين ثورتهم^١.

أما موقف الإمام عليه السلام من عرض أبي مسلم الخراساني فيمكن معرفته من خلال جواب الإمام على الرسالة، فقد جاء في جوابه عليه السلام: ما أنت من رجالي ولا الزمان زمانني^٢.

إنّ أبامسلم قبل أيام قد سفك من الدماء البريئة مئات الآلاف، حتّى قيل لعبدالله بن المبارك: أبومسلم خير أو الحجاج؟ قال: لأقول إنّ أبامسلم كان خيراً من أحد ولكن الحجاج كان شراً منه^٣.

وكان لا يعرف أحداً من خطّ أهل البيت ومواليهم، وكانت علاقته محصورة بدائرة ضيقة كما حدّدها له مولاه إبراهيم الإمام عندما أمره أن لا يخالف سليمان بن كثير فكان أبومسلم يختلف ما بين إبراهيم وسليمان^٤.

كما نجده بعد مقتل إبراهيم الإمام الذي كان يدعو له يتحوّل بولائه لأبي العباس السفاح ومن بعده لأبي جعفر المنصور، علماً بأنّ العلاقة كانت بينه وبين المنصور سيئة جداً وكان أبومسلم يستصغر المنصور أيام حكومة السفاح^٥. إلا أنّ المنصور ثار لنفسه

١. أعلام الوري، ص ٢٧٩.

٢. الملل والنحل للشهرستاني، ج ١، ص ٢٤١.

٣. وفيات الأعيان، ج ٣، ص ١٤٥.

٤. تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٤٩.

٥. راجع تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٤٩.

منه أيام حكومته فقتله شر قتله.

الإمام الصادق و ضرورة الثورة

لقد ساهمت الظروف السياسيّة الساخنة في إيجاد بعض التصورات والإرهاصات عند أصحاب الإمام عليّ (عليه السلام) أسوة بباقي الناس، وقد لاحظ هؤلاء بأنّ الظرف مناسب لتفجير الوضع واستلام الحكم لضحامة ما يشاهدونه من شعبيّة الإمام وكثرة الناس الموالين له.

جاءت هذه التساؤلات عندما ورد إلى الإمام عليّ (عليه السلام) كتاب أبي مسلم الخراساني فعن الفضل الكاتب قال كنت عند أبي عبد الله (عليه السلام) فأتاه كتاب أبي مسلم فقال: ليس لكتابك جواب أخرج عنّا فجعلنا يُسارَ بعضنا بعضاً فقال: أي شيء تسارون يا فضل؟ إن الله عزّ ذكره لا يعجلّ لعجلة العباد، ولإزالة جبل عن موضعه أيسر من زوال ملك لم ينقض أجله. ثم قال: إنّ فلان بن فلان، حتّى بلغ السابع من ولد فلان. قلت: فما العلامة فيما بيننا وبينك جعلتُ فذاك؟ قال: لا تبرح الأرض يا فضل حتّى يخرج السفيناني، فإذا خرج السفيناني فأجيبوا إلينا - يقولها ثلاثاً - وهو من المحتوم^١.

وروى المعلّى بأنّه جاء إلى الإمام عليّ (عليه السلام) بكتب كثيرة من شيعته تطالبه بالنهوض^٢ وكان جواب الإمام عليّ (عليه السلام) أنّ الكثرة المزعومة وذلك العدد الذي لا يستهان به لهو أحوج ما يكون إلى الإخلاص ورسوخ العقيدة في النفوس فلا يمكن للإمام عليّ (عليه السلام) أن يخوض المعركة بالطريقة التي يفكر بها فضل الكاتب أو سهل الخراساني وغيرهم فإنّ المغامرة من هذا النوع والدخول في اللّعب السياسيّة استغلالاً للظرف ستؤول إلى نتائج لم يدركها هؤلاء حيث ستتكوّن تجربة عقيمة تعطلّ المخطّط الإلهي الذي تكلفه

١. الكافي، ج ٨، ص ٣٣١ وبحار الأنوار، ج ٤٨، ص ٢٩٧ ووسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٧.

٢. الكافي، ج ٨، ص ٢٧٤.

الإمام عليه السلام حتى في حالة نجاح الإمام العاجل وتسلمه لمقاليده الحكم لفترة وجيزة.

الإمام الصادق عليه السلام في الكوفة

وكان حضور الإمام الصادق في الحيرة المدينة القريبة من الكوفة قد لفت أنظار الأمة جميعاً واتجهت الناس حوله لتنهل من علومه وتستفيد من توصياته وتوجيهاته حتى قال محمد بن معروف الهلالي: مضيت إلى الحيرة إلى جعفر بن محمد فما كان لي من حيلة من كثرة الناس فلما كان اليوم الرابع رأيته، فأدنانني...^١

وهذا الحشد الجماهيري الكبير الذي يؤمن بأهلية الإمام عليه السلام وأعلميته والتفافه المستمر حول الإمام عليه السلام قد دفع الحكومة العباسية إلى أن تحدّ من هذه الظاهرة لكن الإمام عليه السلام انطلقاً من محافظته على مسيرة الأمة ودفاعاً عن الإسلام نجده قد مارس مع السفاح أسلوباً مرناً.

فعن حذيفة بن منصور، قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام بالحيرة، فأتاه رسول أبي العباس السفاح الخليفة، يدعوه فدعا بممطر أحد وجهيه أسود والآخر أبيض، فلبسه، ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: أما أني ألبسه، وأنا أعلم أنه لباس أهل النار.^٢

واستمرت إجراءات العباسيين للحدّ من ظاهرة الالتفاف حول الإمام والاستفادة من علومه. فقد روى هارون بن خارجه أنه كان رجل من أصحابنا طلق امرأته ثلاثاً فسأل أصحابنا، فقالوا: ليس بشيء. فقالت امرأته لأرضي حتى تسأل أبا عبد الله عليه السلام وكان في الحيرة إذ ذاك، أيام أبي العباس السفاح. فقال: فذهبت إلى الحيرة ولم أقدر على مكالمته، إذ منع الخليفة الناس من الدخول على أبي عبد الله وأنا أنظر كيف إلى لقائه؟ فإذا سوادى^٣ عليه جبّة صوف يبيع خياراً، فقلت له: بكم خيارك هذا كله؟ قال:

١. فرصة الغري، ص ٥٩.

٢. الكافي، ج ٦، ص ٤٤٩ وبحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٤٥ ووسائل الشيعة، ج ٣، ص ٢٧٩.

٣. سوادى: نسبة إلى العراق الذي سمي بأرض السواد أو إلى السوادية قرية بالكوفة.

بدرهم فأعطيته درهماً، وقلت له أعطيني جبتك هذه فأخذتها وليستها وناديت مَنْ يشتري خياراً؟ ودنوت منه! فإذا غلام من ناحية ينادي: يا صاحب الخيار! فقال لي - لئلا دنوت منه - : ما أجود ما احتلت إلى حاجتك؟

قلت: إنني ابتليت: فطلّقت أهلي ثلاثاً في دفعة، فسألت أصحابنا فقالوا: ليس بشيء، وإن المرأة قالت لأرضي حتى تسأل أبا عبد الله عليه السلام فقال: ارجع إلى أهلِكَ فليس عليك شيء^١.

وهكذا انطلق العباسيون من هذه النقطة باتجاه تصفية الإمام عليه السلام وتجميد نشاطه لأنهم كانوا يرون فيه البديل القوي لهم لاستلام الحكم على المدى البعيد بالرغم من عدم ممارسة أي نشاط سياسي ظاهر له وانشغاله بالفقه وعلوم الشريعة والتصدّي للتحديات الفكرية الحضارية آنذاك.

لكن هذا النشاط بدوره ينتهي إلى المرجعية الفكرية والعلمية وهي مصدر خطر للسياسة لأنها ترشّح الفرد المرجع إلى مركز الحكم فيكون قوياً بفكره وبأنصاره وهو تهديد حقيقي للحكم غير المشروع.

الفاصل

□ كان موقف الإمام الصادق عليه السلام من الحكم العباسي موقف المحايد ولم يتدخل في شؤونهم من قريب ولا من بعيد ولم يستجب لأي واحد من العروض التي عرضت عليه قبل الانتصار أو بعده.

□ وقد حاول الإمام أن يجيب على تساؤلات شيعته الذين كانوا يرون ظواهر الأمور وهي تسير باتجاه يستطيع الإمام وأصحابه من خلاله استلام زمام الحكم دون أضرار كبيرة. وكان جواب الإمام هو عدم الاغترار بظواهر الحوادث الجارية وضرورة التسليم للإمام المفترض الطاعة العالم بحقائق الأمور. وقد استمر الإمام في نشاط العلمي بالرغم من بدء العباسيين بسياسة التضييق على الإمام وهم في بدايات عهدهم الجديد.

الأسئلة

١. ما هو موقف الإمام عليه السلام من العروض التي وردته قبل انتصار العباسيين؟
٢. ما هو موقف الإمام عليه السلام من العروض التي وردته بعد انتصار العباسيين؟
٣. ما هي أسباب إغراض الإمام عن كل هذه العروض؟
٤. ما هي إجابة الإمام على تساؤلات أصحابه حول ضرورة الثورة؟
٥. لماذا بدأ العباسيون سياسة التضييق على الإمام عليه السلام؟

موقف المنصور من الإمام الصادق عليه السلام

استولى ابو جعفر المنصور على الحكم بعد وفاة أخيه السفاح سنة (١٣٦ هـ).
«وعُرف المنصور بأنه كان خذاعاً لا يتردد في سفك الدماء وكان سادراً في بطشه
مستهتراً في فتكه^١».

ووصفه ابن هبيرة - وهو أحد معاصريه - بقوله: (مارأيت رجلاً في حرب أو سلم
أمكر ولا أنكر ولا أشد تيقظاً من المنصور^٢) لذا نجده بمجرد أن استلم زمام الحكم
بادر إلى قتل أبي مسلم الخراساني الذي يبغضه. وأبومسلم هو القائد الأول للانقلاب
العباسي. وكان المنصور قد أعد له مكيدةً وأغراه بالمجيء إلى بغداد، بعد أن جرّده من
كل مناصبه العسكرية.

ولما دخل أبومسلم الخراساني على المنصور قابله بقساوة بالغة وأخذ يعدّد عليه
أعماله وأبومسلم يعتذر عن ذلك.

وهنا صفّق المنصور عالياً، فدخل الحراس وبأيديهم السيوف فقال: أبومسلم
للمنصور متوسلاً: استبقني لعدوك فصاح به «وأيّ عدوّ أعدى لي منك؟».

١. تاريخ ابن الأثير، ج ٤، ص ٣٥٥.

٢. تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٩٩.

ويمثل هذا الأسلوب أيضاً قد غدر بعمته عبدالله بن علي حيث ارسل عليه بعد أن كان قد اعطاه الأمان - وقتله بعد ذلك^١.

وبالرغم من كلّ تحفّظات الإمام الصادق عليه السلام تجاه العباسيين وعدم الدخول في أي شأن سياسي يختص بهم أو يمت إليهم بصلة، لم يتركه المنصور العباسي حرّاً في نشاطه بل بدأ يخطط للتآمر على الإمام عليه السلام ونشاطه ضمن عدّة مراحل وخطوات. إن مخطط المنصور ضد الإمام الصادق عليه السلام ونهضته العلميّة بشكل عام قد مرّ بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: المرونة والاستفادة من جهد الإمام عليه السلام لاحتوائه ضمن سياسة الخلافة العباسيّة فقد كتب إليه «لِمَ لا يغشانا كسائر الناس؟!

فأجابه الإمام عليه السلام: ليس لنا مانخافك ولا عندك من أمر الآخرة مانرجوك له، ولا أنت في نعمة فنهنتك بها ولا تراها نعمة فنعزيك بها».

فكتب إليه المنصور: تصحبنا لتنصحنّا.

فأجابه الإمام عليه السلام: من أراد الدنيا لا ينصحك، ومن أراد الآخرة لا يصحبك.

قال: المنصور: واللّه لقد ميّز عني منازل الناس، من يريد الدنيا ممن يُريد الآخرة، وإنه ممن يريد الآخرة لا الدنيا^٢.

ومن أساليب المنصور مع الإمام في هذا الاتجاه ما جاء عن عبد الوهاب عن أبيه قال: بعث أبو جعفر المنصور إلى أبي عبدالله جعفر عليه السلام بن محمد عليه السلام وأمر بفرش فطرح له إلى جانبه، فأجلسه عليها ثم قال: عليّ بمحمد عليّ بالمهدي وأقبل المنصور على جعفر عليه السلام فقال: يا أبا عبدالله حديث حدثتني في صلة الرحم اذكره يسمعه المهدي.

١. تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٢٦٦.

٢. كشف الغمّة، ج ٢، ص ٢٠٣ و ٢٠٨ وبحار الأنوار، ج ٤٧، ص ١٨٥.

قال: نعم، حدّثني أبي، عن أبيه، عن جدّه عن عليّ عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله:
 إنّ الرجل ليصل رحمه وقد بقي من عمره ثلاث سنين، فيصيرها الله عزّ وجلّ ثلاثين
 سنة ويقطعها وقد بقي من عمره ثلاثون سنة، فيصيرها الله ثلاث سنين ثم تلا عليه السلام:
 :«يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب»^١.

قال: هذا حسن يا أبا عبد الله، وليس إياه أردت قال أبو عبد الله عليه السلام: نعم، حدّثني
 أبي عن أبيه عن جدّه عن عليّ عليه السلام قال:
 قال رسول الله صلى الله عليه وآله: صلة الرحم تعمّر الديار وتزيد في الأعمار وإن كان أهلها غير
 أخيار.

قال: هذا حسن يا أبا عبد الله، وليس هذا أردت.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: نعم، حدّثني أبي عن أبيه عن جدّه عن عليّ عليه السلام قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: صلة الرحم تهون الحساب وتقي ميتة السوء.

قال المنصور: نعم إياه أردت^٢.

إنّ السلاطين يخافون الموت، فالإمام عليه السلام ركّز على هذه الناحية وربطها بصلة
 الرحم لتعالج الحقد والكيد الذي يشغل ذهن المنصور ضدّ الإمام عليه السلام والعلويين من
 أهل بيته، لذا أكّد عليه السلام عن طريق الأحاديث بأنّ طول العمر يرتبط بصلة الرحم.

المرحلة الثانية: مرحلة المراقبة لحركة الإمام الصادق عليه السلام ورصد نشاطاته
 للحصول على آخر المعلومات عنه ليستطيع أن يتخذ منها دليلاً ومستمسكاً للنيل من
 الإمام عليه السلام والتضييق على حركته التي كان يرى فيها المنصور خطراً حقيقياً على
 سلطانه.

وقد اتخذ لذلك عدة أساليب:

١. الرعد / ٢٩.

٢. أمالي ابن الشيخ، ج ٢، ص ٩٤ وبحار الأنوار، ج ٤٧، ص ١٦٣ والبرهان، ج ٢، ص ٢٩٩.

الأسلوب الأول: أسلوب الاندساس في صفوف العلويين وإغرائهم وجمع المعلومات عنهم.

قال مهاجر بن عمار الخزاعي: بعثني أبو الدوانيق إلى المدينة، وبعث معي بمال كثير، وأمرني أن أتصرّع لأهل هذا البيت، وأتحفّظ مقاليتهم، قال: فلزمت الزاوية التي ممّا يلي القبلة، فلم أكن أنتحى منها في وقت الصلاة، لافي ليل ولا في نهار.

قال: وأقبلت أطرح إلى السؤال - الذين حول القبر - الدراهم ومن هو فوقهم الشيء بعد الشيء حتى ناولت شباباً من بني الحسن ومشیخةً (منهم) حتى آلفوني وآلفتهم في السر.

قال: وكلّما دنوت من أبي عبد الله عليه السلام يلاطفني ويكرمني حتّى إذا كان يوماً من الأيام بعد مانلت حاجتي ممن كنت أريد من بني الحسن وغيرهم دنوت من أبي عبد الله عليه السلام وهو يصلي، فلما قضى صلاته، التفت إليّ وقال:

تعال يا مهاجر! - ولم أكن أستمى (باسمي) ولا أتكئ بكنتي - فقال: قل لصاحبك: يقول لك جعفر: كان أهل بيتك إلى غير هذا أحوج منهم إلى هذا، نجىء إلى قوم شباب محتاجين فتدش إليهم، فلعلّ أحدهم يتكلم بكلمة تستحل بها سفك دمه.

فلو بررتهم ووصلتهم (وأملتهم) وأغنيتهم، كانوا إلى هذا أحوج ممّا تريد منهم.

قال: فلما أتيت أبا الدوانيق، قلت له: جئتك من عند ساحر كان من أمره كذا وكذا فقال:

صدق والله لقد كانوا إلى غير هذا أحوج، وإياك أن يسمع هذا الكلام منك إنسان.^١

الأسلوب الثاني: أسلوب التضعيف والنيل غير المباشر من مكانة الإمام عليه السلام فقد حاول المنصور أن يسلط الضوء على بعض الشخصيات ليجعل منها بدائل علمية تغطّي

على الإمام عليه السلام، وتؤيد سياسته، وتساهم في تضعيف القدسيّة والانجذاب الجماهيري نحو الإمام عليه السلام وتؤدي آخر الأمر إلى شقّ وحدة التيار الإسلامي الذي يقرّ بزعامة الإمام عليه السلام وأعلميته.

وقد نجح المنصور في هذه الخطوة بعض النجاح فكسب بعض طلاب الإمام عليه السلام بعد أن أحاطهم بهالة من الاحترام والتقدير فخلق منهم وجوداً قبال وجود الإمام عليه السلام ونهجه الإسلامي المحمّدي.

قال الحسن بن زياد سمعت أبا حنيفة وقد سئل: مَنْ أفاقه من رأيته؟ قال: جعفر ابن محمد.

ثم قال: لما أقدمه المنصور بعث إليّ، فقال: يا أبا حنيفة! إنّ الناس قد فُتنوا. بجعفر بن محمد، فهَيء له من مسائلك الشداد.

فهَيأت له أربعين مسألة، ثم بعث إليّ أبو جعفر وهو بالحيرة فأتيته.

فدخلت عليه، وجعفر جالس عن يمينه، فلما بصرت به دخلني من الهيبة لجعفر ما لم يدخل لأبي جعفر، فسَلّمت عليه، فأوماً إليّ فجلست، ثم التفت إليه، فقال: يا أبا عبد الله: هذا أبو حنيفة، قال نعم أعرفه.

ثم التفت إليّ فقال: يا أبا حنيفة ألقى عليّ أبي عبد الله عليه السلام من مسائلك.

فجعلت ألقى عليه فيجيبني، فيقول: «أنتم تقولون كذا، وأهل المدينة يقولون كذا ونحن نقول كذا» فرّما تابعنا، وربما تابعهم، وربما خالفنا جميعاً.

حتى أتيت عليّ الأربعين مسألة، فما أضلّ منها شيء، ثم قال أبو حنيفة: أليس إنّ أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس؟!^١

الأسلوب الثالث: أسلوب التحذير المباشر للإمام عليه السلام حيث لم تكن سياسة الإمام عليه السلام إزاء حكومة المنصور ذات طابع ثوري، بل سار الإمام على نهجه السابق

في التغيير والإصلاح، وقد أوحى للمنصور في وقت سابق بأنه لم يكن بصدد الثورة ضده بل صرّح له في أكثر من مرّة، في ذلك إلا أن المنصور لم يطمئن من جانب الإمام وكان يخشى من تحركه ومباغتته له كما باغت العباسيون بني الحسن.

ولعل السبب هو ما كان يشاهده المنصور من ازدياد عدده مؤيديه.

فعن حمران قال: قال أبو عبد الله عليه السلام وذكر هؤلاء عنده وسوء حال الشيعة عندهم فقال: إني سرت مع أبي جعفر المنصور وهو في موكبه، وهو على فرس وبين يديه خيل ومن خلفه خيل، وأنا على حمار إلى جانبه، فقال لي:

يا أبا عبد الله! قد كان ينبغي لك أن تفرح بما أعطانا الله من القوة وفتح لنا من العز، ولا تخبر الناس أنك أحقّ بهذا الأمر منا وأهل بيتك، فتغرينا بك وبهم.

قال: فقلت: ومن رفع هذا إليك عني فقد كذب فقال: أتحلف على ما تقول؟

قال: فقلت: إن الناس سحرة - يعني - يحبون أن يفسدوا قلبك عليّ، فلا تمكنهم من سمعك، فإنّا إليك أحوج منك إلينا.

فقال لي: تذكر يوم سألتك هل لنا ملك، فقلت: نعم طويل عريض شديد، فلا تزالون في مهلة من أمركم وفسحة في دنياكم حتى تصيبوا منّا دماً حراماً في شهر حرام في بلد حرام؟

فعرفت أنه قد حفظ الحديث: فقلت لعل الله (عز وجل) أن يكفيك، فإني لم أخصك بهذا، وإنما هو حديث رويته، ثم لعل غيرك من أهل بيتك يتولى ذلك، فسكت عني^١.

ثورة محمد بن عبد الله ذي النفس الزكية

وبعد اختلاس العباسيين للحكم تألم محمّد فأخذ يدعو الناس إلى نفسه فاستجاب له الناس وبايعوه وبعد ذلك أعلن ثورته في المدينة وانضمت إليه أهالي اليمن ومكة

وقام بهم خطيباً ووضَّح مظالم العباسيين.
ولمّا علم المنصور بالثورة وجه جيشاً بأربعة آلاف فارس بقيادة عيسى بن موسى
وبعد أن اندلعت الحرب وتفرَّق جند محمد بن عبدالله أُصيب بجراح أدّى إلى
استشهاده.

موقف الإمام عليّ من الثورة

لقد حذّر الإمام الصادق عليّ عبدالله بن الحسن من الترويج لابنه محمّد عليّ
أساس أنّه المهديّ لهذه الأمة، وأخبره بمستقبل الأحداث ونبّه بأنّها ستنتهي إلى
استشهاد محمد وأخيه إبراهيم وأنّ الخلافة بعد أبي العباس السفاح ستكون للمنصور.
وحينما سئل عن محمّد بن عبدالله ودعوته - قبل أن يعلن محمد ثورته -
أجاب عليّ: إنّ عندي كتابين فيها اسم كلّ نبي وكلّ ملك يملك لا والله ما محمد بن
عبدالله في أحدهما^١.

ولمّا ثار محمّد بن عبدالله (ذو النفس الزكية) ترك الإمام الصادق عليّ المدينة
وذهب إلى أرض له بالفرع فلم يزل هناك مقيماً حتى قُلت محمّد فلما قُتل واطمأنّ
الناس وأمنوا رجع إلى المدينة^٢.

المرحلة الثالثة: مرحلة الفتك بالإمام واغتياله. كما سنلاحظ في الدرس اللاحق.

١. بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ١١٥؛ بصائر الدرجات، ص ١٦٩.

٢. كشف الغمّة، ج ٢، ص ١٦٢ و بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٥.

الخاص

□ عرف المنصور بالخداع وسفك الدماء واستولى على الحكم سنة ١٣٦ هـ وبالفدر تخلّص من أبي مسلم الخراساني وعنه عبد الله بن علي.

□ و أمّا موقفه من الإمام الصادق عليه السلام بالرغم من عدم ممارسة الإمام عليه السلام لأي نشاط مثير ضد العباسيين، بل كانت مواقفه تجاه الخروج عليهم مصحوبة بالتحذير، ولكن المنصور قد عبّر عن مكنون حقه على الإمام ضمن ثلاث مراحل (وثلاثة اتجاهات): مرحلة المرونة، مرحلة المراقبة ومرحلة الفتك بالإمام عليه السلام. واتخذ في المرحلة الثانية عدة أساليب للوصول إلى هدفه هي: أسلوب الاندساس في صفوف العلويين وإغرائهم لجمع المعلومات عنهم، واسلوب التضعيف غير المباشر للإمام عليه السلام وإيجاد الفرق بين تلامذته وأصحابه، واسلوب التحذير والتهديد المباشر للإمام عليه السلام.

الأسئلة

- ١ . ما هي معالم شخصية المنصور؟
- ٢ . كيف ولماذا غدر المنصور بأبي مسلم الخراساني؟
- ٣ . لماذا وكيف غدر المنصور بعمه؟
- ٤ . ماذا خطط المنصور ضد الإمام الصادق عليه السلام ولماذا؟
- ٥ . ما هي مراحل المواجهة من قبل المنصور ضد الإمام عليه السلام؟
- ٦ . ما هي الأساليب التي اتخذها المنصور في مرحلة المراقبة للإمام عليه السلام؟
- ٧ . لماذا خطط المنصور ضد الإمام الصادق عليه السلام؟

العقد الأخير من حياة الإمام الصادق عليه السلام

لقد كان العقد الأخير من حياة الإمام الصادق عليه السلام في حكومة المنصور يمثل مرحلة تكثيف التشدد والمراقبة لحركة الإمام بحيث تخللتها عدة محاولات لإغتيال الإمام عليه السلام.

وحيثما علم الإمام عليه السلام أن المنصور قد صمم على قتله، أخذ يمارس مجموعة من الأنشطة التي يهيئ فيها الخط الشيوعي لمواصلة الطريق من بعده وهذه الأنشطة يمكن إيجاز الكلام عنها فيما يلي:

النشاط الأول: حاول الإمام الصادق عليه السلام أن يجعل الصفّ الشيعي صفّاً متماسكاً في عمله ونشاطه، وركّز على الإمام الكاظم لقيادة الجماعة الصالحة من بعده فيما لو تعرض لعملية القتل من قبل المنصور، وقد قطع الطريق أمام المنتفعين والأدعياء الذين كانوا يتربصون الفرص في تلك الظروف، لأنّ إسماعيل ابن الإمام المتوفى في هذه الفترة كان يصلح كعنصر لتفتيت الصفّ الشيعي باعتباره الابن التقي للإمام عليه السلام.

وقد التفت الإمام إلى هذه العقبة وحاول أن يرفعها بأساليب شتى.

ومن النشاطات التي بذلها الإمام معالجة هذه المشكلة: التأكيد لصحابته على تحقق موت ابنه إسماعيل ورفع الشكوك المحتملة حول موته في كلّ فرصة كانت تسنح لذلك.

١ . فقد جاء عن زرارة بن أعين أَنَّ الصادق عليه السلام دعا داود بن كثير الرقي وحرمان بن أعين، وأبابصير، ودخل عليه المفضل بن عمر وأتى بجماعة حتى صاروا ثلاثين رجلاً فقال يادادود إكشف عن وجه إسماعيل، فكشف عن وجهه، فقال: تأمله يادادود، فأنظره أحيي هو أم ميت؟ فقال بل هو ميت. فجعل يعرضه على رجل رجل حتى أتى على آخرهم فقال: اللهم اشهد. ثم أمر بفسله وتجهيزه.

ثم قال: يا مفضل أحسر عن وجهه فحسر عن وجهه، فقال: أحيي هو أم ميت؟ إنظروه أجمعكم فقال: بل هو ياسيدنا ميت فقال: شهدتم بذلك وتحققتموه؟ قالوا: نعم وقد تعجبوا من فعله.

فقال: اللهم أشهد عليهم. ثم حمل إلى قبره، فلما وضع في لحدّه، قال: يا مفضل، اكشف عن وجهه، فكشف، فقال للجماعة انظروا أحيي هو أم ميت؟ فقالوا: بل ميت يا ولي الله.

فقال: اللهم اشهد فإنّه سيرتاب المبطلون يريدون أن يطفنوا نور الله - ثم أوماً إلى موسى عليه السلام وقال - والله متّم نوره ولو كره الكافرون.

ثم حثوا عليه التراب، ثم أعاد علينا القول فقال: الميت المكفّن المدفون في هذا اللحد من هو؟ قلنا: إسماعيل ولدك.

فقال اللهم اشهد ثم أخذ بيد موسى فقال: هو حق، والحق معه ومنه، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها^١.

٢ . جاء عن العابد أنّه قال:

لَمَّا مات إسماعيل بن جعفر بن محمد عليه السلام وفرغنا من جنازته، جلس الصادق عليه السلام وجلسنا حوله وهو مطرق، ثم رفع رأسه فقال:

أيها الناس: إنّ هذه الدنيا دار فراق، ودار التواء لادار استواء، على أنّ فراق المألوف

حرقه لاتدفع، ولوعة لاترد، وإنما يتفاضل الناس بحسن العزاء وصحة الفكر، فمن لم يشكل أخاه، ثكله أخوه، ومن لم يقدم ولداً هو المقدم دون الولد.

ثم تمثل بقول أبي خراش الهذلي يرثي أخاه.

ولاتحسبن أنني تناسيت عهده ولكن صبري يأُميم جميل^١.

٣. جاء عن إسحاق بن عمار أنه قال: وصف إسماعيل أخى لأبي عبد الله عليه السلام دينه واعتقاده فقال: إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ ثم وصف الأئمة، واحداً واحداً حتى انتهى إلى أبي عبد الله ثم قال: وإسماعيل من بعدك! فقال الإمام الصادق عليه السلام: أما إسماعيل فلا^٢.

النشاط الثاني: رغم الحرب الباردة بين المنصور والإمام الصادق عليه السلام إلا أن الإمام عليه السلام قد مارس بعض الأدوار مع السلطة لغرض الحفاظ على الأمة وسلامة مسيرتها وإبقاء روح الرفض قائمة في نفوسها، مخافة أن تسبب ممارسات المنصور حالة من الانكسار للشيعية بسبب الاستجابة لمخططاته الخبيثة. وإليك بعض هذه الممارسات:

١. لقد ورد أن أبا جعفر المنصور قال للإمام الصادق عليه السلام: إني قد عزمت على أن أخرب المدينة ولا أدع فيها نافخ ضربة.

فقال: يا أمير المؤمنين لا أجد بُدّاً من النصيحة لك فاقبلها إن شئت أولاً.

ثم قال عليه السلام: إنه قد مضى لك ثلاثة أسلاف: أيوب عليه السلام أبتلي فصر، وسليمان عليه السلام أعطي فشكر ويوسف عليه السلام قَدَّرَ فغفر، فاقتد بأئمتهم شئت. قال: قد عفوت..^٣

٢. قال عبد الله بن سليمان التميمي: لما قتل محمد وإبراهيم ابنا عبد الله بن الحسن

١. أمالي الشيخ الصدوق وإكمال الدين، ج ٧٣، ص ١٩٧ و بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٢٤٥.

٢. غيبة النعماني، ص ٣٢٤ و بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٢٦١.

٣. سير أعلام النبلاء، ج ٦، ص ٢٦٦.

صار إلى المدينة عبد الله بن الربيع الحارثي بعد قتل محمد سنة (١٤٥) هـ فرقى المنبر يوم الجمعة فقال: أما بعد فإن علي بن أبي طالب شقّ عصا المسلمين، وحارب المؤمنين، وأراد الأمر لنفسه، ومنعه أهله فحرمه الله عليه وأماته بقصته. وهؤلاء ولده يتبعون أثره في الفساد وطلب الأمر بغير استحقاق له.

فهم في نواحي الأرض مقتولون، وبالدماء مخرجون قال فعظم هذا الكلام منه على الناس، ولم يجسر أحد منهم أن ينطق بحرف.

فقام إليه رجل عليه إزار قرمسي فقال: ونحن نحمد الله ونصلي على محمد خاتم النبيين وسيّد المرسلين وعلى رسل الله وأنبيائه أجمعين، أما ماقلت من خير فنحن أهله، وما قلت من سوء فأنت وصاحبك به أولى وأحرى يامن ركب غير راحلته وأكل غير زاده، ارجع مأزوراً.

ثم أقبل على الناس، فقال: ألا أنبتكم بأخفّ الناس ميزاناً يوم القيامة، وأبينهم خسراناً؟! من باع آخرته بدنياه غيره، وهو هذا الفاسق.

فأسكت الناس، وخرج الوالي من المسجد ولم ينطق بحرف، فسألت عن الرجل فقيل لي: هذا جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام ^١.

النشاط الثالث: لقد ركّز الإمام عليه السلام : على مبادئ إسلامية وممارسات إصلاحية في نفوس شيعته مثل مبدأ التقية، وكتمان السر، والعلاقة الفكرية والعاطفية بالثورة الحسينية لتقي هذه المبادئ والممارسات الوجود الشيعة من الضربات والمخططات الخارجية.

ومما رواه الوليد بن صبيح أنه قال:

كنا عند أبي عبد الله عليه السلام في ليلة إذ طرق الباب طارق، فقال للجارية: أنظري من

هذا؟

فخرجت ثم دخلت فقالت: هذا عمك عبد الله بن علي عليه السلام فقال: أدخله.
وقال لنا: ادخلوا البيت فدخلنا بيتاً، فسمعنا منه حساً، ظننا أن الداخل بعض نسائه،
فلصق بعضنا ببعض، فلما دخل أقبل على أبي عبد الله عليه السلام فلم يدع شيئاً من القبيح إلا
قاله في أبي عبد الله عليه السلام ثم خرج وخرجنا، فأقبل يحدثنا من الموضوع الذي قطع
كلامه.

فقال بعضنا: لقد استقبلك هذا بشيء ما ظننا أن أحداً يستقبل به أحداً حتى لقد هم
بعضنا أن يخرج إليه فيوقع به.

فقال: مه، لا تدخلوا فيما بيننا. فلما مضى من الليل ماضى، طرق الباب طارق فقال
للجارية. انظري من هذا؟ فخرجت، ثم عادت، فقالت: هذا عمك عبد الله بن علي عليه السلام
فقال لنا: عودوا إلى مواضعكم. ثم أذن له، فدخل بشهيق ونحيب وبكاء وهو يقول:
يا بن أخي، اغفر لي غفر الله لك، إصفع عني صفح الله عنك.

فقال: غفر الله لك يا عم، ما الذي أحوجك إلى هذا؟ قال: إني لما آويت إلى فراشي
أتاني رجلان أسودان فشدّا وثاقي، ثم قال أحدهما للآخر: انطلق به إلى النار: فانطلق
بي، فمررت برسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، لا أعود. فأمره فخلّني عني، وأنسي
لأجد ألم الوثاق.

فقال أبو عبد الله عليه السلام أوص.

قال: به أوصي؟ مالي مال، وإن لي عيالاً كثيرة وعلي دين.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: دينك علي، وعيالك عيالي. فأوصي، فما خرجنا من المدينة
حتى مات، وضمّ أبو عبد الله عليه السلام عياله إليه، وقضى دينه، وزوّج ابنه ابنته...^١
وأغلب الظن أن نشاط الإمام الصادق عليه السلام من هذا النوع كان قد كثر في أيام
المنصور لكثرة الجواسيس والعيون الذين كانوا يرصدون حركة الإمام عليه السلام مما دفع

بالإمام عليه السلام إلى أن يلجأ إلى عقد جلسات سرّية في بيته لغرض مواصلة دوره الإلهي مع الأمة عن طريق حفظ النخبة الصالحة وتوجيهها وضمان تكامل مسيرتها.

محاصرة الإمام عليه السلام الشاملة

ثم إن المنصور قد صدّد من تضيقه على الإمام الصادق ومهد لقتله فقد جاء عن الفضل بن الربيع عن أبيه أنّه، قال: دعاني المنصور، قال: إن جعفر بن محمد يلحد في سلطاني، قتلني الله إن لم أقتله.

فأتيته، فقلت: أجب أمير المؤمنين. فتطهر ولبس ثياباً - أحسبه قال: جدد. فأقبلت به، فاستأذنت له فقال: أدخله، قتلني الله إن لم أقتله. فلما نظر إليه مقبلاً، قام من مجلسه فتلّاه وقال: مرحباً بالتقي الساحة! البريء من الدغل والخيانة، أخي وابن عمي.

فأقمعه على سرير، وأقبل عليه بوجهه، وسأله عن حاله، ثم قال: سلني حاجتك، فقال: أهل مكة والمدينة قد تأخّر عطاؤهم فتأمر لهم به. قال: أفعل، ثم قال: يا جارية! اتّني بالتحفة فأنته بمدّهن زجاج فيه غالية، فغلّفه بيده وانصرف فأتبعته، فقلت يا بن رسول الله! أتيت بك ولا أشك إنه قاتلك، فكان منه مارأيت وقد رأيتك تحرّك شفّتيك بشيء عند الدخول، فما هو؟

قال: قلت: «اللهم احرسني بعينك التي لاتنام، واكنفني بركنك الذي لا يرام، واحفظني بقدرتك عليّ، ولا تهلكني وأنت رجائي...»^١

ولم تكن هذا الاستدعاء للإمام عليه السلام من قبل المنصور هو الأوّل من نوعه بل كان قد أرسل عليه عدّة مرات وفي كلها كان يريد بها قتله^٢.

١. سير أعلام النبلاء، ج ٦، ج ٢٦٦؛ ملحقات إحقاق الحق، ج ١٩، ص ٥١٣ والفرج بعد الشدة، ص ٧٠ عن

التذكرة لأبن الجوزي، ص ٣٥٣.

٢. مهج الدعوات، ص ١٧٥ و ١٨٤ والخرائج والحرائج، ج ٢، ص ١٩٥ والكافي، ج ٢، ص ٥٥٩ وتاريخ مدينة

ويصوّر لنا الإمام الصادق عليه السلام عمق المأساة التي كان يعانيها في هذا الطرف بالذات والأذى الذي كان يصيبه عليه المنصور في كلامه الذي نقله لنا عنبيه حيث، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: أشكو إلى الله وحدتي وتقلقلي من أهل المدينة حتى تقدموا^١ وأراكم وأسريكم فليت هذا الطاغية أذن لي فاتخذت قصراً في الطائف فسكنته، وأسكنتكم معي، وأضمن له أن لا يجيء من ناحيتنا مكروه أبداً^٢.

استشهاد الإمام الصادق عليه السلام

وأخيراً أقدم المنصور على الفتك بالإمام جعفر بن محمد الصادق واغتياله سنة (١٤٨ هـ) فدرّس إليه السم على يد عامله في يثرب^٣ فسقاه به ولما تناوله الإمام عليه السلام تقطعت أمعاؤه وأخذ يعاني الآلام القاسية.

ولما علم الإمام أن أجله قد حان أوصى بجميع وصاياه إلى ولده الإمام الكاظم عليه السلام وكاف منها تجهيزه وتكفينه والصلاة عليه، كما أنه كان قد نصبه إماماً من بعده لكنه عهد بأمره أمام الناس إلى خمسة أشخاص حفاظاً على حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام. وكان المنصور يراقب الحدث يقول أبو أيوب الخوزي: بعث إليّ أبو جعفر المنصور في جوف الليل، ولما دخلت عليه قال لي: اكتب إلى والي المدينة: فكتبْتُ صدر الكتاب ثم قال اكتب: إن كان قد أوصى إلى رجل بعينه، فقدّمه واضرب عنقه. قال فرجع الجواب إليه: أنه قد أوصى إلى خمسة أحدهم أبو جعفر المنصور

→

دمشق، ج ١٩، ص ٥١٦ والكافي، ج ٦، ص ٤٤٥.

١. الموالون لأهل البيت عليه السلام أو خاصة الإمام عليه السلام.

٢. رجال الكشي، ص ٣٦٥ والكافي، ج ٨، ص ٢١٥ وبحار الأنوار، ج ٤٧، ص ١٨٥.

٣. نور الأبصار، ص ١٣٣، الفصول المهمة لأبن الصباغ، الإتحاف بحبب... الأشراف، ص ٥٤ و سبائك الذهب.

والباقون هم محمد بن سليمان وعبدالله وموسى وحميدة فقال المنصور: ليس إلى قتل هؤلاء سبيل^١.

وجاء عن داود بن كثير الرقي قال: وَقَدَّ من خراسان وإفدُ يَكْنَى (أباجعفر) واجتمع إليه جماعة من أهل خراسان، فسألوه أن يحمل لهم أموالاً ومتاعاً ومسائلهم في الفتاوى والمشاورة، فورد الكوفة، فنزل، وزار أمير المؤمنين ورأى في ناحيته رجلاً حوله جماعة، فلما فرغ من زيارته قصدهم فوجدهم شيعة فقهاء، ويسمعون من الشيخ فسألهم عنه فقالوا: هو أبو حمزة الثمالي.

قال فبينما نحن جلوس إذ أقبل أعرابي فقال: جئت من المدينة، وقد مات جعفر ابن محمد فشقق أبو حمزة وضرب بيده الأرض، ثم سأل الأعرابي: هل سمعت له بوصية؟

قال: أوصى إلى ابنه عبدالله وإلى ابنه موسى، وإلى المنصور فقال أبو حمزة الحمد لله الذي لم يضلنا، دل على الصغير وبين على الكبير وشهر الأمر العظيم، ووثب إلى قبر أمير المؤمنين فصلّى وصلّى.

ثم أقبلت عليه وقلت له فسر لي ما قلته.

فقال: بين أن الكبير ذو عاهة^٢ ودل على الصغير بأن أدخل يده مع الكبير.

وسر الأمر العظيم بالمنصور حتى إذا سئل المنصور من وصيته؟ قيل أنت.

وهكذا انتهت حياة هذا الإمام العظيم الذي عُرف به المذهب الجعفري وإليه يُنسب، ويدل على ذلك عظمة التراث الذي خلفه لنا جعفر بن محمد الصادق حيث يشكّل أغنى تراث يتضمن تفاصيل مذهب أهل البيت (عليهم السلام)، وبجهوده أخذ الكيان الشيعي

١. بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٣ عن الغيبة للشيخ الطوسي والكافي، ج ١، ص ٣١٠.

٢. وضع الإمام الصادق بأن عبدالله ولده الأنطح ذو عاهة فلا يكون إماماً أي لو لم يكن عبدالله ذا عاهة لجعل له وصية مفردة، ولما كان قد أشرك معه الإمام موسى الأصغر منه فهذا إخبار على أنه غير صالح للإمامة.

بتكامل ويتلأأ في الأفق يوماً بعد يوم وقرناً بعد قرن حتّى يتوّج الله ذلك بقيام المهدي من آل محمد ﷺ ويكلّل جهود آبائه الكرام بالنصر المبين. وصدق الله العظيم حيث يقول: أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ^١.

الخاص

□ في العقد الأخير من حياة الإمام الصادق عليه السلام بعد تشديد المراقبة ومحاولات الاغتيال حاول الإمام عليه السلام أن يزيد من تماسك الصف الشيعي من جهة وأخذ يتحدّى الحاكمين من جهة أخرى لئلا يستغلّ سكوته ويجعل وسيلة لضرب من يصرخ بوجه الظلم والظالمين، كما كشف الإمام من نشاطاته السريّة ليقى الوجود الشيعي من الضربات المحتملة.. واشتدت محاصرة الإمام واستمرت حتّى أقدم المنصور على اغتيال الإمام عن طريق دس السم إليه، ولكنه جعل وصيّته بنحو يضمن فيها حفظ ابنه الكاظم عليه السلام من مشرّ المنصور بعد أن كان المنصور قد اهتم بمعرفة وارث الإمام صاحب منصب الإمامة الشرعيّة من بعده.

الأسئلة

١. ما هي ملامح العقد الأخير من حياة الإمام الصادق عليه السلام؟
٢. لماذا أخذ المنصور يشدّد في مراقبة الإمام عليه السلام والحدّ من نشاطه؟
٣. ما هي الإجراءات التي اتخذها الإمام عليه السلام حينما شعر بقرب أجله ومحاولة المنصور لاغتياله؟
٤. كيف تجمع بين ترك الإمام عليه السلام للعمل السياسي المباشر في فترة ضعف الحكم العبّاسي وتصدّيه للردّ على تحدّيات السلطة في العقد الأخير من حياته؟
٥. كيف حفظ الإمام الصادق عليه السلام بوصيّته ابنه الإمام الكاظم من كيد المنصور العبّاسي؟